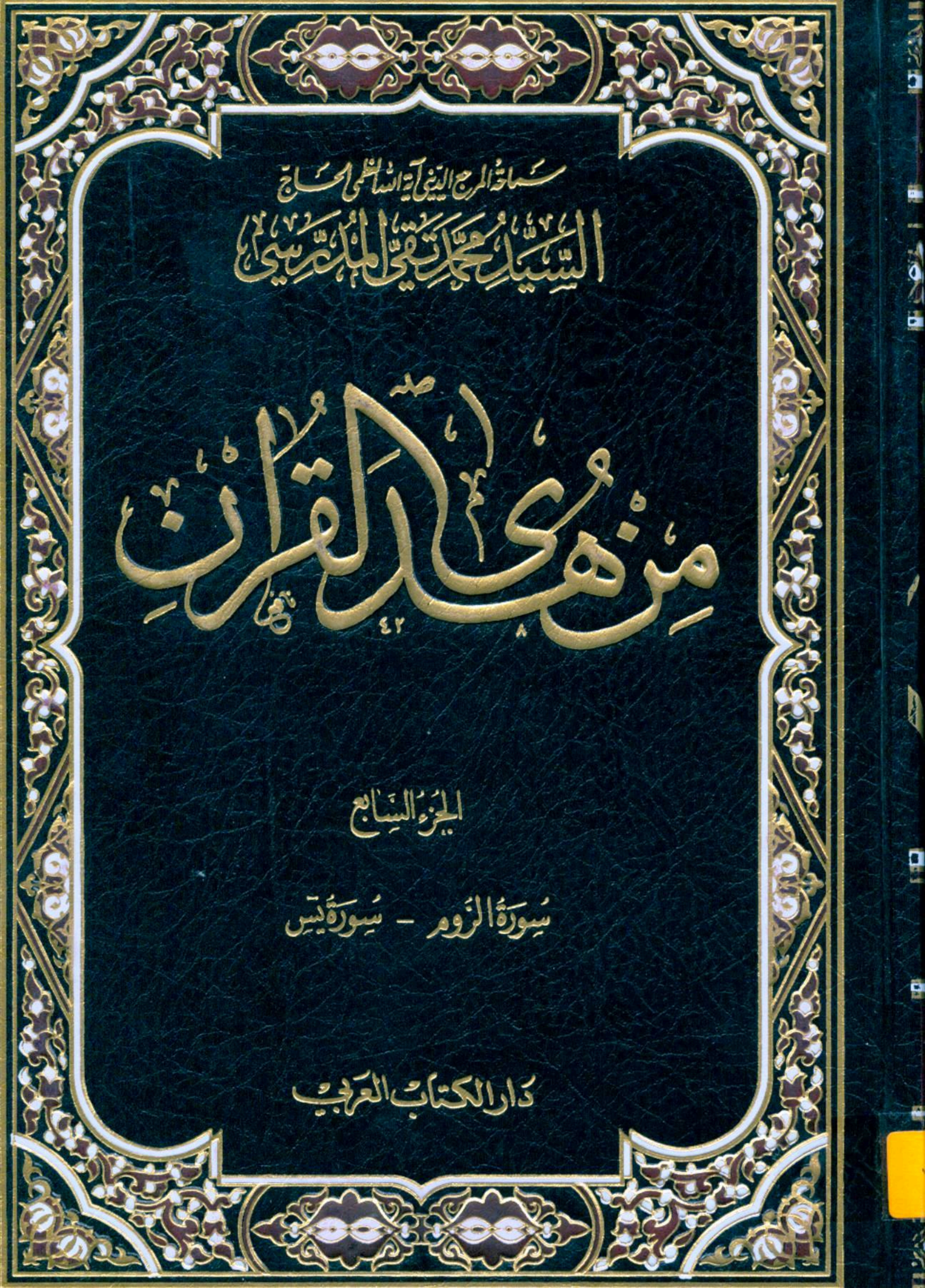
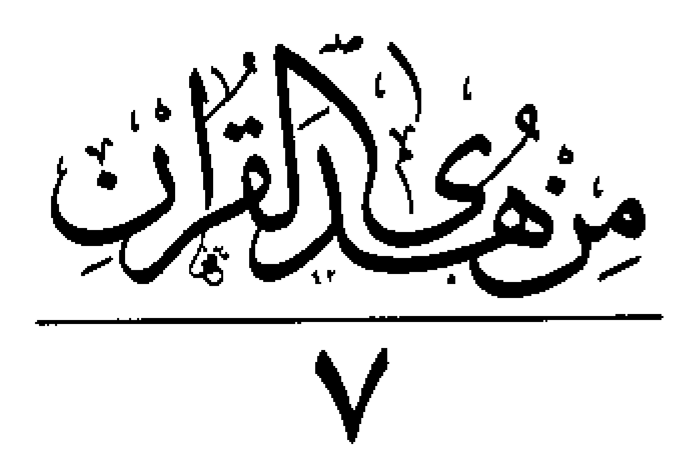

سماحة المرجع الديني آية الله العظمى الحاج
السيد محمد تقي المدرسي
من هدى القرآن
الجزء السابع
سورة الروم - سورة يس
دار الكتاب العربي




من هدى القرآن
٧

سماحة المرجع الديني آية الله العظمى الحاج

السيد محمد تقي المدرسي

من هدى القرآن

الجزء السابع

سورة الروم - سورة يس

دار القارئ

الطبعة الثانية

١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م

■ الكتاب: من هدى القرآن ١/ ١٢.

■ المؤلف: سماحة المرجع الديني آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي.

■ الطبعة: الثانية، تاريخ النشر: ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م، (طبعة محققة ومنقحة ومزيدة).

■ إخراج وتنسيق: زكي حسن أحمد

■ zakiht@gmail.com

■ الناشر: دار القارئ للطباعة والنشر والتوزيع

تلفون: ٠٣/٤١٣٢٥٦ - ٠٣/ ٩٠٢٩٤٤

Email:dar_alkari@hotmail.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ وَ صَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَ آلِهِ الطَّاهِرِين

سُورَةُ الرُّومِ

* مكية.

* عدد آياتها: ٦٠.

* ترتيبها النزولي: ٨٤.

* ترتيبها في المصحف: ٣٠.

* نزلت بعد سورة الانشقاق.

فضل السُّورة

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «مَنْ قَرَأَ سُورَتَي العَنْكَبُوتِ والرُّوم فِي شَهْرِ رَمَضَانَ فِي لَيْلَةِ ثَلاثٍ وعِشْرِينَ فَهُوَ والله يَا أَبا مُحَمَّدٍ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ لا أَسْتَثْنِي فِيهِ أَبَداً وَلَا أَخَافُ أَنْ يَكْتُبَ اللهُ عَلَيَّ فِي يَمِينِي إِثْماً وإِنَّ لِهَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ مِنَ اللهِ مَكَاناً».

(تهذيب الأحكام: ج٣، ص١٠٠)

الاسم

استوحي اسم السورة من واقعة تاريخية هامة جرت بين الروم الذين كانوا على هدى المسيح بن مريم عليه السلام ظاهراً،وبين الفرس، في عصر الرسول صلى الله عليه وآله.

الإطار العام

قدرة الله، ومسؤولية الإنسان، والإيمان بالآخرة

تدور آيات هذه السورة حول عدة محاور، أبرزها:

ألف: تبصير الإنسان بهيمنة الر ب على السماوات والأرض، وأن هناك تقديراً ظاهراً، وقضاءً خفياً، ويضرب القرآن مثلاً من هذه الحقيقة بغلبة الفرس على الروم في أدنى الأرض، كيف أنها جرت ضمن تقديرات الخليقة، إلآ أنه ينبئنا بقضاء الله الذي لا يرد، وبنصر الله، وهذا وعد إلهي لا يخلف، بيد أن أكثر الناس لا يعلمون سوى الظاهر من الحياة الدنيا (الآيات: ١-٧).

وأعظم ما يجهله أغلب الناس من الحياة، أن الله خلقها بالحق وأجل مسمى، ولذلك ترى الظالمين قد دُمِّروا حين خالفواالحق،لكن عندما حان أجلهم، بالرغم من شدة قوتهم وعظيم عمرانهم (الآيات : ٨-١١).

بـاء: ويتصل هذا المحور بالمحور الثاني، ألا وهو مسؤولية الإنسان عن أفعاله دون أن يقدر الشركاء المزعومون على نجاته من جزاء السيئات.

ويطول الحديث حول هذا المحور (الآيات: ١٢-١٦) و(الآيات: ٢٨-٤٥)، حيث يبين القرآن أن المجرمين يبلسون عند قيام الساعة، وأن الناس يومئذ يتفرقون بين صالحين يجزون وكافرين يحضرون في العذاب.

ويحتج الذكر وجدانياً لوحدانية الرب وضرورة إخلاص الدين له وتطهيره من دنس الشرك، ويحذر من الشرك في السياسة باتباع القادة الذين لم يأمر الله باتباعهم، ومن الشرك في الاجتماع بالتحزب، والتوسل بغير الله، ومن الشرك في الاقتصاد بالاستئثار بالثروة وعدم إنفاقها في سبيل الله، وكذلك بالربا الذي لا يربو عندالله (الآيات: ٢٩-٣٩).

ويبين القرآن أن ما يظهر من الفساد في البر والبحر إنما هو بما كسبت أيدي الناس، وأن الحكمة منه تحسيس الناس بنتائج بعض أعمالهم السيئة، لعلهم يرجعون عن غيهم (الآيات: ٤٠-٤١).

وهذا دليل واضح على المسؤولية، وهناك دليل آخر يتمثل في عاقبة المشركين من قبل الذين يأمر الله بالسير في الأرض للنظر في نهايتهم (الآية: ٤٢).

جيم: ولكي يعي البشر مسؤوليته أكثر فأكثر، لابد أن يؤمن بالساعة حين يبعث للجزاء. وهذا هو المحور الثالث والأهم في السورة. ولكن كيف يؤمن البشر بالبعث، وهوى نفسه، وشيطان قلبه يزينان له سوء عمله، ويطولان أمله،ويلقيان في روعه الشبهات؟.

والجواب: بمعرفة الله. أليس الله بقادر على أن يعيد الإنسان بعد هلاكه؟ بلى؛ أوليس حكيماً، ومن حكمته أن يجزي الصالحين بالحسنى والكفار بالنار؟ بلى؛ إذن فالساعة آتية لا ريب فيها.

وليزداد المؤمن معرفة بخالقه، فيزداد إيماناً وتصديقاً بالنشور، ووعياً للساعة، يذكرنا الرب بآياته المبثوثة في الآفاق والمحسوسة في النفس مساءً وصبحاً وعشياً وعند الظهيرة، التي يتجلى بها أن حق التسبيح والحمد لله وحده.

ويهدينا إلى روعة الحياة، وكيف يخرج الحي من الميت والميت من الحي، ويأمر بالتفكر في أنفسنا وكيف خلقنا من التراب، ثم جعل لنا أزواجاً نسكن إليها. ويأمرنا بتعلم آياته في السماء والأرض، وفي اختلاف ألسنة الناس، وكيف ننام ليلاً ثم يبعثنا نهاراً لاكتساب المعائش. ويذكرنا بنعمة الغيث الذي يحيي به الأرض بعد موتها، ويلفت نظرنا إلى عظمةالسماوات والأرض.. ويستدل بذلك كله على أنه عزيز حكيم (الآيات: ١٧-٢٧).

ومرة أخرى وفي موقع آخر من السورة (الآيات: ٤٨-٥٠) يبين لنا نعمة الرياح التي تبشر ببركات الغيث، كما تحمل الفلك، وتوجب الشكر، ويصف لنا سبحانه نزول الغيث بأروع وصف، ويأمرنا بأن ننظر إلى آثاررحمته، وكيف يحيي الأرض بعد موتها.. ثم يذكرنا بأنه سبحانه على كل شيء قدير.

ويبين لنا آياته في أنفسنا؛ كيف نتقلب بين ضعف وقوة، ثم ضعف وشيبة، ويذكرنا -مرة أخرى- بأنه العليم القدير (الآيات: ٥١-٥٤).

وفي الآيات الأخيرة من السورة (الآيات: ٥٥-٦٠) يصور لنا بعض مشاهد القيامة

حيث يعالج طول الأمل عند الإنسان، وأنه لا ينفعه يومئذ عذر ولا هو يستتاب.

وبالإضافة إلى هذه المحاور نجد في السورة حديثاً مبثوثاً بين أرجائه عن شروط المعرفة، وعن أهميتها، وأن في القرآن من كل مثل.

كما أن السورة تذكرنا بالزمن، وموقف المؤمنين منه، وضرورة الصبر حتى يأتي وعد الله.

للّه الأمر من قبل ومن بعد

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ[1] سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ۝٧ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ۝٨ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ[2] ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ۝٩ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ[3] أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝١٠﴾.

هدى من الآيات:

تبين آيات هذا الدرس الأول من سورة الروم، العوامل الخفية التي تغرب عن بال كثير

(١) بضع: البضع القطعة من العدد ما بين الثلاثة إلى العشرة، وهو من بضعته أي قطعته.

(٢) واثاروا: من الآثار بمعنى التقليب، لأجل الزرع والانبات.

(٣) السوآى: العقوبة المتناهية في السوء.

من الناس، ويضرب الله سبحانه مثلين على ذلك:

الأول: الهزيمة التي لم تلبث أن تحولت إلى انتصار للروم، الذين كانوا يعتبرون أصحاب رسالة مقارنة مع الفرس الذين كانوا مجوسا.

وقد كان الكفار - الذين يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا - قد تفاءلوا بانكسار الروم، بيد أن الله سبحانه أكد نصر عباده، وهكذا كان حيث فرح المؤمنون بنصر الله.

الثاني: يضرب الله مثلا لأولئك الذين امتلكوا حضارة كانوا أشد قوة، وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها، وكذبوا برسالة الله لما جاءتهم.

إن الناظر البسيط الساذج سيظن أن تلك الحضارة لن تبيد أبدا، ولكن من ينظر إلى عواقب الأمور، ويستدل بالظواهر عما وراءها من السنن الخفية، فيرى في الحضارة جراثيم التخلف؛ الظلم، والبغي، وسحق الكرامات، يعرف أنها حضارة هالكة في سنوات تطول أو تقصر حسب حجم الانحراف فيها، إلا أن يغيروا ما بأنفسهم.

بينات من الآيات:

[١] ﴿الٓمٓ﴾ -كما سبق القول- ربما تكون هذه الحروف المقطعة إشارة إلى القرآن الحكيم، وتهدينا هنا إلى عظمة كشف القرآن لأسرار الخليقة، وربما تكون رموزا لا يهتدي إليها سوى أولياء الله.

[٢] ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ انتصرت الفرس على الروم، وكان المسلمون يأملون انتصار الروم، لأنهم مثلهم أصحاب رسالة، بخلاف الفرس.

[٣] ﴿ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم﴾ في الشرق الأدنى. وقد روى التاريخ: «أن حربا طويلة حدثت في عهد (خسرو پرويز) ملك الفرس مع الروم استمرت زهاء أربع وعشرين سنة، حيث دامت من سنة (٦٠٤ ميلادية إلى سنة ٦٢٨). وفي حدود سنة ٦١٦ ميلادية هجم قائدان عسكريان في الجيش الفارسي هما: (شهربراز) و(شاهين) على الحدود الشرقية للروم، فهزما الروم هزيمة نكراء، وسيطرا على منطقة الشامات ومصر وآسيا الصغرى، فواجهت الروم الشرقية بسبب هذه الهزيمة حالة الانقراض تقريباً، واستولى الفرس على جميع ما كان تحت يد الروم من آسيا ومصر. وكان ذلك في حدود السنة السابعة للبعثة!»[1].

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ج١٢، ص٤٧٥.

ولقد سجل القرآن أعظم الحوادث التاريخية، وبين عبرها والبصائر التي نستوحيها منها، وهكذا اختصر هنا الإشارة إلى تلك الحادثة، ثم أشار إلى نهاية الحرب فقال: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾ إنهم سوف ينتصرون بعد أن غلبوا وانهزموا. وهذه نبوءة قرآنية بدأ الله بها سورة الروم، لكي لا ننخدع بظاهر الأمور، بل نرى القوى الخفية التي تكمن وراءها.

فبالرغم مما حقق الفرس من انتصار، إلا إن هذا الانتصار كان مقدمة لانتكاستهم، لأن هذا الانتصار كان سببا لترهلهم، واسترخائهم، وكان من أسباب انتكاستهم انتشار الطبقية المقيتة.

«غير أن ملك الروم (هرقل) بدأ هجومه على بلاد فارس سنة ٦٢٢ ميلادية، وألحق هزائم متتابعة بالجيش الفارسي، واستمرت هذه المعارك حتى سنة ٦٢٨ لصالح الروم، وغلب (خسرو پرويز)، وانكسر انكسارا مريرا، فخلعه الفرس عن السلطنة وأجلسوا مكانه ابنه (شيرويه). وبملاحظة أن مولد النبي ﷺ كان سنة ٥٧١ ميلادية وكانت بعثته سنة ٦١٠ ميلادية، فإن هزيمة الروم وقعت في السنة السابعة للبعثة، وكان انتصارهم بين سنتي خمس وست للهجرة النبوية، ومن المعلوم أن السنة الخامسة حدثت فيها معركة الخندق، وتم في السنة السادسة صلح الحديبية»[1].

[٤] وبعد بضع سنين إذا بالروم ينتصرون على الفرس، وتتحقق نبوءة القرآن فيهم.

﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ وهذا التعبير يدل على تأثير عامل الزمن على جريان سنن الله، فبعض الناس يريدون أن تجري سنن الله بلا أجل، وهذا لا يكون، لأنه يتنافى وحكمة الابتلاء. ثم يؤكد القرآن أن هذه السنة إنما هي سنة ظاهرة، وأن السنة الخفية، والاسم الأعظم بيد الله، الذي يشاء أن ينتصر الفرس أو ينهزموا، أو ينهزم الروم أو ينتصروا، إذا ما غير أي طرف ما بأنفسهم -سلبا أو إيجابا-.

﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ﴾ و هذه الآية تعبير عن كلمة «إن شاء الله» فإذا شاء الله سينتصر الروم على الفرس، وإن لم يشأ لا ينتصرون، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الكهف: ٢٣-٢٤].

كما إن هذه الآية تهدينا إلى سنة الحرية التي ضمنها الله للإنسان ليبتليه في الدنيا، إذ جعل ربنا لنفسه البداء في كل شيء ولا يكون لأي شيء فرض حتم عليه، إلا ما حتم على نفسه ووعد به فلا يخلف وعده سبحانه ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ بماذا يفرح المؤمنون؟.

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ج١٢، ص٤٧٥-٤٧٦.

[٥] ﴿بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فبعزته يأخذ الكافرين، وبرحمته يفتح للمؤمنين.

[٦] لا شيء يحدد أو يعجز إرادة الرب العزيز المقتدر، وكل شيء مستجيب طوعا أو كرها لمشيئته التي لا ترد، ولكن ذلك لا يعني أنه سبحانه يريد شيئا بلا حكمة أو يخلف وعدا أو ينقض عهدا، كلا.. لقد وعد عباده الصالحين النصر، وهو لا يخلف وعده أبدا ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ وإنما يخلف العاجز أو الجاهل، وربنا عزيز عليم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فتراهم يركنون إلى الظالمين خشية بطشهم، ولا يأوون إلى ركن الحق الذي وعد الله بنصره.

[٧] أكثر الناس لا يعلمون حقيقة الدنيا، لأنهم: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ فهم غافلون عن عواقب الأمور، وإنما يرون ظاهر الأمور، ومن العواقب التي يغفلون عنها النشور.

إن الآخرة هي غيب الدنيا، والدنيا منطوية عليها، و لكن أكثر الناس ينظرون إلى هذا الظاهر المشهود دون ذلك الغيب. إنهم ينظرون إلى سلطة الجبابرة ولا يعلمون أن سنة الله (التي يسمونها بلغتهم المادية قانون الطبيعة) تقتضي زوال الظلم، لأنه باطل، ولأن المظلوم ينتفض ضده. ولأن صراع الظالمين كفيل بالقضاء عليهم.

وإن سنن الله تجري ولكن عبر مسيرة الزمن، فكما أن من يزرع القمح سوف يحصده بعد مدة، كذلك من يزرع الظلم سوف يحصد الانقلاب، ولكن بعد مدة أيضا.

وهذه هي حقيقة الجزاء التي تتجلى جزئيا في عواقب الأمور في الدنيا، بينما تتجلى في الآخرة بصورة تامة، حيث يجزى المرء على أعماله هنالك الجزاء الأوفى.

ولعل كلمة الآخرة هنا تدل على عاقبة الأمر سواء قبل الموت أو بعده، حيث فسرها البعض بالعاقبة في الدنيا، بينما الكلمة تطلق عادة على ما بعد الموت، وإنما نستوحي من الكلمة هذا المعنى الشامل لأن الدنيا والآخرة في منطق القرآن -حسب ما يبدو لي- لا تنفصلان، إنما هما حقيقة واحدة تنكشف لذوي الأبصار في الدنيا، ولا تنكشف لغيرهم إلا بعد الموت.

[٨] أو لا ينظرون إلى أن بناء وتنظيم الحياة قائم على أساس الحق، والأجل؟.

فالزمن جزء من الكون، لأن الكون متغير، والتغير جزء من الكون، والزمن جزء من التغير ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ

مُّسَمًّىۚ ﴾. والأجل المسمى يدل على:

أولاً: أن الله إنما خلق الكون بحكمة ولهدف محدد سلفا، وكذلك الإنسان فما هو الهدف من خلقة الإنسان؟ الهدف يتجلى في البعث بعد الموت، فالغاية الزمنية تشير لغاية في الخلق. كما يدل عليه النظام والتقدير في الحياة.

ثانياً: هذه الآية تدل على أن الكون ينتهي لأنه لأجل مسمى.

وجاء في الحديث المأثور للإمام الحسين عليه السلام قوله: «**يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّمَا أَنْتَ أَيَّامٌ مَجْمُوعَةٌ فَإِذَا مَضَى يَوْمٌ مَضَى بَعْضُكَ**»[1].

إن النظرة الجامدة إلى الخليقة مسؤولة عن أخطاء منهجية عديدة، ومن لم يحسب للزمن حسابه فإنه ليس فقط لا ينجح في حياته، ويأوي إلى ظل الكسل والترهل، بل وأيضا لا يعي حقيقة الدنيا التي جعل الأجل جزء هاما فيها.

من جهة ثانية: إن الحق الذي يعني جملة السنن الإلهية أساس الخليقة، فما من شيء إلا وتحيط به أنظمة إلهية تحدد مسيرته.

وإذا تعمق الإنسان في هاتين الحقيقتين الحق والأجل اهتدى إلى الإيمان بالبعث والنشور، لأنه يعرف أن الأساس الذي خلق عليه الخلق هو ذاته الأساس الذي خلق به الإنسان ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴾.

[٩] ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ ﴾ لينظروا بأعينهم تجسيد تلك الحقائق التي سبقت ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ﴾ فلا ينخدع البشر بما صنعه وما امتلكه من قوة، ومن إثارته للأرض واستخراج خيراتها، واستنبات وتحسين نوعية المزروعات، ولا ينخدع بما أشاده من عمران شاهق وفاره، أو بما تطاول به في الفضاء.

يجب أن نفكر حقا في العاقبة، بالرغم من أننا نراهم أشد قوة، وإثارة للأرض، وعمارة لها.

﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِۖ ﴾ لقد أكمل الله لهم الحجة، فأرسل الرسل ينذرونهم من الله ومن عذابه، فلما كذبوا برسله: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ حين أرسل عليهم عذابه الوبيل ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾.

---

(١) إرشاد القلوب: ج١، ص٤٠.

[١٠] بعد ذلك يذكرنا الرب بأحد سننه وتقديره في الحياة والتي قد لا يراها البعض، وهي: أن عاقبة الذين أساؤوا ستكون السوأى، بأن كذبوا بآيات الله، ومن ثم الاستهزاء بها. وهذه الآية تهز الإنسان من الأعماق، ذلك أن الشيطان حين يخدع البشر يهون عليه السيئات إلى أن يستدرجه من الذنب الصغير إلى أكبر منه، حتى تغطي الذنوب كل أعماله، ومن ثم يأتي إلى عقيدته ويسلبها منه، ويتركه في جهنم، وإن السيئات تشبه منحدرا، كلما هوى أكثر كلما ازدادت جاذبية الأرض وضعفت مقاومته.

ولكن **السؤال**: كيف يصل البشر إلى هذه المرحلة من الضلال، فيكذب بآيات الله ويستهزأ بها؟

والجواب: إن للإنسان في داخله قوة تبريرية، تبرر لضميره فعل السيئات، فقد يرى -مثلا- يتيما يمسك قطعة خبز يأكلها، فيسلبها منه، ويأخذها عنوة، ثم يشعر بوخز الضمير، وعتاب الوجدان، فيعمل على تبرير عمله، بمجموعة من الأعذار المعلبة، فيقول مثلا:

أولاً: أنا جائع واليتيم ليس بجائع.

ثانياً: الناس يعطون اليتيم ولا يعطونني.

ثالثا: من الذي يقول بأن اليتيم ليس بسارق للخبز، وإلا لما أكلها بعيدا عن الأنظار؟!.

رابعاً: من الذي يدعي بوجود العطف على اليتيم؟!.. وشيئا فشيئا تتبدل قيم هذا الإنسان حتى يصدق قناعاته الجديدة، فهذا الذي عمل الذنب بدافع الغريزة الجنس، الجوع، الخوف، الحرص.. يفعل الذنب بعدئذ بدافع التعود على الذنب نفسه، فيصبح مجرما محترفا.

وهكذا كان نمرود وفرعون وسائر المستكبرين، فهم لم يدعوا الألوهية من أول يوم، بل استدرجهم الشيطان حتى أنساهم ذكر الله، وأصبحوا كذلك يكذبون بآياته، ويستهزئون بها.. من هنا يجب على الإنسان أن يحسب حساب الخطوة الأخيرة حينما يقرر اتباع الشيطان في الخطوة الأولى، يقول الله تعالى: ﴿ ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ السوأى: مؤنث الأسوأ، أي كانت عاقبتهم أسوء عاقبة.

ونعوذ بالله فهذا البشر الضعيف الحقير المستكين المحتاج ليس فقط يكذب بآيات الله، بل ويستهزئ بها.

فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون

﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ[1] ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾.

هدى من الآيات:

المجرمون لا يعرفون الحقيقة إذ تحتجب عنهم فلا يرونها، أو لا يرونها بوضوح كاف، لأن قدرة الإنسان التسويلية - حسب تعبير القرآن - تظل تزين له أفعاله السيئة حتى تسلب عقله ولا يكتشف الحقيقة إلا بعد فوات الأوان، وعندما يموتون أو ينزل بهم عذاب حينها يستيقظون من غفلتهم، ويعرفون أنه كان بإمكانهم أن يصبحوا من أهل الجنة فصاروا من أهل النار.

وفي ذلك اليوم يتفرقون، ويتميز المؤمنون عن المجرمين، أما المؤمنون فهم في روضات يحبرون، بينما يلقى المجرمون في النار.

ونتساءل: كيف يمكن للإنسان الخروج من دائرة الجريمة التي يرتكبها، إما بسبب

(١) يبلس: الابلاس اليأس من الخير، وقيل: هو التحير عند لزوم الحجة.

ضغط شهواته وأهوائه، أو بضغط الآخرين كالمجتمع والطاغوت، ويتخلص من الآثار التي تتحول بمرور الوقت إلى حجاب غليظ يحجبه عن الحقيقة.

الجواب نجده في الحديث المروي عن أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال وهو يوصي أصحابه بالصلاة: «**شَبَّهَهَا رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله بِالحَمَّةِ تَكُونُ عَلَى بَابِ الرَّجُلِ فَهُوَ يَغْتَسِلُ مِنْهَا فِي اليَوْمِ واللَّيْلَةِ خَمْسَ مَرَّاتٍ فَمَا عَسَى أَنْ يَبْقَى عَلَيْهِ مِنَ الدَّرَنِ**»[1].

فالصلاة تغسل ذنوب البشر، ولهذا السبب يذكرنا ربنا سبحانه في آخر هذا الدرس بأوقات الصلاة.

بينات من الآيات:

[١١] لكي لا يسترسل الإنسان في ارتكاب السيئات فتنتهي به إلى العاقبة السوأى يذكره الرب سبحانه بالساعة، حين يقدم الناس للحساب بين يدي الله العليم القدير.

وبإيجاز بليغ يبين السياق الحجة على الساعة: أوليس الله قد بدأ الخلق؟ فهو إذا يعيده كما بدأه، وهنالك يرجع الناس إليه للحساب ﴿ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ أي يعيد الخلق بعد الفناء ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ يعني حين تعودون فإنكم تعودون إليه.

ويحتمل أن يكون معنى ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أي يطويه بالفناء، كما نشره بالخلق، ثم إليه يرجعون بالخلق من جديد.

[١٢] وحين الرجوع إلى الله ماذا سيكون مصير المجرمين؟

في ذلك اليوم يلوذ المجرمون -الذين طالما برروا بألسنتهم الحادة جرائمهم- إلى الصمت البائس، لأن الحزن الناشئ من اليأس قد أحاط بقلوبهم ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾

جاء في القاموس[2] أن المبلس: «من لا خير عنده أو عنده إبلاس»، وفي مفردات الراغب[3]: «الإبلاس الحزن المعترض من شدة اليأس.... ولما كان المبلس كثيرا ما يلزم السكوت، وينسى ما يعنيه، قيل: أبلس فلان إذا سكت، وإذا انقطعت حجته».

وربما السبب في سكوت المجرمين الناشئ من حزنهم ويأسهم هو: أن الله لا يترك لأحد

---

(١) وسائل الشيعة: ج٤، ص٣٠.
(٢) القاموس المحيط: ج٢، ص٢٠١.
(٣) مفردات غريب القرآن: ص٦٠.

حجة يوم القيامة، وقد بينت الأحاديث التالية جانبا من احتجاج الرب لعباده يوم القيامة، مما يفحم المجرمين والمذنبين.

١- عن المفيد، عن ابن قولويه، عن محمد الحميري، عن أبيه، عن هارون، عن ابن زياد قال: «سَمِعْتُ جَعْفَرَ بْنَ مُحَمَّدٍ عليه السلام وَقَدْ سُئِلَ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ فَقَالَ عليه السلام: **إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَ كُنْتَ عَالِماً؟ فَإِنْ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: لَهُ أَ فَلَا عَمِلْتَ بِمَا عَلِمْتَ!. وَإِنْ قَالَ: كُنْتُ جَاهِلًا. قَالَ: لَهُ أَ فَلَا تَعَلَّمْتَ حَتَّى تَعْمَلَ!. فَيَخْصِمُهُ وَذَلِكَ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ**»[1].

٢- وروى معاوية بن عمار قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «**إِنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ لَيَكُونُ فِي الْمَحَلَّةِ فَيَحْتَجُّ اللهُ عَزَّ وجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى جِيرَانِهِ [بِهِ] فَيُقَالُ لَهُمْ أَلَمْ يَكُنْ فُلَانٌ بَيْنَكُمْ أَلَمْ تَسْمَعُوا كَلَامَهُ أَ لَمْ تَسْمَعُوا بُكَاءَهُ فِي اللَّيْلِ فَيَكُونُ حُجَّةَ اللهِ عَلَيْهِمْ**»[2].

٣- و روى عبد الأعلى مولى آل سام قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «**تُؤْتَى بِالْمَرْأَةِ الْحَسْنَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّتِي قَدِ افْتُتِنَتْ فِي حُسْنِهَا فَتَقُولُ يَا رَبِّ حَسَّنْتَ خَلْقِي حَتَّى لَقِيتُ مَا لَقِيتُ فَيُجَاءُ بِمَرْيَمَ عليها السلام فَيُقَالُ أَنْتِ أَحْسَنُ أَوْ هَذِهِ قَدْ حَسَّنَّاهَا فَلَمْ تُفْتَتَنْ وَيُجَاءُ بِالرَّجُلِ الْحَسَنِ الَّذِي قَدِ افْتُتِنَ فِي حُسْنِهِ فَيَقُولُ يَا رَبِّ حَسَّنْتَ خَلْقِي حَتَّى لَقِيتُ مِنَ النِّسَاءِ مَا لَقِيتُ فَيُجَاءُ بِيُوسُفَ عليه السلام فَيُقَالُ أَنْتَ أَحْسَنُ أَوْ هَذَا قَدْ حَسَّنَّاهُ فَلَمْ يُفْتَتَنْ وَيُجَاءُ بِصَاحِبِ الْبَلَاءِ الَّذِي قَدْ أَصَابَتْهُ الْفِتْنَةُ فِي بَلَائِهِ فَيَقُولُ يَا رَبِّ شَدَّدْتَ عَلَيَّ الْبَلَاءَ حَتَّى افْتُتِنْتُ فَيُؤْتَى بِأَيُّوبَ عليه السلام فَيُقَالُ أَ بَلِيَّتُكَ أَشَدُّ أَوْ بَلِيَّةُ هَذَا فَقَدِ ابْتُلِيَ فَلَمْ يُفْتَتَنْ**»[3].

[١٣] ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَـٰٓؤُاْ﴾ يشفعون لهم حيث تسقط آنئذ تلك التصورات بأن الشركاء سيشفعون لهم. والشريك هو الذي يظن البشر أنه كما الله قادر عليم وغير ذلك، بيد أنه عندما يشرك الإنسان بالله فمن الطبيعي أن يتشبث بالشركاء، لأنه لا يترك ربه إلا بضغط من الشركاء، سواء كان الطاغوت أم الهوى أم المجتمع، وعموما كل من يستمد منهم الإنسان التشريعات، فيحلون له ويحرمون بغير هدى من الله.

ولكن ماذا عسى أن ينفعه الشركاء؟!.

في ذلك اليوم الرهيب لا يقف أحد من الشركاء إلى جانب المجرمين للدفاع عنهم

---

(١) بحار الأنوار: ج١ ص١٧٧.

(٢) الكافي: ج٨ ص٨٤.

(٣) الكافي: ج٨ ص٢٢٨.

والشفاعة لهم.

والواقع: أن فطرة الإنسان تهديه لى أنه ضعيف عاجز وبحاجة إلى من يركن إليه، والشيطان يضله عن ربه، ويغويه إلى الشركاء، ويزعم له أنهم هم الركن الذي يمكنه الاعتماد عليهم، فيحجبه بذلك عن ربه، وإذا سقط الشركاء عن عينه، وعرف أنهم لا يضرون ولا ينفعون سقط عنه حجاب كثيف كان يمنعه عن رؤية الحق ومعرفة الرب.

وفي يوم القيامة يتبين للمشركين مدى ضلالة الاعتماد على الشركاء، حيث لا يشفعون لهم ولا ينصرون.

وليس فقط لا ينفعونهم، بل ويتبرؤون منهم، وآنئذ فقط يعرفون أن ضغط الهوى والمجتمع والطاغوت لم يكن حقيقة بل وهما ﴿وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾.

[١٤] ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ فريقين، بعكس ما كانوا في الدنيا مختلطين.

[١٥] فريق في الجنة: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ الروضة: هي المكان الذي تكثر خضرته وطيبه. ويحبرون: (من أصل حبر) بمعنى نضرة النعيم في وجوههم. أوليس تغمرهم حالة الرضا، وتحيط بهم ألوان النعم، فتنعكس على وجوههم انبساطا وبشرا؟!.

وقد أولت الكلمة هذه بأمرين:

الأول: الإكرام، كما جاء في تفسير علي بن إبراهيم[١].

الثاني: التلذذ بالسماع، كما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«مَا مِنْ عَبْدٍ يَدْخُلُ الجَنَّةَ إِلَّا وَيَجْلِسُ عِنْدَ رَأْسِهِ وَ عِنْدَ رِجْلَيْهِ ثِنْتَانِ مِنَ الحُورِ العِينِ تُغَنِّيَانِهِ بِأَحْسَنِ صَوْتٍ سَمِعَهُ الإِنْسُ وَالجِنُّ وَلَيْسَ بِمِزْمَارِ الشَّيْطَانِ وَلَكِنْ بِتَمْجِيدِ الله وَتَقْدِيسِه»**[٢].

وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُذَكِّرُ النَّاسَ فَذَكَرَ الجَنَّةَ وَمَا فِيهَا مِنَ الأَزْوَاجِ وَالنَّعِيمِ وَفِي القَوْمِ أَعْرَابِيٌّ فَجَثَا لِرُكْبَتَيْهِ وَقَالَ: يَا رَسُولَ الله هَلْ فِي الجَنَّةِ مِنْ سَمَاعٍ؟. قَالَ ﷺ: **نَعَمْ يَا أَعْرَابِيُّ إِنَّ فِي الجَنَّةِ لَنَهَراً حَافَتَاهُ أَبْكَارٌ مِنْ كُلِّ بَيْضَاءَ يَتَغَنَّيْنَ بِأَصْوَاتٍ لَمْ تَسْمَعِ**

---

(١) تفسير القمي: ج٢، ص ١٥٣.
(٢) وسائل الشيعة: ج٢، ص ١٤٣.

الخَلَائِقُ بِمِثْلِهَا قَطُّ فَذَلِكَ أَفْضَلُ نَعِيمِ الجَنَّةِ. قَالَ -الرَّاوِي-: سَأَلْتُ أَبَا الدَّرْدَاءِ بِمَ يَتَغَنَّيْنَ؟. قَالَ: بِالتَّسْبِيحِ»[1].

والصوت الحسن نعمة، فبالإضافة إلى النعم المادية التي يتمتع بها المؤمنون في الجنة كالأكل والشرب، هناك نعمة معنوية وهي إشباع القلب ذكرا لله ومعرفة به وحبا له، وبالرغم من أن الصوت الحسن ليس كل اللذة الروحية، إلا إنه لو كان يحمل للإنسان فكرا وعلما، وتذكيرا بالله، وهدى يبلور القيم الحق، آنئذ يكون لذة جسمية ومعنوية في نفس الوقت، ولذلك جاء في الحديث السابق: أن السماع أفضل نعم الجنة حين تمجد الحور الله وتقدسه.

وهكذا كانت أعظم لذات المؤمن في الدنيا الصلاة ومناجاة الله سبحانه، يقول رسول الله ﷺ: **«حُبِّبَ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا ثَلَاثٌ النِّسَاءُ والطِّيبُ وجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»**[2]. وقال ﷺ: **«جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ وَ كَانَ يَقُولُ أَرِحْنَا يَا بِلَالُ»**[3].

وفي مناجاة العارفين للإمام السجاد عليه السلام يقول: **«إِلَهِي فَاجْعَلْنَا مِنَ الَّذِينَ تَوَشَّحَتْ [تَرَسَّخَتْ] أَشْجَارُ الشَّوْقِ إِلَيْكَ فِي حَدَائِقِ صُدُورِهِمْ وَأَخَذَتْ لَوْعَةُ مَحَبَّتِكَ بِمَجَامِعِ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ إِلَى أَوْكَارِ الأَفْكَارِ يَأْوُونَ وَفِي رِيَاضِ القُرْبِ وَالمُكَاشَفَةِ يَرْتَعُونَ وَمِنْ حِيَاضِ المَحَبَّةِ بِكَأْسِ المُلَاطَفَةِ يَكْرَعُونَ وَشَرَائِعِ المُصَافَاةِ يَرِدُونَ قَدْ كُشِفَ الغِطَاءُ عَنْ أَبْصَارِهِمْ وَانْجَلَتْ ظُلْمَةُ الرَّيْبِ عَنْ عَقَائِدِهِمْ مِنْ ضَمَائِرِهِمْ وَانْتَفَتْ مُخَالَجَةُ الشَّكِّ عَنْ قُلُوبِهِمْ وَسَرَائِرِهِمْ وَانْشَرَحَتْ بِتَحْقِيقِ المَعْرِفَةِ صُدُورُهُمْ وَعَلَتْ لِسَبْقِ السَّعَادَةِ فِي الزَّهَادَةِ هِمَمُهُمْ وَعَذُبَ فِي مَعِينِ المُعَامَلَةِ شِرْبُهُمْ وَطَابَ فِي مَجْلِسِ الأُنْسِ سِرُّهُم»**[4].

[١٦] هذا عن حال المؤمنين في الجنة، فما هو حال الذين كفروا؟!.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾ فالمؤمنون يذهبون سراعا إلى الجنة، أما الكافرون فإنهم يساقون إلى النار سوقا، ولأن الجنة تزلف إلى أهلها فهي أمامهم، بينما تقرب النار إلى الكافرين، ويساقون إليها في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا.

ولعل الآية تعالج مرضاً روحياً، وتبريرا طالما يأوي إليه الجاحدون، ألا وهو تكذيب

(١) بحار الأنوار: ج٨، ص١٩٦.
(٢) بحار الأنوار: ج٧٣، ص١٤١.
(٣) بحار الأنوار: ج٧٩، ص١٩٣
(٤) الصحيفة السجادية: المناجات الثانية عشر.

لقاء الله، حيث يزعم الكفار أنه بمجرد تكذيب الساعة تسقط عنهم المسؤولية، بينما القرآن يؤكد أن هذا التكذيب بذاته جريمة يعاقب عليها الجاحدون، فلم يوضع الحساب فقط لمن آمن بالساعة، بل وأيضا لمن كذب بها، حيث إنه ينال جزاء تكذيبه كما ينال جزاء جرائمه.

[١٧] ﴿ فَسُبْحَانَ ٱللَّهِ ﴾ إن أردت أن تكون من أصحاب الجنة، لا من أهل النار، فسبح الله واحمده آناء الليل وأطراف النهار ﴿حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ حين غروب الشمس وحين طلوعها.

[١٨] ﴿ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ونحمده لما نرى من آياته في السماوات والأرض ﴿وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ عشيا عند صلاة العصر، وعند الزوال وقت صلاة الظهر، وهذه مواقيت الصلوات الخمس التي ذكرت جميعا إلا صلاة العشاء لقربها إلى ميعاد صلاة المغرب.

بلى؛ حين يتنفس الصباح أو تودع آخر أشعة الشمس الروابي، وعندما ينتصف النهار وفي وقت العشية، تحدث تطورات على الطبيعة، وفي نفس البشر، تقتضي تسبيح الرب، لكي يطمئن الإنسان إلى خالقه الذي جل عن التغير، والذي يهيمن على اختلاف الزمن.

إن تسبيح الله وحمده طرفي الليل ووسط النهار يمنع النفس من تقديس الطبيعة التي تعكس في هذه الحالات هيبتها عليها، ومن الناس من يعبر عن ذلك بالسجود للشمس والقمر، وتقديس الأشجار والأحجار.. وإن تسبيح الله وحمده يتسع مع آفاق الخليقة حتى يشمل السماوات والأرض، فلا ينظر العارف بربه إلى شيء إلا ويتجلى له الرب بجلاله وجماله فيتوهج فؤاده تقديسا وحمدا.

وقد عبرت الآيات هنا عن اتساع تسبيح الله وحمده عبر آنات الزمان وآفاق المكان ببيان رائع وإيجاز بليغ فقال: فسبحان الله، وقال: وله الحمد. هكذا بصفة عامة دون أن يذكر ذاكر التسبيح وقائل الحمد، لأن كل شيء يسبح له ويحمده، وتسبيح الله وحمده مقتضى تحول الحالات بتدبير حكيم، ذلك أن انتقال الوقت من المساء إلى النهار ومن النهار إلى المساء يعني وجود نقصا في الطبيعة، فالطبيعة ليست ثابتة، وإنما هي متغيرة، فنستدل بهذا النقص على أن ربها ومقدرها ليس بناقص، ولأن لكل متحرك ثابتـا يحركه، لذلك كل ما نرى في الطبيعة من نقص نسبح الله، فالنقص في الطبيعة أمر حق. وقد كان القدماء يستدلون على الله بأن العالم متغير، وكل متغير حادث، وكل حادث يحتاج إلى محدث، والمحدث هو الله. وجوهر هذا الاستدلال صحيح.

فالطبيعة أعجز من أن تخلق نفسها، أو تديرها، فلابد لها من خالق مدبر، وهكذا استدل

إبراهيم عليه السلام لما رأى أفول كل من الشمس والقمر والكوكب.

ونستوحي من الآية أن مواعيد الصلاة مرتبطة بتغيرات الطبيعة لا بحسب الساعات، كالساعة العاشرة مثلا، لأن الساعة العاشرة ليست حدثا في الكون، ولكن الأوقات التي رسمها الله للصلوات مرتبطة بالظواهر الطبيعية التي تنعكس على النفس، وتحتاج إلى رؤية سليمة للتعامل معها.

وكلمة أخيرة: إن هذه الآيات فضلا كبيرا لما فيها من التسبيح والحمد لله، ولذلك جاء في الحديث المأثور عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: **«مَنْ قَالَ حِينَ يُمْسِي ثَلَاثَ مَرَّاتٍ: ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ لَمْ يَفُتْهُ خَيْرٌ يَكُونُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ وصُرِفَ عَنْهُ جَمِيعُ شَرِّهَا ومَنْ قَالَ: مِثْلَ ذَلِكَ حِينَ يُصْبِحُ لَمْ يَفُتْهُ خَيْرٌ يَكُونُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ وصُرِفَ عَنْهُ جَمِيعُ شَرِّهِ»**[1].

(١) وسائل الشيعة: ج٧ ص٢٢١.

وله المثل الأعلى في السماوات والأرض

﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

ذكرنا السياق بآيات الحمد والتقديس التي ترتسم على محيا الخليقة مساء وصباحا، وأنى قلبت وجهك في السماوات والأرض بصرت تسبيحا لله وسمعت حمدا. وتأتي آيات هذا الدرس تبيانا لتلك الحقيقة من خلال واقع الإنسان نفسه، حيث يخرج الله الحي من الميت والميت من الحي، ونرى من حولنا تقلب الأشياء بين الحياة والموت، لنهتدي إلى قدرة الرب الواسعة، ونؤمن بيوم البعث.

وحياة الإنسان ابتدأت بخلقه من التراب، وانتشاره بإذن الله في الأرض، وأعظم ما حفظ الله به نسل البشر الزواج حيث خلق الزوجين وجعل بينهما مودة ورحمة، ومن أبرز سنن

الحكمة التي نظم بها حياة البشر فوق هذا الكوكب اختلاف ألسنة الناس وألوانهم (حسب الحاجات المتباينة والتي تتكامل في وحدة منسقة) ليتعارفوا، ومن أهم النظم الحياتية التي أجراها الرب لحفظ البشر المنام بالليل والنشاط من أجل الرزق (فسكون الليل يمهد لحركة النهار، والله يبارك فيها للبشر)، ومن أعظم نعم الله على البشر التي حفظ بها حياته على البسيطة نعمة الماء الذي ينزله من السماء، فيحيي به الأرض.. أوليس كل ذلك آيات تهدينا إلى أسماء ربنا الحسنى وإلى قدرته ورحمته وحسن تدبيره؟ بلى؛ ولكننا بحاجة إلى التفكر والعلم والسماع والعقل حتى نهتدي بهذه الآيات إلى معرفة الرب وصفاته.

بينات من الآيات:

[١٩] ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾ آية الحياة أعظم آية يتعرف عليها الإنسان، حيث إن الحياة تنبعث من الأشياء الميتة، وربما تشير الآية الكريمة إلى حقيقة مهمة يغفل عنها الإنسان عادة: فالحياة موجودة سواء في النطفة، أو في الحبة الصغيرة، ولكنها من مجموعة أشياء ميتة تنبعث وتتكامل، فالأرض ميتة، والأوكسجين ميت، والمواد الكيمائية ميتة، بل والغذاء من الأرض بالنسبة للنبتة أو من مجموع عدة أشياء بالنسبة للحي ميت أيضا.

كل هذه الأشياء الميتة تحيط بالنواة الحية داخل حبة الحنطة - مثلا - فتخرج منها نبتة كبيرة حية، فربنا سبحانه يخرج هذا الحي من الميت، والعكس صحيح، فعندما يموت الإنسان الحي هل تنتهي حياته؟ كلا.. بل تبقى، ولكن تنفصل الحياة عن الأجزاء الميتة التي كانت حية بحياته، وتبقى تلك النطفة الحية، ونستطيع أن نشبه تمدد الحياة في الأشياء الميتة والعكس بمصباح كهربائي تضيئه في غرفة حيث إننا نجد أن الأشياء في الغرفة قد أضيئت بالمصباح، ولا يعني أن الضوء قد انتهى لو وضعنا ذات المصباح في صندوق. إن الأشياء في الغرفة لما أضيء المصباح أصبحت إضاءتها غيرية، لا ذاتية، أي أن الأشياء لم تتحول إلى مادة النور..، وهكذا تمدد الحياة في الجمادات.

والإنسان كان نطفة حية في أصلاب آبائه جمعت حولها الأجزاء الميتة بإرادة الله، حتى صار إنسانا سويا، فأخرجه الله من الميت، ثم يعود كما كان عندما يموت، فتبقى الحياة في القبر ولكن في حالة هجعة، ثم تنمو مرة أخرى في يوم القيامة، ويعود كما كان خلقا آخر، فيكون المعنى كالتالي: يخرج الله الحي من الأشياء الميتة، ويخرج الميت من الحي حين تتحلل الأشياء الميتة -أصلا- عن الحي، وتبقى نطفته الأساس.

وكما يحيي الله الأرض بالمطر، كذلك يحيي الإنسان في الآخرة فيقول سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: ١٧].

وفي الروايات عن جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قال: «**إِذَا أَرَادَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَبْعَثَ الخَلْقَ أَمْطَرَ السَّماءَ أَرْبَعِينَ صَباحاً فَاجْتَمَعَتِ الأَوْصَالُ وَ نَبَتَتِ اللُّحُوم**»[1].

وهناك تفسير آخر للآية يقول: إن الله يخرج الحياة من الأشياء الميتة كما خلق الإنسان من التراب، ويخرج الشيء الميت من الحي كما يميت الإنسان.

ولكن يبدو لي أن التعبير القرآني لا يتناسب وهذا التفسير، كما إنه لا يتناسب ومعلوماتنا الحديثة عن الحياة والموت.

ثم قال ربنا: ﴿وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ إن منظر الحياة تدب في الأرض الموات يبعث البهجة في القلب، ويهدينا إلى جلال خالقنا العظيم، كما يهدينا إلى قدرته الواسعة التي يخرج بها الناس من قبورهم كما يخرج الخبء من رحم الأرض ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾.

وإن للآية تأويلا بينته الرواية المأثورة عن الإمام الكاظم عليه السلام قال: «**لَيْسَ يُحْيِيهَا بِالقَطْرِ ولكِنْ يَبْعَثُ اللهُ رِجَالًا فَيُحْيُونَ العَدْلَ فَتُحْيَا الأَرْضُ لِإِحْيَاءِ العَدْلِ ولَإِقَامَةُ الحَدِّ لله أَنْفَعُ فِي الأَرْضِ مِنَ القَطْرِ أَرْبَعِينَ صَباحاً**»[2].

كلما أمعن النظر البصير في تقلب الاشياء بين الموت والحياة كلما ازداد معرفةً بقدرة ربه، وانه يبعث الناس بعد الموت.

[٢٠] ومن آياته سبحانه خلق الانسان من التراب في عالم الذر، ثم أودعه في أصلاب الرجال وارحام النساء. ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾.

قال العلامة الطبرسي في قوله: ﴿خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ «أي خلق آدم الذي هو أبوكم وأصلكم ﴿مِّن تُرَابٍ﴾ ثم خلقكم منه وذلك قوله: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾»[3]. ولكن يبدو أن التفسير المناسب وأحاديث المعصومين هو أن الله خلقنا جميعا ذرا من التراب، ثم أودعنا صلب أبينا آدم عليه السلام ثم نشرنا بقدرته.

[٢١] ومن آياته سبحانه الحاجة المتبادلة بين الذكر والأنثى، تلك الحاجة التي تتجاوز الجسد لتتصل بالروح، وتنتهي حالة التوتر لدى الطرفين بالزواج.

إن حالة التوتر الموجودة لدى الطرفين تدل على أن خلق الإنسان لم يكن فرديا أو قدرا

---

(١) بحار الأنوار: ج٧، ص٣٣.
(٢) تهذيب الأحكام: ج١٠، ص١٤٦.
(٣) تفسير مجمع البيان: ج٨، ص٢٩٩.

قسريا، فالله عز وجل جعل نظام الكون قائما على أساس الزوجية في كل شيء قال تعالى: ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٩]، وهو سبحانه الذي خلق الزوجين الذكر والأنثى.

ولو لم يكن الإنسان ليجوع لما شعر بلذة الطعام، كذلك لو لم يتوتر لما شعر بلذة الزواج، وهذا دليل التقدير في الحياة ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا ﴾ إن الله جعل استمرار حياة نوع البشر عبر التقاء الذكر بالأنثى، ولكن هذا الالتقاء لا يتم قسراً، إنما يتمّ برغبة الطرفين، فيبحث الرجال عن النساء، ولولا هذه الرغبة الجامحة للزواج لتخلّى عن الزواج رأساً، لما فيه من مسؤوليات كبيرة، ولكنّ الله الذي جعل خلقة الإنسان عن طريق الزواج هو الذي جعل فيه حاجة نفسية لا تتحقق إلاّ به فقال: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ الزوجان اللذان لم يعرفا بعضهما حتى لحظة الزواج يندمجان معا، وكأنهما روح واحدة تقمصت بدنين.

إن الصلة التي يُمْتِنُ ربنا آصرتها بين الزوجين ومن خلالها بين سائر أبناء المجتمع تتجاوز المودة المادية القائمة على أساس المصالح المشتركة والخدمات المتبادلة لتصبح صلة روحية يفكر كل طرف في مدى عطائه قبل أن يبحث عما يأخذه، وقد يضحي بنفسه من أجل المحافظة على قرينه أو قريبه.

وبتعبير آخر: ينطلق التقاء الزوجين من أرض الشهوة الجنسية، و الحاجة إلى إشباع الحاجات المادية المختلفة، ولكنه لا يقف عند هذا الحد، بل يمضي قدما حتى يصبح حبا عميقا، يقوم على أساس الإيثار والعطاء، ويصل إلى حد الفداء والتضحية.

وهكذا تكون العلاقة في البداية ﴿مَّوَدَّةً﴾، ولكنها لا تلبث حتى تصبح ﴿رَحْمَةً﴾.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وهدف التفكر هو إثارة المعلومات الظاهرة وتقليبها على بعضها للحصول على معلومات جديدة، وحين يتفكر الإنسان في ظواهر الحياة المحيطة به والتي قد يستخف بها لأنها أصبحت جدا واضحة، فإنه يبلغ غور المعرفة ويفهم حكمة الحياة.

[٢٢] ومن آياته سبحانه خلق السماوات والأرض، واختلاف ألوان الناس وألسنتهم ذلك الاختلاف الواسع ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ يبدو أن هناك علاقة بين خلق السماوات والأرض، وبين اختلاف اللون واللسان، وربما تكون هذه العلاقة موجودة، ففي المناطق الاستوائية لون

البشرة سمراء، وتقل السمرة كلما ابتعدنا عن خط الاستواء، حتى تتحول الألوان من الأسمر حتى الأبيض فالأصفر، وهذا الاختلاف يسهل التعارف ويفرض الاعتراف المتبادل الذي هو أساس تنظيم الحياة البشرية.

والحديث التالي يبين كيف أن طبائع الأرض ذات أثر في اختلاف البشر، وما هي حكمة هذا الاختلاف: يَسْأَلُ رَسولَ الله ﷺ عبدُ الله بن يَزيدُ بن سَلام فَيقُولُ: «فَأَخبِرْني عَنْ آدَمَ لِمَ سُمي آدَم؟ قَالَ ﷺ: **لأَنَّهُ خُلقَ مِنْ طِينِ الأَرْضِ وَأَدِيمِها**. قَالَ: فَآدمُ خُلِقَ مِنْ طِينٍ كِلّه أَوْ طِينٍ وَاحِدٍ؟. قَالَ ﷺ: **بَلْ مِنَ الطِينِ كُلِّهِ وَلَوْ خُلِقَ مِنْ طِينٍ وَاحِدٍ لَمَا عَرَفَ النَّاسُ بَعضَهُم بَعْضا وَكَانُوا عَلى صُورةٍ وَاحدَة**. قَال: فَلَهُمْ فِي الدُّنْيا مَثَل. قَالَ ﷺ: **التُرابُ فِيه أَبيَضٌ وَفيهِ أَخْضَرٌ وفِيهِ أَشْقَرٌ وفيهِ أَغْبَرٌ وَفِيهِ أَحْمَرٌ وفِيهِ أَزْرَقٌ وَفِيهِ عَذْبٌ وَفِيهِ مِلْحٌ وَفِيهِ خَشِنٌ وَفِيهِ لَيِنٌ وَفِيهِ أَصْهَبٌ فَلِذَلِكَ صَارَ النَّاسُ فِيهُم لَيِنٌ وفِيهُمْ خَشِنٌ وفِيهُم أَبَيَضٌ وفِيهُم أَصْفرٌ وَأَحْمرٌ وَأَصْهَبٌ وَأَسْودٌ عَلى أَلوانِ التُرابِ**»[1]. أما اختلاف اللسان فهو خاضع للظروف والبيئة المحيطة بالإنسان.

وهذا الاختلاف دليل الحكمة، ذلك لأن كل نوع يتناسب ومحيطه، كما لو رأينا اختلاف أجهزة الطائرة ومختلف أجزائها، وعرفنا كيف أن كل جهاز يقوم بدور، وهو مناسب لدوره، ولو بدلنا جهازا أو جزءاً من جهاز بجهاز آخر أو جزء ثان لما تكاملت الطائرة ونهتدي من وراء ذلك إلى حكمة صانع الطائرة.

[٢٣] ومن آياته -عز وجل- منامكم بالليل والنهار، وحسب ما أعلم لم يتوصل العلماء حتى الآن إلى سر النوم، وكيف ينام، ولماذا عندما يتعب الإنسان تتراخى أعضاؤه وينام، ويكون مثله مثل الميت؟

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ فالإنسان ينام ليلاً، وقد ينام نهاراً في القيلولة، وقد أكدت بعض الروايات على استحباب نوم النهار إذ إنه يساعد على قيام الليل، وقد جاءت بعض الروايات لتوضح حقيقة النوم.

١- عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «**النَومُ رَاحةٌ مِنْ أَلمٍ وَ مُلاَئمةُ المَوتِ**»[2].

٢- عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**النَّوْمَ سُلْطَانُ الدِّمَاغِ وَ هُوَ قِوَامُ الجَسَدِ وَ قُوَّتُه**»[3].

---

(١) بحار الأنوار: ج٩، ص٣٠٤.
(٢) غرر الحكم: حكمة: ٣٢١٩.
(٣) بحار الأنوار: ج٦٢ ص٣١٦.

﴿وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾ نهاراً.

ما الذي يدفعك إلى الحصول على الرزق، وبينك وبينه الكثير من العقبات، إنك تصل إلى رزقك عبر حاجة غريزية ولو لا تلك الحاجة الملحة، ولولا قدرات الإنسان العقلية والجسدية التي تمكنه من تحصيل رزقه بتسخير ما في الأرض، لما بقيت الحياة. أوليس في ذلك دليلا على حكمة خالقه ولطف عنايته، ودقة تدبيره؟.

ثم إن لكل شخص رزقه الذي يهديه إليه ربنا، ولو أمعنا النظر في أحوال الناس لغمرنا الإيمان بربنا الذي يهيئ لكل واحد منهم طريقا للرزق حتى لا يدع أحدا إلا ويطعمه من رحمته.

جاء في الدعاء: «اللَّهُمَّ إِنَّهُ لَيْسَ لِي عِلْمٌ بِمَوْضِعِ رِزْقِي وإِنَّمَا أَنَا أَطْلُبُهُ بِخَطَرَاتٍ تَخْطُرُ عَلَى قَلْبِي فَأَجُولُ فِي طَلَبِهِ الْبُلْدَانَ فَأَنَا فِيمَا (أَنَا طَالِبٌ) كَالْحَيْرَانِ لَا أَدْرِي أَ فِي سَهْلٍ هُوَ أَمْ فِي جَبَلٍ أَمْ فِي أَرْضٍ أَمْ فِي سَمَاءٍ أَمْ فِي بَرٍّ أَمْ فِي بَحْرٍ وعَلَى يَدَيْ مَنْ ومِنْ قِبَلِ مَنْ وقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ عِلْمَهُ عِنْدَكَ وأَسْبَابَهُ بِيَدِكَ وأَنْتَ الَّذِي تَقْسِمُهُ بِلُطْفِكَ وتُسَبِّبُهُ بِرَحْمَتِكَ»[1].

[٢٤] ومن آياته رزق الإنسان من السماء، فهو سبحانه يرسل السحاب حاملا معه الخوف والطمع، ذلك أن الإنسان يخشى السحب التي قد تكون نذيرا بالصواعق أو السيول، ولكنه يطمع في خيراتها في ذات الوقت.

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَيُحۡيِۦ بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ وللبرق قيمة زراعية، إذ إنه يؤمن الجو فيتكون الآزوت من اندماج ذرات الأوكسجين بالهيدروجين بالنيتروجين.

هذا التناسب في الكون دليل على أن الذي يقدر الكون ويديره هو الله سبحانه، وأن هذه الآيات القرآنية المبثوثة في الكون لا يفهمها ولا يستفيد منها إلا أولئك الذين يفكرون ويستفيدون من عقولهم.

ذكر الله سبحانه في هذه الآيات أربع جمل عقب كل آية، ولعلها تخبر عن مراحل المعرفة، فقال تعالى:

- ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

---

(١) بحار الأنوار: ج٨٣، ص١٢٤، تعقيب صلاة العشاء.

- ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴾[الروم: ٢٢].

- ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾[الروم: ٢٣].

- ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[الروم: ٢٤].

فنحن بحاجة إلى الفكر والعلم والسماع والعقل.

فنحن نفكر حتى نحصل على العلم، والعلم يدعونا للاستفادة من علوم الآخرين عبر سماع علومهم وأخبارهم، وعندما نجمع علومنا إلى علومهم آنئذ نعقل، وعندما نعقل نصبح مؤمنين بالله عز وجل، لأننا نستطيع أن نستوعب آياته ونتوصل بها إليه.

فأقم وجهك للدين حنيفا

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

هدى من الآيات:

بعد أن أرسى الذكر قاعدة الإيمان في النفس حين ذكر بآيات الله في خلقه البشر شرع في تصفية الإيمان من رواسب الشرك، تلك العقبة الكأداء في طريق البشر إلى ربه، والشرك في

القرآن الكريم ليس لونا واحدا، بل لأنه نقيض الإيمان فهو متعدد الأبعاد والألوان ذلك لأن من يترك الحق ويتجه إلى الباطل فليس بالضرورة أن يعبد باطلا من نوع واحد، بل إن كل كافر قد يعبد باطلا مختلفا عمن سواه، فمن اتبع هواه فقد أشرك بالله، وهكذا من اتبع سلطانا جائرا أو مجتمعا فاسدا أو غنيا مترفا، فقد أشرك بالله سبحانه، وهكذا من فرق دينه حسب هواه، وهكذا كلما لم يكن إيمان المرء خالصا كان مشوبا بالشرك.

وكلما أردنا معالجة نوع من الانحراف لابد أن نؤكد على التوحيد، لأن التوحيد عصمة الإنسان وحصنه من الانحراف، وكل انحراف عن طريق التوحيد هو بالتالي سقوط في مادية الشرك.

ويذكرنا الرب بنظام السماوات والأرض وحسن التدبير في حركتها، لعلنا نهتدي إلى قدرة المدبر الحكيم الواسعة والتي تحيط بنا من حولنا، و نؤمن بيوم النشور حيث يدعونا دعوة واحدة، فإذا بنا خارجون من القبور بلا تريث أو تباطؤ.

ومادامت الهيمنة التامة له فإن كل شيء مملوك له قانت لأمره ومطيع لسلطانه أوليس قد بدأ الخلق، وهو يعيده بأيسر مما خلقه، وأنه له الأسماء الحسنى التي تهدي إليها آياته في السماوات والأرض، وهو العزيز الحكيم؟ بلى؛ إذا لا ينبغي الشرك به. أو يجوز أن يشركك فيما تملكه بجهد غيرك ممن لا سلطان له؟ كلا.. إذا حرام أن نشرك بربنا من خلقه أحدا.. هكذا يبين ربنا آياته بوضوح بالغ لمن يعقل، أما الذين ظلموا فإنهم لا ينتفعون بعقولهم بل يتبعون أهواءهم بغير علم ولا يهديهم الله. أرأيت من لم يهده الله هل يهديه من بعده أحد؟ أو هل ينصره أحد؟

دين التوحيد فطرة إلهية خلق الله الناس عليها، ولا تبديل لخلق الله وهو دين قيم لا عوج له ولا أمت، وإنما يخالفه الناس لجهلهم، فعلينا أن نتبعه طاهرا من الشرك، ونعود إليه كلما أبعدتنا عوامل الانحراف، مستعينين بالصلاة التي هي ركن كيان التوحيد، فلا نشرك بربنا أحدا.

وآية التوحيد في الواقع وحدة الدين، وألا نفرقه ونكون شيعا متفرقين، يفرح كل شيعة بما يملكون، ويتركون ما يؤمنون به من الدين الذي يوحدهم.

إن ما يملكه كل حزب زيف يتلاشى عندما يمس الناس ضر، اذ يدعون هنالك ربهم عائدين إليه، ولكنّهم إذا أحسّوا برحمةٍ لا يثبتون جميعاً على الهدى، بلى؛ يشركون بربهم، وهذا عين الكفر بالنعمة، ويهددهم الله بزوالها وسوف يعلمون مدى خسارتهم بالشرك.

بينات من الآيات:

[٢٥] بين القدر والقضاء.. ما بين التشريع والتنفيذ؛ لقد سن ربنا للخليقة سننا نسميها

بالأنظمة والقوانين، ولكنها لا تعني شيئا لولا إجرائها وإمضائها وتنفيذها والذي لا يكون إلا بالقضاء وهو يتجلى في أمر الله، فما هو أمر الله؟.

لكي نعرف قدرا من ملكوت السماوات والأرض يستخدم القرآن ألفاظا تعودنا عليها في حياتنا اليومية، فنحن حينما نريد أن يتحقق شيء نأمر به من هو دوننا، وعندما يريد الله شيئا يأمر به ولكن أمره مشيئته التي لا راد لها.

والسماوات والأرض منظمة بتقديرات إلهية وسنن ثابتة، ولكن من يطبق تلك النظم ويجري تلك السنن؟

إنه ربنا وبماذا؟ بأمره.

إذا أمره مظهر سلطانه الدائم وهيمنته على كل صغيرة وكبيرة.

دعنا نضرب مثلا وتعالى الله عن الأمثال:

إن الساعة الصغيرة ليس فيها نظام داخلي فحسب، بل فيها أيضا قوة تجعل هذا النظام يطبق، فلو سحبت هذه القوة لتوقف النظام، هكذا أمر الله لو انعدم فرضا فان الكون ينتهي، وذلك لسببين:

أولاً: لأن النظام يتوقف تماما لعدم وجود ما يقوم به.

ثانياً: لأن وجود الخلق ذاته ينتهي، لأن وجود كل شيء قائم بأمر الله سبحانه، ولعل الآية التالية تشير إلى كلا السببين: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ بأمره قامت السماوات والأرض، وكلمة (أمر) توحي بالقدرة التامة، وبأن الفعل لا يكلف صاحبه عملا ولا يورثه نصبا، وهو أصدق تعبير عن قيام الخليقة بالله سبحانه جاء في الدعاء: «**وَجَعَلْتَ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ لِلْبَرِيَّةِ سِرَاجاً وَهَّاجاً مِنْ غَيْرِ أَنْ تُمَارِسَ فِيمَا ابْتَدَأْتَ بِهِ لُغُوباً وَ لَا عِلَاجا**»[1].

وكلمة القيام توحي بتمام الشيء، وكماله، فكما أن البشر حين يقوم يكون على أتم استعداد وفي أفضل حالة، فكذلك قيام السماوات والأرض تعبير عن أفضل حالاتها، ومعروف أن تمام الشيء لا يعني مجرد وجوده، بل وأيضا صلاحه وسلامته كل ذلك يدلنا على تمام قدرة ربنا ومطلق سلطانه وأنه يقيم الخليقة ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ فهو إذا يهلكها ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ ويعيدها ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾.

والإنسان بين الخليقة يقوم بأمر الله، ويهلك بأمره ودعوته، وينشر بأمره ودعوته، وقد

---

(١) بحار الأنوار: ج٨٤، ص٣٣٩، من دعاء الصباح.

استخدمت هنا كلمة الدعوة لأن البشر صاحب عقل، والعاقل يدعى فيجيب.

وقدرته هي التي تستطيع أن تعيد ما في السماوات وما في الأرض إلى ما كانت عليه سابقا.

﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ حين يأمر إسرافيل أن ينفخ في الصور فإذا هم قيام ينظرون، يخرجون من الأجداث إلى ربهم، وكلمة ﴿إِذَا﴾ تدل على المفاجأة.

أي تخرجون كلكم جميعا، دفعة واحدة، بمجرد دعوته إليكم دون أن تملكوا قدرة الامتناع والتمرد أو التريث والتباطؤ.

[٢٦] وكيف يمكن للمخلوق أن يمتنع أو يتمرد أو يتريث إذا دعاه الله، فكل المخلوقات لله.. كل مخلوقات السماوات والأرض، وهي خاضعة له مؤتمرة بأمره: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ خاضعون له خضوعاً مطلقاً تكوينيا ومطيعون. وإذا كان الله تعالى يملك من في السماوات والأرض فإن إعادة الخلق بعد الموت والفناء ليس أمراً شاقاً عليه.

[٢٧] والله يبدأ الخلق بقدرته، إذا فهو أهون عليه حين يعيده، وبالنسبة إلى المخلوق فإن تقليد شيء مصنوع أسهل من ابتكاره، أما بالنسبة إلى الخالق المبدع فإن الأمور لا تقاس بالصعوبة أو بالسهولة، لأن أمره بين الكاف والنون، ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]. وإنما عبر بأنه أهون لبيان هذه الحقيقة، إن إعادة الشيء بعد الخلق بذاتها أهون من ابتداع خلقه وإن كانا بالنسبة إلى قدرة الله سواء فلماذا نراهم يؤمنون بأول الخلق، ويكفرون برجعته، وهي عند الله يسير؟!

﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ وهو إذ يبدأ الخلق وإذ يعيده هينا لا يمارس لغوبا ولا علاجا، ولا يحتاج إلى أدوات وآلات، ولا تجد في خلقه ثغرات أو فطورا، وكلما مشيت في مناكب أرضه، وقلبت وجهك في ملكوت سماواته، وأنعمت النظر في عظيم تدبيره، وحسن نظامه، ومتانة صنعه، كلما ازددت بصيرة بأسمائه الحسنى بأنه الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر، وبالتالي بأن له المثل الأعلى الذي تشير إليه آيات الجمال والكمال في السماوات والأرض.

﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ بلى؛ السماوات عظيمة واسعة، وجميلة، ورائعة النظام، وحسنة التدبير، إذا فهي تهدينا إلى أن لربنا المثل الأعلى فهو العظيم الواسع (قدرة) والجميل والمدبر. وفي الأرض آيات الجمال والجلال وهي تهدينا إلى

سلطان الرب وملكوته وسائر أسمائه الحسنى.

ولأن لربنا المثل الأعلى فلا يمكن أن نقيس به شيئا فهو الأعلى مما نرى ومما لا نرى في السماوات والأرض، ولا يجوز إذا أن نشبهه بشيء أو نتوهمه أو نتصوره سبحانه، جاء في الحديث المأثور عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير الآية: «**الَّذِي لَا يُشْبِهُهُ شَيْءٌ وَلَا يُوصَفُ وَلَا يُتَوَهَّمُ فَذَلِكَ المَثَلُ الأَعْلَى**»[1].

[٢٨] يضرب ربنا سبحانه مثلا من واقع الجزيرة العربية، حيث كانوا يعيشون نظام السادة والعبيد فيخاطبهم: هل يقبلون أن يشاركهم عبد من عبيدهم ما يملكون فهم وإياه سواء، علما أنه وما يملك لهم؟!.

إذا كانوا لا يوافقون على هذا الاقتراح. فكيف يجعلون لله أندادا؟!.

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ متساوون في الشركة، وأكثر من ذلك... ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ كما هي عادة الشركاء يخاف بعضهم من بعض، فهل تخافون عبيدكم؟ كلا.. ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ لأنه لا يعقل آيات الله إلا ذوو الألباب.

[٢٩] والحقيقة هي: أن الذين يشركون ليس يتبعون شريكا كرها، ولا يضلون عن الحق لغموضه أو لعدم قدرتهم على معرفته، بل لاتباعهم الهوى ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ وعبادة الهوى هو جوهر الشرك، لأن المشرك إنما يتبع طاغوته خوف الذبح، ولا يخضع المشرك للغني إلا طمعا في ماله، فالمشكلة بالنسبة إلى المشرك هي حب الخلود والراحة.

والآية تذكرنا بأن الظلم أساس اتباع الهوى، وهو بدوره سبب الضلالة، ولعل ذلك يهدينا إلى دور الفساد في العلاقات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ودوره في ضلالة الإنسان.

فإذا كانت العلاقات القائمة بين أبناء البشر سليمة، ولم يكن بعضهم يظلم بعضا، لم تكن حاجة إلى اتباع الهوى.

كما تذكرنا الآية أن الهوى والعلم ضدان، فمن اتبع هواه رحل عنه العلم، ومن خالف هواه استضاء بنور العلم، والذي يتبع هواه بغير علم سوف يضله الله ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ

(١) بحار الأنوار: ج٥٥، ص٣٠.

﴿ٱللَّهُ﴾ إن الله يضل الإنسان بالتخلية بينه وبين أسباب الضلالة، ويسلب منه علمه إذا لم يعمل بذلك العلم، وترك علمه إلى جهله، واتبع هواه، ولا يجد إذا من يهديه من دون الله.

ثم إن الإنسان يتبع هواه، ويطيع الأنداد، طمعا في نصرتهم، وبحثا عن القوة عندهم، ولكن الله يذكرهم بأنهم لا ينتصرون له إذا جاءه عذاب الله، إذ لا يقدرون على ذلك ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ في الدنيا والآخرة من الذين عبدوهم، وماهم من شافعين.

وهذا يعني أن الإنسان يحتاج في حياته إلى شيئين: عقل يهديه، وقوة تنصره، فمن اتبع هواه فقد خسر العقل والقوة معا.

[٣٠] ثم يقول الله للإنسان: إذا أردت أن تعبد الله حقا، عليك أن تنحرف عن كل الضغوط، وبتعبير آخر عليك أن تكون حنيفا عن الشرك طاهرا نظيفا ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ الوجه أظهر شيء عند الإنسان، ولذلك يعبر به عن مواقفه وجهة سيره فيقال: توجهات فلان أي طريقته وسلوكه.

والقيام بمعنى الكمال، لأن الإنسان يكون في أفضل حالاته عند القيام، ولذلك يقول الذكر: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ تعبيرا عن إتيانها بالوجه الكامل.

ويعبر الذكر هنا عن خلوص العمل بالدين عن شوائب الشرك بـ ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ لأن مجرد قبول الدين لا يكفي، بل ينبغي تطبيق كل المواقف والسلوكيات والتوجهات مع شرائعه، ويؤكد ذلك قوله سبحانه: ﴿حَنِيفًا﴾ أي طاهرا من رجس الشرك، ودنس الرذائل.

ولا يكون ذلك إلا بتحدي الضغوط.

فالحنيفية حقا أن تقدم ومنذ البداية على مخالفة المشركين، إنك إن تتبع الذين يضلونك بغير علم فأنت لست على طريق مستقيم، يجب أن تشق طريقك بنفسك، إلى حيث..

﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ حيث الاستقامة. وهذا يعني أنك إذا كنت تواجه ضغوطا خارجية تدعوك لاتباع الطريق المنحرف فإن هناك ضغطا معاكسا في ذاتك يدعوك لاتباع الطريق المستقيم، وهي الفطرة التي فطر الناس عليها، حيث قال الله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٢-١٧٣].

وأصل الفطرة الشق، وسمي الخلق فطرة ربما لأن الخلق يتم عادة بانشقاق شيء عن شيء، ومعنى فطرة الله هنا: الوحدانية، حيث إنها جزء من خلق الناس جميعا، وليس المؤمنون منه فقط، كما تعني نظم الخلقة وسننها التي هي قوام الكينونة البشرية الانسانية.

﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ لعل معناها أن الإنسان لا يمكن أن يغير فطرته بالتربية أو التوجيه، وحتى الأعمال السيئة لا تغير فطرة البشر.

فأنت ومن يعاقر الخمر أو يقتل الآدميين في الفطرة سواء، صحيح أن الفطرة تنتكس، وتغطى بالذنوب إلا إن المذنب يشعر بذنبه، والكاذب يشعر بكذبه، والضال يعلم بخطئه، ولكن فطرتهم ضعيفة.

وهذه الفطرة الإلهية الثابتة أفضل دين يلتزم به البشر، ويتبعه، ويرى شخصيته فيه لأنه قيم لا عوج فيه، وتستقيم معه شخصية الإنسان وحياته ومجتمعه، بينما تتطرف سائر الأديان يمينا وشمالا، وتفسد ضمير البشر، وتمسخ شخصيته وتضيع حياته.

ونستوحي من هذه الكلمة أن الدين ضرورة إنسانية، يشعر القلب من دونه بفراغ كبير، إلا إن أغلب الناس يخطئون في نوع الدين الذي يعتنقونه ﴿ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ ونستنتج من هذه الآية أن طريق معرفة الدين الصحيح يتلخص في دليلين:

الأول: هدى الله حيث يقول: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾.

الثاني: الوجدان ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ﴾.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ مشكلة الناس أنهم لا يستفيدون من علمهم، لأنهم يتبعون أهواءهم، وعلينا ألا توحشنا قلة الديانين بدين الحق، أو كثرة الميالين إلى سبل الشيطان، ذلك لأن أكثر الناس هم الذين لا يعلمون.

[٣١] وليس هيّناً الاستقامة على الدين الحق، لأن دواعي الشهوة، ووساوس الشيطان، وضغوط المجتمع تميل بالإنسان عن طريق الحق، فلا بد إذن من الإنابة إلى الله دائماً، فكلما مالت أسباب الانحراف به شرقاً أو غرباً أناب إلى ربه، والتزم التقوى بتطبيق كافة الشرائع التي هي حصن التوحيد، وسور المعرفة، ومن أبرز معاني التقوى إقامة الصلاة، تلك الحصن المنيعة للإيمان، والسور الرفيع لعرفان الرب.

﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ والفرق بين هذه الآية وما قبلها أن ما قبلها تأتي بصورة مفردة بتعبير ﴿فَأَقِمْ﴾ بينما في هذه الآية تأتي بصورة جمع، وذلك لأن الإنسان

واحد في مقام المسؤولية، ولكن في مقام العمل يعمل مع الآخرين، فالإنسان مسؤول أمام الله لوحده، وكل نفس مسؤولة عن نفسها.

إن الله طلب منا الالتزام بالصراط المستقيم عبر إقامة الوجه لدينه، واتباع فطرته التي غرسها فينا، ولكن كيف يتم ذلك، وكيف نحافظ عليهما؟ يقول ربنا سبحانه: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

فأنت مؤمن بدينك وبدافع فطرتك، إنك عندما تذهب إلى المسجد مثلا تجد هناك أمثالك، فأنت وهم تكونون مجتمعا، فأنيبوا إلى الله، وهناك نظرية تقول: إن الإيمان يتبلور في مجتمع، وليس الفرد بوحده قادر على أن يترجم دين ربه لوحده، فالله يدفع الناس بعضهم ببعض كي يحوطون هذا الدين.

والإنابة إلى الله، وتقواه، وإقامة الصلاة ضابط لمسيرة الإنسان وتحوطه أن ينزلق، فالمجتمع يسحبنا يمينا ويسارا، ولكن الإنابة إلى الله وتقواه، وإقامة الصلاة تجعلها على الطريق المستقيم.

وهناك فرق بين إقامة الصلاة وبين الإتيان بالصلاة، فإقامة الصلاة هو الالتزام بحدودها.

عن أبي عبد الله الحسين عليه السلام أنه قال: «وحَقُّ الصَّلَاةِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّهَا وِفَادَةٌ إِلَى الله عَزَّ وجَلَّ وأَنْتَ فِيهَا قَائِمٌ بَيْنَ يَدَيِ الله عَزَّ وجَلَّ فَإِذَا عَلِمْتَ ذَلِكَ قُمْتَ مَقَامَ العَبْدِ الذَّلِيلِ الحَقِيرِ الرَّاغِبِ الرَّاهِبِ الرَّاجِي الخَائِفِ المُسْتَكِينِ المُتَضَرِّعِ المُعَظِّمِ لِمَنْ كَانَ بَيْنَ يَدَيْهِ بِالسُّكُونِ والوَقَارِ وتُقْبِلَ عَلَيْهَا بِقَلْبِكَ وتُقِيمَهَا بِحُدُودِهَا وحُقُوقِهَا»[1].

وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنه قال: «إِذَا اسْتَقْبَلْتَ القِبْلَةَ فَانْسَ الدُّنْيَا ومَا فِيهَا والخَلْقَ ومَا هُمْ فِيهِ (وَاسْتَفْرِغْ قَلْبَكَ مِنْ كُلِّ شَاغِلٍ يَشْغَلُكَ عَنِ الله) وعَايِنْ بِسِرِّكَ عَظَمَةَ الله واذْكُرْ وُقُوفَكَ بَيْنَ يَدَيْهِ يَوْمَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ ورُدُّوا إِلَى الله مَوْلَاهُمُ الحَقِّ وقِفْ عَلَى قَدَمِ الخَوْفِ والرَّجَاءِ فَإِذَا كَبَّرْتَ فَاسْتَصْغِرْ مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ العُلَى والثَّرَى دُونَ كِبْرِيَائِهِ فَإِنَّ الله تَعَالَى إِذَا اطَّلَعَ عَلَى قَلْبِ العَبْدِ وهُوَ يُكَبِّرُ وفِي قَلْبِهِ عَارِضٌ عَنْ حَقِيقَةِ تَكْبِيرِهِ قَالَ يَا كَاذِبُ أَ تَخْدَعُنِي وعِزَّتِي وجَلَالِي لَأَحْرِمَنَّكَ حَلَاوَةَ ذِكْرِي ولَأَحْجُبَنَّكَ عَنْ قُرْبِي والمُسَارَّةِ بِمُنَاجَاتِي واعْلَمْ أَنَّهُ غَيْرُ مُحْتَاجٍ إِلَى خِدْمَتِكَ وهُوَ غَنِيٌّ عَنْ عِبَادَتِكَ ودُعَائِكَ وإِنَّمَا دَعَاكَ بِفَضْلِهِ لِيَرْحَمَكَ ويُبْعِدَكَ مِنْ عُقُوبَتِهِ»[2].

---

(١) من لا يحضره الفقيه: ج٢ ص٦١٨.

(٢) مستدرك وسائل الشيعة: ج٤ ص٩٥.

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «الصَّلَاةُ لَهَا أَرْبَعَةُ آلَافِ بَابٍ»[1].

وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «لِلصَّلَاةِ أَرْبَعَةُ آلَافِ حَدٍّ»[2].

﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

[٣٢] من أجل الاستقامة على الدين الحنيف، والطهارة من رجس الشرك، لابد من الإنابة، والتقوى، وإقامة الصلاة هنالك يدخل المؤمن في حصن التوحيد، ويتقى مظاهر الشرك ومن أبرزها الاختلاف في الدين شيعا وأحزابا ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾.

﴿فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ أي اختلفوا عن الطريق الذي رسمه الله لهم، فلم توحدهم مناهج الشريعة، ولعل (الشيع) تعني اتباع الشخص بينما الحزب هو التقاء مجموعة من الناس في الأفكار.

فإذا أردتم أن تعرفوا هل أنتم على شرك أم على بصيرة من ربكم فانظروا هل عندكم خلافات تنبع من أهوائكم؟.

فالمجتمع الذي يتبع الله لا يختلف لأن أفراده جميعا يتبعون شخصا واحدا، يقودهم إلى الله، ولكن لماذا يسمي الله الذين فرقوا دينهم مشركين؟.

الجواب: أحد احتمالين:

١ - إما أنهم متبعون أهواءهم، حيث قال ربنا: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

٢ - أو لأنهم اتبعوا أشخاصا بعينهم شذوا بهم عن سبيل الله ﴿وَكَانُوا شِيَعًا﴾.

والمشكلة الأهم ليس تفرقهم فحسب، بل هم مغرورون بمكتسباتهم، وكل حزب فرح بما حقق من مكتسبات وانتصارات. فإذن إن سمة هؤلاء الفرح بالمكتسبات المادية مجانبين معيارية القيم، والتي هي غير ملازمة ولا مساوقة هذه المكتسبات.

وهذه الآية تكشف طبيعة التحزب الذي هو الغرور بما يملكه الشخص أو التجمع من حطام الدنيا، دون التوكل على الله، والفرح بما يؤتيه عباده الصالحين من فضله. وحين

(١) من لا يحضره الفقيه: ج١، ص١٩٥.
(٢) الكافي: ج٣، ص٢٧٢.

تكون المكتسبات الدنيوية هي مؤشر النجاح والقوة تنحرف المسيرة عن القيم، فكثيرا ما يكون اكتسابها بغير السبيل القويم.

وحين يعتمد البشر على غير الله يكله الله إلى نفسه فيخسر الدارين. أرأيت كيف أخذ يقلب كفيه على ما أنفق على حقوله الزراعية، ذلك المغرور الذي نصحه صاحبه أن يقول ما شاء الله، فرفض، أورأيت قارون حين أبى نصيحة قومه إذ قالوا له: لا تفرح، كيف خسف الله به وبداره الأرض؟!.

كذلك الذين يفرحون بما لديهم من أموال وأنصار فيفرقهم هذا الغرور عن بعضهم، ويبعدهم عن دينهم، ويلحقهم بالمشركين وهم يحسبون أن مكتسباتهم الدنيوية دليل صدقهم، بينما هم الأخسرون أعمالا.

[٣٣] متى يعرف البشر أنه على حق، أم على باطل؟ ومتى يتهاوى وهم القوة المكتسبة بالدنيا وبغير التوكل على الله؟.

إن ربنا يعطينا مقياسا وجدانيا ذاتيا، ففي حالات الضر والاضطرار هنالك ينسى كل الآلهة المزيفة التي كان يعبدها، ينسى هواه ويتجه بقلبه إلى ربه ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ ولكن.. ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾.

وهذه مشكلة الإنسان أنه ينسى ساعات الحرج التي مر بها، ولا عذر للإنسان أن يقول: لم أعرف الله. بلى؛ قد عرفت حين الحاجة، فقد توجهت آنذاك إلى الله.

ونجد في الآية التعبير بـ﴿مَسَّ﴾ و﴿أَذَاقَهُم﴾ وهما يدلان على أدنى الإحساس، ويعكسان بالتالي طبيعة البشر الجزوع، وكيف أنه بمجرد أن يمسه ضر يلجأ إلى ربه، ثم بمجرد أن يذيقه طعم رحمته ينكفئ ويشرك به.

والمفهوم من الآية أن الناس جميعا يتوجهون إلى ربهم عندما يحسون خطرا، بينما بعضهم فقط يشركون بربهم عند النعمة.

وفي الآية هذه علاج حالة التحزب، حيث إن الذين فرقوا دينهم إنما فرحوا بما لديهم، واغتروا بما يملكون من ثروة أو سلطان ناسين نعم الله عليهم، وكيف أنه سبحانه ملجؤهم الأخير حين تتقطع بهم السبل، وتضيق عليهم مذاهب الدنيا، هنالك ينسون محاورهم الحزبية، وانتماءاتهم المختلفة، ويتجهون إلى ربهم العزيز المقتدر.

[٣٤] وهؤلاء الذين يشركون فور إحساسهم بالنعمة، ويفرحون بما لديهم من نعم

ظاهرة فيتبعون الأنداد، ويتحزبون لبعضهم غرورا بما يملكون، إنهم يكفرون بنعم الله، وينذرهم الله بأن كفرهم هذا يدعهم خاسرين لتلك النعم في الدنيا، ولحظهم في الآخرة.

﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ونستوحي من هذه الآية الحقائق التالية:

أولاً: أن حالة التحزب القائمة على أساس الفخر ببعض ما لدى صاحبها من نعم تسبب الكفر بسائر النعم، فمن بالغ في الفخر بأبنائه، لا يمكنه أن يتنعم بسائر الشباب في المجتمع، ومن تطرف في الاهتمام بثقافته وفكر حزبه لم ينتفع بعلوم الناس ومعارفهم، ومن فرح بما يملكه من مال توقف سعيه ولم يستفد من فرص الاكتساب التي أمامه... وهكذا.

وعادة يصاب المتحزبون بانغلاق فيحرمون أنفسهم من نعم الله في الحياة.

ثانياً: أن الشكر على النعم ليس فقط يحافظ عليها ويزيدها، وإنما أيضا يجعلها هنيئة لصاحبها، لأن وعي النعم غذاء القلب، ولذة الروح، بينما الذين يكفرون بنعم الله إنما يتمتعون ببعضها، كما تتمتع الأنعام ولا يهنئون بها كما يهنئ البشر، إذ إن توجههم سيكون فقط إلى الجانب المادي من النعم، وينسون الأبعاد المعنوية منها.

ثالثاً: أن الكفر بالنعم يكون سببا لزوالها، بل لتحولها إلى نكال إذ إن من يتمتع بالنعم فقط سوف لا يراعي حدودها فيفسدها على نفسه، كمن ينهم بالجنس مثلا لمجرد لذته تراه يسرف فيه حتى يفسد نفسه، كذلك الذي يطعم لشهوة الأكل فقط يتجاوز الحد في التهام الطعام مما يفسد معدته... وهكذا.

الشرك بين التبرير الثقافي والآثار الاقتصادية

﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ (١) فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾

هدى من الآيات:

بعد أن يبين القرآن أثر الشرك في الدرس الماضي، حيث إن الشرك يبث الخلاف، ويكرس الصراع، ويفرق الديانات، ينسق في هذا الدرس أساسين يعتمد عليهما المشركون.

الأول: التبرير الشرعي للشرك، وذلك بالاعتقاد بأن ربنا سبحانه قد خول هذه الفئة أو تلك بشؤون الدنيا أو الدين، من دون إقامة دليل صادق على هذا الادعاء.

الثاني: التبرير الاقتصادي بزعم أن الأنداد يملكون للناس رزقا، ويعالج السياق خلفية هذا الزعم النابع من الجهل بالله، والقنوط من روحه عند الضراء، والكفر بفضله -غروراً- في السراء.

وهكذا يعيش الإنسان بين خطرين:

الرجاء المفرط حال النعمة، واليأس القاتل عند البلاء، بينما الرجاء واليأس يجب أن يتعادلا عند الإنسان.

(١) ليربوا: ليزيد ذلك الربا.

ولإكمال بيان جوانب الموضوع يشير السياق إلى البعد الاقتصادي للصورة، مقارنا بين المجتمع التوحيدي والمجتمع الشركي.

يشير ربنا في هذه الآية فكرة نجدها في الآيتين التاليتين، وهي: أن الإنسان الذي ينفق في سبيل الله سيضاعف له الأجر، فيما ذلك الإنسان الذي يأخذ الربا أضعافا مضاعفة لن يربو عند الله، ذلك لأن الذي ينفق ماله في سبيل الله يعلم بأن الله سيعوضه خيرا منه، بينما المرابي لا يثق بالله، ولا يتحرك كما أمره الله بأن يشد عضده بأخيه المسلم.

بعد ذلك يذكرنا سبحانه بأنه هو الرازق لمن خلق، وأنه يحيي ويميت، فهل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء؟! سبحانه وتعالى عما يشركون.

بينات من الآيات:

[٣٥] أنى كانت دوافع الضلالة والإجرام عند البشر فإنه يبحث لنفسه عن تبرير ثقافي ليسكت صيحة الوجدان التي لا تزال تدوي في ضميره، وأخطر تبرير ثقافي يكون عندما يزعم الإنسان أن الله أمره بما يهواه، ذلك أن فطرة الدين الراسخة في كل قلب، أعظم ضمانة لإصلاح البشر، فإذا انتكست هذه الفطرة ترى أي ضمانة تبقى عنده؟!

والسؤال: كيف نقف في وجه التبرير الشرعي للجرائم، وكيف نواجه أدعياء الدين، الذين لا زالوا يفترون على الله كذبا، وكيف نتحدى هؤلاء الحكام الذين يبررون سلطانهم أبدا بأن الله معهم، وأنهم ظل الله في أرضه؟

الجواب: إنما يتم ذلك بالتأكيد على أن من يدعي أنه من عند الله لابد أن يأتي بسلطان مبين، بما لا يدع للشك مجالا، وآنئذ فقط يجوز للعباد الاستماع إليه والتسليم لأوامره.

وهكذا يتساءل الذكر قائلا: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾ وبرهانا يتسلط على القلب كله، بما لا يدع فرصة للشك، كما السلطان الذي أنزل الله على موسى عليه السلام بالعصا، وعلى عيسى عليه السلام بإحياء الموتى، وعلى محمد صلى الله عليه وآله بالقرآن، ولابد أن يكون هذا السلطان واضحا صريحا وكأنه ينطق بالذي يدعونه ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾.

إننا ربما نتساءل: لماذا يرد الله على مثل هؤلاء المشركين؟ فنقول:

إن مشكلة هؤلاء مشكلة ثقافية، وربما بنيت حياتهم وسياستهم وأعمالهم على أمثال هذه الأفكار، فينسف الله أمثال هذه الأفكار من أساسها، ولكي لا يحتجوا على الله يوم القيامة بأنه

لم يوضح لهم الحقيقة، لقد أوضح لهم إياها، ولا حجة لهم.

وكثير من المشركين يتصورون أنهم مكلفون من الله باتباع شركائهم، أو يزعمون أن الأصنام شفعاء عند الله، وأنها تقربهم إليه زلفى!.

كما يزعم الطغاة حيث يعتبرون أنفسهم ممثلين عن الله سبحانه، وكذا كان سلاطين المسلمين الذين قاموا باسم الدين، كان يصورهم الشعراء بأنهم آلهة من دون الله كما قال[1] بعضهم في وصف أحد الخلفاء:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

والقرآن يواجه كل هذه القوى الجاهلية التي تستعبد البشر باسم الدين بأنها ضالة ما لم ينزل الله عليهم سلطانا مبينا.

كما يجعل القرآن الناس أمام مسؤولياتهم مباشرة، من دون واسطة أدعياء الدين، لكي يقطع الطريق على وعاظ السلاطين وتجار الدين، فلا يستغلوا سذاجة الناس، ويحذروهم باسم الدين، ويحرفون كلمه لقاء دراهم معدودة، يتلقونها من الحكام.

[٣٦] لماذا يتوسل بالشركاء والأنداد من دون الله؟.

قد يكون السبب التبرير الشرعي الذي نسفه السياق آنفا، و قد يكون الزعم بأنهم يرزقونهم من دون الله، والذي يعالجه القرآن من الجذور ويقول: ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا ﴾ أي أحسوا بالبطر والغرور، ويبدو أن الفرح هو حالة الإحساس بالإشباع والاستغناء، وهي حالة ذميمة نهى الله عنها على لسان قوم قارون إذ قالوا له : ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص٧٦]، ولكنها حالة حميدة إذا اتصلت بالله، فمن استغنى بالله أحس بالقوة بتوكله عليه.

وقد أمر الله بذلك إذ يقول: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٨].

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ فإن السيئات لا تصيب البشر إلا بسبب ذنوبهم، وعليهم أن يغيروا واقعهم الفاسد حتى يغير الله ما بهم، ولكنهم يصابون بالقنوط بعد السيئة ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ ويستوحى من كلمة ﴿إِذَا﴾ أن القنوط يداهمهم فجأة، وذلك بسبب ضعف

(١) هو الشاعر: ابن هاني الأندلسي، أبو القاسم محمد بن هاني الأزدي، توفي سنة ٣٦٢هـ. يمدح الخليفة المعز لدين الله الفاطمي، راجع: البليغ في المعاني والبيان البديع: للشيخ أحمد أمين الشيرازي: ص٢٦٧.

نفوسهم، وضيق أفق التفكير عندهم، والآية تبصرنا بعدة حقائق:

أولاً: أن الجهل بالله يجعل القلب متقلبا بين الغرور والقنوط، بينما الثقة بالله تتسامى بالقلب فوق النعم، فلا يبطر بها، والنقم فلا ييأس بسببها.

والقلب الجاهل بربه والمتطرف بين البطر واليأس هو الميت المنكر لله، المشرك به، إذ ترى صاحبه يهوى إلى درك التسليم لأصحاب الثروة والسلطة رجاء رفدهم، وخشية حرمانه.

ومن هنا تجد المؤمنين يدعون ربهم ألا يحوجهم إلى لئام خلقه، بل لا يبتليهم بالحاجة إلى غيره لكي لا تميل نفوسهم إلى غير الله، فيزعمون أنهم الرازقون لهم، جاء في رائعة مكارم الأخلاق: **«اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي أَصُولُ بِكَ عِنْدَ الضَّرُورَةِ، وأَسْأَلُكَ عِنْدَ الحَاجَةِ، وأَتَضَرَّعُ إِلَيْكَ عِنْدَ المَسْكَنَةِ، ولَا تَفْتِنِّي بِالاسْتِعَانَةِ بِغَيْرِكَ إِذَا اضْطُرِرْتُ، ولَا بِالخُضُوعِ لِسُؤَالِ غَيْرِكَ إِذَا افْتَقَرْتُ، ولَا بِالتَّضَرُّعِ إِلَى مَنْ دُونَكَ إِذَا رَهِبْتُ، فَأَسْتَحِقَّ بِذَلِكَ خِذْلَانَكَ ومَنْعَكَ وإِعْرَاضَكَ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ»**[1].

ولعل في هذا تكمن الصلة بين هذه الآية والتي سبقتها.

ثانياً: تمهد الآية للحديث عن الصورة المشرقة التي يتحلى بها المجتمع القائم على أساس التوحيد، والتباعد عن رجس الشرك. كيف ذلك؟

إن كثيرا من الخصال الرذيلة تأتي بسبب حالة الجزع عند البشر، فإنما البخل والغش والكسب الحرام كالربا وغيره من إفرازات شح النفس (الفرح القنوط).

كما إن فضيلة الإنفاق والكرم والعفة تأتي من الثقة بالله، وبأنه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

وهكذا مهد السياق للأمر بالإنفاق، والنهي عن الربا، بمعالجة هذه الحالة البشرية.

ثالثاً: إن قلب المؤمن يعيش بين اليأس والرجاء، ولذلك يعيش التوتر الإيجابي الفاعل الذي يبعث أبدا نحو النشاط والسعي، بينما قلب المشرك يتطرف نحو الفرح، فيغله جمود الغرور والبطر، أو يتطرف نحو اليأس فيقعده القنوط عن السعي، وهل يتحرك من لا أمل له في النجاح!.

[٣٧] ما علاقة هذه الحقيقة بالتوحيد؟.

العلاقة هي أن المؤمن يعتقد بأن الرزق من الله، وأنه يبسطه لمن يشاء، ويضيقه على من يشاء،

(١) الصحيفة السجادية: دعاء مكارم الأخلاق ومرضيِّ الأفعال.

فلا يفرح ببسط الرزق لأنه قد يسلبه في أية لحظة، ولا يقنط بقبضه، لأن الله قادر على أن يبسطه في أية لحظة ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ بلى؛ ولكن أغلب الناس يبصرون العوامل المباشرة للرزق، وينسون العامل الغيبي لذلك قال ربنا: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

أما المؤمنون فإنهم لا ينظرون فقط إلى العوامل الظاهرة، بل يبصرون أصابع الغيب التي تحرك تلك العوامل وتدبرها، إنهم يعلمون أن الفلاح لا يقوم إلا بأعمال جدا ضئيلة إذا قيست بالعوامل التي تساهم في نمو الزراعة ابتداء من خصوبة التربة، وعذوبة الماء، وانتهاء بالمواد التي تنفسها الشمس عبر أشعتها، ومرورا بسائر العوامل الرئيسية المفقودة مثلا في سائر الكرات الأخرى، ولذلك أضحت الزراعة فيها مستحيلة.

وكما في الزراعة كذلك في سائر موارد الرزق، ولذلك ترى المؤمنين وحدهم يهتدون بآيات الرزق، ويشكرون ربهم عليها.

[٣٨] لأن الرزق من الله، ولأن المؤمن لا يقنط من رحمته إذا فقد شيئا من ثروته، ابتغاء رضوانه، ولأن المؤمن لا يفرح بما يؤتى، ولا يحسب ما بيده دائما بل يراه عواري، سوف يذهب منه في أية لحظة، لذلك كله ينبغي أن ينفق من ماله للأقربين ثم ذوي الحاجة من حوله ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ ليس دور الترتيب الذي ذكر في هذه الآية اعتباطا، فقد جاء في الروايات أن ذوي القربى مقدمون على غيرهم في الإنفاق.

جاء في حديث مأثور عن أبي عبد الله الإمام الحسين عليه السلام قال: «**سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله يَقُولُ ابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ أُمَّكَ وَ أَبَاكَ وَ أُخْتَكَ وَ أَخَاكَ ثُمَّ أَدْنَاكَ فَأَدْنَاكَ وَ قَالَ لَا صَدَقَةَ وَ ذُو رَحِمٍ مُحْتَاجٌ**»[١]. وقد جاء في بعض الأحاديث تفسير ذوي القربى بآل بيت الرسول صلى الله عليه وآله.

ففي كتاب الاحتجاج للعلامة الطبرسي رحمه الله عن علي بن الحسين عليه السلام لبعض الشاميين: «**أَمَا قَرَأْتَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾؟ قَالَ: نَعَمْ قَالَ عَلِيٌّ عليه السلام: فَنَحْنُ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَمَرَ اللهُ عَزَّ وَ جَلَّ نَبِيَّهُ صلى الله عليه وآله أَنْ يُؤْتِيَهُمْ حَقَّهُم**»[٢].

وفي مجمع البيان، عن أبي سعيد الخدري قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ..﴾ أعطى رسول الله صلى الله عليه وآله فاطمة عليها السلام فدكا[٣].

﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ يتراءى للإنسان بادئ

(١) بحار الأنوار: ج٩٣ ص١٤٧.
(٢) الاحتجاج: ج٢ ص٣٠٦.
(٣) مجمع البيان: ج٨ ص٣٩٤.

النظر أن الإنفاق غرامة وخسارة، بينما الحقيقة أنه خير، شريطة ألا يداخله الرياء، وحب السيطرة، وأن يكون بالتالي في سبيل الله، وإلا فإن ضره يطغى على نفعه، إذ إن المستكبرين أيضا ينفقون أموالهم ولكن من أجل تحكيم قبضتهم على المستضعفين، وسرقة ما تبقى عندهم من ثروات.

والسؤال: كيف يكون الإنفاق خيرا؟ ولماذا مجتمع الإنفاق مجتمع مفلح؟

الجواب: إن الإنفاق سوف يزيد التكامل الاجتماعي، مما يؤدي إلى تماسك المجتمع وتقدمه، بينما المجتمع المفكك ينهار سريعا أمام المشاكل، ولا ريب أن فوائد التقدم تشمل المنفق كما المنفق عليه.

ثم إن يدك اليوم أعلى فهل تضمن أن تبقى كذلك كلا فقد تحتاج إلى من أنفقت عليه، أو غيره وجاء في معنى الحديث من كف يده عن الناس فإنه يكف يدا واحدة وتكف عنه مئة يد.

والإنفاق يحرك عجلة الاقتصاد، وينمي الثروة، لأنه يرفع الحاجات الملحة التي تقعد أصحابها عن النشاط.

ولعل أعظم فائدة للإنفاق هي تحرير نفس صاحبه عن أسر المادة، ومساعدته على الخروج من شح الذات، وتحسيسه بلذة العطاء التي تفوق عند الإنسان السوي لذة الأخذ، وربما جاء الأمر بالإنفاق هنا بهذه المناسبة لأنه يمهد سبيل الإيمان بالله أمام الإنسان، أوليس حب الدنيا من أسباب الشرك.

[٣٩] إن ما أخذ ربا لا يربو عند الله، لأن المرابي يسلب من الآخرين أتعابهم وجهودهم، أما من يؤتي الزكاة بغية وجه الله فأولئك هم المضعفون.

وفي الحديث عن النبي ﷺ قال: «**كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ إِلَى غَنِيٍّ أَوْ فَقِيرٍ فَتَصَدَّقُوا وَلَوْ بِشِقِّ التَّمْرَةِ واتَّقُوا النَّارَ ولَوْ بِشِقِّ التَّمْرَةِ فَاللهُ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهَا كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ أَوْ فَصِيلَهُ حَتَّى يُوَفِّيَهُ إِيَّاهَا يَوْمَ القِيَامَةِ وحَتَّى يَكُونَ أَعْظَمَ مِنَ الجَبَلِ العَظِيمِ**»[1].

﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ إن الهدف من المال إقامة النظام الاجتماعي، وتنشيط أجهزة المجتمع والإنفاق يقوم بهذا الهدف بأفضل وجه، بينما الربا يعوق ذلك، إذ إنه يقيد المال في حدود فوائد الدائن، ويجعله شريكا ثقيل الظل لأتعاب الناس وجهودهم، دون أن يتحمل خسارة أو يبذل جهدا.

(١) وسائل الشيعة: ج٩ ص٣٨١.

والربا ينمي طبقة مستكبرة متعالية وطفيلية في المجتمع، مما تتجاوز أضراره الجوانب الاقتصادية إلى الحياة السياسية فالثقافية والاجتماعية.

ولعلنا اليوم نعي معاني هذه الآية أكثر من آبائنا، لأن الربا انتشر ليس في حدود أبناء المجتمع الواحد، بل في مجال العلاقات الاقتصادية بين الأمم المختلفة، وأفرز الواقع المقيت الذي تعاني منه البشرية المتمثل في التمايز بين الدول المستكبرة التي تستأثر بكل خيرات الأرض والدول المحرومة التي تحتاج إلى أبسط مقومات الحياة، فبينما تختزن الدول المستكبرة مثلا حوالي (٣٥٠) مليون طن من الغلال لعام (١٤٠٧ هـ-١٩٨٧م) وتحتار كيف تختزنها، بل كيف تتخلص منها؛ نرى الدول المستضعفة محتاجة إلى كل كيلو منها، ويتضور أطفالها جوعا، ويتساقط الملايين منهم كل عام لسوء التغذية.

ولعل أعظم أسباب هذا التمايز النظام الربوي السائد في العالم، حيث بلغت ديون البلاد المحرومة أكثر من كاترليون (ألف وخمس وثلاثون مليار) دولار، وأخذت الفوائد المتضاعفة تبتلع كل جهود الشعوب المحرومة، وتجعل الأمل في تقدمها واستقلالها يتلاشى في طوفان الديون.

ولو دفعت البلاد المتقدمة زكاة أموالها للشعوب المحرومة لنشطت من عقال التخلف، وللحقت بركب الحضارة ولأفادت حتى الدول الصناعية بتبادل التجارة معها.

ولو استجاب المحرومون لنداء القرآن، وألغوا الربا في علاقاتهم الاقتصادية، وتحرروا من أغلال الفوائد الباهظة إذن مشوا خطوة في طريق تقدمهم واستقلالهم لذلك قال ربنا سبحانه: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾.

أما العطاء الذي يتبعه المن والأذى فإنه مقدمة للطبقية المقيتة، ولاستثمار البعض للبعض الآخر، وبالتالي لا ينمي الثروة.

كما إن ما يسمى المعونات الاستعمارية للدول المحرومة التي تربط هذه الدول بعجلة الاستكبار هي الأخرى لا تنفع تقدما، ولا تعطي خيرا.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ ولعل السبب هو أن الزكاة تنشط المجتمع، وتضع عن اقتصاده أغلال الاستثمار، وقيود الطبقية، ويتوجه الجميع تجاه نعم الله المنبسطة في أرجاء الطبيعة ليستفيدوا منها، دون أن يفكر كل فريق في استغلال الآخرين.

ظهر الفساد بما كسبت أيدي الناس

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٠) ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١) قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ (٤٢) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ (٤٣) مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ[1] (٤٤) لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ (٤٥) وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٤٦) ﴾

هدى من الآيات:

كما أن التوحيد هو المحور الأساسي في عالم التكوين، كذا هو يعتبر المحور الرئيسي في عالم التشريع لسائر الأحكام، وهكذا يكون الشرك هو السبب الرئيسي لكافة المشاكل والمصائب التي تعترض البشر، وهو محور كل انحراف عن شرائع الله.

ولقد بين السياق القرآني في سورة الروم جانبا من آثار التوحيد والشرك اللذين ينعكسان على حياة الفرد وسلوكياته، وفي هذا الدرس يبين لنا جانبا من آثار التوحيد والشرك في المجتمع.

---

(١) يمهدون: يوطئون مواطن النعيم.

لقد فطر الله الخليقة صالحة، وأعطى الإنسان القدرة على تسخيرها، وبين أن ما يكتسبه من موبقات يفسد في الطبيعة، وحذره من أن عليه أن يعتبر بالفساد الذي ظهر في البر والبحر فيرتدع عن السيئات، وإلا فإن عاقبته ستكون مثل عاقبة الأمم الغابرة، الذي لو سار الإنسان في الأرض عرف سبب دمارهم المتمثل في الشرك.

كيف نتقي هذه العاقبة السوأى؟.

بإقامة الدين القيم الذي ينفعنا أولاً في الدنيا حين يقينا الهلاك، وثانيا: في الآخرة حين ينقسم الناس فريقين: الكفار الذين يحتملون وزر كفرهم، والصالحين الذين يمهدون لأنفسهم حين يجزيهم الله من فضله.

بينات من الآيات:

[٤٠] الله هو محور الحياة الطبيعية للإنسان.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ وإذا كان الله هو الذي خلق ورزق، وأمات وأحيا، وإذا كان الله هو المحور في الحياة الطبيعية، فلماذا لا نتبع الله في النظام الاجتماعي، ولم لا نجعل التوحيد لا الشرك هو الذي يرسم حياتنا؟!.

﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ﴾ كلا.. ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

[٤١] ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ ﴾ إن الانحراف الذي نشاهده كل ساعة ليس بالطبع ناتجا عن انحراف الطبيعة، لأن الله خلق الطبيعة حسنة، وأتقن صنعها، والفساد إنما هو بما كسبت أيدي الناس.

وحقيقة فساد الإنسان أن المحور الأساسي لحياتهم كان التوحيد فبدلوه إلى الشرك، وحين يوصل القرآن الفساد بذنوب البشر تعرف أن المنهج الإسلامي متقدم على المنهج الاجتماعي القائم بدرجة، كما إنه متقدم على النظرة الجاهلية بدرجتين، فالجاهليون يعتقدون بأن ما يظهر من الآثار في الحياة لا يمت إلى سبب، فلا يبحثون عن سبب معقول.

بينما المنهج القرآني يربط الظواهر الطبيعية بأسبابها المشهورة والغيبية، فالظلم -مثلا- سبب لشقاء الظالم، ونزول العذاب عليه، إما بصورة مشهورة حيث إنه يكون سببا لتحدي المظلوم، مما يزعزع أمن الظالم واستقراره، وإما بطريقة غيبية حيث إن الرب الذي بيده ملكوت

كل شيء يقدر للظالم العذاب أو الشقاء بتسليط الأمراض عليه وإنزال الصواعق والكوارث الطبيعية على بلاده.

هكذا تضحي مسؤولية البشر عن أفعاله حقيقة لا فكاك منها في منطق القرآن، لأن الذي يجريها بيده الأسباب الطبيعية وغير الطبيعية.

ونحن حين نتلو هذه الآية لنتخذها بصيرة لوعي العصر الذي نعيشه نزداد يقينا بعظمة القرآن، وصفاء بصائره.

بلى؛ ظهر الفساد في البر والبحر بانتشار وسائل الدمار فيهما، من أسلحة تقليدية تتكاثر كالجراثيم في جسم مريض، وتدعمها أسلحة نووية تنشر مظلة رعب رهيبة، وأخطر منها الأسلحة الكيمياوية التي صارت البشرية تتنافس عليها.

وتقول بعض التقارير: إن نشوب حرب نووية بين الدول المالكة لهذه الأسلحة الفتّاكة ستسفر عن سقوط (٤) مليارات قتيل في العالم، وذلك أن تغييرا أساسيا يحدث في اتجاهات الرياح الموسمية، وأن الشمس تحتجب بسبب الدخان الأسود الناجم عن احتراق المدن. ومن الرعب النووي إلى الأمراض التي لا شفاء منها كالسرطان، والأيدز، والقلق، والجنون، وأمراض الأعصاب المتكاثرة، وإلى التخلف القاتل الذي يحصد الملايين في جنوب أرضنا، والتخمة التي تطغى النخبة في الشمال.

أما عن الخطر المحدق فعلا بالبشرية (تلوث البيئة) فتقول مجلة (الحقيقة الواضحة) التي تدعو إلى العودة إلى الدين في عددها المؤرخ (١/ ٢/ ١٩٨٧م) والذي طبع منه أكثر من سبعة ملايين نسخة تقول:

هل القوة النووية هي المصدر الوحيد لتدمير الأرض؟.

لننظر إلى مجموعة معلومات جاءت في بعض المجلات الرائدة: إن التلوث الجديد الذي لا يقارن بحادثة بوبال في الهند، ولكن بتراكماته سوف يهدد الأرض وتضيف: لقد أظهرت الأبحاث الجديدة أن تدمير طبقة الأوزون بواسطة الغازات التي ينتجها الإنسان سوف يكون أكبر مما كان متوقعا، ثم تقول: لقد اكتشفنا أخطر المواد الكيماوية وأدخلناها في موادنا الغذائية، وتعطي إحصائية عن وسائل التدمير في أمريكا، وتقول: إن المواطنين الأمريكيون ينتجون (١/٥) مليار رطل من المخلفات المدمرة في اليوم وتضيف: إن تدمير البيئة يجري سريعا، وإذا لم يوقف هذا التدمير فسوف يكون مرعبا.

وتضرب مثلا لحجم التلوث في أمريكا وتقول: إن الأبحاث تقول: إن هناك حاجة لـ (١٠٠) مليار دولار وخمسين سنة من الوقت حتى تتم إزالة المواد السامة من الولايات المتحدة، حتى إن خبيرا في شؤون المحيطات قال: إننا نواجه النكبة، وتختم المجلة تحذيرها: لن يكون هناك خيار للإنسان إلا الدمار إذا ما نظر إلى سياسة الربح والتوسع الصناعي بشكله الحالي.

وقد أكدت الروايات الإسلامية على الصلة بين النكبات والمصائب التي يتعرض لها البشر (أفرادا أو مجتمعات) وبين أعماله. دعنا نقرأ بعض هذه الروايات:

عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «أَمَا إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ سَنَةٍ أَقَلَّ مَطَراً مِنْ سَنَةٍ ولَكِنَّ الله يَضَعُهُ حَيْثُ يَشَاءُ إِنَّ الله جَلَّ جَلَالُهُ إِذَا عَمِلَ قَوْمٌ بِالمَعَاصِي صَرَفَ عَنْهُمْ مَا كَانَ قَدَّرَ لَهُمْ مِنَ المَطَرِ فِي تِلْكَ السَّنَةِ إِلَى غَيْرِهِمْ وإِلَى الفَيَافِي والبِحَارِ والجِبَالِ وإِنَّ الله لَيُعَذِّبُ الجُعَلَ فِي جُحْرِهَا بِحَبْسِ المَطَرِ عَنِ الأَرْضِ الَّتِي هِيَ بِمَحَلَّتِهَا لِخَطَايَا مَنْ بِحَضْرَتِهَا وقَدْ جَعَلَ اللهُ لَهَا السَّبِيلَ إِلَى مَسْلَكٍ سِوَى مَحَلَّةِ أَهْلِ المَعَاصِي.

قَالَ: ثُمَّ قَالَ أَبو جَعْفَرٍ عليه السلام: ﴿فَٱعْتَبِرُواْ يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾. ثُمَّ قَالَ عليه السلام: وَجَدْنَا فِي كِتَابِ عَلِيٍّ عليه السلام قَالَ قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله: «إِذَا ظَهَرَ الزِّنَا مِنْ بَعْدِي كَثُرَ مَوْتُ الفَجْأَةِ وإِذَا طُفِّفَ المِكْيَالُ والمِيزَانُ أَخَذَهُمُ اللهُ بِالسِّنِينَ والنَّقْصِ وإِذَا مَنَعُوا الزَّكَاةَ مَنَعَتِ الأَرْضُ بَرَكَتَهَا مِنَ الزَّرْعِ والثِّمَارِ والمَعَادِنِ كُلَّهَا وإِذَا جَارُوا فِي الأَحْكَامِ تَعَاوَنُوا عَلَى الظُّلْمِ والعُدْوَانِ وإِذَا نَقَضُوا العَهْدَ سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ عَدُوَّهُمْ وإِذَا قَطَعُوا الأَرْحَامَ جُعِلَتِ الأَمْوَالُ فِي أَيْدِي الأَشْرَارِ وإِذَا لَمْ يَأْمُرُوا بِالمَعْرُوفِ ولَمْ يَنْهَوْا عَنِ المُنْكَرِ ولَمْ يَتَّبِعُوا الأَخْيَارَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ شِرَارَهُمْ فَيَدْعُوا خِيَارُهُمْ فَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ»[١].

وروي عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ثَلَاثَةٌ مِنَ الذُّنُوبِ تُعَجَّلُ عُقُوبَتُهَا ولَا تُؤَخَّرُ إِلَى الآخِرَةِ عُقُوقُ الوَالِدَيْنِ والبَغْيُ عَلَى النَّاسِ وكُفْرُ الإِحْسَانِ»[٢].

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «الذُّنُوبُ الَّتِي تُغَيِّرُ النِّعَمَ البَغْيُ والذُّنُوبُ الَّتِي تُورِثُ النَّدَمَ القَتْلُ والَّتِي تُنْزِلُ النِّقَمَ الظُّلْمُ والَّتِي تَهْتِكُ السِّتْرَ شُرْبُ الخَمْرِ والَّتِي تَحْبِسُ الرِّزْقَ الزِّنَا والَّتِي تُعَجِّلُ الفَنَاءَ قَطِيعَةُ الرَّحِمِ والَّتِي تَرُدُّ الدُّعَاءَ وتُظْلِمُ الهَوَاءَ عُقُوقُ الوَالِدَيْنِ»[٣].

وروي في تفسير الآية -﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾- عن

(١) بحار الأنوار: ج٧٠، ص٣٧٢.
(٢) وسائل الشيعة: ج١٦ ص٣١٢.
(٣) الكافي: ج٢ ص٤٤٧.

الإمام الصادق عليه السلام انه قال: «**حَيَاةُ دَوَابِّ البَحْرِ بِالمَطَرِ فَإِذَا كُفَّتِ المَطَرُ ظَهَرَ الفَسَادُ فِي البَرِّ وَالبَحْرِ وَذَلِكَ إِذَا كَثُرَتِ الذُّنُوبُ وَالمَعَاصِي**»[1].

ربما لا يكتشف العلم العلاقة بين الزنا وموت الفجأة أو بين التطفيف و الفقر، أو بين المعاصي وانقطاع المطر، ولكن الحقيقة أن هذه أثر من تلك، وأن طاعتك أو معصيتك تؤثر فيما حولك، وقد أكد القرآن على هذه الفكرة مرارا فقال:

١ - ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦].

٢ - ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

٣ - ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

إنك إذا لم تعرف سبب الابتلاءات أنها من الذنوب، فلا دليل لك على أن تبقى على سلوكك المنحرف، وتحتمل تبعة هذا السلوك، فقد جاء في الحديث المأثور عن أمير المؤمنين عليه السلام في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى ٣٠] «**لَيْسَ مِن التِوَاءِ عِرْقٍ ولَا نَكْبَةِ حَجَرٍ ولَا عَثْرَةِ قَدَمٍ ولَا خَدْشِ عُودٍ إِلَّا بِذَنْبٍ ولَمَا يَعْفُو اللهُ أَكْثَرُ فَمَنْ عَجَّلَ اللهُ عُقُوبَةَ ذَنْبِهِ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ أَجَلُّ وأَكْرَمُ وأَعْظَمُ مِنْ أَنْ يَعُودَ فِي عُقُوبَتِهِ فِي الآخِرَةِ**»[2]. وقد عبر الله عن عمل الذنب بما كسبت اليد، لأن اليد هي التي تباشر عادة فعل الذنب، وتعبير اليد تعبير عن الإرادة كقولك: هذا الأمر بيدك.

﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ وتشير خاتمة الآية إلى حقيقتين أخريين:

الأولى: أن الله سبحانه يعفو عن كثير من الذنوب، وإنما يعجل عقوبة بعض الذي عملوا، وفي التعبير القرآني بلاغة نافذة، فإن ما ينزل العذاب يكون ذا ألم يذاق ﴿لِيُذِيقَهُم﴾، وإنه تجسيد لـذات المذنب حيث لم يقل ربنا سبحانه مثلا: ليذيقهم عقوبة بعض...، وإنما قال تعالى: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ﴾، فالذي عملوه بذاته يضحي عذابا.

الثانية: أن حكمة العذاب تنبيه البشر لعله يبتعد عن غيه، ويعود إلى الطريق المستقيم

---

(١) بحار الأنوار: ج٧٠، ص٣٤٩.

(٢) الكافي: ج٢، ص٤٤٥.

والدين القيم الذي يقي الناس ألوان العذاب.

[٤٢] قد يتخذ البعض القرآن رصيد معلومات، وقد يتخذه البعض منهجا لبلوغ معلومات جديدة عبر بصائره، وبالرغم من أهمية الحصول على المعلومات المباشرة من القرآن إلا إن آياته الكريمة تؤكد على أولوية اتخاذه منهجا للبحث، ووسيلة للمعرفة، وبابا إلى العلم، وبصائر وهدى.

وأكد الرب المرة تلو المرة، أن القرآن بصائر وأمثال وهدى ونور، وأن فيه آيات لقوم يعقلون وللعالمين ولقوم يسمعون.

والبصيرة أداة البصر، والمثل وسيلة لمعرفة ما يشابهه. إنه النموذج الذي يقاس عليه ما يطابقه والهدى يبصرنا سنن الله، والنور يضيء لنا الدرب لنراها بأنفسنا.

ومن أمثال هذه الآيات يعرف خطأ الذين اتخذوا القرآن نهاية المطاف، وليس وراءه عمل يقومون به لمعرفة الحقائق، بل القرآن منهج لفهم الحياة، وإثارة لعقل الإنسان، بالإضافة إلى اشتماله على رصيد لا ينتهي من العلوم والمعارف وهكذا فهو إطار يتحرك عبره البشر، وبداية الانطلاقة، وربما هذا هو الفرق بين الأمة الإسلامية في بداية انطلاقها، وعما عليه الآن بعد جمودها.

فالأمة الإسلامية في بداية انطلاقها كانت تتخذ من القرآن وسيلة للبحث، ومنهجا للتفكير، ولذلك كانوا يشدون الرحال لطلب العلم ولو في الصين لأنهم كانوا طلاب تجربة، ولقد كان رسول الله ﷺ يبعث أصحابه إلى اليمن ليتعلموا فنون الحرب والتعرف على بعض الأسلحة الجديدة، ولقد كان يزرع فيهم حب المعرفة بقوله: «**الحِكْمَةُ ضَالَّةُ المُؤْمِنِ**»[1].

من هنا نجد القرآن يأمرنا بالسير في الأرض لننظر آثار التاريخ على الأرض مباشرة: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُۚ﴾ ليس فقط ننظر إلى ظواهر الأمور، بل نبحث عما وراء الظواهر من حقائق، فننظر إلى آثار الماضين، ونستدل بها على حياتهم، ونعرف منها بعض السنن الاجتماعية التي كانت حاكمة عليهم.

إن السير في الأرض، والبحث فيها عن ركام القصور المهدمة، وبقايا المزارع المعطلة، ونماذج الأدوات المدفونة تحت الأنقاض، يدعونا إلى النظر في نهايات تلك الأمم التي كان جل سعيها الخلود في الأرض، وتحدي سنن الله في الخلق.. لقد بنوا أهراماتهم بمصر، وقلاعهم في بعلبك، وزرعوا أرض بابل ونينوى بالآثار العظيمة، ولكنهم أبيدوا حيث أشركوا بالله.

(١) الكافي: ج٨ ص١٦٧.

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**أَيْنَ العَمَالِقَةُ وأَبْنَاءُ العَمَالِقَةِ أَيْنَ الفَرَاعِنَةُ وأَبْنَاءُ الفَرَاعِنَةِ أَيْنَ أَصْحَابُ مَدَائِنِ الرَّسِّ الَّذِينَ قَتَلُوا النَّبِيِّينَ وأَطْفَئُوا سُنَنَ المُرْسَلِينَ وأَحْيَوْا سُنَنَ الجَبَّارِينَ أَيْنَ الَّذِينَ سَارُوا بِالجُيُوشِ وهَزَمُوا بِالأُلُوفِ وعَسْكَرُوا العَسَاكِرَ ومَدَّنُوا المَدَائِنَ**»[1].

﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ حينما تبحثون في الأرض، وحينما تنقبون في الآثار، وتبحثون في الأنظمة الاجتماعية السائدة عليهم ستكتشفون بأنهم كانوا مشركين في الأغلب، فإما كانوا عبدة الأصنام وما ترمز إليه من الثروة والقوة أو عبد الطاغوت.

في الآيات السابقة بين القرآن الشرك والتوحيد في مجال الاقتصاد، وبعدها في الأخلاق، وهنا بينها في مجال الصراع الحضاري، أو بتعبير آخر الصراع من أجل البقاء، فالشرك ليس الوسيلة المثلى للبقاء بل هو السبب الرئيسي للانهيار.

[٤٣] فإذا اكتشفنا بأن الشرك هو مادة الفساد، وسبب نهاية البشر فردا كان أو مجتمعا، فعلينا أن نخلص العبادة لله ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ فإقامة الوجه لله أمان يوم القيامة ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ يتفرق بعضهم عن بعض، وحيث يتميز الكفار عن الصالحين، وتلك هي المفارقة الشرعية الوحيدة بين الإنسان وفطرة الإنسان.

[٤٤] فالذين كفروا فعليهم كفرهم يوم القيامة، إذ يتحول إلى حميم وغساق، والذين آمنوا فسوف يجدون أعمالهم الصالحة ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ فالعمل الصالح سيأتيك في يوم أنت أحوج ما تكون إليه، ولكن من كفر فإن نتيجة كفره ستكون وبالا عليه.

وفي هذه الآية ملاحظة هامة وهي: أن الله عندما ذكر من كفر، قال: ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ بصيغة الفرد، وعندما ذكر من عمل صالحا قال: ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ بصيغة الجمع، والفكرة هي: أن نتيجة الكفر تكون على صاحبها فقط في الآخرة، أما نتيجة الإيمان والعمل الصالح فتكون إضافة على أنها لصاحبها لذويه وأقربائه وسائر المؤمنين، فقد ورد: «**وَقَبِلَ شَفَاعَتَهُ فِي مِثْلِ رَبِيعَةَ وَ مُضَرَ**»[2].

وقد ورد في تفسير الآية: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ [الكهف: ٨٢] في قصة اليتيمين اللذين أقام جدارهما الخضر عليه السلام. عن أبي عبد الله عليه السلام: «**أَنَّهُ كَانَ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ ذَلِكَ الأَبِ**

---

(١) نهج البلاغة: خطبة ١٨٢.

(٢) من لا يحضره الفقيه: ج ٤، ص ٤١١.

الصَّالِحِ سَبْعَةُ آبَاء»(١).

[٤٥] ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ في الآية السابقة أبان الله في كتابه أن العمل هو الذي يحدد نهاية البشر ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾، وفي هذه الآية يبين أنه يتفضل على الصالحين، وحين يكون الفضل من الله فبشرى للإنسان وطوبى.

ولعل التعبير السابق ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ كان تمهيدا لبيان أن جزاء الصالحين ليس مجرد تمثل أعمالهم الصالحة في صورة نعيم أبدية في الآخرة وإنما هي مجرد تمهيد لفضل الله الذي لا يحد ولا ينتهي.

وجاء في الحديث المروي عن الإمام الصادق عليه السلام: «**إِنَّ العَمَلَ الصَّالِحَ لَيَذْهَبُ إِلَى الجَنَّةِ فَيُمَهِّدُ لِصَاحِبِهِ كَمَا يَبْعَثُ الرَّجُلُ غُلَاماً فَيُفْرِشُ لَه**»(٢). ولكن الله يجزيهم من فضله، وهو لا يحب الكافرين فلا كرامة لهم.

[٤٦] بعد ذلك يعود الله إلى عرض بعض آياته في الحياة فيقول: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ من نعم الله على الإنسان النظرة الإيجابية إلى الحياة، والتي تنبع من الإيمان بالله، فالذي يؤمن بالله يجد أن الحياة تبتسم له، وإذا رأى مشاكل الحياة فإنه يتجاوزها بسهولة، أما الكافر فإن سحبا سوداء تكتنف قلبه، فلا يبتسم لنور الشمس، ولا لنعم الحياة، والقرآن يثير فينا الإحساس بالجمال فيما يحيط بنا من حقائق، أو تترى علينا من ظواهر.

إن الإنسان مفطور على حب الجمال، وإن مظاهر الطبيعة الرائعة غذاء مريء لروحه الحساس، ولكن هذه الفطرة قد تدس في تراب العقد النفسية، والانشداد إلى المشاكل اليومية، والغرق في طوفان الأوهام والتمنيات.

وهكذا نحتاج إلى ما يدغدغ هذه الفطرة حتى يوقظها وينميها، وهذه مسؤولية الفن والأدب.

وآيات القرآن تثير فطرة الجمال في قلوب المؤمنين وتنميها كما تنمي نوازع الخير والفضيلة جميعا حتى تغدو تلك القلوب تعيش مهرجان الحب، وتستريح إلى همسات الطبيعة التي تحدثها حفيف الأشجار وتلاعب المياه عند الشواطئ والغدران.

---

(١) بحار الأنوار: ج٦٧، ص١٥٢.

(٢) بحار الأنوار: ج٨، ص١٩٧.

ألا ترى كيف يحدثنا الرب عن المبشرات من الرياح التي تنطلق من المنخفضات الجوية وتنساب بين الصخور والأحجار، وتهب على أولئك المزارعين الذين مزق أعصابهم طول انتظار الغيث، وقد صرفوا أسابيع من عمرهم جاهدين لاستصلاح الأرض وزراعتها!. بلى؛ ها هي الرياح تأتي مبشرة بالسحب الخيرة، وإذا بقطعات السحب تتسابق وتتكاثف وتحتك وتعلن عن نفسها بالبرق والرعد، وترخي السماء عزاليها.

بلى؛ كما تقوم الرياح بتلقيح الأشجار، ونشر بذور الزرع المتراكمة في منطقة على مساحات شاسعة، وتوزع غاز الأوكسجين على الناس، وتحمل منهم إلى الأشجار الغازات السامة لتتغذى بها وتمنع أشعة الشمس من حرق الأوراق، وتقوم بتحريك السفن الشراعية من بلد إلى بلد، كما تساهم في انطلاق الطيارات والسفن التجارية أيضا.

كل ذلك من أجل أن يتذوق الإنسان رحمة الله، ويتصل قلبه الصغير بالكون الواسع عبر هذه المتغيرات.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ من نعمة المطر فتخضر الأرض، ﴿وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ﴾ فهذه الرياح تدفع السفن الشراعية من بلد إلى بلد، ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ من نعم أخرى عبر التواصل التجاري بين الأمم، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ إن ذروة السعادة وهي غاية النعم حين يبلغ الإنسان مستوى الشكر لله، يرضى قلبه، وتطمئن نفسه، وتملأ البهجة أرجاء فؤاده، أما حين يكفر بنعم الله فإن الهدف منها لا يتحقق أبدا. أو ليس الهدف منها الإحساس بالسعادة، وكيف يسعد من يكفر بالنعم؟!.

إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا(١) فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨) وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (٤٩) فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٥٠) وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (٥١) فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٥٢) وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ (٥٣) ﴾

هدى من الآيات:

الإيمان يفتح عين الإنسان على الحياة فيراها كما هي، من دون حجب، أما من لا إيمان له فكمن هو في الظلمات، فالصلة مقطوعة بينه وبين ما حوله لأنه أساسا لا يعترف بضرورة البحث عما هو حق وعما هو واقع، بل يكتفي بما يظنه ظنا، وإن الظن لا يغني عن الحق شيئا، أما الإيمان فإنه يجعل الإنسان يبحث عن الحق أنى وجده، لأن الإيمان ذاته هو التسليم للحق.

جاء في توحيد المفضل: «**فَاعتَبِرْ بِمَا تَرَى مِنْ ضُرُوبِ المَآرِبِ فِي صَغِيرِ الخَلْقِ وكَبِيرِهِ وبِمَا لَهُ قِيمَةٌ ومَا لَا قِيمَةَ لَهُ وأَخَسُّ مِنْ هَذَا وأَحْقَرُهُ الزِّبْلُ والعَذِرَةُ الَّتِي اجْتَمَعَتْ فِيهَا الخَسَاسَةُ**

(١) فتثير سحاباً: تحركه وتنشره.

والنَّجَاسَةُ مَعاً ومَوْقِعُهَا مِنَ الزَّرْعِ والبُقُولِ والخُضَرِ أَجْمَعَ المَوْقِعُ الَّذِي لَا يَعْدِلُهُ شَيْءٌ حَتَّى إِنَّ كُلَّ شَيْءٍ مِنَ الخُضَرِ لَا يَصْلُحُ ولَا يَزْكُو إِلَّا بِالزِّبْلِ والسَّمَادِ الَّذِي يَسْتَقْذِرُهُ النَّاسُ ويَكْرَهُونَ الدُّنُوَّ مِنْهُ واعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ مَنْزِلَةُ الشَّيْءِ عَلَى حَسَبِ قِيمَتِهِ بَلْ هُمَا قِيمَتَانِ مُخْتَلِفَتَانِ بِسُوقَيْنِ ورُبَّمَا كَانَ الخَسِيسُ فِي سُوقِ المُكْتَسَبِ نَفِيساً فِي سُوقِ العِلْمِ فَلَا تَسْتَصْغِرِ العِبْرَةَ فِي الشَّيْءِ لِصِغَرِ قِيمَتِهِ فَلَوْ فَطَنُوا طَالِبُوا الكِيمِيَاءَ لِمَا فِي العَذِرَةِ لَاشْتَرَوْهَا بِأَنْفَسِ الأَثْمَانِ وغَالَوْا بِهَا»[1].

إنك إذا سلمت للحق فسوف تبحث عنه، وحين تبحث عنه تجده، وإذا كانت الحاجة أم الاختراع، فإن الإحساس هو السبب الرئيسي للمعرفة، لأن الإنسان لا يعرف بالشيء إلا إذا أحس بالحاجة إلى معرفته، فمن لا إيمان له واكتفى بظنونه لا يحس بالحاجة إلى المعرفة، لأن الهوى موجود عنده أساسا فلا داعي للبحث عنه.

وفي الدرس ما قبل الأخير في سورة الروم نجد ربنا سبحانه يبين لنا بأن الإيمان هو البصيرة، فالكافر كالأعمى والأصم، بينما المؤمن هو البصير والسميع لا تحجبه حجب الهوى، ولا المسبقات الفكرية والعقد النفسية. إنه ينظر نظرة مجردة من التأطر بنظارة ملونة، سواء كانت هذه النظارة أفكارا جاهلية، أو نظرات سلبية وقاتمة عن الحياة كنظرات الذي يعيش الحزن والهم والكآبة، أو نظرات مغرقة في الغرور والتمني والتبرير.

فالمؤمن عادة ما يكون متفاعلا في الحياة، إذ إنه يرى الحياة كلها بصورتها الطبيعية، فهو يشكر الله على النعم، ويصبر في حال البلاء على النقم، فكلما رأى شيئا في الحياة شكر الله وحمده. لماذا؟

لأنه يرى أن النعم من الله سبحانه، بينما الكافر يتصور أن النعم من نفسه، فكلما أعطاه الله خيرا قال: هل من مزيد.

ومن نعم الله العظيمة: الرسالة التي حملها أطهر خلقه إلينا، و ما أخسر أولئك الذين أجرموا حين لم تنفعهم الرسالة، وطوبى للمؤمنين الذين نصرهم الله بما فرض على نفسه سبحانه من تأييدهم.

والرسالات تجل عظيم للرحمة الإلهية، كما السحب المباركة التي تروي الأرض وتملؤها خصبا ورزقا، وتملأ النفوس بشرى، بعد أن استبد بها اليأس والقنوط.

أفلا تنظر إلى الأرض تهتز وتربو، وتزهو بزرعها البهيج. إن ذلك من آثار رحمة الله،

(١) مستدرك الوسائل: ج١٣، ص١٢١.

وهكذا يحيي الأرض بعد موتها. أفلا نهتدي بذلك إلى قدرة الرب، وأنه كيف يحي الموتى؟!

وآيات هذا الدرس تثير فينا الإحساس بالتفاؤل والإيجابية.

بينات من الآيات:

[٤٧] ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾ هذه من آثار رحمة الله، إنه لم يبادر إلى إنزال العقوبة بعباده فور انحرافهم عن الدين القيم مما يعرضهم للاصطدام بالسنن الإلهية. كلا.. وإنما أنذرهم عبر رسله.

أرأيت لو شاهدت طفلا يلعب على حافة جبل أولست تخشى عليه السقوط، وتسعى بكل جهدك أن تردعه؟!، كذلك رسل الله سعوا من أجل إيقاف سقوط الأمم في وديان الفساد.

ولكن ذلك لا يعني أبدا إكراه الناس عباده على الهداية، بل الذين أجرموا تعرضوا لانتقام الرب في النهاية، أما المؤمنون فكان على الله حقا أن ينصرهم قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**مَا مِنِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَرُدُّ عَنْ عِرْضِ أَخِيهِ إِلَّا كَانَ حَقّاً عَلَى الله أَنْ يَرُدَّ عَنْهُ نَارَ جَهَنَّمَ يَوْمَ القِيَامَةِ ثُمَّ قَرَأَ** ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾»[1]. ونصر الله المؤمنين لا يعني بالضرورة أن يكون مباشرة بيد الله سبحانه، بل قد يكون نصر المؤمنين عن طريق بعض المؤمنين أنفسهم، فالله سبحانه يدفع الناس بعضهم ببعض، ومثلما يعذب الكافرين بأيدي المؤمنين كذلك نصر المؤمنين ببعضهم.

[٤٨] ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ فالله يرسل الرياح فتكثف السحاب، وتركمه بعضه على بعض، وتبسطه في السماء كيف يشاء الله، ويمطره على من يشاء من عباده.

والإثارة بمعنى السوق، وأثار الغبار هيجه، والبسط قد يقال للبساط من البسط و الفرش، فيفرش الله السحاب في السماء، كيف يشاء، حتى إذا أمطر السحاب تناوله أكبر قدر من الأرض.

﴿وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا﴾ متراكما على بعضه قطعة قطعة، يراها ركاب الطائرات؛ ﴿فَتَرَى

---

(١) بحار الأنوار: ج٩٨، ص١١٩.

﴿الْوَدْقَ﴾ ولعل المراد منه رذاذ المطر الذي تفرزه قطعات السحاب، ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ من خلال السحب المتراكمة. هكذا يولد الغيث بعد مخاض مرير.

فلولا حركة الرياح وضغوطها على السحب، ولولا تراكم السحب ومرورها بتيارات هوائية باردة، لما أمطرت.

ثم ينتقل الرب من قلب السحب في الفضاء إلى تقلبات فؤاد البشر على الأرض حيث ينتظر بفارغ الصبر بركات الغيث، فإذا هطلت السماء طار فرحا ﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ لأنه يبشرهم برخاء واسع وثراء عريض.

[٤٩] ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ﴾ مشكلة الإنسان أنه عندما تتأخر عنه رحمة الله يكون من القانطين، أفلا يرى بأن الذي خلق السماوات والأرض برحمته لا يتركه؟. بلى؛ ولكن البشر حين يفقد التوكل على الله يفقد الأمل في المستقبل.

[٥٠] كيف نزداد بربنا معرفة، وفي رحمته أملا؟، وكيف نسعى نحو اليقين بقدرته على إحياء الموتى؟.

والجواب: بالنظر إلى آثار رحمة الله، إلى الغيث حين ينزله على الأرض الميتة فتستقبله بترحاب وتهتز له وتنبت الزرع، وإذا بالبسيطة لبست حلة خضراء، إن النظر إلى هذه الآثار تجعل القلب ينفتح لأنوار معرفة الله: ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ﴾.

والهدف من النظر ليس مجرد الإذعان بقدرة الله، بل وأيضا بمعرفة تجليات قدرة الله على الخليقة والسنن التي أجراها الله فيها، وكيفية إجراء تلك السنن.

﴿كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ وهنالك إذا عرف كيف أحيا الله قد يهتدي إلى حقائق اليوم الآخر حيث إن خالق الدنيا هو خالق الآخرة، وإن قدرته فيهما سواء.

﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ إن انتقال السحاب من أقصى الأرض ليمطر في أقصاها، تعكس في وجداننا الإيمان بالبعث، والحياة بعد الموت، فكما يحيي الله الأرض بالمطر، كذا يحيي الأنفس بعد موتها.

[٥١] ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ هناك فرق بين كلمتين (ريح) و(رياح) في القرآن الكريم، فالريح تستخدم في موارد العذاب، والرياح تستخدم في موارد الرحمة والبشارة.

وفي الرواية عن رسول الله ﷺ أنه إذا رأى الريح قد هاجت يقول: **«اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا رِيَاحاً وَ لَا تَجْعَلْهَا رِيحاً»**(١).

وأما لماذا سميت الريح بالصفراء؟.

جاء في تفسير البيضاوي(٢): «إن الصفراء التي تجعل الأرض والزرع صفراء»، وقد فسرها البعض بأنها التي: «تنذر بالعذاب»، ولا خير فيها، وجاء في الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: **«الرِّيَاحُ خَمْسَةٌ مِنْهَا العَقِيمُ فَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شَرِّهَا. وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا هَبَّتْ رِيحٌ صَفْرَاءُ أَوْ حَمْرَاءُ أَوْ سَوْدَاءُ تَغَيَّرَ وَجْهُهُ واصْفَرَّ لَوْنُهُ وكَانَ كَالخَائِفِ الوَجِلِ حَتَّى تَنْزِلَ مِنَ السَّمَاءِ قَطْرَةٌ مِنْ مَطَرٍ فَيَرْجِعُ إِلَيْهِ لَوْنُهُ ويَقُولُ: جَاءَتْكُمْ بِالرَّحْمَةِ»**(٣).

وعندما يرى الإنسان الريح مصفرة يكفر بالرب، وبقدرته على دفع المكروه عنه، وينسى بأن الله الذي بعث بهذه الريح قادر على أن يبدلها برياح مباركة.

[٥٢] لقد تليت علينا آنفا آيات الله، ولكن ليس كل الناس قادرين على وعيها، بالرغم من شدة وضوحها، ونفاذ بلاغتها، فمن الناس من هو ميت الأحياء قد سدت منافذ قلبه تماما كالجاحدين، ومنهم من فقد السمع وهو يتولى هاربا من الحقائق كمن أخذتهم العزة بالإثم، ومنهم العمي الذي حجب بصره غشاوة.

هؤلاء بحاجة إلى إصلاح أنفسهم قبل تلقي آيات الله ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾.

[٥٣] ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ ويبدو أن السياق يقسم هؤلاء الناس إلى ثلاثة أقسام: الميت والأصم والأعمى.

ولعل الأول هو الكافر الذي يكون بمثابة الميت، الذي لا يسمع ولا يرى، أما الثاني فهو الأصم الذي يمكن أن يفهم بالإشارة، ولكن بسبب توليه مدبرا لا يسمع، كما أنه لا يرى، والثالث الأعمى الذي يمكن أن يسمع ويعي، ولكنه لا يستطيع أن يطبق ما يسمع لأنه أعمى.

واستخدم السمع للميت، باعتباره آخر ما يفقده الحي، واستخدم السمع للأصم لأن

---

(١) بحار الأنوار: ج٥٧ ص٤.
(٢) تفسير البيضاوي: ج٤، ص٣٤١.
(٣) بحار الأنوار: ج٥٧، ص٦.

أبرز عيب فيه عدم السماع، ولم يستخدم السماع للأعمى لأنه يسمع، بل قال: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾.

إن السمع الذي هو بداية فهم التجربة والانتفاع لا يكون إلا عند التسليم، فمن فقد حالة التسليم النفسي للحق لم ينتفع حتى بسمعه ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾.

وكلمة أخيرة: في درس مضى قرأنا قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. وفي الآية بعدها يذكر إرسالا آخرا، ولكن ليس للرياح وإنما للرسل، فيأتوهم بالبينات: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وفي الآية بعدها يبسط القول في الرياح فيقول: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

وبعد ذلك يتكلم عن إحياء الأرض بعد موتها بالمطر.

ونستوحي من هذا الترتيب:

أولاً: أن الله كثيرا ما يربط بين إرسال الرياح وبين إرسال الرسل، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٧-٥٩].

وهكذا تكون رسالاته مظهرا لبركاته، كما الرياح الخيرة.

ثانياً: لقد فسر آل البيت عليهم السلام السحاب بالرسول صلى الله عليه وآله وفسروا إحياء الأرض بعد موتها بإحياء الأرض بأئمة الهدى.

وجاء في بعض الروايات أن ذلك جاء في حق صاحب الأمر القائم (عج). فعن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ قال: «**يُحْيِيهَا اللهُ عَزَّ وَ جَلَّ بِالقَائِمِ بَعْدَ مَوْتِهَا يَعْنِي بِمَوْتِهَا كُفْرَ أَهْلِهَا وَالكَافِرُ مَيِّتٌ**»[1].

(١) بحار الأنوار: ج٥١، ص٥٤.

هذا يوم البعث

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً[1] يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (٥٤) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (٥٥) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٥٦) فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٥٧) وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ (٥٨) كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٥٩) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ[2] الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ (٦٠) ﴾

هدى من الآيات:

تقلب البشر في كف التقدير دليل على قدرة المدبر، كما أن تقلبات الأرض تجليات قدرة ربنا سبحانه، وفي دروس مضت ذكرنا السياق بتغيرات الطبيعة، وها هو الدرس الأخير يذكرنا بأن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان من ضعف، ويرده إلى ضعف من بعد قوة، فهو الذي يخلق ما يشاء وليس البشر نفسه وهو العليم القدير.

وسفينة الزمن تحمل البشر عبر أمواج المتغيرات إلى شاطئ الساعة حيث يواجه الحساب، أما المجرمون فإنهم يقسمون ما لبثوا غير ساعة، لأنهم كانوا يؤفكون، بينما يعرف أهل العلم

(١) شيبة: حال الشيخوخة والهرم.
(٢) لا يستخفنك: لا يستفزنك.

والإيمان أن هذه نهاية المطاف، إنه يوم البعث الذي لم يعلموا عنه شيئا، وهنالك لا تنفع الظالمين المعذرة، ولا هم يسألون عن ذنوبهم، بل يلقون جزاءهم بلا عتاب استخفافا بهم.

وهكذا لم يدع القرآن حقيقة إلا وبينها عبر مثل، ولكن الكافرين لن ينتفعوا به لأنهم يجحدون به. بلى؛ إن قلوبهم مغلقة ولابد أن يصبر المؤمنون، ولا تدعوهم إثارات الكفار إلى العجلة.

بينات من الآيات:

[٥٤] نظرة المؤمن إلى الزمن تختلف عن غيره، إذ إنه يستوحي من التغيرات الطارئة إيمانا ومعرفة بالحقائق الثابتة، ويستشهد بها على ما سيحدث مستقبلا، أما الكافر فإنه ليس لا يستوحي من التحولات والتغيرات الطارئة عبرة، بل وتشوش رؤيته هذه التحولات أيضا.

إن هذا التطور في حياة الإنسان يدل على أن الإنسان هو الإنسان نفسه، ولكن التغيير إنما طرأ على شيء خارج ذاته، فالقوى التي كانت ضعفا في الصغر، وتعود ضعفا في الكبر ليست من ذات الإنسان، وإلا لاستمرت معه، والعلم ليس من ذات الإنسان، وإلا لكان يلازمه، ولكن الله أخرجنا من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئا، فجعل لنا السمع والأبصار والأفئدة، وكل شيء فيك سوف يزول.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ ولم يكن خلق الإنسان أساسا من مادة الضعف، لأن الله جل وعلا يخلق الأشياء بالإرادة الإلهية ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة١١٧]، وإنما جعله ضعيفا، لأنه خلقه من التراب، أو كان الضعف أساس خلقته، وواقع ذاته، جاء في دعاء مأثور عن الإمام الحسين عليه السلام: «**أَنَا الفَقِيرُ فِي غِنَايَ فَكَيْفَ لَا أَكُونُ فَقِيراً فِي فَقْرِي إِلَهِي أَنَا الجَاهِلُ فِي عِلْمِي فَكَيْفَ لَا أَكُونُ جَهُولاً فِي جَهْلِي**»[1].

﴿ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ في شبابه حتى كهولته، إذ القوة ليست من ذات البشر ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ وهذا الضعف الثاني يعتريه نتيجة المرض أو نتيجة الشيخوخة. ومن المعروف أن مرض الشيخوخة لا يعالج إذ إنه يتسبب من انعدام أو ضمور خلايا المخ التي لا تعوض بأية وسيلة.

قال بعض الشعراء:

عجوز تمنت أن تكون فتية وقد يبس الجنبان واحدودب الظهر

(١) بحار الأنوار: ج٩٥ ص٢٢٥، دعاء الإمام الحسين عليه السلام يوم عرفة.

فجاءت إلى العطار تبغي شبابها وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر

﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ هذه التحولات التي تجري على الإنسان تكشف عن قدرة الله وعلمه سبحانه، إن أعظم آية على قدرة الرب يقلب الإنسان من حال إلى حال، في إطار تقدير حكيم، وتدبير رشيد، حتى يعرف أنه القادر المهيمن العليم الحكيم، جاء في دعاء الإمام الحسين عليه السلام: «**إِلَهِي عَلِمْتُ بِاخْتِلَافِ الآثَارِ وَتَنَقُّلَاتِ الأَطْوَارِ أَنَّ مُرَادَكَ مِنِّي أَنْ تَتَعَرَّفَ إِلَيَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى لَا أَجْهَلَكَ فِي شَيْءٍ**»[1].

[٥٥] لا يتوقع المجرم امتثاله للمحاكمة، وتراه يسوف في نفسه الجزاء، ويتمنى لو أنه لا يأتيه أبدا، ولكن المكتوب عند الله غير ذلك تماما، فكل يوم يمر يقربه إلى يوم الجزاء خطوة ومادامت الساعة آتية، ومادمنا امتطينا صهوة الآجل، فلابد أن نلتقي يوما وإياها.

ولهول المفاجأة يحلف المجرم أنها لبث ساعة واحدة، وهي اللحظة العابرة من الوقت، وهكذا تتلاشى المسافة آنئذ بين لحظة الذنب ولحظة الحساب، وفعلا ما هي قيمة أيام الدنيا بالقياس إلى الخلود، بل ما وزن اللحظات العابرة التي يقضيها المجرم مع شهواته بالأحقاب التي يلبثها عند الجزاء.

وهكذا يحلف المجرم بأنه ما لبث غير ساعة، ولعله صادق بالقياس إلى الموازين التي اختلقها بنفسه فيما يرتبط بالعقاب، فهو كان يزعم أنه لا يأتيه أبدا، أو إذا كان يأتيه فهو بعيد، وبعيد جدا في زعمه، وهكذا كذب على نفسه، وصرف ذاته عن الحقيقة بهذا التسويف وتلك التمنيات.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ بأهوالها، وصعقة مفاجأتها، وعظيم وقعها في السماوات والأرض، يومئذ.. ﴿يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ وهم الذين ارتكبوا الموبقات ظانين ألا جزاء ينتظرهم ﴿مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ حتى كأنهم يواجهون الجزاء فور الانتهاء من الجريمة.

ولو أننا ننتبه إلى مدى سرعة طي الزمن، ومدى اقتراب الأجل، وكيف أن العقاب أقرب بكثير مما نتصور، وأن المسافة التي نتخيلها تفصل بيننا وبين الجزاء ليست إلا وهما؛ إذا لارعوينا.

هكذا يقول المؤمنون في دعائهم لربهم: «**وَلَوْ خِفْتُ تَعْجِيلَ الْعُقُوبَةِ لَاجْتَنَبْتُهُ**»[2].

---

(١) بحار الأنوار: ج٩٥ ص٢٢٥، دعاء الإمام الحسين عليه السلام يوم عرفة.

(٢) بحار الأنوار: ج٩٥، ص٨٤، من دعاء أبي حمزة الثمالي.

ويقولون: «اللّهُمّ عَظُمَ بَلائي وَأَفْرطَ بي سُوءُ حَالي وَقَصُرَتْ بي أَعْمَالي وَقَعَدَتْ بي أَغْلالي وَحَبَسَني عَنْ نَفْعِي بُعْدُ آمَالي، وَخَدَعَتْني الدُّنيا بِغُرورِها وَنَفْسِي بِخيانَتِها وَمِطالي يا سَيِّدي»[1].

ويقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «أَيُّها النَّاسُ إنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ اثْنَانِ اتِّبَاعُ الهَوَى وطُولُ الأَمَلِ فَأَمَّا اتِّبَاعُ الهَوَى فَيَصُدُّ عَنِ الحَقِّ وأَمَّا طُولُ الأَمَلِ فَيُنْسِي الآخِرَةَ»[2].

﴿ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴾ ويصرفون عن الحق، ويزعمون أن الجزاء بعيد، أو أنه لا يأتي أبدا، والسؤال: من الذي يصرفهم عن الحق؟ الجواب: قد يكون الشيطان أو المجتمع الفاسد أو هوى النفس، وبالتالي أنى كان عامل الضلالة فإنهم لا يمكنهم أن يغيروا الواقع بتمنياتهم الحلوة، كلا.. الجزاء آت، وسوف يقولون عنده أنهم لم يلبثوا غير ساعة.

ولعل كلمة ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ هنا توحي بأن ضلالتهم في معرفة مدة لبثهم تشبه ضلالتهم في إبعاد فكرة الجزاء عن أذهانهم.

ومن هنا ينبغي أن يتضرع الإنسان إلى ربه ألا ينسيه الآخرة، وأن يقصر أمله بحسن العمل.

[٥٦] أما المؤمنون فإنهم على يقين من الآخرة، ويحذرون الحساب، ويشفقون من الساعة، ويسعون دائبين لاتقاء عذاب ربهم، فلذلك لا تفاجئهم الساعة، أوليسوا قد أعدوا عدتها، وتزودوا لرحلتهم إليها الزاد الأوفى؟

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ ﴾ لعل العلم هنا هو علم الساعة، بدليل قوله سبحانه في آخر هذه الآية: ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾، أما الإيمان فهو التصديق لما يقتضيه العلم بالقول الصادق والعمل الصالح.

﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ﴾ ليس المهم المدة التي لبثتم خلالها، طالت أم قصرت، المهم أنكم بالتالي واجهتم ما هربتم منه بزعمكم.

ولعل التعبير بـ ﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ يشبه ما نقوله: (في الواقع)، أي أنه بعكس تمنياتكم بألا تأتي الساعة أو أن تطول المسافة بينكم وبينها لم يقع ما هوت أنفسكم، بل وقع ما أراد الله، وما أثبته في كتابه الذي هو مقياس الحق، وليس أهواءكم وتمنياتكم وما تشتهيه أنفسكم.

(١) اقبال الأعمال، لإبن طاووس، ص٧٠٦. من دعاء كميل بن زياد.
(٢) نهج البلاغة: خطبة٤٢.

إن أهم ما ينبغي أن يعرفه الإنسان أن العالم المحيط به لا يتبع أهواءه، ولا يمشي حسب أحلامه، بل حسب ما كتب الله.

﴿فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾ الذي أنكرتموه ولم يجدكم إنكاركم له نفعا، بلى؛ إن إنكاركم أفرز نتيجة واحدة هي جهلكم وعدم استعدادكم ﴿وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

ونستوحي من هاتين الآيتين: أن الكافر لا يعيش الزمن، ولا يعترف بالنهاية، ولا يحترم وقته الذي يسوقه إلى تلك النهاية الفظيعة، بينما المؤمن يعي حقيقة الزمن التي هي فرصته الوحيدة، ويتحسس بمرورها، فلا يدع ساعة من وقته دون أن يملأها عطاء ليتزود به ليوم فاقته ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨/ ٨٩].

بلى؛ إن منطق المؤمن من الزمن يجسده الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام حين يناجي ربه قائلا: «**وَ أَعِنِّي بِالبُكَاءِ عَلَى نَفْسِي فَقَدْ أَفْنَيْتُ بِالتَّسْوِيفِ وَ الآمَالِ عُمُرِي وَ قَدْ نَزَلْتُ مَنْزِلَةَ الآيِسِينَ مِنْ خَيْرِي**» ثم يضيف ضارعا: «**وَمَا لِي لَا أَبْكِي وَلَا أَدْرِي إِلَى مَا يَكُونُ مَصِيرِي وَأَرَى نَفْسِي تُخَادِعُنِي وَأَيَّامِي تُخَاتِلُنِي وَقَدْ خَفَقَتْ عِنْدَ رَأْسِي أَجْنِحَةُ المَوْتِ**» ثم يصور نفسه الساعات الرهيبة التي تنتظره لكي يتزود لها ويقول: «**فَمَا لِي لَا أَبْكِي أَبْكِي لِخُرُوجِ نَفْسِي أَبْكِي لِظُلْمَةِ قَبْرِي أَبْكِي لِضِيقِ لَحْدِي أَبْكِي لِسُؤَالِ مُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ إِيَّايَ**» ويبلغ ذروة ضراعته عند تذكر أهوال الساعة فيقول: «**أَبْكِي لِخُرُوجِي عَنْ قَبْرِي عُرْيَاناً ذَلِيلَا حَامِلًا ثِقْلِي عَلَى ظَهْرِي أَنْظُرُ مَرَّةً عَنْ يَمِينِي وَأُخْرَى عَنْ شِمَالِي إِذِ الخَلَائِقُ فِي شَأْنٍ غَيْرِ شَأْنِي لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ وَذِلَّةٌ**»[1].

[٥٧] لعل الشيطان يسول للعاصي فعل المحرمات بأن الآخرة مثل الدنيا، إذا ارتكب جريمة تنصل عنها، واعتذر، فتقبل معذرته، يقول ربنا لعلاج هذا الوسواس: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ﴾.

وأساسا إن ذلك اليوم هو يوم الجزاء، لذلك لا يطالب الظالمون بالتوبة، لأن فرصتهم قد انتهت ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾.

[٥٨] ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ يبين القرآن لنا من كل حقيقة في الخلق أو في النفس جزءا لنستدل به على الحقيقة كلها، ولكن كل تلك الحقائق لا تنفع الكافرين رغم وجود آيات الصدق عليها.

(١) بحار الأنوار: ج٩٥، ص٨٩، من دعاء أبي حمزة الثمالي.

﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ لماذا ينكر هؤلاء أبدا الحق؟ وما هي عوامل الإنكار عندهم؟.

الجواب: لأنهم بظلمهم فقدوا القدرة على الفهم.

[٥٩] ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لأنهم تركوا العلم والإيمان بالرسالة إلى الجهل والعناد، و عندما يترك الإنسان علمه إلى جهله يتحول قلبه إلى صندوق مقفل ومختوم عليه.

[٦٠] كان ذلك موقف الذين كفروا، أما موقف المؤمن فهو الصبر، وانتظار الفرج، ولأن الله آلى على نفسه أن ينصر عباده الصالحين ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ وهذه إشارة إلى النبي ﷺ أن يستمر على عمله، ولا يتأثر بما يقوله الذين لا يوقنون.

سُورَةُ لُقمَان

* مكية.

* عدد آياتها: ٣٤.

* ترتيبها النزولي: ٥٧.

* ترتيبها في المصحف: ٣١.

* نزلت بعد سورة الصافات.

فضل السورة

عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ لُقْمَانَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ وَكَّلَ اللهُ بِهِ فِي لَيْلَتِهِ مَلَائِكَةً يَحْفَظُونَهُ مِنْ إِبْلِيسَ وجُنُودِهِ حَتَّى يُصْبِحَ فَإِذَا قَرَأَهَا بِالنَّهَارِ لَمْ يَزَالُوا يَحْفَظُونَهُ مِنْ إِبْلِيسَ وجُنُودِهِ حَتَّى يُمْسِيَ».

(وسائل الشيعة: ج٦ ص٢٥٣)

الإطار العام

حكمة الله في قلوب الشاكرين

لم يكن لقمان نبياً ولكنه كان رجلاً حكيماً، وكانت حكمته إلهية، وقد خلدها الذكر الحكيم في آياته لتكون نبراساً وهدىً، وسمى السورة باسمه ليضرب مثلاً من واقع عبد شكر الله فشكره الله، وآتاه الحكمة بفضله.

جملة معارف سورة لقمان التنويه بحكمة الله التي تجلت في الكتاب، وتتجلى في قلوب المحسنين، ولا ينتفع بهاالمستكبرون. ولقد آتاها ربنا لقمان، ولخصها في كلمة واحدة، هي شكر الله، وفصلها لقمان لابنه في عشر وصايا تنبعث من الشكر؛ أولها معرفة الخالق، وآخرها عدم التكبر على المخلوقين.

وتبين السورة بتفصيل آيات الله التي تهدي إلى توحيده، وتوحيد الله وحدود شكر عباده؛ أي لا يجوز أن يطيع الفردوالديه إذا أمراه بالشرك بالله.

وضمن هذا الإطار تنتظم موضوعات سورة لقمان، وفيما يلي بعض التفصيل:

إن حكمة الكتاب تنفع المحسنين فتكون لهم هدى ورحمة، وهم الذين يقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، ويوقنون بالآخرة. فهم أصحاب الهداية والفلاح، بينما هنالك أناس يشترون بأعمارهم وأموالهم لهو الحديث، من أفكار باطلة،وممارسات ماجنة كالغناء، و هدفهم الضلالة عن سبيل الله، ويحذر القرآن بأن لهذه الطائفة عذاباًمهيناً (الآيات: ١-٧).

بينما أعد ربنا للصالحين جنات النعيم. أوليس ربنا حكيماً، يعطي كل فريق جزاءه العادل وهو القوي العزيز؟!(الآيات: ٨-٩).

ولكي نعرف حكمة الله، وبالتالي نشكره ليرزقنا من حكمته، يذكرنا السياق بخلق

السماوات بغير عمد تُرى، ووضع الجبال في مراسيها لتحافظ على استقرار الأرض، وخلق كل دابة (ممكنة التصور) ورزقها عبر النبات الذي ينبته في الأرض بالغيث، ويجعله زوجاً كريماً (بحكمته البالغة). هذا ما خلقه الله، وهكذا خلقه، فماذا خلق الشركاء؟ كلا؛ إن الظالمين في ضلال مبين (الآيات: ١٠-١١).

ويعود السياق لبيان آيات الله في (الآيات: ٢٠-٣٠) بعد أن يذكرنا بمفردات الحكمة التي آتاها لقمان ولخصها في كلمة واحدة (شكر الله)، ذلك لأن شكر الله لا يتم إلا بمعرفته ومعرفة آلائه ونعمائه علينا، وأول ما يذكره أن الشكر لله يعود إلى نفس الشاكر، لأن الله غني حميد. ثم يذكرنا بأن شرط الشكر اجتناب الشرك، وينبغي أن يشكر الإنسان والديه ولكن في حدود شكر الله، فإذا أمراه بالشرك فلا يجوز له إطاعتهما (الآيات: ١٢-١٥).

ولابد أن يعرف الإنسان أنه مسؤول عن أعماله، وأنه حتى لو كان العمل بوزن خردلة أتى الله به أنى كان (وهكذا تعود إلى الإنسان أعماله) (الآية: ١٦).

ومن مفردات الشكر وبالتالي الحكمة إقامة الصلاة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصبر؛ ومن مفرداته المشي هوناً،عدم المشي مرحاً، واجتناب الاختيال والفخر، والقصد في المشي، والغض من الصوت (الآيات: ١٧-١٩).

ثم يذكرنا السياق بنعم الله علينا والتي تستدعي الشكر. أوليس كل شيء نقدر عليه فإنما سخره الله لنا، وأسبغ النعم ظاهرة باطنة، بينما نجد البعض يجادل في الله بغير إثارة من علم أو هدى أو كتاب منير.

وهم يتبعون آباءهم الذين اتبعوا الشيطان، وأكد ربنا أن الخوف من الآباء لا أساس له، لأن التسليم لله وحده،والإحسان إلى العباد يجعل العبد مصوناً من الأشرار، لأنه العروة الوثقى، ولأن لله عاقبةالأمور (الآيات: ٢٠-٢١).

أما الكفار؛ فإنهم لا يُحزنون المؤمنين، لأن عاقبتهم إلى الله الذي يجازيهم. بلى؛ يمتعهم في الدنيا قليلاً (دون أن يدل ذلك على قربهم إلى الله) ثم يضطرهم إلى عذاب غليظ (الآيات: ٢٣-٢٤).

ويذكِّر السياق بعشر أسماء حسنى لرب العالمين مع تقديم شواهد حق عليها، لترسيخ قواعد الإيمان في قلوبهم. فالله هوالخالق الذي لا ينكر أحد ذلك، وهو الغني الحميد، فله ما في السماوات والأرض، وهو العزيز الحكيم الذي لا تحصى كلماته، وهو السميع البصير، وهو

الخبير الذي يولج الليل في النهار، والنهار في الليل، وقد سخر الشمس والقمر وأجراهما في المسير المحدد لهما، وهو الحق الذي لا يزال ملكه، بينما يبطل ما يدعون من دونه وهو العلي الكبير (الآيات: ٢٥-٣٠).

والله يهدي الناس عبر آياته، ولكن الذين يعيشون الصبر والشكر يهتدون بها، ويعرض ربنا سبحانه الناس لبعض الساعات الحرجة ليتضرعوا إليه، ولكنهم بعدها ينقسمون فريقين؛ فمنهم مقتصد ومنهم جاحد، والجاحد هو كل ختار كفور، وهو الذي لا يفي بوعده ولا يشكر نعماء ربه (الآيات: ٣١-٣٢).

وفي الآيتين الأخيرتين من السورة (الآيات: ٣٣-٣٤) يحذر ربنا الناس من يوم القيامة، حين لا تنفع العلاقات النسبية الحميمة، ويؤكد لهم أن وعده حق، فلا تغرنهم الدنيا وأهلها (وبذلك يلخص الرب التحذير من عوامل الانحراف).

وفي الخاتمة يذكرنا بعلمه المحيط وقدرته الواسعة.

الإحسان تكامل وهداية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ[1] لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا[2] ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ[3] وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾.

هدى من الآيات:

تدور الآيات في هذا الدرس حول موضوع الإحسان، الذي يجب أن يكون صيغة العلاقة بين الإنسان والآخرين، ولا ريب أن سعي البشر لبناء المستقبل الفاضل لنفسه طموح شريف،

(١) لهو الحديث: الباطل الملهي عن الخير.
(٢) وقراً: الوقر الحمل الثقيل، أي كان في مسامعه حمل ثقيل يمنعه عن الاستماع، حتى يهتدي.
(٣) أن تميد بكم: لئلا تضطرب بكم.

أما إذا كان هذا السعي مبنيا على أساس الاستئثار والأخذ من الآخرين فقط فهو أمر مرفوض، إذ ينتهي بالمجتمع إلى الصراع والشقاء، من هنا يحث القرآن الحكيم على علاقة متوازنة، تعتمد ركيزتي الأخذ والعطاء، التي لو انتهجها المجتمع لتدرج نحو الكمال الحضاري لأن العلاقة حينها ستكون البناء والتكامل بين أفراد المجتمع، وعلى عكس ذلك العلاقة المعتمدة على عبادة الذات ومحورية المصلحة، حيث تصل بالمجتمع إلى حضيض التخلف والانهيار، ويصبح الشغل الشاغل لكل فرد آنئذ هو افتراس الآخرين بأية وسيلة كانت، ولا غرابة أن تؤكد هذه السورة المباركة على ضرورة العطاء، وتبتدئ بعبارة: ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾ لأن السبيل إلى رحمة الله هو العمل برسالته، ولا يتأتى ذلك إلا بالإحسان والعطاء.

ولكي تحل علينا رحمة الرب لابد أن نحسن للآخرين فنأخذ منهم لنعطيهم، وإلا فلن تكون الرحمة من نصيبنا ولا الهدى. لماذا؟ وما هي علاقة الإحسان بالهداية في حياة الإنسان؟.

والجواب: إن الذي يعيش حالة مناقضة للإحسان كابتزاز حقوق الآخرين، إنما يقوم بذلك لما يعيشه من حب مفرط للذات، فلا يرى من هذا الكون الرحيب سوى نفسه، فيعبد هواه، وبالتالي يبتعد عن الحق، وهكذا يكون مقياسه المصلحة لا القيم، وهدفه الذات لا الحق وهذا يسبب كل انحراف. إن العقل والرسالات الإلهية توجه الإنسان إلى حقائق الخليقة، بينما توجهه شهواته وأهواؤه إلى داخل ذاته، ومن هنا فان استمرار اتباع الهوى يطفئ شعلة العقل، وهذا هو الضلال البعيد، ومن هنا يؤكد ربنا بأن المحسن هو الذي يصيب طريق الهدى في عالم المعنويات، والرحمة في عالم المادة، والتي هي الأخرى نتيجة للهدى.

ولو تدبرنا آيات القرآن لوجدنا أن من أهم ميزات الأنبياء الإحسان إلى الناس، بل وقد تكون العامل الهام في اصطفائهم للنبوة.

قال تعالى عن نبيه يوسف عليه السلام: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٢٢].

وقال عن النبي موسى عليه السلام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [القصص: ١٤].

وأكد ربنا هذا المعنى بصورة عامة إذ قال: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٦].

ولعلنا نستوحي من آيات الذكر أن الذين يتخذون الدين وسيلة لابتزاز الآخرين

واستغلالهم، أو مطية للمصالح والأهواء، لا يفهمون الدين فهما حقيقيا وعميقا -لأنه لا يفهمه إلا من كان محسنا، بعيدا عن شهواته وأهوائه-. ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢].

وبالرغم من أن الجميع يطمحون إلى الإحسان، إلا إنهم يجدون أيديهم وأنفسهم مقبوضة عن العطاء حينما ينزلون إلى ساحة العمل، فكيف نخلق صفة الإحسان في أنفسنا؟!.

بالصلاة لأنها تخلق في الإنسان دوافع الإحسان، وبالزكاة لأنها تطهر القلب من حب الذات كما تطهر المال، وكذلك باليقين، فكلما تأكدت الحقائق عند الإنسان كاليقين بالموت وبما بعده من الجزاء كلما كان أكثر إحسانا للآخرين، إذ يتأكد بأن ما يعطيه لا يذهب سدى، بل يعود إليه في صورة جنات أعدها الله للمتقين، فهو آنئذ لا يعتبر المغنم ما يصرفه على نفسه، بل المغنم كل المغنم هو ما ينفقه في سبيل الله.

وفي السيرة: أن رسول الله ﷺ ذبح شاة وتصدق بها ولم يُبقِ إلا الكتف، فقالت له عائشة: «لم يبق عندنا منها إلا الكتف! فقال ﷺ: الشاة كلها لكم إلا الكتف»[1]. لأنه يعلم بأن ما يأكلونه يتنعمون به وينتهي، بينما يبقى ما يعطونه صدقة في سبيل الله، وينفعهم في يوم لا ينفع فيه إلا العمل الصالح.

وفي نهاية الدرس يحدثنا القرآن الحكيم عن الطرف المقابل من الذين يقصدون لهو الحديث، لأن الأشياء تعرف بأضدادها، وبينما يهتدي أولئك لآيات الله، يصد هؤلاء عنها، كأن في آذانهم وقرا، وليس جزاء هؤلاء سوى النار.

بينات من الآيات:

[١] ﴿الٓمٓ﴾ كما احتملنا سابقا: إن الأحرف التي ترد في أوائل السور رموز لا يعلمها إلا الله والراسخون في العلم، ويحتمل أن تدل على ألفاظها.

[٢] ومن تركيب هذه الأحرف البسيطة في ظاهرها، أنزل الله سبحانه القرآن وآياته، في كتاب ثابت ينبعث بالحكمة ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾.

[٣] كما تعطي هذه الآيات الهدى والبصائر للمحسنين ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾ والإحسان ليس رحمة للمجتمع وحسب، بل هو هدى له أيضا، إذ يهديه الإحسان إلى سبل

(١) السنن الكبرى: البيهقي: ج٩، ص٢٥٠.

استغلال الطبيعة وتسخيرها في خدمة الإنسان، ذلك أن من صفات المجتمع الإيماني، بحث أفراده عن وسائل للعطاء والإحسان، ولا يمكنهم ذلك إلا بتسخير الطبيعة، مما يدفعهم لاستغلالها، وإعمال عقولهم بحثا عن حل لكل المشاكل والعقبات التي تعترض هذا الهدف، وبالتالي فإن أبوابا كثيرة سوف تنفتح أمامهم، وكلها طرق جديدة للسيطرة على الحياة واستغلالها، وهذا جانب من الهداية. أوليست الحاجة أم الاختراع؟!

[٤] ولكن كيف يمكن أن نوجد صفة الإحسان في المجتمع؟

١- بالصلاة لأنها معراج الروح نحو الفضيلة، باعتبارها تقرب الإنسان إلى رب العالمين.

﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ وإقامة الصلاة بالمعنى الحقيقي تتضمن بل تستدعي الإحسان، كما إن الصلاة تأتي نتيجة الإحسان، أليس المحسن يهديه الله؟! أوليس الإحسان يروض النفس ويزكيها؟!

٢- بالزكاة التي تربي الروح على الإحسان، وتطهرها من حب الذات.

﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ والزكاة ليست مجرد واجب ديني يقوم به المؤمن، بل هي برنامج يدربه على الإحسان، ومنطلق له نحو العطاء.

٣- باليقين بالآخرة، فالذي يقتصر نظره على الدنيا يكون منتهى السعادة عنده أن يتنعم ويستلذ حتى يعتقد كما قيل: أن الحياة لذة وشهوة، أما الآخر الذي يتيقن بالآخرة (الجزاء) وأن مستقبله فيها قائم على ما يقدمه في سبيل الله هنا في الدنيا، فهو يكتفي بما يقيم أوده لنفسه، ويدخر ما سواه لآخرته ﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾.

[٥] و يؤكد القرآن الكريم: أن هذه الصفات دليل على الهدى من جهة، وسبب الفلاح من جهة أخرى ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ في الدنيا بالهدى والنمو الذي يسببه الإحسان، ومحبة الناس لهم، وفي الآخرة بجزاء الله لهم، وإذ يحدثنا الله بصيغة المجتمع عن تجمع بصفة عامة وليس عن فرد واحد، فلأن الإحسان بالنسبة لفرد واحد يعيش في مجتمع فاسد قد لا ينفعه في الدنيا، أما إذا كان ضمن تجمع من المحسنين فإنه سيكون ذا جدوى في الآخرة والدنيا أيضا، بتعميقه روح المحبة والوئام داخل المجموع.

[٦] و لأن من مميزات السياق القرآني أنه يعرفنا مختلف المسائل والحقائق بذكر أضدادها، فبذكر النار يعرفنا الجنة، وبذكر الكفر يعرفنا الإيمان، نجده هنا أيضا يحدثنا عن الحالة المخالفة للإحسان.

فهناك من ينفق في سبيل الله من أجل الهداية، وهو بالتالي يمهد أرضية الهدى لنفسه بإحسانه وإنفاقه، وهناك من ينفق في سبيل الضلال ويشتري لهو الحديث. كلاهما يعطي من نفسه وماله ولكن هذا للهدى وذاك للضلال ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾.

ولكن لماذا يكون الضلال هدف هؤلاء؟ حتى إنك تجدهم يشترون ﴿لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾؟.

لأنهم يرون الحق يناقض أنانياتهم، تماما بعكس المحسنين الذين يرون الحق محورهم، وقلب الإنسان لا يمكن أن يكون فارغا أبدا، فإذا لم يملأه بالإيمان والعلم، فسيكون بيتا للهو والانحرافات.

واللهو هو القول والعمل الذي يخلو من أي هدف، وهو في النهاية يعود إلى الإنسان بالخسران، فهو لا يشتري اللهو بدراهم معدودة، إنما يدفع من أجله عمره الغالي وما يملك من فرص، ومثال ذلك الذي يشتري كتب الضلالة والمجون، ومن الطبيعي أن يبتعد هذا الإنسان عن آيات الله ويرفضها.

﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ﴾ على عكس المحسنين الذين يهتدون بالآيات ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾ [لقمان: ٣]، وهذه من أخطر المراحل التي يصل إليها البشر في الضلال.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ لاستهزائهم بآيات الله، واستكبارهم عليها.

والملاحظ أن السياق ربط بين الإحسان والهدى، ولكنه لم يسمه (شراء الهداية) بينما سمي الإنفاق في سبيل الضلال (بشراء لهو الحديث) وذلك لأن الهداية من الله، وهي أعز من أن تشترى.

كما إن هناك مفارقة بين الكتاب الحكيم وبين لهو الحديث، كما بين الهدى للمحسنين والضلال لمن يشتري لهو الحديث.

ومفردات لهو الحديث كثيرة تشير إلى بعضها الرواية المأثورة عن الإمام الصادق عليه السلام حيث قال: «**هُوَ الطَعْنُ فِي الحَقِ والاسْتِهزاءِ بِهِ وَمَا كَانَ أَبو جَهْلٍ وَأَصْحابُهُ يَجِيئُونَ بِهِ إِذْ قَالَ يا مَعْشَرَ قُرِيشٍ أَلَا أُطعِمَكُمْ مِنَ الزَّقُومِ الَّذِي يُخَوِفَكُم بِهِ صَاحِبَكُمْ ثُمَّ أَرْسَلَ إِلى زِبْدٍ وَتَمْرٍ وَقَالَ هَذَا هُوَ الزَّقُومُ الَّذِي يُخَوِّفَكُمْ بِهِ. قَالَ أَبو عَبْدِ الله عليه السلام: وَمِنْهُ الغِنَاءِ**»[1]. وقد استفاضت الأحاديث

(١) بحار الأنوار: ج٩، ص١٣٦.

المأثورة في تفسير هذه الآية بالنهي عن الغناء، باعتباره من لهو الحديث.

ونقرأ معا بعض تلك النصوص.

جاء في الأثر عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «**الغِنَاءُ مِمَّا أَوْعَدَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ عَلَيْهِ النَّارَ**» وتلا هذه الآية[1].

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**الغِنَاءُ مَجْلِسٌ لَا يَنْظُرُ اللهُ إِلَى أَهْلِهِ وهُوَ مِمَّا قَالَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ ومِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ**»[2].

وروى أبو أمامة عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «**لَا يَحِلُّ تَعْلِيمُ المُغَنِّيَاتِ، وَلَا بَيْعُهُن، وأَثْمَانُهُنَّ حَرَامٌ، وَقَدْ نَزَلَ تَصْدِيقُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللهِ ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ ﴾**»[3].

وجاء في حديث مروي عن الإمام الصادق عليه السلام وهو يعدد مفاسد الغناء: «**بَيْتُ الغِنَاءِ لَا تُؤْمَنُ فِيهِ الفَجِيعَةُ ولَا تُجَابُ فِيهِ الدَّعْوَةُ ولَا يَدْخُلُهُ المَلَكُ**»[4].

وجاء في نص آخر مأثور عنه أيضا قال: «**الغِنَاءُ يُورِثُ النِّفَاقَ ويُعْقِبُ الفَقْرَ**»[5].

ويبدو أن حكمة تحريم الغناء في الشريعة الإسلامية تتشابه وحكمة تحريم الخمرة والمسكرات والمخدرات والقمار، حيث إنها جميعا تلهي الناس عن ذكر ربهم، وتنسيهم الآخرة، وتخدرهم فيما يتصل بمشاكل حياتهم، وهي بالتالي نوع من الهروب عن مواجهة تحديات الحياة التي يتناسونها عبر الملهيات، كما إنها تجر المجتمع إلى المفاسد الاجتماعية، التي تسبب الصراعات وتزرع النفاق.

ولهذا أكد رسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله على هذا الجانب، في ما رواه عنه أحمد إمام المذهب المعروف، عن ابن مسعود أنه قال: «**الغِنَاءُ يُنْبِتُ النِّفَاقَ فِي القَلْبِ كَمَا يُنْبِتُ المَاءُ البَقْلَ**»[6]. والغناء يشجع أيضا الفساد والمجون، ويتخذه أصحاب الهوى وسيلة لإثارة شهواتهم، واتخاذ السبل السيئة لإشباعها مما يهدد التماسك الأسري بأخطار كبيرة.

---

(١) الكافي: ج٦ ص٤٣١.
(٢) الكافي: ج٦ ص٤٣٣.
(٣) بحار الأنوار: ج ٧٦، ص٢٤٠، الهامش.
(٤) وسائل الشيعة: ج١٧ ص٣٠٣.
(٥) وسائل الشيعة: ج١٧ ص٣٠٩.
(٦) مستدرك وسائل الشيعة: ج١٣، ص٢١٥

من هنا جاء في الحديث المأثور عن الإمام الباقر عليه السلام حول الغناء... أنه سئل عن كسب المغنيات فقال: «**الَّتِي يَدْخُلُ عَلَيْهَا الرِّجَالُ حَرَامٌ والَّتِي تُدْعَى إِلَى الأَعْرَاسِ لَيْسَ بِهِ بَأْسٌ**»[١].

«ولهذا فإن الغناء والموسيقى المطربة قد تجعل الأفراد منتشين أحيانا إلى حد يشبهون فيه السكارى، وقد لا يصل إلى هذه المرحلة أحيانا، ولكنه يوجد تخديرا خفيفا، ولهذا فإن كثيرا من مفاسد المخدرات موجودة في الغناء، سواء كان تخديره خفيفا أم قويا.

إن الانتباه بدقة إلى سيرة مشاهير الموسيقيين يبين أنهم قد واجهوا تدريجيًّا مصاعب وصدمات نفسية خلال مراحل حياتهم حتى فقدوا أعصابهم شيئا فشيئا، وابتلي عدد منهم بأمراض نفسية، وجماعة فقدوا مشاعرهم وساروا إلى دار المجانين، وبعضهم أصيبوا بالشلل والعجز، وبعضهم أصيب بالسكتة، حيث ارتفع ضغط الدم عندهم أثناء عزف الموسيقى»[٢].

[٧] ولا يمكن أن تنطفئ شعلة الهدى من قلب البشر بصفة كلية، بل لا بد من يبقى فيه وميض من نور العقل مهما تراكمت عليه الشهوات، هكذا أراد الله أن يقيم الحجة عليه أبدا من نفسه.

فبالرغم من وصول فرعون إلى قمة العناد، حيث ادعى الربوبية، ولكنه ما استطاع إطفاء الفطرة داخله، وإذا به يقول: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]. بلى؛ يمكن للبشر أن يخالف فطرته في فكره وسلوكه، لذلك تجده يسعى جادا للانفلات من وخز ضميره، ويهرب من أسباب هدايته.

﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرًا﴾ عنادا منه، ﴿كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا﴾ ولم يقل لم يسمعها، وهذا دليل على الاختيار، فالإنسان هو الذي يختار بنفسه لنفسه أن لا يسمع نداء الفطرة ولا آيات ربه مع تمكنه من الاستماع لذلك ﴿كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرًا﴾ وهو الثقل في السمع أو الصمم، وهذا الوقر أو الحجاب بينه وبين الآيات يكون تارة بسبب الأفكار المسبقة، وتارة أخرى بسبب العوامل الآنية كالاستكبار، وعموما فإن المقاييس الخاطئة التي يعتمدها الإنسان في تقييمه للأفكار والأشخاص والأشياء هي السبب في النتائج الخاطئة ﴿فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

هناك قال ربنا: ﴿مُّهِينٌ﴾؛ لأن جزاء الاستكبار في الدنيا الإهانة في الآخرة، حتى جاء في الحديث أن الله يحشر المستكبرين في صورة ذر يطؤهم الناس حتى ينتهي الحساب.

---

(١) الكافي: ج٥، ص١١٩.
(٢) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ج١٣، ص ٢٤-٢٥.

وهنا يقول ربنا سبحانه: ﴿أَلِيمٍ﴾ لأن الإنسان يستكبر، ويعرض عن الآيات من أجل التلذذ بشهوات الدنيا، وجزاء ذلك الإيلام في الآخرة، ويدل انسجام التعابير في موارد العذاب على أن الجزاء من جنس العمل، وبتعبير أبلغ الأعمال هي التي تتجسد جزاء وفاقا في الآخرة، بل في الدنيا أحيانا كثيرة.

[٨] وفي مقابل هذا الجزاء يأتي الحديث عن جزاء المؤمنين ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ جزاء لهم على ما أنفقوا من نعيم الدنيا في سبيل الله.

[٩] ويختلف هذا النعيم عن الدنيا بأن الجنة خالدة ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ ويدل على صدق وعد الله عزته وحكمته، ذلك أن الذي يخلف الوعد إما يكون قاصرا عن تحقيقه والوفاء به، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ القوي القادر.

وإما أن يكون عن جهل كأن يعد الإنسان أخاه بشيء ما ثم يكتشف خطأه أنه غير قادر على الوفاء فلا يفي بوعده، وحاشا لله وهو.. ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي يحيط علمه بكل شيء.

[١٠] ومن آيات عزة الله وحكمته الظاهرة الإبداع والمتانة المتجليان في خلقه.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ وهذا مما يزيدنا ثقة بوعد الله سبحانه، فهذه السماء الواسعة خلقها ورفعها كالسقف، من دون عمد نراها، وفي الحديث: «**فَثَمَّ عَمَدٌ وَلَكِنْ لَا تَرَوْنَهَا**»(١). وقال البعض: إن المقصود من العمد هو الجاذبية التي تثبت السماء وما فيها بقدرة الله وحكمته.

وحينما ننظر إلى الأرض، نلمس تجليات صفات الله وأسمائه الحسنى في بديع خلقه فيها.

﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ﴾ وهي الجبال، ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ لكي تحافظ على توازن الأرض، وتمنع عنها الحركات، وسميت بالرواسي تشبيها لها بالمرساة، التي تثبت السفينة في البحر. فالجبال التي تتصل ببعضها من تحت الأرض يجعلها شبيهة بدرع صخري متين، تمنع عن الأرض الهزات الهائلة التي كانت لولا الجبال تحول الأرض إلى أرجوحة لا تتوقف، وذلك بفعل الغازات الكثيرة الموجودة في وسط الكرة الترابية، والتي منها تأتي الزلازل وانفجار البراكين.

من جهة أخرى كانت جاذبية القمر تجعل الأرض لولا الجبال كسطح البحار خاضعة

(١) بحار الأنوار: ج٥٧، ص٧٩.

لقانون المد والجزر، كما إن اعتدال الهواء منوط بوجود الجبال، ولولاها لكان البرد القارص والحر الشديد يجعل الحياة صعبة، كما إن الرياح الشديدة كانت تلعب فوق الكرة كما في الفلوات الواسعة، وتجعلها ميدان جولاتها الخطيرة.

على أن في الجبال منابع الماء، وفي داخلها مخازن حفظ المياه من مواسم المطر إلى أيام الصيف، وفي بطونها معادن لمختلف الفلزات والأحجار الكريمة وسائر ما يحتاج إليه البشر.

أوليس كل ذلك دليل قدرة الله، ومتين صنعه، وحسن تقديره وتدبيره؟!.

﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ ونستوحي من الآية أن كل نوع ممكن ومناسب من الدواب قد خلقت، فهناك الصغير والكبير وما بينهما كثير من الأحجام، وهناك الطائر والماشي، والزاحف والهائم فوق البحار والغائص في أعماقها وعظيم تشابهها وكثرة أنواعها وهكذا، مما جعل داروين[1] يذهب إلى نظريته في أصل الأنواع وتسلسل نشوئها. والواقع أن انعدام الحلقات

---

(١) تشارلز داروين (١٨٠٩-١٨٨٢م) باحث إنجليزي، صاحب نظرية التطور في الأجناس الحية، أحدث كتابه (أصل الأنواع) الذي تضمن نظريته في التطور ضجة لم يحدثها أي مؤلف آخر في التاريخ الأوروبي قاطبة. وينبغي أن ننوه لثلاثة أمور:

١- تعارض هذه النظرية مع الأديان السماوية ليس في تفسير أصل الخلقة فحسب، بل يطال مقام التوحيد. إذ إن الصدفة لتفسير بداية الكائن الحي الأميبي يزيح الحاجة للخالق، كما أن الصدفة (الضرورة) التي تتحكم بالتطور تنفي الغائية في الفعل الإلهي.

٢- إن مفهوم التطور يحوي جملة من تلبيس في الرؤية يشير إليه البروفيسور (ميشيل دانتون) وهو من العلماء المشهورين في علم الأحياء المجهرية (Microbiology) في كتابه (التطور: نظرية في مأزق) ما يأتي: (في عالم الجزيئات والأحياء المجهرية لا يوجد هناك كائن حي يُعَدُّ جدًّا لكائن آخر، ولا يوجد هناك كائن أكثر بدائية، أو أكثر تطوراً من كائن آخر). أي أن كل كائن حي هو أفضل كائن بالنسبة لبيئته وبالنسبة للوظائف التي يقوم بها، وقد يملك خواصَّ وقابليات غير موجودة في كائن قد يُعِدُّه الكثيرون أكثر تطورًا منه. فالخفاش مثلاً يملك نظامًا للرادار لا يملكه الإنسان، ويملك النسر قابلية للرؤية لا يملكها الإنسان، وللكلب قابلية للشم أكثر مما هي موجودة في الإنسان (انظر إلى: Michael Denton «Evolution: A Theory in crisis» صفحة ٢٩٠-٢٩١).

٣- ويختصر البروفيسور المذكور عوامل انهيار الداورينية في ثلاث نقاط:

ألف: لم تتمكن النظرية إلى حد الآن من تفسير كيف بدأت الحياة على وجه الأرض.

بـاء: إن ما عرضته النظرية أمامنا من «آليات للتطور والنشوء والإرتقاء» لم تكن في الحقيقة مولدة لأيّ تطوّر.

تـاء: أثبتت المتحجرات عكس ما زعمته سابقًا نظريّة التّطور.

ويمكن أن نضيف: أن (الضرورة) عاجزة عن تفسير البعد الجمالي في المظاهر الكونية عموماً والحياة البشرية خصوصاً.

التي قيلت بأنها مفقودة في المخلوقات هو ثغرة في جدار ما ذهب إليه دارون والعلم اليوم يتجه نحو دفن هذه النظرية.

إن التنوع والتشابه في الخلق لهو دليل قدرة الله، وعظيم تدبيره، وقد سأل علي بن الحسن بن علي بن فضال عن أبيه عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: قلت له: لم خلق الله سبحانه وتعالى الخلق على أنواع شتى، ولم يخلقهم نوعا واحدا؟! فقال: «**لِئَلَّا يَقَعَ فِي الأَوْهَامِ أَنَّهُ عَاجِزٌ فَلَا تَقَعُ صُورَةٌ فِي وَهْمِ مُلْحِدٍ إِلَّا وَقَدْ خَلَقَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهَا خَلْقاً وَلَا يَقُولُ قَائِلٌ هَلْ يَقْدِرُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ عَلَى صُورَةِ كَذَا وَكَذَا إِلَّا وَجَدَ ذَلِكَ فِي خَلْقِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَيَعْلَمُ بِالنَّظَرِ إِلَى أَنْوَاعِ خَلْقِهِ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**»[1].

ومن كانت هذه قدرته فلماذا يخلف وعده؟ فليكن عندنا يقين بوعد الله، حينما نستقيم في سبيله، وهذا ما يدفعنا للإحسان والإنفاق من أجل الله.

وتستمر الآية في ذكر خلق الله فيقول: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾

وهكذا نجد الحياة يكمل بعضها البعض الآخر، وتحتاج أجزاؤها لبعض، وهذا من حكمة الله البالغة لعلمه بصلاح ذلك.

[١١] ثم يتحدى الله الأنداد ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾

إنهم لم يخلقوا حتى ذبابة وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه، ضعف الطالب والمطلوب.

﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾

وهل يشك أحد في ضلال هذا الإنسان الضعيف حينما يدعي الألوهية؟!.

---

(١) علل الشرائع: ج١، ص١٤.

ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ[1] فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ[2] عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ[3] ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ[4] مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ[5] لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا[6] ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ[7] ۚ إِنَّ أَنكَرَ[8] ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾.

(١) فصاله: فطامه.
(٢) جاهداك: بذلا ما في وسعهما كي يبدلا دينك.
(٣) أناب إلي: رجع إلي بالطاعة.
(٤) مثقال حبة: مقدار أصغر شيء.
(٥) لا تصعر خدك: لا تمله كبراً وتعاظماً، وصعر بمعنى أمال.
(٦) مرحاً: فرحاً وبطراً وخُيلاء.
(٧) واغضض من صوتك: اخفض وانقص من صوتك.
(٨) أنكر: أقبح، يقال: وجه منكر أي قبيح.

هدى من الآيات:

كيف تتكامل البشرية وتحظى بالهدى والسعادة؟ وما هي الحكمة الإلهية التي تجعل الفرد فاضلا والمجتمع سويا، في هذا الدرس من هذه السورة إجابة كافية لمن تدبر عبر وصايا يلقيها الحكيم الإلهي لقمان عليه السلام.

فقد أعطاه ربنا الحكمة، وأوجزها في كلمة ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ﴾، ويبدو أن الشكر جماع فضائل عديدة أبرزها:

ألف: الاعتراف بفقدان النعمة ذاتا، فلولا فضل الله علينا لما كنا مخلوقين، ولما كانت لنا الأسماع والأبصار والأفئدة، ومن هذا الاعتراف تنبثق فضيلة التواضع، وتجنب الخيلاء والفخر، وعدم تحدي الناس استكبارا وسائر ما ذكر في الآيات الكريمة.

باء: التصديق بفضل من أنعم علينا وهو الله سبحانه، ولا يتم التصديق إلا بتوحيده، وألا نشرك به من لا فضل له علينا أنى كان حتى ولو كان واسطة وصول الفضل إلينا. وهذا ما أمرت به الآية (١٣) ثم الآية (١٥).

جيم: احترام وسائط الفضل الذين قاموا بدور من وصول النعمة إلينا وأبرزهم الوالدان، وهذا ما أمرت به الآية (١٤) والآية (١٥) إذ إن اتباع سبيل من أناب إلى الله يشير إلى احترام التجمع الإيماني.

دال: السعي نحو تكريس النعمة، واتقاء ما يسبب زوالها. أولاً: بمعرفة أن عمل الإنسان يؤثر في بقاء أو زوال النعمة. ثانياً: بإقامة الصلاة، التي هي مظهر الشكر لله. ثالثا: بالدعوة إلى الخير والنهي عن الشر والصبر عند المكاره.

هكذا نعرف أن الشكر لله حقا هو أساس الحكمة الإلهية.

بينات من الآيات:

لقمان الحكيم الإلهي

[١٢] لقد خلد الله لقمان في كتابه بالرغم من أنه لم يكن نبيا، فمن هو وكيف أضحى حكيما؟.

في الحديث الذي يرويه العلامة الطبرسي في تفسيره مجمع البيان عن نافع، عن ابن عمر،

عن الرسول ﷺ نجد الجواب:

سمعت رسول الله ﷺ يقول: «حَقّاً أَقُولُ لَمْ يَكُنْ لُقْمانُ نَبيّاً وَلَكِنَّهُ كَانَ عَبْداً كَثِيرَ التَّفَكُّرِ حَسَنَ الْيَقِينِ أَحَبَّ اللهَ فَأَحَبَّهُ وَ مَنَّ عَلَيْهِ بِالْحِكْمَةِ كَانَ نَائِماً نِصْفَ النَّهارِ إِذْ جَاءَ نِدَاءٌ يَا لُقْمانُ هَلْ لَكَ أَنْ يَجْعَلَكَ اللهُ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ تَحْكُم بَيْنَ الناسِ بِالْحَق؟.

فَأَجَابَ الصَّوْتُ: إِنْ خَيَّرَنِي رَبي قَبِلْتُ الْعَافِيَةَ، وَلَمْ أَقْبَلِ الْبَلاءَ، وَإِنْ هُوَ عَزَمَ عَلَيَّ فَسَمْعاً وَطَاعَةً، فَإِنِّي أَعْلَمُ أَنَّهُ إِنْ فَعَلَ بِي ذَلِكَ أَعَانَنِي وَعَصَمَنِي، فَقَالَتْ الْمَلائِكَةُ بِصَوْتٍ لَا يَرَاهُم: لِمَ يَا لُقْمانُ؟.

قَالَ: لِأَنَّ الْحُكْمَ أَشَدُّ الْمَنَازِلِ وآكَدُهَا، يَغْشاهُ الظُّلْمُ مِنْ كُلِ مَكان، إِنْ وَفى فَبِالْحَرِّيُ أَنْ يَنْجُو، وَإِنْ أَخْطَأَ أَخْطَأَ طَرِيقَ الْجَنَّة، وَمَنْ يَكُنْ فِي الدُنيا ذَلِيلاً وَفِي الآخِرَةِ شَرِيفاً خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَكُونَ فِي الدُنيا شَرِيفاً فِي الآخِرَةِ ذَلِيلاً، ومَنْ تَخَيَّرَ الدُّنْيا عَلَى الآخِرَةِ تَفُتْهُ الدُنْيَا وَلا يُصِيبُ الآخِرَة، فَعَجِبَتْ الملائِكَةُ مِنْ حُسْنِ مَنْطِقِهِ، فَنَامَ نَوْمَةً فَأُعْطِيَ الحِكْمَةَ، فَانْتَبَهَ يَتَكَلَّمُ بِهَا، ثُمَّ كَانَ يُؤازِرُ دَاوودَ بِحِكْمَتِهِ، فَقَالَ لَهُ دَاوود: طُوبَى لَكَ يَا لُقْمانُ أُعْطِيتَ الحِكْمَةَ، وَصُرِفَتْ عَنْكَ البَلْوَى»[1].

ويبين لنا الإمام الصادق عليه السلام تفاصيل أخرى عن حياة لقمان، والسبب الذي جعل به حكيما نثبت منه بعض النقاط العامة. قال الإمام الصادق عليه السلام: «مَا أُوتِيَ لُقْمانُ الحِكْمَةَ لِحَسَبٍ وَلَا مَالٍ وَ لَا بَسْطٍ فِي جِسْمٍ وَلَا جَمَالٍ وَ لَكِنَّهُ كَانَ رَجُلًا قَوِيّاً فِي أَمْرِ الله مُتَوَرِّعاً فِي الله سَاكِتاً سَكِيناً عَمِيقَ النَّظَرِ طَوِيلَ الفِكْرِ حَدِيدَ النَّظَرِ مُسْتَغْنٍ بِالعِبَرِ لَمْ يَنَمْ نَهَاراً قَطُ وَلَمْ يَرَهُ أَحَدٌ مِنَ النَاسِ عَلَى بَوْلٍ وَلا غَائِطٍ وَلا اغْتِسالٍ لِشِدَّةِ تَسَتُّرِهِ وَعُمْقِ نَظَرِهِ وَتَحَفُّظِهِ فِي أَمْرِهِ.

وَلَمْ يَضْحَكْ مِنْ شَيْءٍ قَطُ مَخَافَةَ الإِثْمِ وَلَمْ يَغْضَبْ قَطُ وَلَمْ يُمَازِحْ إِنْسَاناً قَطُ وَلَمْ يَفْرَحْ لِشَيْءٍ إِنْ أَتَاهُ مِنْ أَمْرِ الدُنْيا وَلا حَزِنَ مِنها عَلَى شَيْءٍ قَطُ وَقَدْ نَكَحَ مِن النِساءِ وَوَلَدَ لَهُ الأَوْلادُ الكَثِيرَةُ وَقَدِمَ أَكْثَرُهُم إِفراطا[2] فَمَا بَكَى عَلَى مَوْتِ أَحَدٍ مِنْهُم وَلَمْ يَمُر بِرَجلين يَخْتَصِمانِ أَوْ يَقْتَتِلانِ إلاّ أَصْلَحَ بَيْنَهما وَلَمْ يَمْضِ عَنْهُما حَتَّى تَحَاجَزَا وَلَمْ يَسْمَعْ قَوْلاً قَطُ مِنْ أَحَدٍ استَحْسَنَهُ إِلّا سَأَلَ عَنْ تَفْسِيرِهِ وَعَمَّنْ أَخَذَهُ.

وَكَانَ يُكْثِرُ مُجَالَسَةِ الفُقَهاءِ وَالحُكَماءِ وَكَانَ يَغْشَى القُضَاةَ وَالمُلوكَ والسَلاطِينَ فَيَرْثِي لِلقُضاةِ مِمَّا ابتُلُوا بِهِ وَيَرْحَمُ المُلوكَ وَالسَلاطِينَ لِغِرّتِهِم بِاللهِ وَطَمَأْنِينَتِهم فِي ذلِكَ وَيَعْتَبِرُ ويَتَعَلَّمُ مَا

(١) تفسير مجمع البيان: ج٨، ص٨٠.
(٢) من أفرط فلان ولدا، أي مات له ولد صغير قبل أن يبلغ.

يَغلبُ بِهِ نَفْسَهُ وَيجَاهِدُ بِهِ هَواهُ وَيَحترِزُ بِهِ مِن الشَيطانِ وَكَانَ يُداوي قَلْبَهُ بِالتَفكُّرِ وَيُدارِي نَفْسَهُ بِالعِبَرِ وَكَانَ لا يَظعَنُ إلَّا فِيمَا يَعْنِيه فَبِذَلِكَ أُوتِيَ الحِكْمَةَ»[1].

إن الإحسان الذي افتتحت به السورة ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾ إلى الناس ظاهرة تنبع من الشكر لله سبحانه، ذلك أنه يعني الرضا النفسي والعملي، الذي ينعكس على السلوك في صورة عطاء وتضحية وجهاد، مقابلة لجميل نعم الله، وإحساسا بالمسؤولية تجاهها. ولكل نعمة شكر يختص بها، تبعا لمعطياتها، فشكر نعمة العلم نشره وهداية الناس به: «زَكَاةُ العِلْمِ نَشْرُهُ»[2]، وشكر الجاه بذله للمحتاجين: «زَكَاةُ الجَاهِ بَذْلُهُ»[3]. بينما شكر نعمة القوة السعي لتحقيق الأهداف السامية كإقامة حكم الله في الأرض من خلال الجهاد الشامل.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ وبذل الإنسان للنعمة في مجالها الذي حدده الله هو الشكر، وسنن الله في الحياة التشريعية منها والتكوينية تقتضي بذلك نماء النعمة، فمن حكمة الله أن تسقي السماء الأرض ذات الزرع أكثر من الجرداء، وأن من يستخدم عضلاته أكثر هو الذي تنمو العضلات لديه بينما تضمر عند الخامل، وأن من يقرأ أكثر ينمو عقله وفكره، والذي لا يستفيد من النعم أو يستخدمها في غير مجالاتها المحددة لا تنمو لديه وتكون مضرة له، كما لو بذل العلم للتباهي أو المال في اللهو واللعب.

﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ لان المحتاج للشكر هو الإنسان لا الله المتعالي عن الحاجة، والشكر هنا يشمل أيضا الناس، لكن ضمن هدف محدد هو أن يكون ذلك من أجل الله وحده وطلبا لمرضاته وذلك كله يعود على الإنسان نفسه، بما يسببه الشكر من إنماء النعمة ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٧].

﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ وليس غنى الله كغنى الناس، لأن الآخر غالبا ما يتأسس على النهب والاستغلال، أو يصرف في سحق الآخرين وابتزازهم حقوقهم، وهو غنىً قائم على الاحتياج للغير، بينما غنى الله ذاتي يتفضل به على الآخرين خيرا ونعمة، وهذا هو الغنى المحمود.

[١٣] ثم تتعرض الآيات لبعض وصايا لقمان عليه السلام لابنه، والتي تشكل أبعاد الحكمة، ومفردات الشكر لله.

---

(١) بحار الأنوار: ج١٣، ص٤٠٩.

(٢) الكافي: ج١ ص٤١.

(٣) مستدرك الوسائل: ج٧ ص٤٦.

وأول ما يفتتح وصاياه يبين له العلاقة الفاضلة التي يجب أن ينتهجها مع الآخرين والتي تقوم على مبدأ التوحيد، فيحذره من الشرك، فالخضوع المطلق لا ينبغي إلا لله سبحانه، أما البشر فيتقبل توجيهاتهم الصائبة، ولكن بشرط المحافظة على استقلاليته تجاههم بالتوحيد.

إذن فالتوحيد هو الجوهر الذي يجب على الإنسان اعتماده في كل سلوك فردي أو اجتماعي وهذا ما دعا إليه كل الأنبياء، ولعل هذا التأكيد على موضوع الشرك في القرآن يرجع إلى عامل مهم وهو أن مشكلة الإنسان في غالب الأحيان ليس الكفر المحض، فهو يؤمن بإله لهذا الكون، إنما مشكلته هي الشرك بالله.

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾

ما هو ذا الظلم العظيم الذي يفرزه الشرك بالله؟.

إن هناك جوانب خفية، وأخرى ظاهرة لهذا الظلم.

حقا إن ضياع الإنسان عن ربه الكريم الذي أسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، وهبوطه إلى حضيض عبادة الأشياء الضعيفة العاجزة التي لا تنفع ولا تضر إنه لظلم عظيم.

ما الذي نجده لو فقدنا رب العزة وهو الرحيم الودود الذي أحاطنا بإحسانه، ودعانا إلى نفسه، ووعدنا المزيد من عطائه؟!.

من هو أشد فقرا وفاقة ومسكنة منا حين نضل عن السبيل الوحيد للهدى والفلاح والغنى والعز والكرامة؟!.

من أكثر عجزا وذلا وهوانا منا لو خرجنا من حصن الرب إلى مسبعة ذئاب القدرة، وحقل ألغام الثروة، حيث المستكبرين في الأرض بغير الحق.. الله أكبر.

ما أخسر من ترك متجر ربه وتوجه تلقاء غرور الشيطان، ورام عن ربه بدلا.

إن علينا أن نتأمل كثيرا لنعرف هول الابتعاد عن الله، وأخطار الشرك به في عمق ذواتنا، وفي آفاق حياتنا الشخصية.

لكن هذا الظلم العظيم قد يخفى على من لم يتأمل فيه. بيد أن هناك ظلما عظيما ظاهرا يتجلى للناس جميعا، ويتمثل في عاقبة النظام المشرك السائد على الإنسانية جمعاء، هذا النظام العالمي الذي انساقت إليه البشرية حين خرجت عن حصن التوحيد وعبدت رجال الثروة والقوة والضلالة.

لا يسع تفسيرنا الموجز لسرد تفاصيل هذا الظلم ولكن لا يسعنا أيضا أن نمر عن هذه الآية الكريمة دون أن نلقي نظرة خاطفة على الحياة من خلالها وعبر بصيرتها النافذة.

ولنتخذ مثلا واحدا من بين الحقائق الأشد ظهورا في حياة الخاضعين للشرك، ونرى أي ظلم عظيم هم فيه.

يقول شاهد من أهل عصرنا ما يلي:

* لو حاولنا إتلاف الأموال التي دفعت للأغراض العسكرية في سنة (١٩٨٦ م) بمعدل دولار واحد في كل ثانية لاحتجنا إلى (٣٦٠٠٠) سنة.

* بتعبير آخر فإن معدل ما يصرفه العالم على السلاح في الدقيقة الواحدة هو (٢) مليون دولار في الوقت الذي يعيش فيه مليارا إنسان في العالم في حالة فقر، وخمسمئة مليون منهم يعانون من سوء التغذية بشدة.

* إن قيمة غواصة نووية واحدة تزيد كثيرا عن ميزانية التعليم السنوية لأكثر من اثني عشرة دولة نامية، إن العالم يدفع للتسلح أكثر مما يدفع للتعليم سنويا.

* من الملفت للنظر أن كثيرا من الدول النامية قد زادت من مدفوعاتها على التسلح وذلك بتخصيص مبالغ كبيرة من الناتج الوطني.

* إن الدول المديونة لازالت تخصص أموالا للسلاح أكثر مما تخصص لبناء المدارس، و يكفيك أن (٨٠٠) مليون نسمة في العالم لا يقرؤون ولا يكتبون (أميون).

* إنه من الأحسن أن يدفع بذلك المال، وبتلك الطاقة البشرية، وبتلك الخامات إلى بناء السدود والقضاء على البطالة، وتحسين الأحوال المعيشية للبشر، وبناء المساكن، وإقامة السدود والمصانع، وبناء المدارس، وتخزين الحبوب بدلا من أن تدفع تلك الأمور في صنع الدبابات والطائرات القاذفة للقنابل والصواريخ.

* لكل دولة قصتها التي يمكن أن تحكى، فمثلا أثيوبيا من الدول التي تعاني من المجاعة، ومعدل دخل الفرد فيها (١١٠) دولار سنويا وبها طبيب لكل (٦٩٠٠٠) شخص، وعشرون في المئة من أطفالها يموتون قبل بلوغ الخامسة في حين أن ربع الميزانية الحكومية يصرف على الدفاع، وبعض المتخصصين يقولون: إن مدفوعات أثيوبيا على الدفاع تبلغ نصف ميزانية الدولة، والروس باعوا لأثيوبيا بثلاثة مليارات دولار ليس الغذاء وإنما السلاح.

أثيوبيا تستخدم ما يقارب (٢٥٠٠٠٠) جندي لا لخدمة الجائعين ونقل الغذاء لهم، وإنما لمحاربة بعض حركات المعارضة.

ونفس القصة يمكن أن تروى عن الدول الأخرى في العالم الثالث.

* مستوى المدفوعات العسكرية السنوية يقدر بـ (تريليون) دولار، ومن العجيب أن كثيرا من الأسلحة قد استخدم، حيث أن أكثر من (١٠٠) مليون نسمة قد قتلوا في القرن العشرين.

وأكثر من (١٠٠) حرب قد وقعت بعد الحرب العالمية الثانية، وأن (٧) ملايين نسمة قد قتلوا في حروب أهلية خلال الخمس عشرة سنة الماضية.

* و أنت تقرأ هذه المقالة، فإن هناك (٣٠) إلى (٤٠) شعبا يستخدمون السلاح في حروب أهلية، أو حروب حدودية، أو نزاعات دينية، أو أسباب أخرى، إن واحدا من بين كل ثلاثة من سكان العالم (٥ مليار نسمة) داخل في نزاع مسلح.

* إن هذه الفترة هي أخطر فترة تمر على الإنسان خلال (٦٠٠٠) سنة.

* إن قيمة قطعة واحدة من السلاح تساوي شيئاً مذهلاً في مجال البناء. إليك بعض الأمثلة:

١- قيمة رشاش واحد (٦٠٠) دولار ٨٢ مسحاة (٨) دولار.

٢- قيمة دبابة واحدة (٢٨٠٠٠٠٠) دولار ٦٢٢٢ بقرة (٤٥٠) دولار.

٣- قيمة طائرة حربية واحدة (٢٧٠٠٠٠٠٠) دولار ١٣٥٠ تراكتور (٧٨) حصان (٢٠٠٠٠) دولار.

٤- قيمة غواصة واحدة (٢٠٠٠٠٠٠٠٠٠) دولار ٢٥٠٠٠ بيت (٨٠٠٠٠) دولار[1].

هذا نموذج بسيط عن نتائج النظام الشركي السائد على عالم اليوم.

[١٤] ثم يوصي الله بالوالدين خيرا، حفاظا على نعمة الحنان والعطف من قبلهما للابن، وشكرا لهما على جهدهما تجاهه، فإذا كان الأكل والشرب غذاء الجسد، فإن الحنان والعطف أفضل غذاء للروح، ولنمو النفس نموا فاضلا متكاملا، والذي يسبب استمرارهما هو الشكر للوالدين، وبقاء العلاقة معهما، ولا يعني هذا من قريب ولا بعيد أن لا يشكر الإنسان ربه، بل

(١) ترجمة مجلة الحقيقة الواضحة العدد (٣) المجلد (٥٢) التاريخ: مارس ١٩٨٧م وطبع منه (٧١٤٠٠٠٠).

يجب أن يقدم شكره لله على شكرهما، لأنه مصدر كل نعمة، وإنما الآخرون وسيلتها إليه.

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴾ ويخصص الله الأم أكثر من الأب، لأنها هي التي تتحمل أعباء الوليد منذ اللحظة التي تنعقد فيها نطفته، أضف إلى ذلك أن المرأة وهي المخلوق الضعيف حين تحمل في بطنها وليدا إلى مدة تتراوح بين الستة إلى التسعة أشهر أليس يزيدها ضعفا على ضعفها؟! ولذلك ورد الأثر المروي عن النبي ﷺ أنه جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله مَنْ أَبَرُّ؟ قَالَ ﷺ: **أُمَّكَ**. قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟. قَالَ ﷺ: **أُمَّكَ**. قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ ﷺ: **أُمَّكَ**. قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟. قَالَ ﷺ: **أَبَاكَ**»[1].

﴿وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ وبعد الولادة تستمر رضاعتها له عامين -كحالة طبيعية- يمتص فيهما من طاقة أمه وقدراتها غذاءه، كما تسقيه من عطفها وتربيتها الكثير.

﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ وإذا كان شكر نعمة الوالدين هو الوفاء بحقيهما، فإن شكر الله هو أن يفي الإنسان بحقوق الوالدين في إطار أوامر الله، وتعاليم دينه، فالشكر للوالدين واجب شرعي على الولد، ولكن بشرط أن لا يفقد استقلاله تجاههما لأن ذلك يخالف روح التوحيد.

إن توحيد الله يقتضي معرفة أنه سبحانه صاحب كل نعمة عليه، فيحمده عليه، جاء في الحديث المأثور عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**أَوْحَى اللهُ عَزَّ وجَلَّ إِلَى مُوسَى** عليه السلام **يَا مُوسَى اشْكُرْنِي حَقَّ شُكْرِي فَقَالَ يَا رَبِّ وكَيْفَ أَشْكُرُكَ حَقَّ شُكْرِكَ ولَيْسَ مِنْ شُكْرٍ أَشْكُرُكَ بِهِ إِلا وأَنْتَ أَنْعَمْتَ بِهِ عَلَيَّ قَالَ يَا مُوسَى الآنَ شَكَرْتَنِي حِينَ عَلِمْتَ أَنَّ ذَلِكَ مِنِّي**»[2].

أما إذا شكر الفرد ربه ولم يشكر والديه فقد خالف تعاليم دينه، وبالتالي خرج عن إطار توحيد الله أيضا، وهكذا ورد الحديث المروي عن الإمام الرضا عليه السلام: «**وأَمَرَ بِالشُّكْرِ لَهُ ولِلْوَالِدَيْنِ فَمَنْ لَمْ يَشْكُرْ وَالِدَيْهِ لَمْ يَشْكُرِ اللهَ**»[3].

وهكذا كل منعم من الناس من ترك حقه من الشرك فقد ترك شكر الله أيضا، كذلك جاء في الحديث المأثور عن الإمام الرضا عليه السلام: «**مَنْ لَمْ يَشْكُرِ الْمُنْعِمَ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ لَمْ يَشْكُرِ اللهَ عَزَّ وجَلَّ**»[4].

---

(١) الكافي: ج٢ ص١٥٩.
(٢) الكافي: ج٢ ص٩٨.
(٣) وسائل الشيعة: ج٩ ص٢٥.
(٤) وسائل الشيعة: ج١٦، ص٣١٣.

[١٥] صحيح أن الوالدين هما القناة التي تنتقل عبرها المكاسب المادية، والخبرات الحضارية للإنسان، ولكن لا يصح أن يستقبل الإنسان كل ما تحمله هذه القناة إليه من غث وسمين، لأنها كما تحمل إيجابيات الحضارة التاريخية أو القائمة، تنقل إليه أيضا السلبيات، لذلك يؤكد الرب: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾

إذن على الإنسان أن يكون ذكيا، يستفيد من المكاسب والمغانم الحضارية القادمة إليه عبر والديه من التاريخ أو المجتمع، ويترك السلبيات لأنهما على فطرتهما يغذيان الطفل بشتى الأفكار الواقعية والخرافية، الإيجابية والسلبية، دونما تمييز على الأغلب، وهما بذلك يحاولان فرضها على ولدهما، وهنا تقع على الفرد نفسه مسؤولية مقاومة الضغط ولكن بمعروف: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾.

يقول الرسول ﷺ: **«مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلَّا عَلَى الفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ اللَّذَانِ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ»**[(١)].

فإذا ما قاوم الابن الأفكار الخاطئة استطاع النمو على الفطرة، لأنه بذلك يبعدها عما يدنسها من الأفكار الخاطئة، والتوجيهات السقيمة، وذلك لا يعني بالضرورة التعدي على الأبوين، فقد جاء في الحديث: **«إِيَّاكُمْ وَعُقُوقَ الوَالِدَيْنِ فَإِنَّ رِيحَ الجَنَّةِ تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَلْفِ عَامٍ وَلَا يَجِدُهَا عَاقٌّ وَلَا قَاطِعُ رَحِمٍ وَلَا شَيْخٌ زَانٍ وَلَا جَارٌّ إِزَارِهِ خُيَلَاءَ إِنَّمَا الكِبْرِيَاءُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ»**[(٢)].

وهنا تستوقفني مسألة وهي: إني لا أعلم من أين استخرج البعض أنه تجب طاعة الوالدين طاعة مطلقة أو واسعة تفقده الولاية على نفسه والمسؤولية عن خياراته وحياته، بينما تخالف النصوص الإسلامية صراحة ذلك، فهي تأمر بالشكر والإحسان لهما، أما الطاعة فهي لله، ولمن أمر الله بطاعته. وولاية الوالدين التي تشير لها بعض النصوص لا تكون إلا ضمن الحدود الشرعية وحيث تكون مصداقاً للبر والإحسان، وذلك أن الولاية متقومة بالإنفاق على الأولاد ورعايتهم صحيًّا ومعنويًّا، وهذه من تداعيات الولاية الطبيعية الفطرية، بيدأن الحكمة الأساس هو استهداف التنشئة على التوحيد.

من هنا نقرأ في كتاب مصباح الشريعة: أن الإمام الصادق عليه السلام قال: **«بِرُّ الوَالِدَيْنِ مِنْ حُسْنِ مَعْرِفَةِ العَبْدِ بِاللهِ إِذْ لَا عِبَادَةَ أَسْرَعُ بُلُوغاً بِصَاحِبِهَا إِلَى رِضَا اللهِ مِنْ بِرِّ الوَالِدَيْنِ المُسْلِمَيْنِ**

(١) من لا يحضره الفقيه: ج٢، ص٤٩.
(٢) الكافي: ج٢، ص٣٤٩.

لِوَجْهِ الله لِأَنَّ حَقَّ الوَالِدَيْنِ مُشْتَقٌّ مِنْ حَقِّ الله إِذَا كَانَا عَلَى مِنْهَاجِ الدِّينِ والسُّنَّةِ ولَا يَكُونَانِ يَمْنَعَانِ الوَلَدَ مِنْ طَاعَةِ الله إِلَى مَعْصِيَتِهِ ومِنَ اليَقِينِ إِلَى الشَّكِّ ومِنَ الزُّهْدِ إِلَى الدُّنْيَا ولَا يَدْعُوَانِهِ إِلَى خِلَافِ ذَلِكَ فَإِذَا كَانَا كَذَلِكَ فَمَعْصِيَتُهُمَا طَاعَةٌ وطَاعَتُهُمَا مَعْصِيَةٌ»[1].

ولكن السؤال هو: إذا ما ترك الإنسان والديه عند شركهما فإلى من يتجه؟.

يجيب السياق عن ذلك: ﴿وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ﴾ وهم الأولياء ومن يسير على نهجهم من أبناء المجتمع، حيث يجب على الإنسان البحث عنهم في المجتمع، ليتبع سبيلهم، وينضم إلى الجماعة المؤمنة. لأن الوالدين حينما لا تكون طاعتهما طاعة لله، ويترك الابن الانصياع لهما، فإنه سيجد من هو أكثر عطفا وحنانا عليه منهما في الله، أولم يترك مصعب بن عمير أبويه؟ فوجد من عوضه عنهما بأفضل صوره، أولم يترك فلان وفلان آباءهم؟ ولكن إلى أين وفقهم الله؟.

لقد وفقهم إلى أحضان الإسلام، حيث تربوا على يدي الرسول ﷺ وبين ظهراني المؤمنين، وأخيرا كان الرجوع إلى ربهم الودود.

﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ بلى؛ قد يخسر الإنسان بعض المكاسب الدنيوية -مادية ومعنوية- ولكن الله سوف يعوضه عن ذلك في الآخرة.

[١٦] وهناك حقيقة هي أن عمل الخير لا بد وأن يعود لمن عمله -مهما كان صغيرا أو كبيرا، معلنا أو خفيا، سواء كان جزاؤه في الدنيا أو الآخرة- والله لا يظهر العمل الصالح وحسب، بل يجازي عليه مهما قل وصغر ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ﴾ وهي حبة صغيرة ليس لوزنها اعتبار لدى الناس؛ ﴿فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ﴾ فبلطفه قرب من الأشياء، وبخبرته أحاط بها علما ومعرفة، ومن الحري بنا أن نهتم بأعمالنا لأنها تحت عين الله، ولا نحقر ذنبا أو نستهين بواجب، فقد جاء في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «**اتَّقُوا المُحَقَّرَاتِ مِنَ الذُّنُوبِ فَإِنَّ لَهَا طَالِباً، يَقُولُ أَحَدُكُمْ أُذْنِبُ وأَسْتَغْفِرُ، إِنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ يَقُولُ ونَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وآثَارَهُمْ وكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ وقَالَ عَزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ..﴾**»[2].

[١٧] ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ لأنها زكاة الأعمال، إذا كانت بشروطها، كما يقول الحديث، فهي حينذاك تشبه النهر لو اغتسل منه الإنسان في اليوم الواحد خمس مرات لا يبقى

(١) مستدرك الوسائل: ج١٥، ص١٩٨.
(٢) الكافي: ج٢، ص٢٧٠.

عليه من الدرن شيء، وإذا أراد الإنسان تنمية معرفته بالله وإيمانه به، فما عليه إلا أن يسبغ الوضوء، ويصلي خاشعا لله، لذلك قال الرسول ﷺ: «**جُعِلَ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ**»[١].

وقال الإمام علي عليه السلام: «**الصَّلَاةُ قُرْبَانُ كُلِّ تَقِيٍّ**»[٢].

وكما أن للصلاة جانبا عباديا روحيا، فإن لها جانبا آخر لا تكتمل إلا به وهو الجانب الاجتماعي الذي يتمثل في الشهادة على الواقع القائم.

﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾ وإقامة الصلاة كما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كل ذلك يحتاج إلى الصبر على ما يصيبه في هذا الطريق، فإن الجنة حفت بالمكاره، كما حفت النار بالشهوات. و لكن ترك هذه الواجبات تؤدي إلى عواقب وخيمة، لا تقاس أخطارها العظيمة ببعض الصعوبة التي تكتنف العمل بها. قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**لَا تَتْرُكُوا الأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ والنَّهْيَ عَنِ المُنْكَرِ فَيُوَلَّى عَلَيْكُمْ شِرَارُكُمْ ثُمَّ تَدْعُونَ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ**»[٣].

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ التي يضبط بها الإنسان الحياة الشخصية والاجتماعية معا. ويحتمل أن يكون معنى ﴿عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ الأمور التي تحتاج إلى عزيمة راسخة، وإرادة قوية، وهي مما عزم الله وفرضه علينا، ويبدو أن كلمة ﴿ذَٰلِكَ﴾ تشير إلى كل الأوامر التي سبقت.

[١٨] الشكر لله يعني الاعتراف بأن ما لدى الإنسان من حول وقوة فمن الله، فبماذا يفتخر؟! ولماذا يتحدى الناس ويتعالى عليهم؟!.

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ تحديا بهدف إثارة العداوة والبغضاء، لأن الميل بالخد مثال للتحدي والاستعلاء على الآخرين، وذلك مما يزيد الأعداء، بينما ينبغي للإنسان السعي لكسب العدد الأكبر من الأصدقاء، ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ متفاخرا. فقد روي عن رسول الله ﷺ: «**مَنْ مَشَى فِي الأَرْضِ اخْتِيَالًا لَعَنَتْهُ الأَرْضُ ومَنْ تَحْتَهَا ومَنْ فَوْقَهَا**»[٤].

ونهى أن يختال الرجل في مشيته وقال: «**مَنْ لَبِسَ ثَوْباً فَاخْتَالَ فِيهِ خَسَفَ اللهُ بِهِ مِنْ شَفِيرِ جَهَنَّمَ فَكَانَ قَرِينَ قَارُونَ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنِ اخْتَالَ فَخَسَفَ اللهُ بِهِ وبِدَارِهِ الأَرْضَ ومَنِ اخْتَالَ فَقَدْ نَازَعَ**

(١) وسائل الشيعة: ج٢ ص١٤٣.
(٢) نهج البلاغة: حكمة: ١٣٦.
(٣) نهج البلاغة: خطبة ٤٧.
(٤) وسائل الشيعة: ج١٥، ص٣٨١.

اللهَ عَزَّ وجَلَّ فِي جَبَرُوتِهِ»(١).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ يختال بنفسه ويفتخر بماله، وذلك نوع من الشرك، وفي الحديث القدسي عن الله عز وجل: «**الكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَ العَظَمَةُ إِزَارِي فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِداً مِنْهُمَا أَلْقَيْتُهُ فِي نَارِي**»(٢).

[١٩] ﴿وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ وكلمة القصد هنا تعني تحديد الهدف، ولا يصح من العاقل أن يمشي بلا هدف، كما تعني الاقتصاد أيضا، ولا شك أن من يمشي على بصيرة و لهدف معين لن يحتاج إلى صرف المزيد من الطاقات التي لا داعي لها، فلو افترضنا أن سيارة تحركت باتجاه معلوم فإن مقدار الوقود الذي ستصرفه سيكون اقتصاديا متناسبا مع الهدف، أما لو تحركت سيارة أخرى تريد هدفا غير محدد أو من دون هدف فستبقى تحرق الوقود من غير نهاية، وليس ثمة شك في أن حركة الإنسان دليل على نفسيته.

﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ لأن الهدوء دليل العقل بينما الصراخ خلافه، والكثير إنما يعلي صوته ويكثر من الدعايات ليصنع الظروف التي تجبر الناس بشكل من الأشكال على تقبل أفكاره، والصحيح أن يقبل الآخرون الأفكار لمحتواها لا لوسائلها، إذن فلا داعي للصراخ، وإنما يحتاج إلى الصراخ صاحب الفكرة الخاطئة، ليعوض الفراغ في المحتوى.

﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ لأنه يزيد الآخرين نفورا من صاحبه.

وجاء في السنة عن الإمام الصادق عليه السلام قال (في تفسير هذه الآية): «... الرجل يرفع صوته بالحديث رفعا قبيحا إلا أن يكون داعيا أو يقرأ القرآن»(٣).

---

(١) من لا يحضره الفقيه: ج٤، ص١٣.
(٢) مستدرك وسائل الشيعة: ج١٢، ص٣١.
(٣) بحار الأنوار: ج٦٦، ص٣٦١.

لماذا سخر الله الخليقة للإنسان

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ[1] عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٢٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ (٢١) وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ[2] بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٢٢) وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٣) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٢٤) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٥) لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٦) وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ[3] مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٧)﴾.

هدى من الآيات:

بعد أن يذكرنا الله سبحانه هنا بنعمه التي أسبغها علينا يستأدينا الشكر عليها، ويذكرنا بأن من الناس من يأكل رزق الله، ويعبد غيره، لأنهم لا يتبعون حجة حقيقية، ولا بصيرة

(١) أسبغ: أتم وأوسع.
(٢) استمسك: تمسك وتعلق.
(٣) يمده: يزيده.

سليمة، فلا علما، ولا هدى ولا كتابا منيرا، بل يتبعون آباءهم دون أن يعرفوا بأنهم أيضا يتأثرون بعوامل الغواية والانحراف، فالشيطان الذي يضل الأولاد هو نفسه الذي يضل الآباء ولا تصبح الضلالة هدى إذا اتبعها الآباء.

ثم تبين الآيات بأن الشكر الحقيقي هو التسليم المطلق لله تعالى، لأن الهدف الأسمى من نعم الله هو أن يعبد الإنسان ربه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وأن تكون علاقته بالناس من خلال هذه النعم هي الإحسان والعطاء، وهذا ما تؤكده هذه السورة الكريمة، وإذا ما توفرت هاتان الصفتان في البشر فقد استمسك بالعروة الوثقى التي لا تنفصم.

أما الكفار فإن كفرهم يعود إليهم بالضرر العظيم حيث يخبرهم الله بعد عودتهم إليه بما عملوا من ظاهر العمل ونياتهم، أوليس ربنا عليما بذات الصدور؟!.

وعلى المؤمن ألا يحزن عليهم لأن متعة هؤلاء في الدنيا قليلة وعذابهم في الآخرة غليظ.

ويذكرنا السياق بأسماء ربنا لنزداد إيمانا وشكرا، ويبين عشرة من أسماء الله سبحانه بشواهدها الظاهرة:

الأول: أنه الخالق لما في السماوات والأرض، وأن الحمد كله له بالرغم من أن أكثرهم لا يعلمون.

الثاني: أنه سبحانه الغني. أوليس يملك ما في السماوات والأرض،

الثالث: أنه الحميد في غناه.

والرابع والخامس: أنه -تعالى اسمه- عزيز حكيم وشواهد عزته، وكلمات حكمته لا تحصى، حتى ولو كانت الأشجار أقلاما والبحار مدادا.

وفي الدرس القادم يذكرنا السياق بأن ربنا هو السميع العليم، وأنه هو الخبير والعلي الكبير.

بينات من الآيات:

[٢٠] تحيط بالبشر حقائق لو استوعبها وعيه أوتي الحكمة واهتدى إلى السبيل.

ولكن يعيش ويموت أكثر الناس في ضلال. لماذا؟.

لأن بينهم وبينها حجبا متراكمة، وإنما القرآن هدى لأنه يثير العقل، ويرفع الحجب، فإذا بالقلب المحدود ينفتح على الآفاق الرحيبة.

حقا ما أبعد غور العلم عند المؤمن الذي ينظر إلى الخليقة من دون حجاب، وبفؤاد فارغ من العقد والأوهام والتمنيات، فإذا أبصر البدوي الموغل في الصحراء مع سفينته التي يحبها ويرتل لها الأشعار على نغم الحدي فإذا بينه وبين إبله أكثر من مجرد صلة مادية.

هنالك يقول المؤمن: ما شاء الله كيف سخر هذا الحيوان الصبور للبشر، وجعل أفضل عابر للرمال المتحركة والصحاري القفر.

وإذا رأى رجلا شجاعا يمتطي ظهر جواده في المعركة، فإذا بالجواد يستجيب لإشاراته الخاطفة وكأنه جهاز إلكتروني حساس، هنالك يقول: الله أكبر كيف سخر الله لنا هذا الحيوان الذكي، وما كنا عليه بقادرين.

وحين يجتاز البشر أعمدة القرون ويمتطي صهوة الطائرات الأسرع من الصوت، والصواريخ الفضائية ذات الوقود الذري، يقول المؤمن بذات النبرة سبحان الله الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين.

إن من سخر لنا الإبل والجواد هو الذي سخر لنا الحديد والذرة، وعلمنا كيف نصنع من خردة حديد، وبضع كيلوات من مادة متفجرة صواريخ مدارية.

إن مثل المؤمن مثل الفنان الذي يقف أمام لوحة بارعة الجمال فتغمر قلبه الحساس موجات من الإعجاب والرضا والانشراح، بينما الكافر كالأعمى لا تزيده اللوحة إلا ظلاما.

أغلب الناس ينشرحون إذا زاروا لأول مرة مزرعة للورود، أو حقولا خضراء منبسطة على امتداد البصر، أو شاهدوا مصنعا عظيما أو إنجازا علميا باهرا، ولكنهم يعودون بعد لحظات محدودة إلى واقعهم الأول فتشغل قلوبهم الهموم، ويغرقون في بحر المشاكل الحياتية. أليس كذلك؟.

بينما المؤمن يرى كل شيء وكأنه ينظر إليه لأول مرة، فإحساسه المرهف يجعله أبدا كالقائد العسكري الذي يستعرض جيشه اللجب في يوم عيد، كذلك المؤمن ينظر إلى الطبيعة من حوله وقد سخرت له كما ينظر ذلك القائد إلى جنده العظيم، إنه يعيش أبدا كما لو ولد الآن أو جاء من كوكب بعيد، قلبه بريء، ونظراته عميقة، وفطرته نقية.

أرأيت الذي يزور -لأول مرة- حديقة الحيوان أو معرضا الكترونيا، أو مصنعا عظيما، أو ناطحة سحاب، أو أهرام مصر؟.

هكذا حال المؤمن أبدا في الحياة بينما غيره يشبه الذي يزور غرفة نومه لا يرى فيها جديدا.

والسؤال: ما الفرق بينهما؟

الجواب:

أولاً: قلب المؤمن صاف بينما الناس يعيشون هموما كثيرة، كما إن أكثرهم يعيش العقد والسلبيات.

ثانياً: المؤمن يعلم أن كل شيء قائم بالله، ولو لا فضل الله المتوالي، وعطاءه المستمر، وتدبيره وسلطانه لما قام شيء، ولا بقيت نعمة، ولا دام نظام، لذلك فهو يتعامل مع الأشياء وكأنها جديدة ومثله في هذا التعامل مثل من يعطيه الملك كل يوم مئة درهم من دون استحقاق وهو يعيش عليها، وأنه متى ما شاء منعه منه في أي يوم، فتراه يستلم كل يوم عطاءه بوجد وفرح، ولعل هذا الإحساس هو مصدر الشكر عند المؤمن فإذا به يسبح ربه بكرة وعشيا، وفي المساء وعند الظهيرة، لأن استمرار وجوده أساسا عند هذه الساعات نعمة. أوليس هناك البعض الذي عاش صباحا وكان عند المساء تحت التراب، أو أمسى حيا ولكنه حرم رؤية الشمس في اليوم التالي وإلى الأبد.

إن المؤمن يملك من الثقة برحمة الله ما يجعله قادرا على التخطيط المستقبلي، ولكنه في الوقت ذاته ينظر إلى الخليقة نظرة بعيدة عن الجمود و التحجر، فيخشى زوال النعم في أية لحظة، ويسعى أبدا لإبقائها، وقلبه بذلك يعيش طريا نظيرا وجديدا، وهكذا يعيش المؤمن بين الخوف والرجاء وكذلك وصى لقمان ابنه قائلا له: «**يَا بُنَيَّ خَفِ اللهَ خَوْفاً لَوْ أَتَيْتَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِبِرِّ الثَّقَلَيْنِ خِفْتَ أَنْ يُعَذِّبَكَ وَارْجُ اللهَ رَجَاءً لَوْ وَافَيْتَ الْقِيَامَةَ بِإِثْمِ الثَّقَلَيْنِ رَجَوْتَ أَنْ يَغْفِرَ لَكَ.**

فَقَالَ لَهُ ابْنُهُ: يَا أَبَهْ وَكَيْفَ أُطِيقُ هَذَا وَإِنَّمَا لِي قَلْبٌ وَاحِدٌ.

فَقَالَ لَهُ لُقْمَانُ: يَا بُنَيَّ لَو اسْتُخْرِجَ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ فَشُقَّ لَوُجِدَ فِيهِ نُورَانِ نُورٌ لِلْخَوْفِ وَنُورٌ لِلرَّجَاءِ لَوْ وُزِنَا مَا رُجِّحَ أَحَدُهُمَا عَلَى الآخَرِ بِمِثْقَالِ ذَرَّةٍ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ يُصَدِّقْ مَا قَالَ اللهُ وَمَنْ يُصَدِّقْ مَا قَالَ اللهُ يَفْعَلْ مَا أَمَرَ اللهُ وَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرَ اللهُ لَمْ يُصَدِّقْ مَا قَالَ اللهُ فَإِنَّ هَذِهِ الأَخْلَاقَ يَشْهَدُ بَعْضُهَا لِبَعْضٍ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ إِيمَاناً صَادِقاً يَعْمَلْ للهِ خَالِصاً نَاصِحاً وَ مَنْ يَعْمَلْ للهِ خَالِصاً

نَاصِحاً فَقَدْ آمَنَ بِالله صَادِقاً وَمَنْ يُطِعِ اللهَ خَافَهُ وَمَنْ خَافَهُ فَقَدْ أَحَبَّهُ وَمَنْ أَحَبَّهُ اتَّبَعَ أَمْرَهُ وَمَنِ اتَّبَعَ أَمْرَهُ اسْتَوْجَبَ جَنَّتَهُ وَمَرْضَاتَهُ وَ مَنْ لَمْ يَتَّبِعْ رِضْوَانَ الله فَقَدْ هَانَ سَخَطَهُ نَعُوذُ بِالله مِنْ سَخَطِ الله يَا بُنَيَّ لَا تَرْكَنْ إِلَى الدُّنْيَا وَلَا تَشْغَلْ قَلْبَكَ بِهَا فَمَا خَلَقَ اللهُ خَلْقاً هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ مِنْهَا أَ لَا تَرَى أَنَّهُ لَمْ يَجْعَلْ نَعِيمَهَا ثَوَاباً لِلْمُطِيعِينَ وَلَمْ يَجْعَلْ بَلَاءَهَا عُقُوبَةً لِلْعَاصِينَ»[1].

ثالثاً: ترى أغلب الناس يلبسون نظارات مختلفة الألوان، وينظرون من خلالها إلى الأشياء، فلا يرونها على حقيقتها. إن الثقافات البشرية والتفسيرات المادية التي تبث إلى القلوب هي بمثابة عدسات ملونة لا تدع نور الحقائق يغمر القلب.

بينما نظرات المؤمن مباشرة لا تمر بقنوات التفسيرات المادية. إنه ينظر ببراءة الطفل إلى الحقائق، ولذلك فإن نظراته نافذة إلى العمق، فإذا نظر إلى حركة الفلك وما في السماوات والأرض من نعم نفذت بصيرته إلى الخالق الذي سخرها للإنسان.

وإنما يبلغ المؤمن هذه الدرجات بالقرآن. انظر إلى التعبير القرآني هنا وكيف يجعلنا نرى الخليقة بواقعية: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾

إنها رؤية مباشرة، وبلا عقد، ولا جمود، ولا نظارات من الثقافات الجاهلية.

ثم يقول: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ﴾ كما يسبغ المقاتل على نفسه درعه المتناسب مع جسمه، أو يسبغ الواحد منا ثيابه المقـدرة له على جسده، وهكذا النعم تحيط بنا ولكن بقدر ودون زيادة مضرة أو نقصان.

﴿نِعَمَهُ ظَاهِرَةً﴾ كنعمة الحياة، ونعمة العافية، ونعمة الأمن، ونعمة الطعام.

﴿وَبَاطِنَةً﴾ كنعمة الأعضاء التي لا ترى (القلب والكبد والكلية والأعصاب و.. و..) ونعمة الوقاية من أنواع المكاره والأخطار، ونعمة الهداية إلى الحق، وولاية أئمة الهدى عليهم السلام.

وهناك حديث مفصل يتلو علينا نعم الرب، وقد رأينا إثباته هنا لأن هذه السورة هـي سورة الشكر فيما يبدو لنا، وعلينا أن نربي قلوبنا عليه أوليس الشكر أساس الحكمة؟!.

الحديث مأثور عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «**حَدَّثَنِي عَبْدُ الله بْنُ عَباس، وَجابر بْنُ عَبدِ الله الأَنْصَارِي قَالُوا: بَيْنَا رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله فِي مَسْجِدِهِ فِي رَهْطٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ وَأَبُو عُبَيْدَةَ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ وَرَجُلَانِ مِنْ قُرَّاءِ الصَّحَابَةِ إِلَى قَوْلِه حَاكِياً عَنْ رَسُولِ**

---

(١) تفسير القمي: ج٢ ص١٦٤.

الله ﷺ: وَقَدْ أَوْحَى إِلَيَّ رَبِّي جَلَّ وَتَعَالَى: أَنْ أُذَكِّرَكُمْ بِأَنْعُمِهِ وَأُنْذِرَكُمْ بِمَا أُفِيضُ عَلَيْكُمْ مِنْ كِتَابِهِ وتَلَا: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ...﴾ الآيَةَ.

ثُمَّ قَالَ: هُمْ قُولُوا الآنَ قَوْلَكُمْ مَا أَوَّلُ نِعْمَةٍ رَغَّبَكُمُ اللهُ فِيهَا وَ بَلَاكُمْ بِهَا فَخَاضَ الْقَوْمُ جَمِيعاً فَذَكَرُوا نِعَمَ اللهِ الَّتِي أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ وَأَحْسَنَ إِلَيْهِمْ بِهَا مِنَ المَعَاشِ وَالرِّيَاشِ وَالذُّرِّيَّةِ وَالأَزْوَاجِ إِلَى سَائِرِ مَا بَلَاهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ مِنْ أَنْعُمِهِ الظَّاهِرَةِ فَلَمَّا أَمْسَكَ الْقَوْمُ أَقْبَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى عَلِيٍّ عليه السلام فَقَالَ: يَا أَبَا الحَسَنِ قُلْ فَقَدْ قَالَ أَصْحَابُكَ. فَقَالَ عليه السلام: وَكَيْفَ لِي بِالقَوْلِ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي وَإِنَّمَا هَدَانَا اللهُ بِكَ.

قَالَ ﷺ: مَعَ ذَلِكَ فَهَاتِ قُلْ مَا أَوَّلُ نِعْمَةٍ بَلَاكَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَأَنْعَمَ عَلَيْكَ بِهَا قَالَ عليه السلام: أَنْ خَلَقَنِي جَلَّ ثَنَاؤُهُ وَلَمْ أَكُ شَيْئاً مَذْكُوراً. قَالَ ﷺ: صَدَقْتَ فَمَا الثَّانِيَةُ؟. قَالَ عليه السلام: أَنْ أَحْسَنَ بِي إِذْ خَلَقَنِي فَجَعَلَنِي حَيّاً لَا مَوَاتاً قَالَ ﷺ: صَدَقْتَ فَمَا الثَّالِثَةُ؟. قَالَ عليه السلام: أَنْ أَنْشَأَنِي فَلَهُ الحَمْدُ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ وَأَعْدَلِ تَرْكِيبٍ قَالَ ﷺ: صَدَقْتَ فَمَا الرَّابِعَةُ؟. قَالَ عليه السلام: أَنْ جَعَلَنِي مُتَفَكِّراً وَاعِياً لَا بَلِهاً سَاهِياً.

قَالَ ﷺ: صَدَقْتَ فَمَا الخَامِسَةُ؟. قَالَ عليه السلام: أَنْ جَعَلَ لِي شَوَاعِرَ أُدْرِكُ مَا ابْتَغَيْتُ بِهَا وَجَعَلَ لِي سِرَاجاً مُنِيراً قَالَ ﷺ: صَدَقْتَ فَمَا السَّادِسَةُ؟. قَالَ عليه السلام: أَنْ هَدَانِي لِدِينِهِ وَ لَمْ يُضِلَّنِي عَنْ سَبِيلِهِ قَالَ ﷺ: صَدَقْتَ فَمَا السَّابِعَةُ؟. قَالَ عليه السلام: أَنْ جَعَلَ لِي مَرَدّاً فِي حَيَاةٍ لَا انْقِطَاعَ لَهَا قَالَ ﷺ: صَدَقْتَ فَمَا الثَّامِنَةُ؟. قَالَ عليه السلام: أَنْ جَعَلَنِي مَلِكاً مَالِكاً لَا مَمْلُوكاً قَالَ ﷺ: صَدَقْتَ فَمَا التَّاسِعَةُ؟. قَالَ عليه السلام: أَنْ سَخَّرَ لِي سَمَاءَهُ وَأَرْضَهُ وَمَا فِيهَا وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ خَلْقِهِ قَالَ ﷺ: صَدَقْتَ فَمَا العَاشِرَةُ؟. قَالَ عليه السلام: أَنْ جَعَلَنَا سُبْحَانَهُ ذُكْرَاناً قُوَّاماً عَلَى حَلَائِلِنَا لَا إِنَاثاً.

قَالَ ﷺ: صَدَقْتَ فَمَا بَعْدَ هَذَا قَالَ عليه السلام: كَثُرَتْ نِعَمُ اللهِ يَا نَبِيَّ اللهِ فَطَابَتْ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوها فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَقَالَ: لِتَهْنِكَ [لِتَهْنِئْكَ] الحِكْمَةُ لِيَهْنِكَ [لِيَهْنِئْكَ] العِلْمُ يَا أَبَا الحَسَنِ فَأَنْتَ وَارِثُ عِلْمِي وَالمُبَيِّنُ لِأُمَّتِي مَا اخْتَلَفَتْ فِيهِ مِنْ بَعْدِي مَنْ أَحَبَّكَ لِدِينِكَ وَأَخَذَ بِسَبِيلِكَ فَهُوَ مِمَّنْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَمَنْ رَغِبَ عَنْ هُدَاكَ وَأَبْغَضَكَ وَتَخَلَّاكَ[١] لَقِيَ اللهَ يَوْمَ القِيَامَةِ لَا خَلَاقَ لَهُ»[٢].

ويبقى سؤال: كيف سخر الله كل ذلك للإنسان؟. واضح أن ذلك ليس بقوته، لأن السماوات

---

(١) تخلاه و منه و عنه: تركه.

(٢) بحار الأنوار: ج٦٧، ص٢٠.

والأرض والجبال أقوى منه. والكلب أفضل سمعا منه، والصقر أحد نظرا منه، وهكذا.

أن قوة الإنسان التي جعلها الله يسخر بها ما في السماوات والأرض، تكمن في العقل والعلم الذي أنعم به الله عليه، فلماذا إذن نترك العلم الذي يهدينا إلى عبادة الله، ونتبع الجهل الذي يقودنا إلى غيره؟!.

إن الإنسان مطالب بتلك الصفة التي جعله الله بها يسير المخلوقات بأن يكون سيد العابدين، إلا إن هناك حجبا تستر عنه نور العقل من بينها:

١ - الجدال: وهو من الناحية اللغوية يعني اللف والدوران، وفي الاصطلاح: هو الكلام بهدف التهرب من الحقيقة، والمجادل هو الذي يرى الحقيقة ولكنه لا يريد الخضوع لها.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ حتى يبلغ الإنسان للحقيقة يجب أن يتبع أحد الطرق الثلاث:

ألف: أن يتبع علما كما لو كان يرى مصباحا أمامه، وهذا هو العلم بالشيء مفصلا.

بـــاء: أن يتبع الهدى ومثال ذلك أن يهتدي لوجود المصباح عبر رؤية النور المنبعث منه، وهذا ما يسمي بالعلم المجمل.

جيم: أن يتبع الكتاب المنير، وهو معرفة الحقائق بالواسطة، كما لو أخبر إنسان آخر بوجود المصباح في مكان ما، وكان ذلك الإنسان مورد ثقة، أو أخبره كتاب صدق، ولأن هؤلاء المجادلين لا يتبعون هذه السبل السليمة فإنهم لا يهتدون للحقيقة.

[٢١] ٢- تقديس الآباء: حيث يترك الإنسان الهدى لأنه يتعارض مع اعتقادات آبائه، ويعالج القرآن هذه العقدة النفسية التي تمنع عن الهدى وذلك ببيان واقع اتباع الآباء، وأنه ليس بدافع صالح كما يصوره الشيطان، حيث يوحي إلى أوليائه أن تقديس الآباء نوع من الوفاء لهم، وأداء لحقهم. كلا.. إن اتباعه ليس سوى ضلالة.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ والملاحظ أن الأجيال اللاحقة تتبع الجوانب السلبية في تراث الأولين، والقرآن يخالف المقاييس الجاهلية في تقييم الأشياء، لأن الإنسان الذي يتميز بالعقل ينبغي له أن يتبع المقاييس الصحيحة، وهي العلم أو الهدى أو الكتاب ويستنكر عليهم ذلك قائلا: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ فهل تذهب مع الآباء حتى لو كانت طريقتهم تنتهي إلى النار؟.

[٢٢] قد يشعر الإنسان بنعم الله عليه، ومن ثم يرى نفسه مسؤولا عن أداء الشكر له عليها، ولكن يقف متسائلا: كيف يمكن لي ذلك؟ ونجيبه عد إلى القرآن واقرأ: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾.

بأن يخضع له خضوعا مطلقا، وبكل ما يملكه من الطاقات المادية والمعنوية، ولكن أي خضوع ذلك الذي تدعو الآية الإنسان إليه هل هو الخضوع الذي يدعوه إلى السكون والخمول؟

بالطبع كلا؛ إنما تدعو إلى ذلك الخضوع المليء بالنشاط والحركة فصاحبه من جانب يتوجه إلى الله بكله، ومن جانب آخر يتفجر إحسانا وعطاء لعباد الله في سبيله.

وإذا وصل الإنسان إلى هذه الدرجة من الكمال، بأن تصبح علاقته مع الله علاقة تسليم وخضوع، ومع الناس علاقة إحسان وعطاء.

﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ فمن جانب يكون هذا الإنسان قد تمسك بخط واضح وسليم في الدنيا فحظي بالسعادة، ومن جانب آخر فإنه سيرجع إلى الله ليجازيه على شكره بتسليمه له وإحسانه للعباد.

ولعل تأكيد القرآن في آيات عديدة بأن التسليم لله هو التمسك بحبله المتين، وبالعروة الوثقى يهدف إلى علاج عقدة مستعصية عند البشر هي عقدة الخوف من المخلوقات، هذا الخوف الذي يدفعه نحو الخضوع للمخلوقين والشرك بالله العظيم، بينما الرب يؤكد بأن من يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى، وأنه لا أمان للإنسان إلا بالتوحيد الخالص.

التسليم لله في الواقع لا يتحقق من دون التسليم للقيادة الشرعية المتمثلة في أئمة الهدى، والرضا بولاية من أمر الله بولايتهم.

[٢٣] ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟﴾ ومادام الأمر كذلك فلماذا يحزن الإنسان نفسه، هل لأن الآخرين على خطأ؟! وإذ ينهى الله عن هذا الحزن فلأن المؤمن لو أدام حزنه على كفر الكفار فلربما يجره هذا الحزن شيئا فشيئا إلى طريقهم المنحرف، فلكي لا يقع المؤمن في خطأ فظيع كهذا يوجهه الله إلى ضرورة تجنب الانفعال النفسي كما يفعله الآخرون.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فلا تخفى عليه خافية، وإنما خصص بالذكر ﴿ٱلصُّدُورِ﴾ بالذات لأن عمل الإنسان يخضع إلى مقياسين:

الأول: مقياس ظاهري مثل كثرة العمل وقلته، وعظمته وحقارته.

الثاني: مقياس باطني، وهو نية العمل.

وإذا زعم الإنسان أنه قادر على خداع الناس بظاهر عمله، فلا يظن بأنه يخفي عن ربه شيئا وهو العليم بذات الصدور.

[٢٤] بلى؛ هناك بعض المكاسب الظاهرة لمثل هؤلاء، ولكنهم هم الخاسرون أخيرا لأن عاقبتهم النار ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾.

[٢٥] يتلو علينا القرآن عشرة أسماء لربنا الكريم، وببلاغة نافذة يستثير الذكر وجدان البشر بذكر الآيات التي تشهد على تلك الأسماء الحسنى.

ولعل مناسبة الحديث عنها التذكرة بمفردات الشكر. أوليس بداية الشكر معرفة المنعم؟ وكيف نعرف الله أوليس بأسمائه؟!.

على أن القرآن ذاته تذكرة بالله، ويهدف ترسيخ دعائم الإيمان في القلب، بيد أنه بالإضافة إلى هذا الهدف العام هنالك حكمة خاصة وراء كل ذكر لله ولأسمائه وآياته، تتعلق بالموضوعية الخاصة، مثلا: هنا يجري الحديث عن الشكر، ولابد أن يجري حديث عن صاحب النعمة، لأن الشكر لا معنى له من دون معرفة من نشكره، وهكذا كل الحقائق تتصل مباشرة بمعرفة الله وأول أسمائه تكشف عن أعظم نعمة علينا وهو الخلق.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ إنها الفطرة التي يشترك الناس فيها، وحتى المشركون يعترفون بأن الله خالق كل شيء إلا إنهم يخشون غيره، ويشركون به لجهلهم بأن الله الفعال لما يريد.

ومادام الجميع يعترفون بأن نعمة الخلق وهي أصل سائر النعم من الله فالحمد كله لله، وعلينا أن نحمده بكل معاني الحمد.

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ولعلنا نستوحي من هذا السياق أن الحمد بداية الشكر، وأول كلمة في القرآن بعد البسملة هو الحمد، لقد كان النبيون والأئمة والصديقون يفتتحون حديثهم بحمد الله والثناء عليه.

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فهم يحمدون المربوبين ولا يعلمون أن الحمد كله لله. أوليست النعم جميعا منه؟! أوليس الناس إنما يعملون الحسنات بحوله وقوته، فإن استحقوا

حمدا فيما خولهم من نعمه؟!

ويبقى **السؤال**: لماذا يكفرون بالله وهم يزعمون بأنه خالق السماوات والأرض؟.

إن هذا التناقض نابع من ذات البشر، وسبحان الله أن يكون مصدرا لهذا التناقض، فله الحمد في السماوات والأرض، ومن له الحمد ليس ناقصا البتة. كلا.. فآياته مبثوثة في الأنفس والآفاق، فلا ينكره من ينكر لقلة الآيات، ولا حجة لهم عليه فقد أركز في أفئدتهم معرفته بالفطرة.

بلى؛ إن جهلهم الذاتي، وظلمهم، وتراكم العقد النفسية على قلوبهم هو مصدر التناقض بين اعترافهم بالخالق وبين عدم شكرهم له.

[٢٦] لأن الله هو الخالق فهو المالك ومن هو أعظم ملكا ممن خلق ولا يزال يتصرف في خلقه بما يشاء، دون أن يسأله أحد عما يفعل.

﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فهو المالك الحق، أما الناس فإنهم إنما يملكون الشيء بقدر تمليكه وفي حدود منحهم صلاحية التصرف تكوينا وتشريعا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ ومن الناس من يملك بحول الله وقوته ملكية محدودة فيسيء التصرف فيه فهو غني غير حميد، بينما الله حميد في غناه لأنه يفعل الخير وما يستوجب الحمد والشكر.

والملاحظ: أن خاتمة الآية تكريس لفكرتها، كما أن فاتحتها شاهدة على خاتمتها. فإن من يملك السماوات والأرض هو الغني لأنه المالك لهما، وهو الحميد لأن كل النعم مصدرها السماوات والأرض ظاهرا، فلنحمد خالقهما بدل أن نحمد من يملك جزءا منهما.

[٢٧] وربنا العزيز المقتدر، لأنه السلطان القاهر فوق عباده، المهيمن على حركة السماوات والأرض، والقائم بنظامهما، وتصدر كلماته النافذة ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧] بما لا تحصى عددا في كل ساعة ولحظة ويهبط قضاؤه الحتم في كل حدث صغير أو كبير، حتى الورقة الواحدة التي تسقط في غابة كثيفة أيام الخريف إنما تسقط بعلم الله وأمره وكلمته، وما تزداد الأرحام وما تغيظ إنما هو بعلم الله وقضائه وإمضائه، وحركة جزئيات الذرة داخل عالمها الصغير العظيم، ومكونات الخلية المتواضعة والعظيمة، وخلجات الفكر، ونبضات الأعصاب و...

وهذه هي العزة. أوليست العزة هي تجليات القدرة، وتطبيقات المالكية؟!.

إن التصوير القرآني للعزة الإلهية بالغ الروعة، وروائع البلاغة، ولعمري إن هذا التصوير ذاته تجل لعزته بما يحمل من شواهد تطبيق القدرة، وتجليات تحقيق الهيمنة في عالم الكلمة المقروءة.

تدبر في هذه الكلمات وفكر. أليس الأمر كذلك؟!.

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ ﴾ لا تحضرني الآن إحصائية تقريبية لعدد أشجار الأرض المنتشرة في الغابات الكثيفة والحقول الواسعة في أنحاء الأرض، ولكن لا ريب أنها هائلة العدد، وإذا عرفنا أن الشجرة الواحدة تصبح مئات الألوف من الأقلام، وأن القلم لا يستهلك بسهولة عند الكتابة، لعرفنا ماذا تعني هذه الأقلام من العدد.

﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ ﴾ أي تكون بحار الأرض التي تتصل ببعضها حتى تصبح بحرا واحدا تغمس فيه تلك الأقلام ثم يكتب ببلله مدادا.

﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ﴾ والسبعة تعبير عن الكثرة، والسؤال إذا كانت ثلاثة أرباع الكرة مغطاة بالبحار التي سماها الرب بحرا واحدا فكم هي سعة الأبحر السبعة الأخرى؟!

﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ وكيف تنفد كلمات الله التي لا تحصى، والتصوير القرآني أهمل ذكر الدفاتر لعله لأن أفق تفكيرنا يعجز عن تصور القرطاس الذي يمكنه أن يستوعب ما يمده البحر، ويكتبه هذا العدد الضخم من الأعداد، أليس كذلك؟!.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ وكيف لا يكون عزيزا من لا يستوعب ذلك الحشد من الأقلام كلماته أو قضاؤه وإمضاؤه.

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن معنى الكلمات العلوم، والواقع أن علم الله ليس مما يخضع للإحصاء فإنه قديم لا يعزب عنه مثقال ذرة، ولكن المعلومات هي التي تعد والكلمات هي المعلومات.

وخاتمة الآية تشهد بالتفسير الذي اخترناه للكلمات.

﴿ حَكِيمٌ ﴾ فعزة الله المتجلية في سلطانه، وسعة أبعاد قضائه وإمضائه تتصف بالحكمة، حيث إنه سبحانه يحكم بالعدل ويقضي بالحق، ولا يتخذ من لدنه لعبا ولا لهوا، بل لكل كلمة يلقيها هدف معلوم، وأجل مسمى.

إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور

﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٢٨) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ(١) اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٩) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٣٠) أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣١) وَإِذَا غَشِيَهُم(٢) مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ(٣) دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ(٤) وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ(٥) (٣٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٣٣) إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (٣٤) ﴾.

---

(١) يولج: ينقص من النهار ليزيد على الليل أو يدخل ليلة كل يوم في نهاره.

(٢) غشيهم: علاهم وغطّاهم.

(٣) كالظلل: الظلل جمع ظلة، وهو ما أظلك كالسحاب والجبال.

(٤) مقتصد: عدل في الوفاء في البر عما عاهد الله عليه في البحر.

(٥) ختار كفور: الختر أقبح الغدر.

هدى من الآيات:

هل إن الأصل في الحياة الكمال أم النقص؟ العدم أم الوجود؟ فإذا كان الأصل هو الكمال، فإن كل نقص يطرأ على الكون يخالف انتظارنا وتوقفنا، وإذا كان العكس، فإن من واجبنا الشكر لله على كل إضافة جديدة.

حسبنا عودة إلى الوراء توضح لنا الأمر، حيث إننا لم نكن شيئا مذكورا بالأمس، وإن الكمالات قد أضيفت لنا شيئا فشيئا، فصرنا إلى القوة بعد الضعف بقدرة الله، وبعد الجهل إلى المعرفة برحمته.

هكذا كان العدم مهيمنا علينا من كل جانب وصوب، فمن علينا ربنا بنعمة الخلق، وأسبغ علينا من نعمه الظاهرة والباطنة، حتى إن كل ذرات كياننا المادي والمعنوي هي نعم إلهية علينا، فلماذا نكفر ونتكبر ونطغى ونحن نعلم بأن هذه النعم لن تكون إلا إلى فترة يسيرة، وأنها عرضية تزول عندما يقرر الإنسان أن لا يشكر ربه عليها، أو حينما يكتب الله لها الزوال.

ويتجلى الفرق بين الإنسان الذي يتصور بأن الكمال هو الأصل في ذاته، وبين الآخر الذي يعرف أنه لم يكن شيئا، إنما خلقه الله شيئا ثم أضاف إليه من نعمه، يتجلى الفرق في الصفات بين الصبار الشكور والختار الكفور، لأن كلا هذين الموقفين منطلق من إحدى النظرتين السابقتين، فمن يتصور بأن الأصل هو الكمال لا يرى ضرورة للشكر أو الصبر، لأنه سيعتبر ذهاب النعمة من بين يديه شذوذا لا يطاق، بينما يشكر الآخر -الذي يعتقد بأن الأصل هو النقص والعدم- عند النعم، ويستفيد منها في تكامله، ويصبر عند البلاء لأنه يعتبر النعمة حينذاك أمانة استرجعها الله، وهذا الإيمان يجعله يحير في مهرجان الرضى بقضاء الله والتسليم بقدره، أما الكفور فإذا مسه الخير تراه منوعا، أما إذا مسه الشر فهو جزوع، يدفعه شعوره الدائم بالنقص (الحقارة) إلى التفتيش عن إضافات توصله إلى الكمال، دون التفكير في الوسيلة السليمة ودون معرفة.

ومن أجل أن نخلق في أنفسنا صفة الصبر والشكر، يدعونا القرآن إلى التفكر في أنفسنا في الكون، بحثا عن الحقيقة العظمى فيه، وهي معرفة الله، والإنسان غالبا ما يفكر في مخلوقات الله بذاتها، دون أن يقوده تفكيره فيها إلى معرفة ربه وهذا منهج خاطئ، والقرآن الكريم يوسع أفقنا ويأخذ بأذهاننا إلى ما وراء الحياة الدنيا، ويعطي لنا منهجا ينتهي في كل اتجاه إلى معرفة الله، ذلك أن هذه المعرفة تعطي الإنسان نظرة سليمة إلى هذه الحياة، في سرائها وضرائها، وفي ظاهرها وباطنها.

بينات من الآيات:

[٢٨] ويمضي السياق قدما في تذكرة المؤمنين بأسماء ربهم وإتمام الحجة على الناس جميعا، ويبين لهم جانبا من قدرة الله، بعد أن صور لهم جانبا من عزته وحكمته، وذلك ببلاغة نافذة، أرأيت كيف هدانا إلى عظيم عزته بأن كلماته لا تحصى؟ هكذا يهدينا إلى قدرته ولطف تدبيره بأنه يخلق الناس جميعا كما لو يخلق نفسا واحدة، ثم يبعثهم كما لو يبعث نفسا واحدة. أرأيت كيف يقرب إلينا حقيقة قدرته ولطفه وإحاطته بالأشياء خبرا!.

﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ ثم يذكرنا بضرورة خشيته ويقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ يسمع ما نقوله، ويرى ما نصنعه، وهذا يدعونا إلى تحمل مسؤولية كلامنا وأعمالنا.

[٢٩] إن الله جعل الشمس والأرض في حركة دائمة، من خلالها يحدث الليل والنهار وتتغير الفصول ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ والتعبير القرآني ﴿يُولِجُ﴾ دقيق جدا من الناحية العلمية، إذ يشير إلى الحركة الفصلية على مدار السنة، فإذا ولج الليل في النهار -دخل فيه وأخذ منه- حتى إذا تعادلا صار الربيع، وهكذا يستمر دخوله في النهار حتى يصير أطول منه فيحيل الفصل شتاء، ثم يمتد النهار شيئا فشيئا -يلج في الليل وينتقص منه- إلى أن يصير أطول منه فيكون الفصل صيفا.

وكما أن للإنسان وسائر المخلوقات أجلا مسمى، فإن للشمس والقمر أجلا مسمى، مما يدل على أن الشمس والقمر لم يكونا شيئا في يوم من الأيام -تماما كالإنسان- وهذا يهدينا إلى أنهما يجريان إلى نقطة الصفر في النهاية، وإلى وجود خطة وتدبير لهما من قبل الله عز وجل ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ عند الله، وقد ثبت في العلم الحديث أن الشمس والقمر وسائر الكواكب والنجوم الأخرى في طريقها إلى الانتهاء ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾.

[٣٠] ماذا ترى حولك في الخلق، أولست ترى سماء مبنية بغير عمد، محبوكة من دون أي فطور، وأرضا مدحية، والليل والنهار يختلفان عليها، وكل شيء فيها بمقدار، فإلامَ تهديك كل تلك الحقائق؟ أوليس إلى رب مقتدر دائم الملك، دائم القدرة، لا يحد علمه شيء، ولا يبلي سلطانه الزمن، ولا يزيل عزته تنافس، ولا يمتنع عن قهره أحد -سبحانه- ذلك هو الله الحق، الثابت بلا تغيير، الدائم بلا زوال، المعطي بلا نفاد، القاهر بلا نصب.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أما الآلهة التي تعبد من دون الله فهي الزائلة. أرأيت كيف تغيب الشمس، ويأفل القمر، وينفجر النجم، أو ما تبصر اختلاف الليل والنهار وكيف يبليان كل جديد، ويقضيان على كل سلطان؟! فمن أراد أن يتمسك بالعروة الوثقى، ويعتمد على السند القوي، ويدخل في حصن منيع فعليه بتوحيد الله الحق.

﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ الذي لا ثبات له ولا استمرار.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾ الذي تعالى عن صفات المخلوقين، فلا زوال ولا اضمحلال، ولا نفاد ولا تحديد، ولا نقص ولا عجز، ولا سنة ولا نوم سبحانه.

﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ قدرته واسعة، وعلمه محيط، ورحمته شاملة، ومنه قديم، وفضله عميم، وآياته في كل أفق، وشهادته أكبر شهادة. فلا شيء في الحياة إلا بتدبير منه سبحانه.

وهناك علاقة بين دعوة الله لنا في أول الآيات إلى النظر في الكون، ودعوته لنا في آخرها إلى النظر في سلوكنا، عندما يخبرنا بأنه محاط بعلم الله، وتحت سمعه وبصره، وتتلخص هذه العلاقة في ضرورة انعكاس نظرتنا إلى الكون على سلوكنا في الحياة، كما تسوقنا الآية إلى حقيقة التوحيد في هذا الكون، إذ تهدينا إلى أن الرب الذي يولج الليل في النهار، والذي سخر الشمس والقمر هو الذي يدبر الإنسان ويرعاه، فيعلم ما يعمل، ويحاسبه ويجازيه عليه.

[٣١] ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ الفلك هي السفن التي كانت تحركها الرياح، وذلك بنعمة الله ورحمته، إذ بعث هذه الرياح وأجرى السفن التي عبرها جعلت الرياح في خدمة الإنسان.

وبما أن الهدف الأسمى من نعم الله على الإنسان تكامل روحه ومعنوياته، فقد قال الرب:

﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ وكل نعم الله هي من آياته، ولكن ليس جميع الناس يتحسسون هذه الآيات ويشكرون الله تعالى عليها، إنما المؤمن الذي يتحلى بالصبر والشكر هو الذي يستشعر آيات الله في حياته: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ ولكن من هو الصبّار ومن هو الشكور؟. وما هي العلاقة بين الصبر والشكر؟.

الإيمان صبر وشكر

جاء في الحديث عن الرسول ﷺ: «الْإِيمَانُ نِصْفَانِ نِصْفٌ فِي الصَّبْرِ وَنِصْفٌ فِي الشُّكْرِ»[١].

(١) بحار الأنوار: ج٧٤، ص١٥٣.

والواقع، أن الشكر و الصبر يشعان من مشكاة واحدة هي التسليم لله ولقضائه، والإيمان بأنه الواهب المتفضل المنان، بيد أن الشكر هو تجل لهذه الحالة عند النعمـة، والصبر تجل لها عند النقمة، لذلك جاء في الحديث عن الإمام الباقر عليه السلام: **«العَبْدُ بَيْنَ ثَلَاثٍ بَلَاءٍ وقَضَاءٍ ونِعْمَةٍ فَعَلَيْهِ لِلْبَلَاءِ مِنَ الله الصَّبْرُ فَرِيضَةً وعَلَيْهِ لِلْقَضَاءِ مِنَ الله التَّسْلِيمُ فَرِيضَةً وعَلَيْهِ لِلنِّعْمَةِ مِنَ الله الشُّكْرُ فَرِيضَةً»**[١].

ولعل أعظم ما في الشكر هو تنمية روح الرضا في النفس بعيدا عن الغرور والفخر والكبرياء، والنفس الراضية تستدر ثواب الله، وتسعد في الدنيا.

يروي الإمام الصادق عليه السلام عن الرسول صلى الله عليه وآله: **«الطَّاعِمُ الشَّاكِرُ لَهُ مِنَ الأَجْرِ كَأَجْرِ الصَّائِمِ المُحْتَسِبِ والمُعَافَى الشَّاكِرُ لَهُ مِنَ الأَجْرِ كَأَجْرِ المُبْتَلَى الصَّابِرِ والمُعْطَى الشَّاكِرُ لَهُ مِنَ الأَجْرِ كَأَجْرِ المَحْرُومِ القَانِعِ»**[٢].

ولعل الحكمة في ذلك أن الشكر يزيد في الإيمان بالله، وبأنه المتفضل المنان، ويمنع عن صاحبه الغرور، ويدفعه نحو الالتزام بواجبات النعمة.

هذا عن ثواب الله أما عن سعادة القلب فإن أعظم ما في النعم تحقيق طموحات النفس، أما لذة الجسد فإنها تتلاشى بسرعة وهي لا تمنح البشر سعادة. أرأيت لو حكم بالإعدام على شخص ثم أوتي أفضل أنواع الطعام، وهيئت له اللذة الجنسية مع أجمل بنات العالم، فهل يهنئ بذلك؟! كلا..

كذلك لو كان القلق النفسي يؤرق الفرد لا يهنئ بلذة جسدية مهما كانت عارمة ومتنوعة، ذلك أن المهم هو سعادة القلب ورضاه.

فمن كان ينتظر مليون دينار ربحا إذا حصل على نصف مليون تراه آسفا، أما إذا لم ينتظر شخص ربحا فربح نصف دينار فإنه يعيش الفرح، كذلك لو تمنى شخص الرئاسة في بلد فقدر له منصب نائب الرئيس لم يتحسس بالسعادة بقدر من لم يطمع في منصب صغير فحصل عليه.

وهكذا الشاكر لأنعم الله يتحسس بالنعم، ويعرف أنه لم يكن يستحقها إلا بفضل الله، فهو كمن لا ينتظر أي مكسب بل ينتظر خسارة فيأتيه الربح، كأنك تراه يسعد به أنى كان ضئيلا.

---

(١) وسائل الشيعة: ج ٣، ص ٢٦٠.
(٢) الكافي: ج٢، ص٩٤.

دعنا نقرأ حديثين يؤكدان هذه الفكرة الهامة التي أعتبرها مفتاحا هاما للإحساس بالسعادة دائما.

يقول محمد بن خلاد: سمعت أبا الحسن عليه السلام يقول: **«مَنْ حَمِدَ الله عَلَى النِّعْمَةِ فَقَدْ شَكَرَهُ وكَانَ الحَمْدُ أَفْضَلَ مِنْ تِلْكَ النِّعْمَةِ»**[1].

ويقول مالك بن أعين الجهني: أوصى علي بن الحسين عليه السلام بعض ولده فقال: **«يا بُنَيَّ اشْكُرْ مَنْ أَنْعَمَ عَلَيْكَ وأَنْعِمْ عَلَى مَنْ شَكَرَكَ فَإِنَّهُ لا زَوَالَ لِلنَّعْمَاءِ إِذَا شُكِرَتْ ولا بَقَاءَ لَهَا إِذَا كُفِرَتْ والشَّاكِرُ بِشُكْرِهِ أَسْعَدُ مِنْهُ بِالنِّعْمَةِ الَّتِي وَجَبَ عَلَيْهَا الشُّكْرُ وتَلا لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ولَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ»**[2].

ويكفي المؤمن دافعا إلى الشكر أنه ينظر إلى البلاء ينزل على الناس وهو معافى عنه، ويقول في نفسه: ماذا لو قدر الله علي هذا البلاء، فيتلألأ قلبه نورا وشكرا.

هكذا أجاب الإمام أمير المؤمنين رجلا سأله: بماذا شكرت نعماء ربك؟ فقال: **«نَظَرْتُ إِلَى بَلاءٍ قَدْ صَرَفَهُ عَنِّي وَأَبْلَى بِهِ غَيْرِي فَعَلِمْتُ أَنَّهُ قَدْ أَنْعَمَ عَلَيَّ فَشَكَرْتُهُ»**[3].

وكلما رأى المؤمن مبتلى ازداد لربه شكرا على أنه لا يزال معافى.

هكذا علمنا ديننا أن نشكر الله حين نرى مبتلى، وهكذا يقول إمامنا الباقر عليه السلام: **«تَقُولُ ثَلاثَ مَرَّاتٍ إِذَا نَظَرْتَ إِلَى المُبْتَلَى مِنْ غَيْرِ أَنْ تُسْمِعَهُ الحَمْدُ للهِ الَّذِي عَافَانِي مِمَّا ابْتَلاكَ بِهِ ولَوْ شَاءَ فَعَلَ قَالَ مَنْ قَالَ ذَلِكَ لَمْ يُصِبْهُ ذَلِكَ البَلاءُ أَبَداً»**[4].

والشكر يقي النفس من الانزلاق في مهوى الفخر والغرور، لأنه يوحي إلى النفس أن النعمة ليست ذاتية له بل هي إضافة خارجية ذات عوامل خاصة لابد من المحافظة عليها حتى تستمر، فالغرور يضحى تواضعا، والفخر سعيا، والكسل اجتهادا، وكل ذلك مما يحفظ النعم ويزيدها.

جاء في الحديث: قال الإمام الصادق عليه السلام: **«مَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَى عَبْدٍ نِعْمَةً فَعَرَفَهَا بِقَلْبِهِ وجَهَرَ بِحَمْدِ الله عَلَيْهَا فَفَرَغَ مِنْهَا حَتَّى يُؤْمَرَ لَهُ بِالمَزِيدِ»**[5]. بينما عدم الشكر يورط أصحاب

(١) الكافي: ج٢، ص٩٦.
(٢) وسائل الشيعة: ج١٦، ص٣١٣.
(٣) بحار الأنوار: ج٣، ص٤٢.
(٤) الكافي: ج٢، ص٥٧.
(٥) وسائل الشيعة: ج٧ ص١٧٥.

النعم في الجوانب السلبية لها، بل تتحول النعمة عندهم إلى وبال ونقمة.

أرأيت كيف بادت حضارات كانت سائدة. لماذا؟ لأنها لم تشكر ربها، بل غرقت في بحر الغرور والتجبر، وبالتالي عاثت فسادا في الأرض فكبت بها أخطاؤها، ودمرت تدميرا.

من هنا جاء في الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**إِنَّ اللهَ أَنْعَمَ عَلَى قَوْمٍ بِالمَوَاهِبِ فَلَمْ يَشْكُرُوا فَصَارَتْ عَلَيْهِمْ وَبَالًا وابْتَلَى قَوْماً بِالمَصَائِبِ فَصَبَرُوا فَصَارَتْ عَلَيْهِمْ نِعْمَةً**»[1].

ومن أبرز أخطار ترك الشكر أنه ليس فقط يسبب في زوال النعم، بل ويتحول إلى وبال يمنع عودة النعم عادة. مثلا: إذا أنعم الله على عبد فأصبح قائدا، وأبطره المنصب فأقيل منه لا يعود إليه هذا المنصب بسهولة، لأن الناس يرفضونه بسبب تجربته الفاشلة في الحكم، كذلك ينبغي التشبث بالنعم عبر الشكر حتى لا تزول ثم لا تعود أبدا.

قال الإمام الصادق عليه السلام حسب ما جاء في رواية زيد الشحام: «**أَحْسِنُوا جِوَارَ النِّعَمِ وَ احْذَرُوا أَنْ يَنْتَقِلَ عَنْكُمْ إِلَى غَيْرِكُمْ أَمَا إِنَّهَا لَمْ يَنْتَقِلْ عَنْ أَحَدٍ قَطُّ فَكَادَتْ أَنْ تَرْجِعَ إِلَيْهِ قَالَ وَ كَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام يَقُولُ قَلَّ مَا أَدْبَرَ شَيْءٌ فَأَقْبَلَ**»[2].

والذين يشكرون النعم يعرفون أنها قد تكون البداية لسلسلة متكاملة من فضل الله، وهكذا يستدرجونها لأنفسهم بشكرها، بينما غيرهم يبطرون بها فلا تستكمل النعم عندهم، فمن حصل على ألف، وشكر النعمة بالسعي والنشاط، وأداء حقوق الناس استدرج الألوف، بينما يبطر بها فهو لا يحصل على المزيد بل يفقد الموجود.

هكذا يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**إِذَا وَصَلَتْ إِلَيْكُمْ أَطْرَافُ النِّعَمِ فَلَا تُنَفِّرُوا أَقْصَاهَا بِقِلَّةِ الشُّكْرِ**»[3].

كيف نشكر الله على النعم؟

هناك عدة وسائل لشكر النعم:

أولاً: ينطلق الشاكر من قاعدة الإيمان بأن النعم من الله لذلك فان إذعان قلبه بأن النعمة

---

(١) تهذيب الأحكام: ج٦، ص٣٧٧.
(٢) بحارالأنوار: ج٦٨، ص٤٧.
(٣) وسائل الشيعة: ج١٦، ص٣٢٨.

من الله عنوان شكره عليها. قال الإمام الصادق عليه السلام: **«مَنْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ بِنِعْمَةٍ فَعَرَفَهَا بِقَلْبِهِ فَقَدْ أَدَّى شُكْرَهَا»**[١].

ثانياً: ذكر «الحمد لله» على لسانه، هكذا روى عمر بن يزيد عن الإمام الصادق عليه السلام قال سمعته يقول: **«شُكْرُ كُلِّ نِعْمَةٍ وإِنْ عَظُمَتْ أَنْ تَحْمَدَ الله عَزَّ وجَلَّ عَلَيْهَا»**[٢].

ثالثاً: اجتناب المحرمات، وبالذات تلك التي تقتضيها النعمة مثل الفخر والتجبر أو الإسراف والبخل أو الفساد الجنسي. هكذا روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: **«شُكْرُ كُلِّ نِعْمَةٍ وَالوَرَعُ عَمَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْكَ»**[٣].

رابعاً: أداء حقوق النعمة، والالتزام بالحدود التي شرعها الدين لها.

دخل سدير الصيرفي على الإمام الصادق عليه السلام (وكان ذا غنى حسب الظاهر) قال له: **«يَا سَدِيرُ مَا كَثُرَ مَالُ أَحَدٍ قَطُّ إِلَّا كَثُرَتِ الحُجَّةُ لله تَعَالَى عَلَيْهِ فَإِنْ قَدَرْتُمْ تَدْفَعُونَهَا عَنْ أَنْفُسِكُمْ فَافْعَلُوا. فَقَالَ: يَا ابْنَ رَسُولِ الله بِمَاذَا؟ فَقَالَ: بِقَضَاءِ حَوَائِجِ إِخْوَانِكُمْ مِنْ أَمْوَالِكُمْ.**

ثُمَّ قَالَ: تَلَقَّوُا النِّعَمَ يَا سَدِيرُ بِحُسْنِ مُجَاوَرَتِهَا واشْكُرُوا مَنْ أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ وأَنْعِمُوا عَلَى مَنْ شَكَرَكُمْ فَإِنَّكُمْ إِذَا كُنْتُمْ كَذَلِكَ اسْتَوْجَبْتُمْ مِنَ الله الزِّيَادَةَ ومِنْ إِخْوَانِكُمُ المُنَاصَحَةَ ثُمَّ تَلَا لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ»[٤].

خامساً: بالاجتهاد في سبيل الله، وابتغاء مرضاته، ذلك أن النفس الشاكرة تنبعث عفويا نحو الطاعة، والاجتهاد في العبادة لا لأداء حق الله الذي عليها، لأن حق الله أعظم من أن يؤديه شكر العبد، أوليس العمل بالتالي يكون بحول الله وتوفيقه مما يقتضي المزيد من الشكر، إنما حبا لله وشوقا إلى لقائه الكريم. تعال معي إلى الرسول الأعظم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله لنرى كيف كان يجهد نفسه في العبادة شكرا لله.

عَنْ بَكْرِ بْنِ عَبْدِالله أَنَّ عُمَرَ دَخَلَ عَلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله وهُوَ مَوْقُوذٌ أَوْ قَالَ مَحْمُومٌ فَقَالَ لَهُ يَا رَسُولَ الله مَا أَشَدَّ وَعَكَكَ أَوْ حُمَّاكَ؟!. فَقَالَ صلى الله عليه وآله لَهُ: **مَا مَنَعَنِي ذَلِكَ أَنْ قَرَأْتُ اللَّيْلَةَ ثَلَاثِينَ سُورَةً فِيهِنَّ السَّبْعُ الطُّوَلُ.**

---

(١) الكافي: ج٢ ص٩٦.
(٢) المصدر السابق: ص٩٥.
(٣) بحار الأنوار: ج٦٨، ص٤٣.
(٤) وسائل الشيعة: ج١٦، ص٣٢٨.

فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وأَنْتَ تَجْتَهِدُ هَذَا الاِجْتِهَادَ. فَقَالَ ﷺ: **أَ فَلا أَكُونُ عَبْداً شَكُوراً**»[١].

سادساً: القناعة بما يجده المرء، والابتعاد عن الحرص والشره. إن الشكر ليس وليد الرضا بأمر الله فقط، وإنما يساهم -أيضا- في تنمية روح الرضا والقناعة، ويجعل الإنسان يركز أبدا على الجوانب الإيجابية للحياة، ويتمتع بها، ويستفيد منها، وينطلق للحصول على المزيد منها بخطى ثابتة وواقعية ونفس راسخة العزم وهو مطمئن البال.

والقصة الطريفة التالية تعكس طبيعة النظرة الإيجابية عند أولياء الله الشاكرين، فلقد: «دَعَا سَلْمَانُ أَبَا ذَرٍّ رضي الله عنه ذَاتَ يَوْمٍ إِلَى ضِيَافَةٍ فَقَدَّمَ إِلَيْهِ مِنْ جِرَابِهِ كِسَراً يَابِسَةً وَبَلَّهَا مِنْ رَكْوَتِهِ. فَقَالَ أَبُو ذَرٍّ: مَا أَطْيَبَ هَذَا الخُبْزَ لَوْ كَانَ مَعَهُ مِلْحٌ. فَقَامَ سَلْمَانُ وَخَرَجَ فَرَهَنَ رَكْوَتَهُ بِمِلْحٍ وَحَمَلَهُ إِلَيْهِ، فَجَعَلَ أَبُو ذَرٍّ يَأْكُلُ ذَلِكَ الخُبْزَ وَيَذُرُّ عَلَيْهِ ذَلِكَ المِلْحَ وَيَقُولُ: الحَمْدُ للهِ الَّذِي رَزَقَنَا هَذِهِ القَنَاعَةَ. فَقَالَ سَلْمَانُ: لَوْ كَانَتْ قَنَاعَةً لَمْ تَكُنْ رَكْوَتِي مَرْهُونَةً»[٢].

الصبر هدى وظفر

والصبر -كما الشكر- تجل لروح الإيمان عند النوائب، وفي لحظات عصف الشهوات، وعند تحمل الصعاب.

والآية تربط بين الصبر والشكر، وتجعلهما وجهين لروح واحدة، كما يتبين أن آيات الله تتجلى عند أصحاب هذه الروح.

بلى؛ لأن النفس التي تنساب مع النعم أو النقم لا تملك استقلالية في الرأي، ولا وضوحا في الرؤية، لأنها تميل مع رياح الظروف أنى مالت، فإذا عصفت بها الشهوات طغت وتجبرت، واستأثرت بالنعم، وتعالت على الآخرين، وإذا توالت عليها المصائب انهارت وأظلمت الدنيا عندها وجزعت، لذلك تتجلى الآيات الإلهية للصبار الشكور أكثر من غيره.

والواقع أن الصبار الشكور هو الحر حقا، الذي ينظر إلى الحقائق نظرة موضوعية ومجردة عن المصالح. جاء في الحديث المأثور عن الإمام الصادق عليه السلام: «**إِنَّ الحُرَّ حُرٌّ عَلَى جَمِيعِ أَحْوَالِهِ إِنْ نَابَتْهُ نَائِبَةٌ صَبَرَ لَهَا وإِنْ تَدَاكَّتْ عَلَيْهِ المَصَائِبُ لَمْ تَكْسِرْهُ وإِنْ أُسِرَ وقُهِرَ واسْتُبْدِلَ بالْيُسْرِ عُسْراً كَمَا كَانَ يُوسُفُ الصِّدِّيقُ الأَمِينُ عليه السلام لَمْ يَضْرُرْ حُرِّيَّتَهُ أَنِ اسْتُعْبِدَ وقُهِرَ وأُسِرَ ولَمْ تَضْرُرْهُ ظُلْمَةُ**

(١) وسائل الشيعة: ج٦، ص١٩١.
(٢) بحار الأنوار: ج٢٢، ص٣٢٠.

الجُبِّ ووَحْشَتُهُ ومَا نَالَهُ أَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِ فَجَعَلَ الجَبَّارَ العَاتِيَ لَهُ عَبْداً بَعْدَ إِذْ كَانَ لَهُ مَالِكاً فَأَرْسَلَهُ ورَحِمَ بِهِ أُمَّةً وكَذَلِكَ الصَّبْرُ يُعَقِّبُ خَيْراً فَاصْبِرُوا ووَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ عَلَى الصَّبْرِ تُوجَرُوا»(١).

هكذا الصبر عنوان الإنسان الحر، ومفتاح الفرج بعد الشدة، وهو -كذلك- صلاح العمل. أوليس الزمان جزءا من فطرة الخليقة؟! فمن لا صبر له لا يمكنه أن يوظف عامل الزمن لمصلحته، فيكون سببا لفساد أعماله. أرأيت الفلاح الذي لا ينتظر الموسم المناسب لزراعته، والتاجر الذي لا يصبر حتى تزدهر السوق لبيع سلعته، والثائر الذي يستعجل تفجير ثورته. أوليس يفشل هؤلاء، بينما ينجح الصابرون؟! بلى؛ قال الإمام الصادق عليه السلام: «دَخَلَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عليه السلام المَسْجِدَ فَإِذَا هُوَ بِرَجُلٍ عَلَى بَابِ المَسْجِدِ كَئِيبٍ حَزِينٍ. فَقَالَ لَهُ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عليه السلام: مَا لَكَ؟. قَالَ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ أُصِبْتُ بِأَبِي [وَأُمِّي] وَأَخِي وَأَخْشَى أَنْ أَكُونَ قَدْ وَجِلْتُ فَقَالَ لَهُ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عليه السلام عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللهِ وَالصَّبْرِ تَقْدَمْ عَلَيْهِ غَداً وَالصَّبْرُ فِي الأُمُورِ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الجَسَدِ فَإِذَا فَارَقَ الرَّأْسُ الجَسَدَ فَسَدَ الجَسَدُ وَإِذَا فَارَقَ الصَّبْرُ الأُمُورَ فَسَدَتِ الأُمُورُ»(٢). وبالذات الإيمان فإن رأسه الصبر، لأن أعظم خصائص الإيمان الاستهار لليوم الآخر، ولا يبلغه من لا صبر له. يقول الإمام علي بن الحسين عليه السلام: «الصَّبْرُ مِنَ الإِيمَانِ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الجَسَدِ ولَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا صَبْرَ لَهُ»(٣).

وحقيقة الصبر الاستفادة من عامل الوقت، واستشراف المستقبل، والتخطيط له، وتوظيف الطاقات لأجله، وبالنسبة إلى المؤمن يعتبر اليوم الآخر الحياة الحقيقية، ولذلك فهو يعمل له أبدا، ولكنه يقتطع من كل مساعيه جزءاً مناسبا للدنيا، حسب وصية ربه له حيث يقول: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧]. ولذلك فإن المؤمن يستسيغ الصبر في كل الظروف، وفي مواجهة مختلف الاحتمالات، وقد قسم الشرع الصبر على ثلاثة:

- الصبر عند النوائب.

- الصبر على الطاعات.

- الصبر على المعاصي.

ووضع لكل واحد منها درجة من الثواب. تعال نستمع إلى الإمام علي عليه السلام يحدثنا عن

---

(١) الكافي: ج٢، ص٨٩.
(٢) المصدر السابق: ص٩٠.
(٣) المصدر السابق: ص٨٩.

حبيبه رسول الله ﷺ ويقول: «الصَّبْرُ ثَلَاثَةٌ:

- صَبْرٌ عِنْدَ الْمُصِيبَةِ؛

- وصَبْرٌ عَلَى الطَّاعَةِ؛

- وصَبْرٌ عَنِ المَعْصِيَةِ؛

فَمَنْ صَبَرَ عَلَى الْمُصِيبَةِ حَتَّى يَرُدَّهَا بِحُسْنِ عَزَائِهَا كَتَبَ اللهُ لَهُ ثَلَاثَمِائَةِ دَرَجَةٍ مَا بَيْنَ الدَّرَجَةِ إِلَى الدَّرَجَةِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ومَنْ صَبَرَ عَلَى الطَّاعَةِ كَتَبَ اللهُ لَهُ سِتَّمِائَةِ دَرَجَةٍ مَا بَيْنَ الدَّرَجَةِ إِلَى الدَّرَجَةِ كَمَا بَيْنَ تُخُومِ الأَرْضِ إِلَى العَرْشِ ومَنْ صَبَرَ عَنِ المَعْصِيَةِ كَتَبَ اللهُ لَهُ تِسْعَمِائَةِ دَرَجَةٍ مَا بَيْنَ الدَّرَجَةِ إِلَى الدَّرَجَةِ كَمَا بَيْنَ تُخُومِ الأَرْضِ إِلَى مُنْتَهَى العَرْشِ»(١).

[٣٢] إن ميزة الصبار الشكور وعيه لآيات الله، واهتداؤه بها إلى حقائق الخلق، فهو لا يعيش لحظته العابرة بل يعيش -بوعيه الواسع- المستقبل فيصبر على نوائب الحاضر انتظارا للفرج، ومعرفة بأن هناك نوائب أخطر لما تحل به، وأن عليه أن يشكر ربه حتى لا تحل به أبدا، وهكذا جاء في النص المأثور عن أمير المؤمنين عليه السلام: «كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا أَتَاهُ أَمْرٌ يَسُرُّهُ، قَالَ: الحَمْدُ لله الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ وإِذَا أَتَاهُ أَمْرٌ يَكْرَهُهُ قَالَ الحَمْدُ للهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ»(٢).

وهو يعيش كذلك الماضي، فيشكر الله على نعمه وعلى دفع النقم عنه.

بينما الختار الكفور الذي لا يملك وفاء ولا شكرا، فإنه يتعامل مع اللحظة الراهنة وكأنها أبدية فيتغير حسبها، فإذا افتتن بالنوائب تراه يجأر إلى ربه، فإذا نجاه الله منها عاد إلى غيه ونسي ما ألم به.

﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ ﴾ إن غشيان الموج أمر رهيب. إذ معناه الظاهر إحاطته بهم من كل صوب وحدب، ثم يعبر القرآن عنه أنه ﴿ كَالظُّلَلِ ﴾ بصيغة الجمع لأن الموج يتعاقب ويتكاثف.

﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ حيث أخلصوا التسليم والانقياد لرب العالمين، وانقشعت عن أبصارهم غشاوة الغفلة، وتلاشت العقد النفسية التي منعت عنهم الإيمان، وانزاح عن قلوبهم خوف الشركاء أو الرجاء فيهم، حيث لا يقدرون على شيء في تلك الساعة الرهيبة عند

(١) الكافي: ج٢، ص٩١.
(٢) مستدرك الوسائل: ج٥، ص٣٠٧.

تكاثف الموج، وتزايد خطر الموت.

إن هذه الحالة تتكرر عند الإنسان في أوقات عديدة، عندما يحيط به حريق هائل، أو عندما يدخل عزيز له إلى غرفة الإنعاش ويشير الأطباء أنهم لا يملكون من أمره شيئا، وحين ترتطم سيارته في طريق مهجور فيتدفق الدم من جوارحه.

إن تعلق القلب آنئذ بالرب الحق وحده لا شريك له لشاهد صدق على زيف الشركاء، ولكن الإنسان يفقد هذا الإيمان النقي بعد مرور الخطر.

وينقسم الناس فريقين: فمنهم من تبقى عنده آثار تلك الساعة فيشكرون الرب، ويصبرون على بلائه وهؤلاء هم المقتصدون.

﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ وهو المعتدل والموفي بعهده.

وهؤلاء تبقى في نفوسهم آثار تلك الشعلة الإلهية، التي أوقدتها حالة الانقطاع إلى الرب، ومنهم الجاحدون الذين يفقدون الوفاء والشكر للنعماء.

﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ والختار هو الذي ينكث عهده كثيرا، ولعل الكلمة تقابل الصبار لأن حالة الصبر تعني الاستقامة، والبقاء على العهد، وبالتالي عدم تبدل المواقف حسب الظروف أو حسب المصالح، والكفور صفة مقابلة للشكور.

[٣٣] لكي يتسع وعي الإنسان المستقبل لابد أن يتصوره باستمرار، ويعرف مدى خطورته، ولرب مستقبل أعظم ثقلا وحضورا وشهادة من اللحظة الراهنة لأهميته القصوى كذلك اليوم الآخر.

وحين يعيش الإنسان ذلك اليوم الرهيب يحافظ على توازن قلبه عند الشدائد، وعند تواتر النعم، فلا يجزع عند المصائب، ولا تبطره الآلاء.

ولعل ذلك هو مناسبة التذكرة بالقيامة في خاتمة السورة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ وهكذا لا يجوز الخضوع للوالدين إذا خالف أمرهما أمر الله. ﴿وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ فلا ينبغي أن يسعى الإنسان لإسعاد أبنائه على حساب دينه ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ والساعة آتية لا ريب فيها ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ التي تحجب البشر عن النظر في آيات الآخرة، وعن العمل لها.

والواقع: أن القريب يحجب البعيد إن لم يتسلح الإنسان بالبصيرة النافذة، لذلك جاء في

الحديث عن سلمان المحمدي عن النبي ﷺ قال: «حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ»(١).

ويفسر النص التالي هذا الحديث بصورة رائعة، فقد روى محمد بن مسلم بن شهاب قال: سئل علي بن الحسين عليه السلام أي الأعمال أفضل عند الله عز وجل؟ فقال: «مَا مِنْ عَمَلٍ بَعْدَ مَعْرِفَةِ اللهِ جَلَّ وعَزَّ ومَعْرِفَةِ رَسُولِهِ ﷺ أَفْضَلَ مِنْ بُغْضِ الدُّنْيَا وإِنَّ لِذَلِكَ لَشُعَباً كَثِيرَةً ولِلْمَعَاصِي شُعَباً فَأَوَّلُ مَا عُصِيَ اللهُ بِهِ الكِبْرُ وهِيَ مَعْصِيَةُ إِبْلِيسَ حِينَ أَبَى واسْتَكْبَرَ وكَانَ مِنَ الكَافِرِينَ والحِرْصُ وهِيَ مَعْصِيَةُ آدَمَ وحَوَّاءَ حِينَ قَالَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ لَهُمَا: ﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فَأَخَذَا مَا لَا حَاجَةَ بِهِمَا إِلَيْهِ فَدَخَلَ ذَلِكَ عَلَى ذُرِّيَّتِهِمَا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ وذَلِكَ أَنَّ أَكْثَرَ مَا يَطْلُبُ ابْنُ آدَمَ مَا لَا حَاجَةَ بِهِ إِلَيْهِ ثُمَّ الحَسَدُ وهِيَ مَعْصِيَةُ ابْنِ آدَمَ حَيْثُ حَسَدَ أَخَاهُ فَقَتَلَهُ فَتَشَعَّبَ مِنْ ذَلِكَ حُبُّ النِّسَاءِ وحُبُّ الدُّنْيَا وحُبُّ الرِّئَاسَةِ وحُبُّ الرَّاحَةِ وحُبُّ الكَلَامِ وحُبُّ العُلُوِّ والثَّرْوَةِ فَصِرْنَ سَبْعَ خِصَالٍ فَاجْتَمَعْنَ كُلُّهُنَّ فِي حُبِّ الدُّنْيَا فَقَالَ الأَنْبِيَاءُ والعُلَمَاءُ بَعْدَ مَعْرِفَةِ ذَلِكَ: حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ والدُّنْيَا، دُنْيَاءَانِ دُنْيَا بَلَاغٍ ودُنْيَا مَلْعُونَةٍ»(٢).

﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ إن بعض الناس يتحدى الغرور الذي يتتابه بسبب حب الدنيا لأنه غرور مباشر، أو لأنه لا يملك شيئا منها، ولكنه يغوى عبر المغرورين بالدنيا، مثل الملايين الذين تضلهم اليوم أجهزة إعلام المترفين، فهم يخسرون آخرتهم ليحصل غيرهم على الدنيا، فهم خسروا الدنيا والآخرة.

[٣٤] و لكي تترسخ دعائم الإيمان بالله واليوم الآخر في النفس، ويعلم البشر أنه لا يملك مستقبله بل ولا حاضره، فتطمئن نفسه إلى قضاء الله، ويصبر على بلائه، ويشكر نعماءه وفي ذات الوقت يزداد إحساسا بمسؤوليته عن مساعيه، من أجل ذلك وغيره ذكرت الآية الأخيرة من هذه السورة بإحاطة قدرة الله وعلمه بالإنسان، فهو الذي يملك علم الساعة - وهي أخطر- حين يمر بها أبناء آدم، ثقلت في السماوات والأرض.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ متى ترسو سفينة الخليقة على الشاطئ الأخير. لا أحد يعلم ذلك، بل لم يحدد ربنا لذلك وقتا -حسب بعض النصوص- إنما يقررها الرب متى شاء، وقد قال عز من قائل: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٤٢-٤٤].

(١) مستدرك الوسائل: ج١٢، ص٤٠.

(٢) الكافي: ج٢، ص١٣٠.

﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ بقدرته، فيحيي الأرض بعد موتها. إن قدرته أيضا محيطة بالبشر كما علمه.

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾ حيث تنعقد نطفة البشر على أسس بيولوجية بالغة الدقة، وخاضعة لعوامل متشابكة لا يعلمها إلا الله، ولا يقدر أحد على التحكم بتفاصيلها أبدا، وهنالك ترى أسس شخصية ظاهرة وباطنة، جميل أم قبيح، طويل أم قصير، قوي أم ضعيف، حاد الطبع أم لين، وما هي توجهاته العلمية والأدبية والفنية، وما هي مواهبه، وأهم من كل ذلك هل في طينته نزعة شريرة أم لا.

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام عن الآية: «**فَيَعْلَمُ اللهُ سُبْحَانَهُ مَا فِي الأَرْحَامِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وقَبِيحٍ أَوْ جَمِيلٍ وسَخِيٍّ أَوْ بَخِيلٍ وشَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ ومَنْ يَكُونُ فِي النَّارِ حَطَباً أَوْ فِي الجِنَانِ لِلنَّبِيِّينَ مُرَافِقاً فَهَذَا عِلْمُ الغَيْبِ الَّذِي لاَ يَعْلَمُهُ أَحَدٌ إِلَّا اللهُ**»[1].

﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ لأن العوامل التي تؤثر في سلوك الإنسان لا تحصى عددا، فكيف يتحكم فيها بصورة جازمة، بلى؛ هنالك تخطيط وتقدير واطمئنان نسبي، ولكن علم الغد خاص بالرب.

وحين لا يعلم البشر ما يفعله غدا فبالتأكيد لا يعلم ما يفعله الآخرون، وما قد يقع مستقبلا، وأفضل الخبراء عاجز عن معرفة المستقبل تفصيلا. مما يدل على أن المدبر للحياة ليس الإنسان نفسه. كذلك قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**عَرَفْتُ اللهَ سُبْحَانَهُ بِفَسْخِ العَزَائِمِ وحَلِّ العُقُودِ ونَقْضِ الهِمَمِ**»[2].

﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ وهكذا تكون النهاية بيد الله وحده، فلماذا الغرور؟!

يقول الحديث المأثور عن الإمام الصادق عليه السلام: «**إِنَّ النُّطْفَةَ إِذَا وَقَعَتْ فِي الرَّحِمِ بَعَثَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ مَلَكاً فَأَخَذَ مِنَ التُّرْبَةِ الَّتِي يُدْفَنُ فِيهَا فَمَاثَهَا**[3] **فِي النُّطْفَةِ فَلاَ يَزَالُ قَلْبُهُ يَحِنُّ إِلَيْهَا حَتَّى يُدْفَنَ فِيهَا**»[4].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

---

(١) بحار الأنوار: ج٣٢، ص٢٥٠.
(٢) نهج البلاغة: قصار الحكم: ٢٥٠.
(٣) ماثها: أذابها
(٤) الكافي: ج٣، ص٢٠٣.

سُورَةُ السَّجْدَة

* مكيّة.

* عدد آياتها: ٣٠.

* ترتيبها النزولي: ٧٥.

* ترتيبها في المصحف: ٣٢.

* نزلت بعد سورة المؤمنون.

فضل السورة

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ السَّجْدَةِ فِي كُلِّ لَيْلَةِ جُمُعَةٍ أَعْطَاهُ اللهُ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ وَلَمْ يُحَاسِبْهُ بِمَا كَانَ مِنْهُ وكَانَ مِنْ رُفَقَاءِ مُحَمَّدٍ وَأَهْلِ بَيْتِه صَلى الله عَلَيْهم».

(تفسير نور الثقلين: ج٤، ص ٢٢١)

الإطار العام

الرب يتجلى في قلوب المؤمنين

في أربع سور قرآنية يجب السجود عند الأمر به، وهي التي تسمى بالعزائم. وهذه السورة أولها في الترتيب، ولذلك حق أن تسمى بذلك، وقد تسمى بـ (الم. السجدة).

لعل آية السجدة (الآية: ١٥) هي محور السورة، وهي تبين أعظم صفات المؤمنين المخلصين، المتمثلة في تجلي الله لقلوبهم الزكية، حتى أنهم يخرون سجداً لله إذا ذكّروا بآياته، وتتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم.

وتترى آيات السورة للوصول إلى هذا المحور، انطلاقاً من اسم الربوبية لإله العالمين. فهو الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام، مما يوحي بترتيبها خلقاً بعد خلق، وطوراً بعد طور. ثم هو الذي يدبر الأمر من السماء إلى الأرض، وإليه يرجع العباد أعمالهم، وهو عالم الغيب والشهادة، يحيط علماً بالخلق، فلا يعزب عن علمه شيء في السماوات والأرض (الآيات: ١-٦).

ويذكرنا السياق بتجليات اسم الرب في خلق الإنسان الذي بدأ خلقه من طين، وتعاهد أمره طوراً بعد طور حتى جعله بشراً سوياً، ويتقلب في تقدير الرب وتدبيره مادام حياً، ثم يتوفاه ملك الموت الذي وكل به من عند الرب، وحين يتحول تراباً، وتنشر أجزاؤه في الأرض، لا يكون بعيداً عن هيمنة الرب وتقديره، وحين يبعث إلى محكمة العدل الإلهية، ترى المجرمين ناكسي رؤوسهم، يتضرعون إليه، ويدعونه أن يرجعهم ليعملوا صالحاً (الآيات: ٧-١٢).

كلا؛ إن الله أقسم صادقاً أن يملأ جهنم من الجنة والناس أجمعين، ولذلك تركهم يختارون طريقهم بحرية تامة، فإذا شاؤوا اختاروا الجنة، ولكن كيف النجاة من ذل ذلك الموقف، حين يندم المجرمون على أعمالهم؟ (الآيات: ١٣-١٤).

إنما بالتضرع إليه، وهكذا يحصر القرآن المؤمنين بآيات الله.. أولئك الذين إذا سمعوها خروا سجداً، وسبحوا بحمد ربهم.

وجزاء هؤلاء عظيم، إلى درجة لا يمكن وصفه، حيث يقر الله أعينهم بالجزاء الحسن (الآيات: ١٥-١٧).

وإن من هؤلاء من يختارهم الله للإمامة، لأنهم يهدون بأمر الله، ويصبرون على الأذى في جنبه، ولأنهم كانوا بآيات الله يوقنون (الآية: ٢٤).

ولعل الهدف الأسمى للسورة بناء هذه الطائفة المختارة، وهذا هو محور السورة الأساس -فيما يبدو- إلا أن هناك بصيرة أخرى تعطيها آيات السورة؛ هي نسف التمنيات التي يحلم بها الإنسان، ويريد أن يكون المؤمن والفاسق سواء، كلا؛ لا يستوون. إن للمؤمنين جنات المأوى، بينما مأوى الفاسقين النار خالدين فيها (الآيات: ١٨-٢٠). ودليل الفرق بين هذين الفريقين في الآخرة، هو عذاب الله الذي يصيب الفساق بأعمالهم في الدنيا: الفقر، والذل، والأمراض، والحروب، والزلازل، والفيضانات و.. . كل ذلك دليل مسؤولية البشر عن أعمالهم السيئة، وأنها لن تمر بلا حساب (الآيات: ٢١-٢٢).

ثم يشير الذكر الحكيم إلى أن أسمى هدف لرسالات الله هو رفع الشك والريب عن قلب الإنسان، ولن يؤدي المصلح (الرسول) هذا الهدف إلا إذا كان بنفسه بعيداً عن الشك (الآية: ٢٣).

بعد ذلك يبين الله صفات الإمام وهي ثلاث: الهدى والصبر واليقين (الآية: ٢٤).

وبالرغم من وجود أئمة صالحين وقادة يتصفون بهذه الصفات، إلا أن هناك فريقاً يكفرون بالحق، ولكن ميزان الله دقيق، يفصل به يوم القيامة بين هؤلاء وهؤلاء. ونظرة إلى التاريخ تهدينا إلى أن نكال الله الذي يصيب الكفار، وه-وبرغم عظمته- يعتبر عند الله عذاباً أدنى، فكيف يهرب الفاسقون والمجرمون الذين يعرضون عن آيات الله من الانتقام بالعذاب الأكبر؟! (الآيات: ٢٥-٢٦).

وفي خاتمة السورة (الآيات: ٢٧-٣٠) يذكرنا الرب بآيات رحمته، وأنه يسوق الماء إلى الأرض الجرز لينبت لهم ولأنعامهم زرعاً.

ويحذر أولئك الذين ينتظرون الآيات الواضحة التي تجبرهم على الإيمان، وينذرهم بأنه في يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم في ذلك اليوم.

ثم يأمر المؤمنين بالإعراض عنهم، والإنتظار، كما أن الكفار ينتظرون ليرى الجميع جزاء أعمالهم؛ إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

إن السور القرآنية، ومنها هذه السورة، التي تتحدث عن مشاهد يوم القيامة تثير فينا مزيجاً من الرغبة والرهبة،وتدعونا إلى السعي الحثيث نحو عمل الصالحات، حتى لا نكون من ضحايا الغفلة.

وتصور لنا آيات هذه السورة، المجرمين -الذين يعتقدون بأن الجريمة والخط المنحرف هو السبيل لإشباع الغرورفي الدنيا- وهم منكّسي الرؤوس؛ بما نسوا وتغافلوا عن يوم القيامة، تاركين الاستعداد لهذا اليوم، فنسيهم الله تعالى.

والآيات الأخيرة من السورة، تم فيها التأكيد على صفة اليقين التي تجب أن يتصف بها الإنسان، حتى لا يبقى لديه أدنى أثرٍ من الهوى وضعف الإرادة، إذ الإنسان يعرف الحقائق بعقله وفطرته، ولكنه يشكك فيها بهواه وفكره الباطل،ولذلك فهو بحاجة إلى اليقين لإزالة هذا الشك.

أما كيف يحصل الفرد على اليقين؟.

إنه يحصل عليه بالمزيد من النظر إلى آيات الله وإمعان التفكير فيها.

الذي أحسن كل شيء خلقه

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ[1] فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ[2] بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ[3] عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا شَفِيعٍۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ[4] فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ[5] مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ[6] ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴿٩﴾ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ﴿١١﴾﴾.

---

(١) الريب: الشك.

(٢) افتراه: اختلقه من تلقاء نفسه.

(٣) استوى: استولى على العرش بالقهر والاستعلاء.

(٤) يعرج إليه: يصعد ويرتفع إليه.

(٥) سلالة: السلالة الخلاصة، وقيل الصفوة التي تُنسل من غيرها، ويسمى ماء الرجل سلالة لانسلاله من صلبه.

(٦) ماء مهين: مني حقير لقذارته ورائحته.

هدى من الآيات:

تذكرنا الآيات هذه بأن الرب الذي يجب أن يسجد له من في السماوات والأرض، هو الله رب العرش، وأن ما يعبد من دونه ليس سوى أوهام وأساطير ابتدعتها أفكار الناس، وأن القرآن كتاب حكيم لا ريب فيه لأنه من عند الله، ولكن لماذا يقول القرآن عن نفسه ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾؟.

الجواب: إن الشك نوعان:

الأول: ينبعث من العقل لعدم توفر الحجج والآيات الكافية.

الثاني: ينبعث عن هوى الإنسان بسبب كبره أو حجب الغفلة التي تعمي قلبه، لذلك نجد القرآن يقول في إحدى الآيات عن الكفار: ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: ٤٥] ناسبا الشك إلى الكفار أنفسهم، أما القرآن ذاته فهو لا ريب فيه، لأنه صورة أخرى لعقل الإنسان المحض والمجرد عن المؤثرات السلبية، كما أن العقل هو الآخر صورة باطنية للقرآن، وإذ يثير الوحي الإلهي عقل البشر فإن هذا العقل يؤيد حقيقة القرآن، للتطابق التام بين الذي يذكره القرآن وبين العقل البشري، ولذلك تتكرر في الآيات كلمة: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

ثم يستمر السياق في الحديث عن القرآن نفسه، مؤكدا بأنه لا يمكن أن يكون افتراء كما يتقول البعض، لأن هدف القرآن هو إنذار الناس وهدايتهم للحق، ولا يمكن أن يتحقق الهدى بالكذب، كما إن القرآن ليس مجردا عن الأدلة والبراهين حتى يكون موضعا للريب والشك، ومن أنصع الأدلة أن الكاذب إنما يكذب لمصلحة نفسه، ونحن لا نرى من جاء بالقرآن وهو الرسول ﷺ يدعو إلى نفسه أبدا بل إلى ربهم، وهذا دليل على صدق الرسل، بل والدعوات الاجتماعية التي تأخذ هذا المنحى وتتبع منهج الرسل، والتي تتمحور حول العقل وعبادة الله فهي الصادقة، وأنصارها هم الصادقون، أما الدعوات التي تنتهي إلى الأشخاص لا إلى القيم، وتعتمد غير الله هدفا وغاية فهي خاطئة، وأنصارها كاذبون.

والأنبياء من أول نظرة إليهم يعرفون بأنهم إنما جاؤوا من عند الله، فالرجل الذي يلبس الخشن، ويأكل الجشب، ولا يجمع من حطام الدنيا شيئا، ولا يدعو الناس إلى نفسه، ويتحمل كل الأذى من أجل خير الناس ليس أنانيا، إنما يضحي لإيمانه فهو صادق لا ريب فيه.

ثم يذكرنا القرآن بخلق السماوات الذي تم في ستة أيام، مثنيا بخلقة الإنسان التي تمت على مرحلتين:

الأولى: خلقه من الطين.

الثانية: خلقه في الأرحام.

وهذا قد يشير إلى عالم الذر حيث خلق الإنسان مرة واحدة على صورة ذر (موجودات صغيرة) ثم وضعت في أصلاب الرجال، وخلق مرة أخرى عبر النكاح، ونما في بطن أمه، ثم يشير إلى نفخ الروح فيه وهذا خلق آخر بعد ذلك الخلق، ويوصل كل ذلك بقضية النشور بعد الموت.

بينات من الآيات:

[١-٢] ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ كلمة الرب توحي بالعطاء المتدرج (كالتربية) والله رب السماوات والأرض أي يعطيها كمالا بعد كمال، وخلقا بعد خلق وكما أشار الله لذلك حين قال: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات٤٧].

وكيف يعتري الريب كتابا أنزله رب العالمين، المهيمن على خلقهم وتدبير شؤونهم؟! إن فطرة البشر جبلت على الثقة بالله، وتزداد هذه الثقة بتنامي معرفتهم بربهم، لذلك فإن المنهج الصائب لبعث الثقة بالكتاب في النفوس تذكيرهم أولاً بالله الذي أنزله، كما نجده هنا وفي سورة الفرقان وغيرهما.

[٣] ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ﴾ ويرد الله على الكفار بأن القرآن ليس مفترى وذلك لسببين:

الأول: أن المحور في هذه الدعوة هو الحق، وليس ذات الرسول مثلا، كما يفترض في الدعوات الكاذبة التي هدفها تأكيد مصلحة أنصارها وأصحابها ﴿بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾.

الثاني: أن ما تنتهي إليه هذه الرسالة وهو الهداية دليل على صحتها، ذلك أن الدعوة الكاذبة لا يمكن أن تنتهي إلا إلى إضلال الناس.

﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ والكتاب يهيئ الفرصة للهداية، ولا يحققها بصورة إكراه، فإن شاء الإنسان اهتدى بالكتاب، وإن شاء جحد.

[٤] ثم يذكر السياق بخلق السماوات والأرض الذي تم في ستة أيام، ولعل سائلا يقول: لماذا في ستة أيام وليس عشرة؟ إلا إن الجواب الفطري على ذلك أنه لو قال القرآن عشرة أيام لقالوا: لماذا لم تكن ستة؟ وهذا لا ينفي وجود حكمة يعلمها الله تفسر هذا العدد. ومع ذلك فإننا نجد السياق يبين بأن الحساب عند الله يختلف عنه عند الناس إذ يقول: ﴿وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ

رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [الحج٤٧]، وعموما فإن في الآية إشارة إلى حقيقة التكامل في الخلق ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ يتطور خلالها الخلق يوما بعد آخر.

بالإضافة إلى دلالة هذه الآية على نظرية التكامل الإسلامية، فإنها تدل على دور الزمن في واقع الأشياء، إذ هو جزء منها، وهذا ما نستوحيه من عدة آيات قرآنية من بينها قوله تعالى: ﴿ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الأحقاف٣]، أي وبأجل مسمى، ولعل الباء المحذوفة هنا هي نفسها التي في كلمة بالحق وتعني الاستعانة.

وإذ خلق الله الخلق لم يتركه سدى كما تدعي ذلك اليهود، مستوحية من النظريات الفلسفية البائدة، بل هيمن عليه بتدبيره.

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ وهو تعبير عن القدرة والهيمنة. ومادام الكون خلق بإرادة الله، ويدبر بمشيئته فلابد أن نتوجه إليه ونعبده، لأنه لا أحد يقف دون تنفيذ إرادته، و إجراء قضائه.

﴿ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ هذه الحقيقة مغروزة في فطرة الإنسان، وآياتها مبثوثة في الخليقة، ولكن ينساها البشر مما يجعله محتاجا إلى التذكرة.

[٥] ثم تؤكد الآيات هيمنة الله على الخلق، وتدبيره له من مراكز أمره في السماء:

﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي يجعله محددا، وكلمة تدبير مأخوذة من الدبر أي النهاية، وتدبير الأمور أي معرفة عواقبها، وما تؤول إليه.

﴿ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ حينما يتدبر الأمر لا يعني أنه انتهى، بل إن أي عمل يقوم به الإنسان يحدده الله ثم ينتهي إليه عندما يكتسبه العبد. ونستوحي من هذه الآية أن كل شيء في هذا الكون لا ينعدم، فالكون يشبه الشريط السينمائي وهو يتحرك مع الزمن، وما نعتقد أنه حدث وانتهى ليس كذلك، فهو موجود في هذا الشريط، ويعود يوم القيامة. قال تعالى: ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ﴾ [الأنبياء١٠٤].

والآية هنا صريحة في أن مقدار يوم القيامة ألف عام، بينما نجد في آية أخرى أن مقداره خمسين ألف سنة، لماذا؟ لعله لأن ساعات يوم النشور خمسون، ويدبر الله في كل ساعة أمرا، وأن عروج الأعمال إليه إنما يتم في ساعة واحدة منه، بمثل هذا جاءت رواية مأثورة عن الإمام

الصادق عليه السلام: «فَحَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا عَلَيْهَا فَإِنَّ لِلْقِيَامَةِ خَمْسِينَ مَوْقِفاً كُلُّ مَوْقِفٍ مِقْدَارُهُ أَلْفُ سَنَةٍ ثُمَّ تَلَا فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ»[1].

[٦] وبعد أن تعرفنا الآيات على ربنا، لتنتهي بنا إلى أن القرآن لا ريب فيه، باعتباره من عنده تعالى، تؤكد لنا بعض صفاته الحسنى: ﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ يعلم خفيات الأمور وظواهرها، فإن كان الإنسان أحسن في عمله، جزاه الله برحمته، وإن أساء عاقبه بعزته، أو تاب عليه برحمته.

[٧] ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ ولعل هذه الآية تشير إلى أن كل مخلوق يحس وانطلاقا من وظائفه الحياتية وظروفه بالكمال في خلقه، فلو أبدلت أسنان الأسد بأسنان الإنسان أو منقار الغراب لما كان صالحا ولا مناسبا، فكل شيء تجده متناسقا ومتكاملا في حدوده، وبالنسبة إلى وسطه وطبيعته.

ثم يبدأ الحديث عن خلق الإنسان، والمراحل التي يمر بها، ودوره الذي يؤديه في الحياة منذ البداية حتى الموت وإلى الرجعة ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴾.

[٨] ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾

للإنسان بدايتان:

الأولى: عند خلق آدم عليه السلام وذريته في صورة ذر، ولقد تم خلقهم مباشرة من الطين.

الثانية: عند خلق سائر البشر من أصلاب الرجال، وذلك من ماء مهين، يحتقره الإنسان ولكنه أساس خلقه، وفيه انطوى سر حياته.

بلى؛ من الطين ومن الماء المهين خلق الله هذا البشر السوي، الذي أضحى خصيما مبينا، ويتكبر في الأرض بغير الحق. أولاً ينظر إلى أصل خلقه المهين فيبتعد عن غيه؟! قال تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ (٧) إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴾ [الطارق:٥-٨].

[٩] ثم إن الله بعد أن كون هيكل الإنسان الأول وهو آدم وحواء، نفخ فيهما من روح انتسبت إليه لفرط عظمتها، ليصبحا بشرا سويا، حيث يكون الإنسان من جسد وروح، إكراما للإنسان في مقابل الماء المهين.

---

(١) بحار الأنوار: ج٧، ص١٢٦.

﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ﴾ ثم أحسن هذا الخلق إذ من عليه بنعمة الحواس والعقل، ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ ﴾ وكان من واجب البشر أمام هذه النعمة أن يشكروا ربهم ويتبعوا رسالاته، ولكن غالبيتهم كفروا بأنعم الله.

﴿قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴾ وهذا يدل على أن الطبيعة الطينية في الإنسان هي التي تغلب عليه في أكثر الأحيان، ولهذا نجد في القرآن أمثال ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ: ١٣]، أو ﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾ [يوسف١٠٣]. إن الشكر الحقيقي هو تحسس الإنسان بأن النعم من عند الله، ومن ثم التسليم المطلق له، وفي الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «**أَوْحَى اللهُ عَزَّ وجَلَّ إِلَى مُوسَى عليه السلام: يَا مُوسَى اشْكُرْنِي حَقَّ شُكْرِي.**

فَقَالَ: يَا رَبِّ وكَيْفَ أَشْكُرُكَ حَقَّ شُكْرِكَ ولَيْسَ مِنْ شُكْرٍ أَشْكُرُكَ بِهِ إِلَّا وأَنْتَ أَنْعَمْتَ بِهِ عَلَيَّ؟!. قَالَ -تعالى-: يَا مُوسَى الآنَ شَكَرْتَنِي حِينَ عَلِمْتَ أَنَّ ذَلِكَ مِنِّي»[1].

[١٠] ولعل من عوامل كفران النعم الجحود بيوم البعث، لماذا؟. لأن النعم عند من يشكرها عبارة عن مسؤوليات، وشكرها الوفاء بحقوقها، ومن يجحد القيامة يتهرب عن مسؤولية النعم، وبالتالي لا يشكرها. بل لعل السبب النفسي لجحود البعث التهرب عن مسؤولية النعم وحقوقها المفروضة علينا.

﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ توزعت أشلاؤنا، وتناثرت أعضاؤنا، ﴿أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ ﴾ هذا هو ظاهر الاعتراض على دعوة الرسالة، ولكن الواقع هو التشكيك في قدرة الله سبحانه، والكفر بلقاء الله.

﴿بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ ﴾ ولعل الآية تشير إلى أن الكفار إنما ذكروا هذا الاعتراض جدلا فثم عقدوا العزم على الكفر بلقاء ربهم، خشية تحمل المسؤولية في الدنيا، فأخذوا يتشبثون بأدلة جدلية لتبرير كفرهم هذا.

[١١] ولكن الله يؤكد أنه هو الذي يدبر شؤون الحياة، وليست الصدفة، وما دامت الحياة قائمة على تدبير إلهي فلماذا التشكيك في يوم المعاد، وهو مما تقتضيه الحكمة؟!.

ولماذا يستغرب الإنسان من فكرة البعث، وقد خلقه الله ولم يكن شيئا مذكورا، ثم إنه هو الذي يميته بمشيئته وليست الصدفة.

﴿ قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ﴾ ولقد وكل الله

(١) الكافي: ج٢، ص٩٨.

الملائكة بإجراء قضائه بما آتاهم من قوته، وحسب ما يهبط إليهم من أمره، دون أن يسبقوه بالقول، ووكل ببني آدم ملك الموت ليقبض أرواحهم وليتوفاهم دون نقيصة.

وملك الموت أعظم زاجر لأبناء آدم الذين لا يمكنهم الفرار منه، جاء في حديث مأثور عن سيد المرسلين ﷺ: «**الأَمْرَاضُ وَالأَوْجَاعُ كُلها بَرِيدُ المَوْتِ، وَرُسُلُ المَوْتِ، فَإِذَا حَانَ الأَجَلُ أَتَى مَلَكُ المَوْتِ بِنَفْسِهِ فَقَالَ: يَا أَيُّهَا العَبْدُ! كَمْ خَبَرٍ بَعْدَ خَبَرٍ، وَكَمْ رَسُولٍ بَعْدَ رَسُولٍ؟ وَكَمْ بَرِيدٍ بَعْدَ بَرِيد؟ أَنَا الخَبَرُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدِي خَبَر وَأَنَا الرَّسُولُ أَجِبْ رَبَّكَ طَائِعاً أَوْ مُكْرَهاً..**»[1].

(١) تفسير مجمع البيان ج٨، ص١٠٤.

تتجافى جنوبهم عن المضاجع

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ[1] جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ[2] يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾.

---

(١) تتجافى: تبتعد وترتفع.

(٢) المضاجع: المضجع موضع الاضطجاع أي الفراش.

هدى من الآيات:

تثير فينا السور القرآنية التي تتحدث عن مشاهد القيامة، مزيجا من الرغبة والرهبة، وتدعونا إلى السعي الحثيث نحو عمل الصالحات، حتى لا نكون من ضحايا الغفلة، وفي هذا الدرس يصور لنا القرآن المجرمين -الذين يعتقدون بأن الجريمة والخط المنحرف هو السبيل لإشباع الغرور في الدنيا- وهم منكسي الرؤوس، بما نسوا وتغافلوا عن يوم القيامة، تاركين الاستعداد لهذا اليوم، فنسيهم الله.

ثم يؤكد السياق على أن الاتكاء على الأحلام والأمنيات من دون العمل الصالح والمستمر لتحقيق ذلك خطأ كبير، وأنه من عمل الشيطان، فالجنة لا تنال إلا بالإيمان، والعمل بما يقتضيه هذا الإيمان، أما أن يتصور الإنسان بأن الله رحيم ورؤوف لا يعذب أحدا فذلك خطأ.

والقرآن يُفَنِّد هذه الأمنية بثلاثة أمور:

الأول: القسم الإلهي بأنه تعالى سوف يملأ النار من الجنة والناس، ويكفينا هذا خوفا وحذرا.

الثاني: أن العذاب الدنيوي يعطينا فكرة تخالف الأماني والأحلام الساذجة، فكما أن نعم الله الظاهرة والباطنة تدلنا على أنه رحيم ورؤوف بعباده، فإن جانب العذاب فيها يدلنا على أنه جبار متكبر، يغضب، وينتقم، ويعذب، ويدمر تدميرا.

الثالث: يخبرنا القرآن بأن عدالة الله تأبى أن يستوي المحسن والمسيء، والمؤمن والكافر.

وهذه من الأفكار الحيوية في تربية النفس؛ أن يطرد الإنسان عن ذهنه حلم التساوي مع الصادقين من دون عمل وسعي ﴿ أَمْ لِلْإِنسَـٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴾ [النجم: ٢٤]. فكيف مثلا يستوي عند الله الساكت عن جرائم الظلمة، والآخر الذي يقاسي أنواع العذاب بسبب معارضته لهم؟!.

ثم تذكرنا الآيات ببعض صفات المؤمنين، والتي من أهمها وأبرزها خضوعهم للحق، وتسليمهم له في مختلف الظروف والأحوال، خوفا وطمعا، فإذا بك تجدهم يقاومون سلبيات النفس البشرية بذكر الله، فهم كما وصفهم الإمام علي عليه السلام: **«عَظُمَ الخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ»**[1].

(١) بحار الأنوار: ج٦٤، ص٣١٥.

كما إن من صفات المؤمنين أنهم تتجافى جنوبهم عن المضاجع، يهجرون الفراش، ويتوجهون إلى ربهم بالعبادة والتبتل، والإنفاق في سبيله، مما يجعلهم أهلا لثوابه، وهذا مما يخالف التمنيات والآمال، ويؤكد أن العاقبة الحسنى لا تكون إلا بالسعي والعمل.

بينات من الآيات:

[١٢] المؤمن هو الذي يرى المستقبل البعيد رؤية واضحة، فإذا به يجتنب المهالك لأنه يستضيء بنور عقله الذي يتقد بالوحي، فيعلم يقينا بالنتائج التي ينتهي إليها منهج الانحراف عن الرسالة.

أما الكافر الذي أطفأ البصيرة في نفسه -لكثرة مخالفته عقله وضميره- فهو لا يستفيد من رسالة ربه في معرفة الحقائق، ويكون عرضة للأخطاء والمخاطر، لأنه بمنطقه المادي البحت لا يهتدي إلى النتائج إلا بالتجربة، وماذا ينفع الإنسان لو اكتشف خطأ في مرحلة لا ينفعه ذلك كالآخرة؟!

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ تعبيرا عن الذلة والحسرة الشديدتين.

﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا﴾ الآن في الآخرة إذ رأينا الحقيقة، ﴿وَسَمِعْنَا﴾؛ لعل معناه: رأينا بأعيننا، وسمعنا عن ما رآه غيرنا، أو معناه: رأينا الحقائق، وسلمنا لها تسليما.

﴿فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ لقد كان بالإمكان أن يصل هؤلاء إلى هذا اليقين في الدنيا، لو استفادوا من عقولهم، أو اتبعوا رسالة الله، ولكنهم لم يفعلوا. والله يؤكد على هذه الحقيقة في سورة التكاثر إذ يقول: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴾ [التكاثر:٣-٦].

ولأن المتقين استفادوا من عقولهم ووحي ربهم فإنهم عرفوا بأن منهج الكفر ينتهي إلى النار، بينما ينتهي منهج الإيمان إلى الجنة: **«فَهُمْ والجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا فَهُمْ فِيهَا مُنَعَّمُونَ وهُمْ والنَّارُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا فَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ ولَوْ لَا الأَجَلُ الَّذِي كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمْ لَمْ تَسْتَقِرَّ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ طَرْفَةَ عَيْنٍ شَوْقاً إِلَى الثَّوَابِ وخَوْفاً مِنَ العِقَابِ»**[1].

[١٣] ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا ﴾ ولكن الهداية التي تنفع الإنسان، وتتفق

(١) بحار الأنوار: ج٦٤، ص٣١٥.

مع الحكمة من الحياة الدنيا، هي التي يصل إليها الإنسان بعقله وإرادته، وبالاستفادة من رسالة ربه إليه. ولو شاء الله جبر الناس على الهدى، وكانت تنتهي بهم إلى الجنة.

﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ وهذا القسم يدعونا إلى الجد في الحياة، والسعي لكسب الجنة، واجتناب النار الذي لا يمكن من دون العمل الصالح.

[١٤] ثم يؤكد القرآن أن حقيقة الآخرة مسجلة في ذاكرة الإنسان الفطرية، كما يمكن له أن يستنتجها بإعمال عقله، وتصديق رسالة ربه، إلا إنه ينساها بسبب حجب الشهوات، والأفكار الباطلة، ومن ثم لا يستعد لذلك اليوم بل يتمادى في الانحراف والعصيان، فيستحق بذلك العذاب.

﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ فلا ينصرهم الله ولا يرحمهم، وليس النسيان هنا بمعنى عدم العلم، بل عدم العمل بما يقتضيه العلم، وهو كناية عن الإهمال وعدم الإلتفات لهم بعين الرحمة مما يعني أن مآلهم النار. والمعنى هاهنا خلافا لمعنى النسيان عند البشر كسائر الكلمات، مثلا الغضب بالنسبة للإنسان يعني وجود حالة من الغليان في نفسه، بينما يعني بالنسبة إلى الله النتيجة المترتبة على الغضب كالعذاب، ذلك أنه تعالى تصدق عليه الغايات دون المبادئ.

ولعل نسيان الله للعبد أشد من أي عذاب آخر وهو ما توضحه كم تكشف عن معنى النسيان، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٧].

وفي الدعاء: «**فَهَبْنِي يَا إِلَهِي وَ سَيِّدِي صَبَرْتُ عَلَى عَذَابِكَ فَكَيْفَ أَصْبِرُ عَلَى فِرَاقِكَ وَ هَبْنِي صَبَرْتُ عَلَى حَرِّ نَارِكَ فَكَيْفَ أَصْبِرُ عَنِ النَّظَرِ إِلَى كَرَامَتِك أَمْ كَيْفَ أَسْكُنُ فِي النَّارِ وَرَجَائِي عَفْوُكَ**»[1].

ومن تضاعيف الآية يتبين وجود نوعين من العذاب:

الأول: هو العذاب النفسي المتمثل في نسيان الله، ويشير إليه الشطر الأول منها وهو جزاء لنسيان الإنسان ربه.

(١) الإقبال الأعمال: ص٧٠٨، دعاء كميل.

الثاني: هو العذاب المادي، ونجده في ختام الآية: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

[١٥] ثم يأتي الحديث عن بعض صفات المؤمنين المهمة:

الأولى: التسليم والخضوع للحق

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾
والمقصود من السجود هنا ليس معناه الظاهري وحسب، بل حالة التسليم للحق التي يرمز لها هذا السجود، والمؤمنون الحقيقيون لأنهم يبحثون عن الحق والهدى فإنهم يسلمون له بمجرد أن يذكروا به، مهما كان ذلك مخالفا لأهواء النفس والمصلحة.

وتوحي كلمة ﴿خَرُّواْ﴾ -التي جاءت من أصل خرير الماء، وهو صوته عند نزوله (مثل صوت الشلال) كما يقول الراغب[١]- إلى أن المؤمنين يتلقون الأرض بمساجدهم، كما يخر الشلال، وهم يولولون بالتسبيح لعمق تأثير الذكر فيهم، بلى؛ كلما زادت معرفة البشر بربه ازداد معرفة بصغر نفسه ومدى حاجته، وانعكس ذلك في صورة وقوعه لربه ساجدا.

وهكذا وجبت السجدة لله في أربع سور هذه واحدة منها، اقتداء بأولئك الرجال الكرام الذين يخرون لربهم ساجدين.

﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ فلسجودهم مظاهر خارجية اجتماعية، بالإضافة إلى الصفة النفسية التي يخلفها، ومن أبرز هذه المظاهر التواضع الاجتماعي، الذي يمثل امتدادا للتسليم للحق.

الثانية: التبتل إلى ربهم في الأسحار

[١٦] ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ إنهم يقاومون النوم، لعلمهم بأن الدنيا دار العمل، وليس دار الاسترخاء والراحة، وأنها الفرصة الوحيدة التي يحدد الإنسان فيها مستقبله الأبدي، ولأن المضجع هو حالة التوقف عن السعي والعمل فإنهم يرفضونه، وكلمة تتجافى آتية من الجفاء، وهو بمعنى انقطاع العلاقة بينهم وبين النوم، وهذه الصفة نابعة من نظرتهم الجدية للحياة، فكيف يصير الإنسان أسير الفراش وهو يعلم بأن مستقبله قائم على ما يقدمه في هذه الحياة؟!.

(١) مفردات غريب القرآن: ص١٤٤.

﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا﴾ من النار فلا يقتربون من المعاصي، لأنها تنتهي بهم إليها، ﴿وَطَمَعًا﴾ في الجنة. فتجدهم يبحثون عن كل عمل يوصلهم إليها. قال أمير المؤمنين عليه السلام في وصف المؤمن: «**لَا يَدَعُ لِلْخَيْرِ غَايَةً إِلَّا أَمَّهَا وَلَا مَظِنَّةً إِلَّا قَصَدَهَا**»[1].

الثالثة: الإنفاق في سبيل الله

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾

الإمكانات والنعم التي يمن الله بها عليهم، يفكرون في تحويلها إلى زاد للآخرة، أكثر من تفكيرهم في استهلاكها، وصرفها على أنفسهم، وهكذا ينبغي للإنسان أن يفكر في آخرته قبل تفكيره في دنياه: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧].

[١٧] وبعد ذلك يشجع القرآن على الاقتداء بهذا الفريق من الناس، حينما يذكر جزاءهم الحسن عن الله بإبهام، والذي هو في موارده أمضى أثرا من التوضيح.

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فكلما وصفت الجنة كانت دون واقعها. أوليس فيها ما لا عين رأت، ولا إذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر؟! بلى؛ وإن نعم الجنة تقر عين أصحابها، لأنها صافية من الأكدار، ونفوس أهلها زاكية، لا غل فيها، ولا حقد ولا طمع.

وجاء في الحديث في تفسير هذه الآية عن الإمام الصادق عليه السلام: «**مَا مِنْ حَسَنَةٍ يَعْمَلُهَا العَبْدُ إِلَّا وَلَهَا ثَوَابٌ مُبِينٌ فِي الْقُرْآنِ إِلَّا صَلَاةَ اللَّيْلِ فَإِنَّ اللهَ لَمْ يُبَيِّنْ ثَوَابَهَا لِعِظَمِ خَطَرِهَا**»[2].

[١٨] ويذكرنا الرب بحكمته البالغة لنسف تمنيات البشر التي توهمه بأنه من أهل الجنة، وأنه آمن من أن يكون من الفاسقين، فيفقد الضابط الحق لسلوكه.

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا﴾ يعمل الصالحات، ويستجيب لله ولأوليائه، ويتحلى بتلك الصفات التي ذكرت آنفا؛ ﴿كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾ يقترف السيئات والجرائم.

ويجيب القرآن أن ذلك محال، ويخالف حكمة الله التي تتجلى في الخليقة أنى بصرنا بها: ﴿لَّا يَسْتَوُونَ﴾، وهذه هي الإجابة الفطرية على التمنيات الباطلة التي تغزو فؤاد الإنسان بعيدا

---

(١) بحار الأنوار: ج٢، ص٥٦.
(٢) بحار الأنوار: ج٨، ص٩٣.

عن ضوء العقل وقيم الوحي.

[١٩] ويفصل القرآن الحكيم القول ببيان الفروق العظيمة بين الفريقين:

﴿ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ برسالة الله، فاتخذوها منطلقا في حياتهم ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ يقينا منهم بأن الإيمان وحده لا يكفي لخلاص الإنسان، وضمان مستقبله ﴿فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ مما يؤكد على أن هذه النتيجة كانت ثمرة للإيمان والعمل الصالح، وليس للتمنيات.

[٢٠] ثم يحدثنا السياق عن الفريق الآخر: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ والفاسق هو الخارج عن الصراط المستقيم، الصراط الذي ينتهي إلى جنة الله ورضوانه، فالفاسقون إذن يصيرون إلى النار.

وفي الآيتين حقيقة هامة هي: أن مستقبل الإنسان رهين عمله في الدنيا، فهو يستطيع أن يجعل مأواه الجنة، كما يستطيع أن يجعله النار.

﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ لأن الذي يخرج الإنسان من النار هو إيمانه بالله وعمله الصالح، وهؤلاء لا يملكون شيئا من ذلك، ولهذا فلن يستطيعوا الخروج منها، ويبدو أن أهل النار لا ييأسون من الخروج منها، فإذا بهم يحاولون المرة بعد الأخرى الخلاص، ولكن دون جدوى. وفي الحديث:

«يَقُولُ الْمُؤْمِنُون-لأهل النار- انْظُرُوا إِلَى هَذِهِ الأَبْوَابِ فَيَنْظُرُونَ إِلَى أَبْوَابِ الْجِنَانِ مُفَتَّحَةً يُخَيَّلُ إِلَيْهِمْ أَنَّهَا إِلَى جَهَنَّمَ الَّتِي فِيهَا يُعَذَّبُونَ وَيُقَدِّرُونَ أَنَّهُمْ مُمَكَّنُونَ أَنْ يَتَخَلَّصُوا إِلَيْهَا فَيَأْخُذُونَ فِي السِّبَاحَةِ فِي بِحَارِ حَمِيمِهَا وَ عَدْواً بَيْنَ أَيْدِي زَبَانِيَتِهَا وَهُمْ يَلْحَقُونَهُمْ وَيَضْرِبُونَهُمْ بِأَعْمِدَتِهِمْ وَمِرْزَبَاتِهِمْ وَسِيَاطِهِمْ فَلَا يَزَالُونَ هَكَذَا يَسِيرُونَ هُنَاكَ وَهَذِهِ الأَصْنَافُ مِنَ الْعَذَابِ تَمَسُّهُمْ حَتَّى إِذَا قَدَّرُوا أَنَّهُمْ قَدْ بَلَغُوا تِلْكَ الأَبْوَابَ وَجَدُوهَا مَرْدُومَةً عَنْهُمْ وَتُدَهْدِهُهُمُ الزَّبَانِيَةُ بِأَعْمِدَتِهَا فَتَنْكُسُهُمْ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ»[1].

﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾.

[٢١] كان بإمكان هؤلاء أن يستدلوا على عذاب الآخرة بالعذاب الذي يجدونه في الدنيا، ومن ثم يقاومون عوامل الغفلة والنسيان، فيؤوبون إلى رشدهم، ويرجعون إلى الحقيقة كلما ابتعدوا عنها، ولكنهم لم يفعلوا ذلك.

(١) بحار الأنوار: ج٨، ص٢٢٩.

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ في تفسير نور الثقلين عن المجمع عن الإمام الصادق عليه السلام: «وَأَمَّا العَذَاب الأَدْنَى فَفِي الدُّنْيَا»[1]. والذي من أهم أهدافه هداية الإنسان إلى الحقيقة: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

---

(١) تفسير نور الثقلين: ج٤، ص٢٣٢. جاءت عدة روايات في هذا الباب منها: عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «الأَدْنَى غَلَاءُ السِّعْرِ وَالأَكْبَرُ المَهْدِيُّ بِالسَّيْفِ» (بحار الأنوار: ج٥١، ص٥٩) و (تأويل الآيات: ص٤٣٧)، وعن علي بن ابراهيم: «العَذَابُ الأَدْنَى عَذَابُ الرَّجْعَةِ بِالسَّيْفِ» (تفسير القمي: ج٢ ص١٧٠).

وكانوا بآياتنا يوقنون

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ (٢٢) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ(١) مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٣) وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ(٢) بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٢٥) أَوَلَمْ يَهْدِ(٣) لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ(٤) يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ (٢٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ (٢٧) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٨) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ(٥) (٢٩) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ (٣٠)﴾.

هدى من الآيات:

في الدرس الأخير من سورة السجدة، يؤكد ربنا على صفة اليقين التي تجمع إرادة الإنسان، وعقله، وقوة تصوره وخياله على محور الحق، حتى لا يبقى لديه أدنى أثر من الهوى وضعف الإرادة، فالإنسان يعرف الحقائق بعقله وفطرته، ولكنه يشكك فيها بهواه وأفكاره الباطلة،

(١) مرية: شك.
(٢) يفصل: الفصل هو الحكم.
(٣) أو لم يهدِ لهم: أو لم يبصرّهم ويبينّ لهم.
(٤) القرون: الأجيال الماضية.
(٥) يُنظرون: يُمهَلون.

ويحتاج إلى اليقين حتى يزول هذا الشك، ذلك أن مراحل العلم عند الإنسان هي التالية:

الأولى: المعرفة، فالإنسان يعرف أن للكون خالقا مدبرا ولكنه يبقى مشككا.

الثانية: الإيمان، حيث يسيطر العقل في معركته مع الهوى فتتبعه الإرادة، ولكن دون أن ينتهي الشك والهوى عنده، بل يبقى لهما أثر معنوي لا فعلي، فتجد إنسانا ما يشكك نفسه فيها، لكنه يستمر يؤديها، ويلتزم بها ظاهريا بأفعالها وأذكارها، فهذا الرجل مؤمن أي أن نفسه سلمت لعقله تسليما عمليا.

الثالثة: اليقين، حين يزول الشك عن قلب الإنسان، ويبقى مسلما عمليا ونفسيا تسليما محضا للمعرفة، ولليقين بدوره درجات ثلاث هي: اليقين، وحق اليقين، وعين اليقين، التي إذا وصلها الإنسان حق له أن يقول كما قال الإمام عليه السلام: «**لَوْ كُشِفَ الغِطَاءُ مَا ازْدَدْتُ يَقِينا**»[1]. أو كقوله عليه السلام: «**إِلَهِي مَا عَبَدْتُكَ خَوْفاً مِنْ عِقَابِكَ وَلَا طَمَعاً فِي ثَوَابِكَ وَلَكِنْ وَجَدْتُكَ أَهْلًا لِلْعِبَادَةِ فَعَبَدْتُك**»[2].

أما كيف يحصل الإنسان على اليقين، فإن ذلك يكون بالمزيد من النظر إلى آيات الله والتفكر فيها، لأن هذه الآيات إشارات ظاهرية إلى الحقائق الكبرى في الحياة، والتفكر السليم هو الذي يعبر بالإنسان من خلال هذه الآيات إلى الحقائق، ذلك أن النظرة التي تنقل الإنسان إلى اليقين هي النظرة العبرية لا الشيئية، والتي يمتزج فيها بصر الإنسان مع بصيرته وعقله.

في البداية يجعلك التفكر تؤمن بربك، وشيئا فشيئا يتحول هذا الإيمان إلى يقين، ومنه إلى أعلى درجاته. وفي الحديث: «**طُوبَى لِمَنْ كَانَ نَظَرَهُ عِبْرَةً وَسُكوتُهُ فِكر**»[3].

وبالإضافة إلى ما تعطيه هذه النظرة من اليقين، فإنها تعطي الصبر كثمرة لهذا اليقين، ذلك أن الذي يطمئن للعاقبة الحسنى، التي يوصل إليها طريق الحق، يصبر على عقبات الطريق، والمؤمن يصبر على الصعاب بسبب يقينه مما يجعله أهلا لإمامة الحق التي تقابل أبدا إمامة الباطل.

بينات من الآيات:

[٢٢] الإنسان مزود بفطرة الإيمان بالله، إلا إنه ينسى أو يغفل بسبب الشهوات أو الأفكار المضلة، وإذ يبعث الله الرسل ومن يتبع نهجهم إلى البشر لتذكيرهم، وإزالة الحجب

(١) بحار الأنوار: ج٦٦ ص٢٠٩.
(٢) بحار الأنوار: ج٦٧، ص٢٣٤.
(٣) ثواب الأعمال: ص ١٧٧.

المختلفة عن فطرتهم، وإثارة عقولهم الدفينة، وأمام هذه التذكرة ينقسم الناس إلى فريقين:

الأول: المؤمنون الذين يستجيبون للتذكرة، لما يجدونه من توافق بينها وبين فطرتهم، وما تهدي إليه عقولهم، والآيات من حولهم.

الثاني: المعرضون، ولا ريب أن لتلك الاستجابة وهذا الإعراض أثرا على نفس الإنسان وتفكيره وسلوكه، فبينما يتجلى ذلك التصديق في صورة الشخصية الربانية، التي تسعى نحو الخير والعمل الصالح، يبرز هذا الإعراض في صورة الشخصية الشيطانية التي تسعى نحو الظلم والجريمة.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ ولكن لماذا يصف القرآن المعرضين عن آيات الله بالظلم؟.

الجواب: لأن الذي يحفظ الإنسان عن الجريمة هو الدين، بما يتضمنه من قوة معنوية، وتشريعات صائبة تبعده عن الظلم بصوره المختلفة، فإذا أعرض عن الدين سقط فيه. ثم إن الإعراض عن الدين بذاته ظلم ذاتي وعظيم لا يقع على الذات فقط، وإنما يتجاوز إلى الآخرين أيضا، أرأيت من يشرب سما كيف يظلم نفسه بإهلاكها، ويظلم أقرباءه الذين يفجعهم بموته، ويلحق الأذى بمن يعولهم.

هكذا المعرضون عن آيات الله، سوف يعرضون أنفسهم لنقمات الله العزيز الجبار، لأنهم يقترفون -بإعراضهم عن آيات الله، وعدم تسليمهم لأحكام الدين وحدود الشريعة- يقترفون أعظم الجرائم، التي لابد أن ينتقم الله منهم بسببها ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾.

[٢٣] ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ﴾ إن أسمى هدف لرسالات الله هو رفع الشك عن قلب الإنسان، والأخذ بقلبه إلى مدارج اليقين بكل الحقائق التي يذكر بها الله في كتبه، اليقين بلقاء اللـه، واليقين بالموت، واليقين بالجزاء... وذلك يعني تصفية العقل والنفس من آثار الأهواء.

ولن يؤدي المصلح هذا الهدف إلا إذا كان بنفسه بعيدا عن الشك ليكون قدوة للناس، ولذلك نهى السياق من المرية في لقاء الله، بعد أن أنبأنا عن الكتاب الذي آتاه موسى لأن كتاب الله يهدف التذكرة بالله، وتأكيد حقيقة اللقاء بالله، وهذا القرآن تذكرة بآيات الله فلا يحق لأحد أن يعرض عنها. فيعرض نفسه لانتقام الله الشديد.

واحتمل المفسرون معاني أخرى في ضمير ﴿مِّن لِّقَائِهِ﴾: أيعود إلى موسى ويدل على

التقاء رسالة محمد ﷺ برسالة موسى عليه السلام أم يعود إلى الكتاب، لأن الرسول يتلقى القرآن كما تلقى موسى التوراة، أو إلى التوراة. أو ليس تلقى موسى كتاب ربه.

بيد أن سياق سورة السجدة -بمجملها- يؤكد ما قلناه، بالرغم من أنه لا ينفي ما قالوه. أوليس للقرآن تخوم وآفاق عديدة؟.

﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾ أي كتاب التوراة ﴿هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

شروط الإمام

[٢٤] بعد ذلك يبين الذكر صفات الإمام (القائد) وهي ثلاث:

الأولى: الهدى إلى الله وبأمره، وليس إلى نفسه أو حزبه أو وطنه، أو ما أشبه من الدعوات الجاهلية.

الثانية: الصبر، وتحمل الشدائد، فالقائد هو الذي تتبلور شخصيته في ميادين العمل الجهادي، وسوح القتال في سبيل الله، وليس الذي يساير الموج يمنة أو يسرة، أو يتسنم صهوة الانتصار من دون جهاد وصبر على أذاه. وربما لذلك كان الله يختار الأنبياء والرسل والأئمة من رحم الشدائد، وعند اجتياز أصعب العقبات.

الثالثة: اليقين، وذلك يعني وصوله إلى مستوى رفيع من الإيمان بالله، لا يهون بعده، ولا يرتاب في طريق الحق، سواء انتصر أو انتكس مرحليًا.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً﴾ يعني من بني إسرائيل ولعل كلمة ﴿فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ﴾ التي وردت في الآية السابقة هي الرابط بين هاتين الآيتين، فكما كان موسى على درجة من اليقين أهله للنبوة، فإن أصحابه الذين اتبعوا هداه كانوا على مستوى من اليقين جعلهم الله أئمة ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾.

جاء في الحديث المأثور عن الإمام الصادق عليه السلام: «**إِنَّ الأَئِمَّةَ فِي كِتَابِ الله عَزَّ وجَلَّ إِمَامَانِ قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وتَعَالَى وجَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا لَا بِأَمْرِ النَّاسِ يُقَدِّمُونَ أَمْرَ الله قَبْلَ أَمْرِهِمْ وحُكْمَ الله قَبْلَ حُكْمِهِمْ قَالَ وجَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ يُقَدِّمُونَ أَمْرَهُمْ قَبْلَ أَمْرِ الله وحُكْمَهُمْ قَبْلَ حُكْمِ الله ويَأْخُذُونَ بِأَهْوَائِهِمْ خِلَافَ مَا فِي كِتَابِ الله عَزَّ وجَلَّ**»[1].

(١) الكافي: ج١، ص٢١٦، تفسير القمي: ج٢، ص١٧٠.

[٢٥] ولكن بالرغم من وجود أئمة صالحين في أصحاب موسى عليه السلام كان هناك فريق يكفرون بالحق، وهذا الاختلاف بين أتباع الرسل من بعدهم من الحقائق التي سجلها التاريخ بعد كل رسول، وبينها الذكر لنميز بين الخطوط المختلفة، عبر بصيرة الإيمان التي توحي بالمقاييس المبدئية، والتي هي عند الله ثابتة لا تتغير وسوف تتجلى يوم القيامة ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾.

إن معرفة الإنسان بوجود محكمة عادلة ستقضي بالحق تزيد من قوة عقله أمام وساوس الشهوة وهمزات الشياطين.

[٢٦] أما عن سبب الاختلاف بعد الرسل، فهو كما صرح القرآن في موضع آخر: الأهواء والمصالح، إذ قال: ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة: ٢١٣]. وفي هذه الآية يحذر الله الأمة الإسلامية من الاختلاف، ويدعونا للنظر في التاريخ، لنعرف مصير الذين اختلفوا عن رسالات الله، وابتعدوا عن نهجها السليم، مؤكدا أنه كما يفصل بينهم في الآخرة، فقد يفصل بينهم في الدنيا بهلاك المنحرفين أو بنصر المؤمنين عليهم كما في الآيات (٢٨-٣٠).

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ﴾ وينبغي لهم أن يستفيدوا من هذه الآثار عبرة في حياتهم، فيجتنبوا عن الخطأ حتى لا يصطدموا بذات النتيجة - وهذه هي الآية المادية الظاهرة - ثم إن القرآن هو الآيات المعنوية التي تكشف عن الواقع، والتي يجب الاستماع إليها والعمل بها.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾ فتلك يرونها بأعينهم، وهذه يسمعونها بآذانهم، ولكن المطلوب أن تعقلها ألبابهم، وتنعكس على حياتهم وواقعهم في صورة هداية.

[٢٧] و كما أن آيات الله في عالم الإنسان تهدي إلى هيمنته على الحياة، وتدبيره لشؤونها، فإن آياته في الطبيعة تهدي إلى ذات الحقيقة.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾.

هناك يقول: ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾، لأن الوسيلة التي تنقل للإنسان التاريخ هي حاسة السمع أكثر من أي وسيلة أخرى، وهنا يقول: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ حينما يتحدث عن الطبيعة التي

يبصرها الإنسان قبل أن يسمع عنها.

وهذا من أساليب المنهج الإلهي للوصول إلى اليقين، إنه يدعو إلى النظر والتفكر في الآيات من حوله، فخلفيات الأحداث التاريخية والاجتماعية، كما تجليات الحكمة في آيات الكـون، وكذورة المطر منذ البداية حتى سقوطه، كلها تشير إلى إله يدبر الحياة، ويقدر أحداثها وشؤونها بقدرة مطلقة، وحكمة بالغة.

[٢٨] فهو تعالى لا يستجيب لتحديات الكفار والمعاندين متى شاؤوا، إنما حيث شاء ومتى أراد، حسب ما تقتضيه حكمته سبحانه.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ تحديا للمؤمنين، وتكذيبا برسالة الله، أما المؤمنون فإنهم يثبتون على خطهم، ولا يرتابون في وعد الله حتى لو تأخر بعض الوقت، خلافا للطرف الآخر الذي يزيدهم الإمهال ريبا، ويشكل لهم عقبة فكرية.

[٢٩] و ينسى هؤلاء أن الإمهال لا يعني الإهمال، إنما يعني أحد أمرين :

الأول: أن الله يتيح لهم فرصة العودة للحق.

الثاني: إذا لم يستفيدوا من هذه الفرصة، فإن الإمهال سيكون وبالا عليهم، لأنه حينئذ يستتبع مزيدا من العذاب -كما ونوعا- تبعا لتماديهم في العصيان -كما ونوعا أيضا- ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

ويؤكد الله هذين المعنيين، حيث يقول مخاطبا نبيه ﷺ: ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ من قبل، وتحدوا الله ورسوله والمؤمنين، حينما تقتضي حكمة الله نصر أوليائه؛ ﴿إِيمَٰنُهُمْ﴾ لأن الإيمان الذي ينفع صاحبه، هو الإيمان النابع من الوعي بضرورته، لا من السيف أو العذاب أو المصلحة.

﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ إن الإيمان الناتج لا عن وعي بضرورته، بل بسبب عامل مؤقت يذهب أدراج الرياح بمجرد زوال ذلك العامل، فالذي يكف عن السرقة والجريمة لأن أنظار الناس تراقبه وليس لوازع نفسي أو ديني، فإنه يعود إليها بمجرد علمه أو ربما ظنه بأنه صار بعيدا عن أعين الناس، وهكذا لا يتقبل الله ذلك الإيمان الذي يبادر إليه الكفار عند نزول العذاب، بل لا يُمهلون.

[٣٠] وفي نهاية السورة يؤكد القرآن على المؤمن، أن لا يربط مصيره بمصير الكفار، فإذا

رأى مجموعة لا يؤمنون، يتركهم ويستمر على خطه الإيماني، وذلك حينما يوجهه الرسول لهذا الأمر.

﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ اتركهم ولا تتأثر بهم.، ﴿وَانتَظِرْ﴾ وعد الله ونصره. ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾.

ومن هاتين الآيتين نستفيد ثلاث بصائر:

الأولى: أن انتظار الفرج من الواجبات الشرعية، ومن الأعمال الصالحة، وفي الحديث عن رسول الله ﷺ: «**أَفْضَلُ أَعْمَالِ أُمَّتِي انْتِظَارُ الفَرَجِ**»[1].

لأن الانتظار الذي يعنيه الحديث، هو البقاء على الخط السليم، صمودا أمام المشاكل والمصاعب، من دون التشكيك في الحق، وهو أحد معاني الصبر الذي لا يمكن إلا بالانتظار، لأن الذي ينتظر المستقبل، ويتألق قلبه بأمل الانتصار لا يضيق صدره. فيكون صابرا، بل ويستهين بالمشاكل، إذ يعتبرها خيرا له من حيث أنها تصقل إرادته وفكره وشخصيته.

الثانية: من الخطأ أن يقتصر إيمان الإنسان على الأشياء الظاهرة، أو يعتقد بأنه مسؤول عن ذلك فقط، فقد من الله عليه بنعمة العقل لكي يرى به المستقبل من خلال الظواهر والمقدمات المنطقية، وإلا فما هي الحاجة إلى العقل؟!.

والله يرفض الإيمان الذي يكون وليدا للواقع المفروض كالعذاب، ولا يعطي أصحابه فرصة أخرى إذ يفترض في الإنسان أن يستفيد من عقله، ويتعرف على النتائج من خلاله، أو بتصديق رسالة ربه، أما الذي لا يهتدي لا بالعقل ولا بالوحي ويرفض الاثنين فإن مصيره العذاب، لأنه لم ينتفع من موهبة عقله الذي هو بدوره جوهر إنسانيته.

الثالثة: أن الدنيا فرصة إذا خسرها الإنسان فسوف لن تعود له مرة أخرى، والإمام علي عليه السلام يقول: «**انْتَهِزُوا فُرَصَ الخَيْرِ فَإِنَّهَا تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ**»[2].

إذن فموقف الإنسان من النتائج -بعد السعي- هو الانتظار، أما موقفه من الفرص والزمن فهو الاستعجال مع التخطيط.

---

(١) بحار الأنوار: ج٥٠، ص٣١٧.

(٢) مستدرك الوسائل: ج١٢، ص١٤٢.

سُورَةُ الأحْزَاب

* مدنيّة.

* عدد آياتها: ٧٣.

* ترتيبها النزولي: ٩٠.

* ترتيبها في المصحف: ٣٣.

* نزلت بعد سورة آل عمران.

فضل السّورة

عَنْ أَبِي عَبْدِالله عليه السلام قَالَ: «مَنْ كَانَ كَثِيرَ القِرَاءَةِ لِسُورَةِ الأَحْزَابِ كَانَ يَوْمَ القِيَامَةِ فِي جِوَارِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله وأَزْوَاجِهِ».

(وسائل الشيعة: ج٦، ص٢٥٣)

***

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ سِنَانٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ الله: «سُورَةُ الأَحْزَابِ فِيهَا فَضَائِحُ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ مِنْ قُرَيْشٍ وَغَيْرِهِمْ يَا ابْنَ سِنَانٍ إِنَّ سُورَةَ الأَحْزَابِ فَضَحَتْ نِسَاءَ قُرَيْشٍ مِنَ العَرَبِ....».

(ثواب الأعمال: ص١١٠)

الإطار العام

ترسيخ دعائم القيادة الرسالية في الأمة

اتخذ اسم الاحزاب لهذه السورة من قصة حرب الخندق، حيث تحزبت قريش واليهود ضد المسلمين، فردّ الله كيدهم،ولعلها كانت أعظم خطر درأه الله سبحانه عن رسالته.

حقائق شتى تذكرنا بها سورة الأحزاب، إلا أن محورها -فيما يبدو للمتدبر فيها- ترسيخ دعائم القيادةالرسالية في الأمة، التي هي ذروة الدين، وسنام الشريعة، والأمانة الكبرى التي عجزت عن حملها السماوات والأرض والجبال، وحملها الإنسان فظلم نفسه بها.

وتجري آيات السورة عبر هذا الإطار لتذكرنا بشخصية القائد الرسالي، الذي يتعالى -بتوفيق الله وعصمته- على قوى الضغط الاجتماعية؛ فهو يتقي الله ولا يطيع الكافرين والمنافقين، ويتبع وحي الله، ويتوكل عليه (الآيات: ١-٣).

وينقل لنا السياق قصتين: إحداهما شخصية، والثانية عامة.

ألف: فمن خلال قصة زيد الذي تبناه الرسول، ينفي الذكر الحكيم عادة جاهلية كانت سارية حتى نقضها الإسلام بالقرآن، وعبر تحدي شخص الرسول لها، وهي إلحاق الولد بمن تبناه، دون من كان من صلبه، ونستوحي منها أمرين:

أولاً: إن الرسول ﷺ ليس أبا لزيد، ولا يحق له أن يدعي القيادة بهذا العنوان.

ثانياً: إن النبي ﷺ يتحدى شخصياً عادات الجاهلية، ويتحمل الأذى في ذلك، مما يبين صفة التحدي عند القائدالرسالي (الآيات: ٤-٥).

ويكمل السياق بيان شخصية القائد بأن النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وأن أزواجه أمهات المؤمنين، وأن أولي الأرحام -وهم هنا أبناء الرسول من صلبه- بعضهم أولى ببعض في كتاب الله، وهكذا يرسم الخط القيادي للأمة من بعد الرسول (الآية: ٦).

ويؤكد على الميثاق الذي أخذه الله من النبي، كما أخذه من أولي العزم من الرسل قبل أن يحمّلهم الرسالة. ولعل أعظم بنود الميثاق: عدم الخضوع للمنافقين والكافرين، وإخلاص الطاعة لله (الآيات: ٧-٨).

بـاء: ومن خلال قصة الأحزاب، يبين السياق صفات القيادة الرسالية وكيف يجب أن تتبع في الساعات الحرجة، وألَّا تخور عزيمة المؤمنين في طاعتهم لها بمجرد تعرضهم لابتلاء شديد، وكيف ينبغي أن يتخذ الرسول أسوة حسنة.

بلى؛ إنّ الطاعة حقاً تتبين عند مواجهة الأخطار، وعلى الناس أن يرفعوا بطاعتهم للرسول إلى هذا المستوى، ولايكونوا كالمنافقين الذين يستأذنون الرسول قائلين: إن بيوتنا مكشوفة، ففضحهم الله بأنهم لا يريدون إلا فراراً.

ومن خلال كشف القرآن لصفات المنافقين يحذرنا من الوقوع في مهلكة النفاق عند مواجهة الخطر.

كما أنه يبين لنا مدى رسوخ إيمان المؤمنين الصادقين، عندما قالوا -وهم يرون أمواج الأحزاب تترى على المدينةلاقتحامها-: هذا ما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله، وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً (الآيات: ٩-٢٢).

وبعد بيان صفات المؤمنين الصادقين وجزاءهم الحسن، يبين كيف رد الله الكافرين على أعقابهم، وكيف أنزل اليهودمن قلاعهم، وأورث المسلمين أرضهم وديارهم (الآيات: ٢٣-٢٧).

ويعود السياق لبيان أحكام نساء النبي، ويخيرهم بين التشرف بخدمة الرسول أو التعلق بزينة الدنيا، وأن من يرتكب منهن فاحشة يضاعف لها العذاب ضعفين (لمكانتها من رسول الله)، كما أن من تقنت منهن وتعمل صالحاًتحصل على الأجر مرتين (الآيات: ٢٨-٣١).

ونستلهم من كل ذلك كيف يجب أن يكون بيت القائد الرسالي نظيفاً من الطمع، وبعيداً عن اختراق القانون.

ثم يأمر القرآن نساء النبي بأوامر مشددة في عدم الخضوع بالقول، ويأمرهن بأن يقُلن قولاً معروفاً، وألاّ يخرجن من بيوتهن، ولا يتبرجن تبرج الجاهلية الأولى.

ويبين السياق فضيلة آل بيت الرسول ﷺ، الذين أذهب الله عنهم الرجس، وطهرهم تطهيراً، ليبين الخط الرسالي بعدرحيل النبي ﷺ الذي لابد أن يلتف المسلمون حوله (الآيات: ٣٢-٣٣)،

ويعود إلى نساء النبي وكيف يجب عليهن أن يذكرن ما يتلى في بيوتهن من آيات الله والحكمة (الآية: ٣٤).

ويذكر القرآن صفات المؤمنين والمؤمنات، لتكون مثلاً أمامنا ومقياساً لمعرفة الناس، ويبين أن أبرز صفاتهم جميعاً؛التسليم لقضاء الله ورسوله، ولعل التسليم للقضاء أسمى مراتب التسليم للقيادة، وأعلى درجات الإيمان بعد الثبات في الحرب (الآية: ٣٥).

ويبين الذكر قصة زواج الرسول ﷺ من مطلقة زيد، لينقض الله عادة جاهلية كانت تقضي بأن الدعي ابن، وأنه لايجوز النكاح من مطلقته.

ويبين أن النبي ﷺ بشر، وأنه لا حرج عليه فيما فرض الله له (الآيات: ٣٦-٣٨).

ويصف النبي ﷺ ومن مضى على نهجه ممن يبلغ رسالات ربه، بأنهم يخشونه وحده، ولا يخشون أحداًغيره (الآية: ٣٩).

ويبين أن أعظم علاقة توصل الأمة برسولهم، هي رسالته إليهم، وأنه ليس محمد ﷺ أبا أحد من رجالهم، ولكنه الرسول وخاتم النبيين (الآية: ٤٠).

ولكي يتقرب الناس إلى مقام الرسول فعليهم أن يتقربوا إلى ربهم زلفى، وعليهم أن يذكروا الله كثيراً ويسبحوه بكرةوأصيلاً، فهو الذي يصلّي عليهم وملائكته ليخرجهم من الظلمات إلى النور (الآيات: ٤١-٤٤).

ويعود إلى ذكر صفات النبي ﷺ السامية فهو الرسول الشاهد، والمبشر النذير، والداعي إلى الله بإذنه، والسراج المنير،وأن من آمن بالله وبرسوله يحصل على فضل كبير (الآيات: ٤٥-٤٧).

ويكرر ما ذكر به في أول السورة من رفض طاعة الكفار والمنافقين، وترك أذاهم (الآية: ٤٨).

وبعد ذكر حكم شرعي عام في الطلاق يقضي بضرورة إعطاء المهر (لدى الاتفاق عليه)، وإعطاء شيء تمتع به المطلقة لدى عدم الاتفاق على المهر، فلابد إذن من ثمن للبضع. بعدئذ يبين ميزة للرسول، هي أن المرأة لو وهبت نفسها للرسول كان له أن يتقبلها من دون مهر، بعكس سائر المؤمنين، وأنه ﷺ يرجي من نسائه من يشاء، ويأوي إليه من يشاء، وأنه لا يحل له النساء من بعد (الآيات: ٤٩-٥٢).

ويؤدب السياق المسلمين ويأمرهم بأن لا يذهبوا إلى بيت الرسول ﷺ ينتظرون الطعام، ولا يجلسوا بعد دعوتهم إليه وإطعامهم مستأنسين لحديث، ويبين أن ذلك يؤذي

الرسول ﷺ، وأن عليهم ألا يطلبوا من نساء النبي حاجة إلا من وراء حجاب. ويبدو أن ذلك أيضاً مما يخص نساء النبي، إذ يجوز لغيرهن التحدث مع الرجال مباشرة إذا حافظن على سترهن.

وتختص نساء النبي أيضاً بحرمة نكاحهن بعد وفاة الرسول ﷺ.

بلى؛ لا جناح عليهن في التعامل مع الأقرباء، ومع نسائهن أو أمهاتهن (الآيات: ٥٣-٥٥).

وهكذا يسرد السياق خصائص الرسول ﷺ، مما يكشف عن جانب من عظمته، ثم يأمر بضرورة التواصل معه عبر الصلاة عليه، أوليس الله وملائكته يصلون عليه؟ فيجب الصلاة والسلام عليه، ولابد من التسليم له وطاعته (الآية: ٥٦).

ويلعن القرآن الذين يؤذون رسول الله ﷺ، سواء ببث الشائعات ضده أو ضد نسائه أو بأذى ذريته، ويتوعدهم بعذاب أليم في الآخرة (الآية: ٥٧).

ويبين جانباً من أذى المنافقين للرسول ﷺ، وذلك حين ينهى نساء النبي وسائر نساء المسلمين عن عدم مراعاة الستر تماماً، مما يجعلهن يعرفن ويؤذين (الآيات: ٥٨-٥٩).

وفي ذات الوقت يوجه تهديداً شديداً إلى المنافقين، ومرضى القلوب، والمرجفين من الاستمرار في أذى الرسول ﷺ،وينذرهم بطردهم وقتلهم. ولكي ينصحهم؛ يحذرهم من القيامة، ويبين أن الناس يسألون عن الساعة، فيقول: لعل الساعة تكون قريباً، ويبين لعن الله للكفار حيث يخلدون في السعير، ولا يجدون ولياً ولا نصيراً. هنالك حين تقلب وجوههم في النار، ويتمنون لو كانوا يطيعون الله والرسول، ويحاولون إلقاء اللوم على السادات والكبراء الذين أضلوهم السبيل (الآيات: ٦٠-٦٨).

وينذرهم السياق -مرة أخرى- بعاقبة الذين آذوا النبي موسى عليه السلام فلم يحصلوا على شيء، لأن الله كان قدجعل النبي موسى عليه السلام وجيهاً، فما قيمة أذاهم؟ (الآية: ٦٩).

ويأمر الله المؤمنين بالقول السديد (البعيد عن التهمة والسب) ويعدهم بالمغفرة، ويبين أن من أطاع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً (الآيات: ٧٠-٧١).

ويبين أن الطاعة للرسول، ولأولي الأمر من بعده هي الأمانة الكبرى التي أشفقت السماوات والأرض والجبال من حملها، بينما حملها الإنسان وكان ظلوماً جهولاً، حيث إن المنافقين فشلوا في احتمال الأمانة، فعذبهم الله، بينما تاب على المؤمنين والمؤمنات، وكان الله غفوراً رحيماً (الآيات: ٧٢-٧٣).

واتَّبع ما يوحى إليك من ربك

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (٣) مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ[1] أَبْنَاءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ ۖ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (٤) ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥) النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ۗ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٦)﴾.

هدى من الآيات:

تبحث سورة الأحزاب في معظم آياتها الثلاث والسبعين، موضوع المنافقين في المجتمع الإسلامي، كما تتناول في جانب منها الإقدام والشجاعة الإيمانية في الحروب، والتحديات التي

(١) أدعياءكم: الأدعياء جمع دعي وهو الذي يتبناه الإنسان.

تواجه الأمة.

تبدأ السورة بحث الرسول على تقوى الله، ثم تذكره ببعض تعاليم الإسلام حول الأسرة، والخطاب بدوره يعني كل مسلم يتلو القرآن ويؤمن به، وتؤكد السورة في مطلعها ضرورة التقوى للرسول (القيادة)، وأن لا يطيع الكافرين والمنافقين، لأن القيادات على نوعين:

الأول: القيادة الرسالية.

الثاني: القيادة السياسية.

القيادة السياسية هي تجسيد لمجمل الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والنفسية والثقافية التي تعيشها المجموعة التي تظلها هذه القيادة وتشرف عليها، ونجد إشارة لهذه الحقيقة في الحكمة المعروفة: «كما تكونون يولى عليكم»، فالقيادة التي تتحكم في المجتمع صورة أخرى لما هو عليه تتجلى في شخص أو حزب أو جماعة.

أما القيادة الرسالية فهي التي تشرف على الناس، تربية وتعليما، من دون أن تتأثر بسلبياتهم، ومثالها قيادة الأنبياء والأئمة ومن يتبع خطهم. وهذه القيادة تصطدم بعقبة كأداء هي سلبيات المجتمع، فبينما تريد قيادته أن تفرض الرسالة الإلهية باتجاه معين، تضغط عليها المتغيرات اليومية في الاقتصاد والسياسة والمجتمع باتجاه آخر، وهنا تواجه القيادة إشكالية كبيرة، فهي إما تلتزم بخطها الرسالي فينفض الناس من حولها، وإما تخضع لأهوائهم وضغوطهم، فتحافظ على تأييدهم، ولكنها تنحرف عن مسيرتها الحقة.

والإمام علي عليه السلام حينما واجه هذه الإشكالية أثناء حكمه، كان بإمكانه تفريق الأموال والرشاوى على الناس، و إخضاعهم رغبا ورهبا، ولكنها كانت تفسد ضميره -حاشا لله- لذلك لم يفعل وقال: «**وإِنِّي لَعَالِمٌ بِمَا يُصْلِحُكُمْ ويُقِيمُ أَوَدَكُمْ ولَكِنِّي لَا أَرَى إِصْلَاحَكُمْ بِإِفْسَادِ نَفْسِي**»[1].

فالقيادة إذا أحوج ما تكون إلى التقوى حتى تستقيم أمام الضغوط، وإنما تؤكد هذه الآيات على التقوى، لأنها تبحث موضوع الحرب التي تجسد ذروة الصراع، وأصعب ما يواجه البشر في حياتهم، ومن ثم أبرز وأهم قضية تتعرض فيها القيادة لضغوط المنافقين والكفار، وحتى بعض أبناء المجتمع المسلم، ولكي تتحصن القيادة ضد هذه الضغوط لا بد من التقوى، والتوكل على الله.

(١) بحار الأنوار: ج٣٤ ص١٤.

وبعد ذلك ينعطف السياق نحو قضية أسرية، مما يثير السؤال: ما هو الرابط بين القضايا الأسرية، وقضية اجتماعية كتحدي ضغوط الكفار والمنافقين في الحرب؟!.

والجواب: إن الأسرة هي المدرسة الأولى التي تصوغ حياة الإنسان في بعديها المادي والمعنوي، ويجب أن يكون هدفها في المجتمع الإسلامي بناء الإنسان الصلب الذي لا يتأثر بالضغوط الخارجية، ولا يخضع للشهوات، والقادر على خوض الحروب باستقامة ووعي، دفاعا عن المبادئ والمجتمع، في حال تعرضهما للخطر. لذلك حينما يحدثنا القرآن عن الاستقامة، وعن الإيمان الكامل والقيادة الرسالية، يحدثنا كذلك عن الأسرة، التي ينبغي أن تربي المؤمن المستقيم.

وفي سورة (المؤمنون) رأينا كيف أن ربنا حينما حدثنا عن الطراز المتكامل للإنسان المؤمن، كان يحدثنا أيضا عن الأسرة الصالحة، وهي منبت الإيمان، ومزرعة التقوى، ومدرسة الأخلاق الفاضلة في سورة (النور).

وفي نهاية الدرس يؤكد القرآن على أن الأسرة نظام فطري يزكيه الإسلام ويؤكده، وليست نظاما اعتباريا أو قانونيا فقط، وبتعبير آخر لا يمكن بالقانون المتواضع عليه أن تلغي الأسرة، لأنها من الحقائق الفطرية، فزوجة الإنسان لا تضحى أمه أو أخته.

وبذلك يخالف الإسلام العادة الجاهلية التي كانت تقضي، بأن يتعامل الإنسان مع زوجته، كتعامله مع أمه أو أخته، بمجرد أن يقول لها: أنت علي كظهر أمي، أو كظهر أختي، أو العادة الأخرى التي تقتضي بأن يكون الواحد ولدا للآخر لأنه رباه، حتى لو كان قد عثر عليه في الطريق، ويبين القرآن أنه لا يكون ولدا له، بل؛ إنه أخ له في الدين، وتربطه به علاقة الولاية، إن لم يعرف والده.

ولعل تأكيد القرآن على هذا الأمر يهدف إيجاد حدود للأسرة، وإعطاءها اعتبارها الحقيقي ككيان فطري، يتكون من أم وأب وأولاد، يجب الالتزام به، بعيدا عن التلاعب بالألفاظ بأن نضع أشياء جديدة، ونسميها أسرة، وبعيدا عن الاستهانة بالروابط الفطرية، بأن نوجد روابط خارج هذا الإطار.

بينات من الآيات:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ كما سبق وأن ذكرنا، بأن للبسملة معاني عديدة ودقيقة في كل سورة، تتصل بموضوعها، وما يؤكد ذلك أنها تنزل مع كل سورة بصورة مستقلة، وهي

هنا تعني: باسم الله تبدأ طريقك متوكلا عليه، وباسمه تدخل الصراع فلا تخضع للضغوط، ولا تستجيب للإغراءات، وباسم الله تبني الأسرة الصالحة.

[١] ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾ وعادة حينما تأتي في القرآن أوامر صعبة، وهكذا في النصوص الإسلامية يسبقها أو يلحق بها الوصية بالتقوى، والسبب أن تطبيق الأوامر الصعبة والاستقامة عليها يحتاج إلى دافع قوي وإرادة صلبة، يجدها المؤمن في تقوى الله.

وإذ يستهل القرآن الحديث بهذه الآية الحادة، ويسمي من يحاولون تثبيط الرسول عن المواجهة مع الكفار -في ظرف أحوج ما تكون الأمة إلى الدفاع عن كيانها- بالمنافقين والكفار، لأن الاستجابة لهؤلاء خطيرة جدا، ومن شأنها القضاء على الأمة والرسالة الإسلامية.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ وتفيد الخاتمة هذه أمرين:

١- إن الله يعلم أهداف المنافقين والكافرين، من ضغوطهم على الرسول، وما ينتهي إليه الأمر من فساد لو يطيعهم، فهو حكيم إذ ينهى نبيه ﷺ عن الخضوع لهم.

٢- إن الله حين يذكر هاتين الصفتين بعد أن يأمر بالتقوى وينهى عن طاعة المنافقين والكافرين، فلأن التقوى تنبع من إحساس الإنسان بإحاطة الله له علما، ولأن الطاعة تأتي من الاعتقاد بأن الذي يأمره حكيم في أمره.

[٢] إن هدف هؤلاء من الضغط على الرسول هو صده عن رسالة ربه لهذا حث القرآن بعد أن نهى النبي عن الطاعة لهم، على الالتزام بالوحي فقال: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ يتجلى واقع القيادة في الظروف الصعبة فيعرف مدى توكلها على الله، ووعيها للأمور، وتصديها لمسؤولياتها.

فالقيادة الرسالية هي التي تتبع أمر الله ورسالته، وتستقيم عليها، في مختلف الظروف، دون أن تستجيب لما يقوله الآخرون مما هو مخالف للرسالة، وهنا نؤكد بأن الضغط الذي تواجهه القيادة داخليًّا، من قبل المجتمع بقطاعيه العام أو الخاص المتماس مع القيادة، أشد وأصعب من الضغط الخارجي، لأن انهيار الجبهة الداخلية التي تعتمدها القيادة أخطر من أي شيء آخر، ودور القيادة وأهميتها تبرز في تصديها لعوامل هذا الانهيار وعلاجها له، وليس الانسياق معه.

وحينما يعتبر القرآن الشورى ضرورية ويأمر بها القيادة الرسالية، لا يغفل حقيقة هامة، إذ يقول: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، فالقيادة هي التي

تعزم وتقرر، ولكن ليس وفق أهواء الآخرين ولا حتى أهوائها، إنما وفق هدى الله ووحيه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ وكفى بهذا باعثا للإنسان نحو تقوى الله وخشيته.

ولعل اسم الخبير يوحي بمعرفة حقيقة العمل صالح أو فاسد.

[٣] ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ لكي تتمكن من الاستقامة، وتحدي ضغوط الآخرين.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾ وقد تكررت هذه التذكرة بالتوكل عشرات المرات في القرآن، بأن يذكر الرسول بالتوكل وعدم اتباع أهواء الآخرين. فليست مشكلة القائد أن يتبع هواه، بمقدار ما هي اتباع أهواء المحيطين به، لأنه يجسد الروح الجماعية في من يقودهم، فهو عادة ما يتجرد عن هواه، ولكنه يخضع لأهواء تلك الروح التي يجسدها بقيادته، ولذلك نجد التعابير القرآنية تؤكد على هذا الخطر: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾ [الأحزاب: ٤٨]، وقال أيضا: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَ﴾ [المائدة: ٤٩].

[٤] ثم يظهر السياق رفض الإسلام للازدواجية في الشخصية إذ يقول: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٖ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦۚ﴾ فإما أن يتلقى توجيه المنافقين والكفار، أو يتبع رسالة الله، أما الالتقاط فهو مرفوض في منطق الإسلام، فكما أن قلب الإنسان واحد وعواطفه واحدة، كذلك يجب أن تكون حياته منسجمة مع بعضها، وبتعبير آخر يجب أن يرعى البشر الفطرة التي خلقها الله فيه، وهو يضع القوانين لنفسه. ويربط القرآن بين هذه الحقيقة وبين قوله تعالى حاكيا عن الأسرة: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزۡوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنۡهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمۡۚ﴾ كتجلٍ لها.

فكما لم يجعل الله لرجل قلبين في جوفه، فلا يستطيع أن يحب ويكره رجلا بصورة شاملة في آن واحد، ولا أن يفكر في أمور متعددة في وقت واحد، كذلك لا يمكن أن يجعل زوجته وأمه امرأة واحدة، فيجب أن يكون الأمر حسب الواقع الفطري الطبيعي لا حسب ما يقرر الشخص نفسه.

والظهار الذي تشير إليه الآية هو قول الرجل لزوجته: أنت علي كظهر أمي، أو كظهر أختي. وهذه من العادات الجاهلية، كما توجد عادة أخرى وهي جعل الآخرين أبناء لمن يتبناهم، لكن القرآن لا يقرها بل يرفضها.

﴿وَمَا جَعَلَ أَدۡعِيَآءَكُمۡ أَبۡنَآءَكُمۡۚ﴾ فالابن لا يصير دعيا لوالده، والدعي لا يصير ولدا لمن يدعيه، وتبين الآية أن هذه العادة ليست مما يتفق مع تعاليم الله، ولا فطرة البشر، إنما هي

من بنات أفكار الناس أنفسهم: ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾ ولو عدتم إلى قلوبكم وفطرتكم لرفضتم ذلك، وقلب الإنسان لا يُخدع بمثل أن الدعي ولد له، ولو قال ذلك ألف مرة بلسانه، والبنوة قضية حقيقية يترتب عليها جملة من الآثار القانونية. ولا يمكن أن تُخرق القوانين الفطرية ببعض القوانين المفترضة، لأنها تفقد قدرة التنفيذ باعتبارها لا توافق الفطرة في شقيها القلب والخارج.

﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ والحق هو القانون الفطري، والحقيقة الخارجية، وهذه صفة القرآن فهو كتاب الله الذي ينطبق على كتاب الطبيعة، فكما تذكرنا الطبيعة بآيات القرآن وتهدينا لها، فإن الله يذكر عبر آياته بسننها وقوانينها.

﴿وَهُوَ يَهْدِي ٱلسَّبِيلَ﴾ السليم، والصراط المستقيم، و(ال) التعريف تحدد هذا السبيل، إنه ليس أي سبيل كان، بل هو السبيل القويم.

[٥] ثم يبين القرآن حكم اللقيط، وهو يخالف ما عليه الجاهلية من نسب اللقيط إلى من يربيه ويتبناه حيث يقول: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ﴾ الحقيقيين الذين انحدروا من صلبهم ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أصح لانسجامه مع شريعة الله، وفطرة البشر، بينما كان الجاهليون يخالفون هذا الأمر وينسبون الرجل إلى من تبناه، حتى لو كان أبوه شخصا آخر، وكان من عادتهم إذا افتقر أحدهم أن يدفع أولاده إلى من يعولهم فيصير الآخر والدهم في عرف الناس، ولكن هل يغير هذا من الواقع الفطري شيئا؟ كلا.. فأبو طالب حينما أعطى ولده عليا عليه السلام للنبي صلى الله عليه وآله بسبب فقره، لم يصبح علي ولد الرسول، وكذلك الأمر بالنسبة لزيد بن حارثة، الذي نسبه الناس للنبي، فأنزل الله آية (٣٧) في أمره.

﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ﴾ وتعرفوهم ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ إخوة سببيون وليسوا نسبيين، فهم لا يرثون منكم، ﴿وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ والمولى هو الشخص الذي ينتمي إلى عشيرة أو أسرة، لأنه لا عشيرة له، فيسمى مولى لهم، ويختلف عن العبد بأنه صاحب ولاية، ولذلك تسميات أخرى عند العرب كالدخيل واللحيق. إذن فعدم معرفة والده، لا يغير من الواقع شيئا.

﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ أي ذنب ﴿فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾ أيام الجاهلية، لأن الإسلام يجب ما قبله، أو إذا أخطأتم الآن إذا لم يكن عن عمد، ﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ في نسبة الأبناء إلى غير آبائهم الحقيقيين، فذلك محاسبون عليه، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ يغفر للعبد أخطاءه، أما الانحرافات المتعمدة، والتي يصر عليها فإنها لا تغفر.

[٦] وفي الآية الأخيرة من هذا الدرس يركز القرآن على مسألة بالغة الحساسية وذات أهمية مركزية بالنسبة للمجتمع المسلم، في أبعاد حياته المتعددة، حيث يبين بأن القانون الرسالي يقتضي أن تكون القيادة الرسالية مقدمة على كل شيء، أما الأسرة فهي تأتي في المرتبة الثانية، فإذا ما تعارض قرار القيادة مع قرار الأسرة فالواجب اتباع القيادة، لأنها أقرب إلى كل فرد من أبناء المجتمع والتجمع، بل هي أقرب للفرد من نفسه، وفي مجمع البيان أن النبي ﷺ «لَمَّا أَرَادَ غَزْوَةَ تَبُوكَ وَأَمَرَ النَّاسَ بِالخُرُوجِ، قَالَ ﷺ: **قَوْمٌ نَسْتَأْذِنُ آبَاءَنَا وَأُمَّهَاتِنَا. فَنَزَلَتْ**»[1].

﴿أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ وفي المرتبة الثانية تكون العلاقة الأسرية هي الأسمى ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾ أما الرحم الذي لا يتصل معك بعلاقة الدين فهو مقطوع في الإسلام، كالأرحام التي لم تكن تهاجر أو الرحم الكافرة، ولا يعني هذا أن يؤذي المسلم والديه أو عموم رحمه لكفرهم، بل إن القرآن يحث على الإحسان إليهم، فهم إن انقطعت معه علاقتهم الدينية فإنه تجمعه بهم العلاقة الإنسانية التي يقرها الإسلام.

﴿إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا﴾ فذلك يقبله الله، ويشجع عليه القرآن ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ إنه قانون مسطور في كتاب الله.

(١) تفسير مجمع البيان: ج٨، ص١٢١.

وكان عهد الله مسؤولا

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا (٧) لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩) إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (١١) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (١٢) وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ۚ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا (١٣) وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا[1] بِهَا إِلَّا يَسِيرًا (١٤) وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا (١٥)﴾.

هدى من الآيات:

الميثاق الذي أخذه الله عز وجل من النبيين، وعبرهم من الصديقين والأولياء، هو العهد الذي وافق عليه كل إنسان في عالم الذر، حيث استنطقه الله بعد أن ألهمه العقل: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَا﴾ [الأعراف: ١٧٢]. وكان الهدف من هذا الميثاق

---

(١) وما تلبثوا: ما احتبسوا وما تريثوا عن الإجابة إلى الكفر.

-كما توضحه نفس الآية- هو إقامة الحجة على الخلق: ﴿أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٢-١٧٣]. وكل من لبى قبل الآخرين كان أقرب إلى الله، فيزوده بنور العلم والرسالة، وكانوا هم الرسل والأنبياء والأوصياء والأولياء، قال الإمام الصادق عليه السلام: «فَلَمَّا أَرَادَ اللهُ أَنْ يَخْلُقَ الخَلْقَ نَثَرَهُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ فَقَالَ: لَهُمْ مَنْ رَبُّكُمْ؟ فَأَوَّلُ مَنْ نَطَقَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله وأَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عليه السلام والأَئِمَّةُ (صَلَوَاتُ الله عَلَيْهِمْ) فَقَالُوا: أَنْتَ رَبُّنَا. فَحَمَّلَهُمُ العِلْمَ والدِّينَ ثُمَّ قَالَ لِلْمَلَائِكَةِ: هَؤُلَاءِ حَمَلَةُ دِينِي وعِلْمِي وأُمَنَائِي فِي خَلْقِي وهُمُ المَسْئُولُونَ»[1]. ثم اتخذ الله ميثاقا آخر من رسله قبل أن يبعثهم بالرسالة، وكان هذا الميثاق بقوة الميثاق الأول.

ومن يبعث رسولا يؤخذ منه الميثاق، لكي يتحمل الرسالة بكل أمانة، ولأن النبي يتعرض لأنواع الضغوط، يجب أن لا يخضع للظروف والوسط الاجتماعي، فإن الله يذكره بين الحين والآخر بذلك الميثاق عبر آيات، بالرغم من أن النبي منصور من عند الله بالوحي وبروح القدس، ذلك الملك العظيم الذي يؤيد الله به أنبياءه والأئمة، ولعل الوحي كما روح القدس لم يكن أرفع شأنا من القرآن ذاته، لأنه كلام الله. وهل رفعت درجة الوحي إلا بكونه الواسطة التي تحمل القرآن إلى النبي؟ وهل منزلة الرسول صلى الله عليه وآله إلا بتجسيده كتاب الله وحمله له؟.

والقرآن أعظم مؤيد للرسول ولمن يتبعه، لأنه يثبت قلوبهم، ويزيد في إيمانهم وتوكلهم على الله، بما يذكر به من الآيات والسنن الإلهية، والحوادث السابقة التي تكشف عنها، والقرآن موجود بين أيدينا، فيمكننا أن نستوحي منه بصائر الحياة والعمل، ونستمد منه العزيمة والإيمان والتوكل، ونحن نسير في خط الأنبياء. ولما كان الرسول يواجه ضغوط المنافقين والكفار، ويستعد لحرب الأحزاب التي تجمعت واتحدت ضده، جاء القرآن تأييدا له على الاستقامة أمام كل ذلك، فكان لا بد من تذكيره لميثاقه مع ربه، على العبودية والإخلاص له، مما يستوجب عدم الانهيار أمام هذه الضغوط، باعتباره يناقض الميثاق.

ثم يذكر السياق بقصة الأحزاب التي تشتمل على كثير من العبر والحكم التي من بينها:

الحكمة الأولى: تأييد الله للمؤمنين، فقد أيد الله رسوله والمسلمين في هذه الحرب بجنود لم يروها، قيل أنها الملائكة، وقيل هي الريح التي سلطها على الأحزاب، وقد تكون الرعب الذي قال عنه الرسول صلى الله عليه وآله: «**نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ**»[2]، أو هذه جميعاً.

(١) الكافي: ج١، ص١٣٢.
(٢) وسائل الشيعة: ج٣، ص٢٥٠.

المهم أن الإنسان مهما يهيئ من الوسائل المادية، فقد يتأثر بعوامل لا يستطيع ضبطها، وهي ما نسميها معشر البشر بالصدف، أو هامش الاحتمالات.

والكفار حينما ساروا لحرب المسلمين يومئذ كانوا قد أعدوا العدة للقضاء عليهم، ولم يكن في بالهم أن شيئا يمنعهم عن المسلمين، ولكنهم انهزموا وخسروا المعركة، وكان السبب المادي الظاهر هو الخندق الذي حفر حول المدينة، وعموما ما استخدمه وهيأه الرسول من الوسائل والأساليب للمعركة، ولكن العامل الأمضى والأهم أثرا هو الجنود التي لم يلحظها المسلمون بأعينهم، وإنما جاءت إشارة القرآن إلى هذا العامل الحاسم في الانتصار بهدف إعطاء الثقة للرساليين عبر الأجيال، بأنهم يجب أن يعتمدوا بعد الاستعداد وبذل قصارى الجهود، على نصر الله لا على ذواتهم ووسائلهم المادية.

الحكمة الثانية: كما تؤكد الآيات على الابتلاء الذي يعرض الله له المؤمنين، وأنه من أهم أهداف الحروب والغزوات، فمنهم من يستفيد من البلاء والابتلاء، في تثبيت إيمانه، ومنهم من يتزلزل ولكنه يعود ليصلح مسيرته، ومنهم من ينهار تماما، والمؤمن الذي يسقط ثم يعود إلى الصواب ثانية، قد يكون أقدر على الاستمرار، من الآخر الذي لم يسقط ولا مرة لأنه لم يُجالد الشدائد، لأنه جرب السقوط، فعرف كيف يجب أن يقوم لو سقط مرة أخرى، كالجسم الذي يبتلى بجرثوم معين، ثم يطيب منه، فإنه يكتسب شيئا من المناعة ضده، لو عاوده من جديد، لكن هذا الجرثوم نفسه قد يفتك بالآخرين الذين لم يبتلوا به، وبالتالي لا يملكون مناعة ضده.

والذي يصنعه الابتلاء للإنسان المؤمن، أنه يطهر قلبه من أسباب الشك والتردد، ويمكننا أن نحدد أهم أهداف الابتلاءات والمصاعب التي يعانيها الإنسان في حياته في أمرين:

ألف: تمحيص قلوب المؤمنين.

باء: تمحيص المجتمع. ففي الظروف الصعبة كالحروب يفرز المؤمن عن المنافق، مما يكشف الواقع أمام القيادة، وبالتالي يتسنى له إبعاد المنافقين من تجمعها: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

الحكمة الثالثة: تبين لنا الآيات أنواعا من التبرير والأعذار التي يتشبث بها المنافقون من أجل التستر على نواياهم، وفرارهم من المسؤولية، ومن بينها قولهم: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ فرارا من الحرب، دون التفكير في صحتها. و على القيادة الرسالية أن تشخص الأفكار التبريرية وتدحضها.

بينات من الآيات:

[٧] لا يبعث الله النبي رسولا حتى يتعهد بعدم الخضوع لسائر الضغوط، سواء النابعة من ذاته أو الآتية من المجتمع.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾ جميعا، ولكن هذا العهد كان أشد وأخص بالنسبة لأولي العزم من الرسل، وهم الذين ذكرت بهم الآية في قولها: ﴿وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾؛ فالأنبياء أفضل من سائر الناس، والرسل أفضل من الأنبياء، وأفضل الرسل هم أولو العزم، وأكرم أولي العزم محمد ﷺ، ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾.

ولعل وجه التخصيص أن أولي العزم أكرم الناس عند الله، فهم أكثرهم تعرضا للبلاء والمصاعب.

[٨] ثم بعد هذا الميثاق الذي أخذه الله على الناس ومن ضمنهم الأنبياء فأقروا بالربوبية له[1] وعاهدوه بالتسليم، خلق الحياة الدنيا ليتبين الصادق من الكاذب فيهم.

﴿لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ فالإنسان لا يعرف حقيقة ما يدعيه إلا عند الامتحان، فإن كان صادقا أدخله الله في جنته ورحمته، وإن كان كاذبا عذبه ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

فالله يستأدي الميثاق مرتين، مرة في الدنيا عبر الرسل، ومرة في الآخرة بالحساب الدقيق، والمؤمن الذي يهتدي إلى حكمة الحياة هذه هو الذي يصمد عند الشدائد، لأنه يعتبرها سبيله إلى رضوان الله، والذي يتحقق في الوفاء بميثاقه معه -عز وجل- يوم الذر وعبر الأنبياء والقيادات الرسالية التي تمثل امتدادهم عليهم السلام وهذا ما تهدي إليه الآيات من (٢٢) إلى (٢٤) حيث ترتبط بها هاتان الآيتين ارتباطا عضويا، وتمثل ظلالا لها.

[٩] أما بقيـة الآيات، فهي تذكرنا بالحقائق الثلاث التي أشرنا لها في أول الدرس، والتي يستوحيها السياق من حرب الأحزاب.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ يوم الأحزاب ﴿إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ اقتلعت خيام الكفار، وكانوا يزعمون اللبث فيها وهم يحاصرون المدينة، التي منعهم الخندق من دخولها، مما أشاع الفوضى وعدم الاستقرار في نفوس العدو.

﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ من الملائكة.

---

(١) راجع: الآية ١٧٢ من سورة الأعراف.

وقد مر في تفسير سورة الأنفال القول: بأن أهم عمل قامت به الملائكة، كان تثبيت قلوب المؤمنين من جهة، وتشتيت قلوب الكافرين من جهة أخرى، وعلى ضوء هذا التفسير نستطيع القول بأن أهم قوة عسكرية تستطيع هزيمة العدو هي التي تتوفر فيها صفتا الوحدة والاستقامة، اللتان تؤديان إلى الثبات في المعركة.

ونصر الله للمؤمنين لا يأتي إلا إذا بذلوا قصارى جهدهم، وكل ما بوسعهم من أجله، فلو كان المسلمون يوم الأحزاب ينتظرون عون الله، من دون تهيئة الظروف المناسبة له، من استعداد لمواجهة العدو، وإعمال للعقل في سبيل ذلك لما نصروا عليهم، ولعله لهذا يشير إلى سعي المؤمنين.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ فلأنكم بذلتم ما في وسعكم، وحفرتم الخندق في أربعين يوما متواصلة، وأرهقتم أنفسكم في شهر رمضان، وفي حرارة الصيف، وقد رأى الله منكم كل ذلك وعلم بنواياكم الصادقة نصركم على الأحزاب.

[١٠] ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ﴾ أي من فوق الوادي -من ناحية الشام- وهم يهود بني قريظة وبني النضير وغطفان، ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ من ناحية مكة -قبل المغرب- وهم قريش ومن تبعها من العرب، وكان من شدة الأمر أن الأبصار في تلك الحالة لم تكد ترى أو تستقر، وهذه الحالة تصيب الإنسان لا إراديا إذا واجه أمرا يهوله ويعظم في نفسه.

﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ كما إن القلب يظل ينبض بقوة وسرعة في مواطن الفزع، بحيث يشعر الإنسان وكأنه صعد إلى حنجرته ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ في ساعة العسرة تأتي البشر مختلف التصورات حول ربه، وربما يكون الكثير منها سلبيا، فإذا به وهو يقف في صف المؤمنين لمحاربة أعداء الرسالة يفقد الثقة بنصر ربه، ويظن أنه لن ينصره، وهل الإيمان إلا حسن الظن بالله.

[١١] لكن الله يجعل الأحداث تتصعد وتتأزم، وقد يؤخر النصر، ويعرض المجتمع لأنواع الابتلاء، وذلك تمحيصا للقلوب، وفرزا للمجتمع، فإذا به فريقان، فريق المؤمنين وفريق المنافقين.

﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أما المؤمنون فقد كان الأمر بالنسبة إليهم امتحانا -أظهر ما يضمرونه في قلوبهم على ألسنتهم- كما تسببت شدته، في ذهاب الصفات التي لحقت بهم، والتي ليست من طبيعة الشخصية المؤمنة، فإذا به يزيدهم إيمانا وصفاء.

﴿وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ ويحتمل هذا الشطر أحد تفسيرين: فإما يكون وصفا لطبيعة الامتحان بأنه من الصعوبة يشبه الزلزال الشديد، وإما يكون حديثا عن نتيجة الامتحان، فيصير المعنى أن المؤمنين اهتزت مواقفهم وتأثروا، فيحمل تفسير الآيتين (٢٢-٢٣) مضافا لهذه الآية: أن المؤمنين صاروا فرقتين، فرقة تأثرت بالامتحان سلبا في بادئ الأمر، فاكتشفت ضعفها وجبروته، وفرقة ما زادهم إلا إيمانا وتسليما.

[١٢] أما المنافقون فقد افتضح أمرهم، وبرزوا على حقيقتهم أمام القيادة الرسالية يومذاك وأمام المجتمع، ولعل هذا الفرز من أهم أهداف وفوائد الأزمات التي يتعرض لها البشر في حياتهم.

والمنافق هو الذي يعيش شخصيتين: شخصية الإنسان المؤمن الصادق -وهذه يظهرها ليستر بها شخصيته الحقيقية الثانية بما فيها من الأنانية والدجل- فإذا استوجبت الظروف تعرض مصالحه للخطر، ووجد الالتزام ولو ظاهريا بالشخصية الإيجابية يعرضها للزوال ظهر على حقيقته.

﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ وهم المؤمنون الذين يحملون الحقد والحسد والاستكبار و.. . في قلوبهم، فإن شأنهم شأن المنافقين، لأن هذا المرض سوف يسبب لهم الانهيار والفرار في ساعة المواجهة، فهم يلتقون مع المنافقين في خور عزيمتهم، وطبيعة موقفهم من الشدائد، والذي يتجسد في فرارهم وسلبيتهم في المجتمع بخلاف المؤمنين الصادقين - تماماً- فبينما يقول أولئك: صدق الله ورسوله، ويزدادون إيمانا واستقامة على الطريق، يقول هؤلاء: ﴿مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ ويستدلون على ذلك بأن النصر لم ينزل عليهم.

[١٣] و ثمة مجموعة من المشككين لا يكتفون بهزيمتهم إنما يشيعون جوا من الهزيمة بهدف زلزلة عقائد الآخرين، وهذه من طبيعة المنافقين.

﴿وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾ حينما تتعرض الأمة للخطر فهي أحوج ما تكون إلى الثقة بنفسها وبقيادتها وبربها، وبالتالي فإن الألسن والأقلام التي توهن المجتمع، وتبث فيه روح الهزيمة هي منافقة، وعلى المجتمع أن لا يستجيب لها، إنما يلتف حول قيادته الرسالية، كما إن من واجب القيادة فضح هذه الشريحة وإقصائها عن موقع المسؤولية والتوجيه.

﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ﴾ ويغطون هذه الهزيمة بمجموعة من الأعذار والتبريرات الواهية ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾، قالوا: إن بيوتنا مكشوفة للعدو، ولا نأمن على أهلنا منه، فلابد أن نبقى معهم نحميهم، لكن الله فضحهم إذ قال:

أولاً: إن بيوتهم ليست كما يدعون، ولكنهم يريدون الفرار من الحرب ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾

[١٤] ثانياً: لو أنهم دعوا إلى حرب فيها مصالحهم، غير هذه الحرب المقدسة التي فيها مصلحة الإسلام، لخاضها أكثرهم، ولما تخلف عنها أحد منهم، أوليسوا في الجاهلية يحاربون بعضهم لمئات السنين ولأتفه الأسباب؟!.

﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم﴾ الحرب ﴿مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ جهاتها وأهدافها التي يريدون، لأنها تتفق مع أهوائهم مثلا، ﴿ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا﴾.

[١٥] وما كانوا يلتزمون ولا حتى يلتفتون لعهدهم مع رسول الله ﷺ ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ على الدفاع عن الإسلام وعن رسوله ﴿لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ﴾ دون تراجع أو هزيمة، وكان هذا العهد عبر الرسول امتدادا لميثاقهم مع الله في عالم الذر، وتأكيدا للمسؤولية ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾.

ولا يأتون البأس إلا قليلا

﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلۡفِرَارُ إِن فَرَرۡتُم مِّنَ ٱلۡمَوۡتِ أَوِ ٱلۡقَتۡلِ وَإِذٗا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلٗا (١٦) قُلۡ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعۡصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ[1] إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةٗۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا (١٧) ۞ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ وَٱلۡقَآئِلِينَ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ هَلُمَّ إِلَيۡنَاۖ[2] وَلَا يَأۡتُونَ ٱلۡبَأۡسَ[3] إِلَّا قَلِيلًا (١٨) أَشِحَّةً عَلَيۡكُمۡۖ[4] فَإِذَا جَآءَ ٱلۡخَوۡفُ رَأَيۡتَهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ تَدُورُ أَعۡيُنُهُمۡ كَٱلَّذِي يُغۡشَىٰ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلۡخَوۡفُ سَلَقُوكُم بِأَلۡسِنَةٍ حِدَادٍ[5] أَشِحَّةً عَلَى ٱلۡخَيۡرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يُؤۡمِنُواْ فَأَحۡبَطَ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا (١٩) يَحۡسَبُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ لَمۡ يَذۡهَبُواْۖ وَإِن يَأۡتِ ٱلۡأَحۡزَابُ يَوَدُّواْ لَوۡ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلۡأَعۡرَابِ[6] يَسۡـَٔلُونَ عَنۡ أَنۢبَآئِكُمۡۖ وَلَوۡ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلٗا (٢٠)﴾

هدى من الآيات:

مرض النفاق الذي تظهره الأزمات الشديدة التي تعصف بالأمة قضية ذات أبعاد متعددة، ومعرفة أبعاد النفاق الاجتماعي ضرورة للسيطرة على هذا التيار الخطر، حتى لا يجرف خيرات الأمة، أو يستلب بركاتها وإيجابياتها.

---

(١) يعصمكم من الله: يدفع ويمنع عنكم قضاء الله.

(٢) هلم إلينا: تعالوا واقبلوا إلينا.

(٣) ولا يأتون البأس: لا يحضرون القتال.

(٤) أشحة عليكم: الشحة هي البخل، فهم بخلاء عليكم لا يبذلون مالًا ولا نفساً.

(٥) سلقوكم بألسنة حداد: آذوكم بالكلام، وخاصموكم بألسنة سليطة ذربة.

(٦) بادون في الأعراب: يكونون في البادية مع الأعراب.

والمجتمع الذي يترك المنافقين أحرارا، يستغلون طاقات الأمة وانتصاراتها، فينزون على السلطة على غفلة من أبنائها، ولعدم وعيهم، فإنه لن يدوم طويلا في مسيرته الصاعدة، وأبناؤه يعلمون أن أعمالهم تنتهي إلى جيوب الانتهازيين والمنافقين.

والقرآن الكريم يفضح -في أكثر من سورة- المنافقين الذين يبحثون عن المكاسب والمغانم، دون أن يقدموا من أنفسهم شيئا للحصول عليها، فهم في الأزمات والحروب يتهربون من المسؤولية، ولكنهم يبرزون ويظهرون أنفسهم أبطالا حين المغانم والانتصارات.

بينات من الآيات:

[١٦] كانت حرب الأحزاب من الأزمات الصعبة التي مرت بها الأمة الإسلامية، وكان من إيجابياتها -كما سائر الأزمات- أنها كشفت واقع فريق المنافقين، والقرآن لا يذكر تفاصيل هذه الحادثة في هذه السورة، إنما يذكر ببعض النقاط الحساسة منها.

فيؤكد لنا بأن الإنسان لا يستطيع أن يدعي القدرة على الخلاص من الموت أو القتل بالفرار، أو أن ذلك ينفعه. كلا.. فهو قد يبعده عن ذلك لحظات وأياما، ولكنه لن يكون سببا للبقاء والاستمرار، فما يدفعه المجتمع وحتى الإنسان الفرد عن الهزيمة يفوق ما يدفعه حين الاستقامة والاستمرار أضعافا مضاعفة، فهو بالفرار من المعركة يعطي العدو زخما من القوة والثقة بالنفس.

﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ بينما تهب الشجاعة للإنسان عمرا طويلا، لأن الشجاع يقاوم الأعداء ومن ثم يضمن استمراره.

[١٧] وبالإضافة إلى أن الفرار من الموت لا يجدي نفعا، إذ إنه يدركهم أنى كانوا، بالإضافة إلى ذلك فإنه يغضب الرب، وهم لا يملكون من دونه وليا ولا نصيرا، فإذا أراد بهم سوءاً فلا عاصم لهم منه يمنعهم من عذابه، وإذا أراد بهم رحمة فلا أحد قادر على منع رحمته عنهم.

﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ إن الهزيمة أمام الأعداء مظهر من مظاهر ضعف الإيمان بالله وتعلق القلب بالشركاء من دونه، وهكذا ينسف القرآن هذه الفكرة بقوله: ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾

[١٨-١٩] ثم يذكرنا القرآن بجانب من صفات المنافقين وهي:

أولاً: أنهم يبحثون عن أمثالهم، أو لا أقل مثلهم عمليًّا، فإذا بهم يثبطون الناس عن

المواجهة مع العدو عند الحرب، حتى يكون المجتمع مثلهم فيتخلصون من اللوم وممن يسمهم بالجبن.

﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ أي: المثبطون الذين يبثون روح الهزيمة والضعف في المجتمع، و﴿قَدْ﴾ تفيد التأكيد وليس الإمكان والتحقيق، وأتي بالمضارع ﴿يَعْلَمُ﴾ إشارة للفعل الإنساني المتجدد ولا نعلم الله قديم.

ثانياً: الجبن وعدم الإقدام، وقليلا ما يتواجدون حين المعارك الحاسمة، وهكذا فإن الصعوبات والمشاكل هي التي تكشف المنافقين على حقيقتهم فإذا بهم -وقد ادعوا الشجاعة سابقا- تخور عزيمتهم في لحظة المواجهة، وتدور أعينهم من الخوف، كما المغشي عليه من الموت، وإذا انجلى الخطر بصمود المؤمنين واستقامتهم في ساحة الصراع تجدهم مرة أخرى بألسنتهم السليطة يشتمون ويحملون الآخرين المسؤولية، وحدة كلامهم تكون بمقدار هزيمتهم وجبنهم في الأزمات ﴿.. وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾.

ثالثاً: السعي من أجل المغانم، والأخذ من المجتمع الإسلامي بحرص شديد يوازي شحهم وبخلهم عن الإنفاق لصالح الإسلام والمسلمين، وأساسا لا ينتمي هؤلاء للمسلمين إلا سعيا وراء المصلحة.

﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ وإنما أحبط الله أعمالهم لأنها لا تقوم على أساس صحيح وأهداف مبدئية شريفة، كما نزع عنهم اسم المؤمنين لأن انتماءهم للمؤمنين ظاهري، وانتماؤهم الحقيقي هو للكفار أو لذواتهم وشهواتهم.

[٢٠] رابعاً: ومن خوف المنافقين أنهم حتى بعد انتهاء المعركة لصالح المسلمين، وانسحاب الأحزاب لما تطمئن نفوسهم، فهم يزعمون أن المعركة لا زالت قائمة حتى بعد انتهائها، فهم يعيشون حالة الخوف والرعب كما لو كانت الحرب قائمة، وكيف تطمئن نفوسهم وهي خالية من الإيمان وذكر الله؟!.

﴿ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ﴾ فهم وجلون على مصيرهم ومصالحهم من قوى الشرك، ﴿ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ ﴾ يتمنون لو كانوا بعيدين عن المسلمين، كما سكان البادية الذين همهم سماع الأخبار بعيدا عن المسؤولية، وهذه من صفات المنافقين أنهم في ساعة العسرة والخطر ينهزمون في داخلهم.

﴿يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ﴾ خارجون إلى (البدو) في الصحراء ﴿فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ﴾ ليعرفوا مصير المعركة حتى يتكيفوا معه، فهم لا يصنعون الأحداث بل يتقلبون معها ﴿وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ مما يدل على أن المنافقين ينهزمون نفسيا بتلك التمنيات، وعمليًا بالفرار من بين المسلمين حفاظا على حياتهم، ولو لم يحالفهم الحظ بالفرار والهزيمة ما كانوا يؤثرون في المعادلة أبدا، لأنهم غير مستعدين للتضحية ولا للقتال المستميت.

وتدل هذه الآية: ﴿مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ على أحد معنيين:

الأول: أنهم لو كانوا في المسلمين لم يقاتلوا الأحزاب -على افتراض عودتهم- لأنهم يبحثون عن المعارك التي يكون فيها العدو ضعيفا وقليلا، بحثا عن المغانم حيث يكون النصر فيها للمسلمين، وحتى في هذه الحالة فإنهم لا يؤدون دورا أساسيا، ولا يدخلون قلب المعركة.

الثاني: أنهم لو صادف مجيء الأحزاب للقتال مرة ثانية، ولم يتمكنوا من الفرار فإنهم لن يؤدوا مهمات خطرة في القتال، بل سيكتفون بالأدوار الهامشية التي لا تكلفهم شيئا من التضحية، كما إنها تحافظ على شخصياتهم ومكانتهم في المجتمع المسلم.

قصة غزوة الخندق

وهذه النفوس المريضة أظهرتها ساعة الأزمة في غزوة الخندق، التي نصر الله فيها الأمة الإسلامية نصرا عزيزا، وكانت في أيام نشأتها، والله يذكرنا بهذه الغزوة حتى نستفيد عبرا منها، ويذكرنا بالنصر تذكيرا للأمة بأن ميلادها كان رهين تلك الحروب وبأولئك الأبطال الذين خاضوها، وعلى سواعدهم جاء النصر.

ومع أن الأمة واقع قائم الآن إلا إنها لا تستطيع أن تنكر فضل أولئك الرواد الأوائل الذين ساهموا في صناعة الأمة وحافظوا على كيانها، لذلك يجب أن تبقى قصة غزوة الخندق وسائر الحروب التي شهدتها الأمة في بداية انطلاقتها وفي أيام مخاضها راسخة في ذاكرة كل فرد من أبنائها.

والإنسان يتأثر بالتاريخ فهو ابن له، وهو ينعكس عليه بصورة ما، فإذا عرف تاريخه معرفة حسنة وسليمة، وعرف محيطه بجميع أبعاده فإن أخطاءه سوف تقل، أما لو كانت رؤيته للتاريخ غامضة أو ناقصة فإن حياته ستكون مليئة بالأخطاء، ولذلك يذكر القرآن بهذه القصص والعبر التي خلفتها لنا أحداث التاريخ، ونحن -بدورنا- نثبت هنا بعض ما جاء في السيرة من تاريخ الواقعة.

ذكر محمد بن كعب القرظي وغيره من أصحاب السير قالوا كان من حديث الخندق أن نفرا من اليهود منهم سلام بن أبي الحقيق وحيي بن أخطب في جماعة من بني النضير الذين أجلاهم رسول الله ﷺ خرجوا حتى قدموا على قريش بمكة فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ وقالوا إنا سنكون معكم عليهم حتى نستأصلهم فقال لهم قريش يا معشر اليهود إنكم أهل الكتاب الأول فديننا خير أم دين محمد قالوا بل دينكم خير من دينه فأنتم أولى بالحق منهم فهم الذين أنزل الله فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾ إلى قوله ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ٥١-٥٥]، فسر قريشا ما قالوا ونشطوا لما دعوهم إليه فأجمعوا لذلك واستعدوا له ثم خرج أولئك النفر من اليهود حتى جاءوا غطفان فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه ﷺ وأن قريشا قد بايعوهم على ذلك فأجابوهم فخرجت قريش وقائدهم أبو سفيان بن حرب وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصين في فزارة والحارث بن عوف في بني مرة ومسعر بن جبلة الأشجعي فيمن تابعه من أشجع وكتبوا إلى حلفائهم من بني أسد فأقبل طليحة فيمن اتبعه من بني أسد وهما حليفان أسد وغطفان وكتب قريش إلى رجال من بني سليم فأقبل أبو الأعور السلمي فيمن اتبعه من بني سليم مددا لقريش فلما علم بذلك رسول الله ﷺ ضرب الخندق على المدينة وكان الذي أشار عليه بذلك سلمان الفارسي وكان أول مشهد شهده سلمان مع رسول الله ﷺ وهو يومئذ حر قال يا رسول الله إنا كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا علينا فعمل فيه رسول الله ﷺ والمسلمون حتى أحكموه.

فمما ظهر من دلائل النبوة في حفر الخندق ما رواه أبو عبد الله الحافظ بإسناده عن كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني قال حدثني أبي عن أبيه قال خط رسول الله ﷺ الخندق عام الأحزاب أربعين ذراعا بين عشرة فاختلف المهاجرون والأنصار في سلمان وكان رجلاً قوياً فقالت الأنصار سلمان منا وقالت المهاجرون سلمان منا فقال رسول الله ﷺ سلمان منا أهل البيت. قال عمرو بن عوف: فكنت أنا، وسلمان، وحذيفة بن اليمان، والنعمان بن مقرن، وستة من الأنصار، نقطع أربعين ذراعا. فحفرنا حتى إذا بلغنا الثرى، أخرج الله من بطن الخندق صخرة بيضاء مدورة فكسرت حديدنا، وشقت علينا، فقلنا: يا سلمان ارق إلى رسول الله ﷺ فأخبره عن الصخرة، فإما أن نعدل عنها فإن المعدل قريب، وإما أن يأمرنا فيه بأمره فإنا لا نحب أن نجاوز خطه -وهذا مما يدل على الانضباط- فرقى سلمان حتى أتى رسول الله ﷺ وهو مضروب عليه قبة، فقال: يا رسول الله! خرجت صخرة بيضاء من الخندق مدورة، فكسرت حديدنا، وشقت علينا، حتى ما يحك فيها قليل ولا كثير، فمرنا فيها بأمرك، فهبط رسول الله ﷺ مع سلمان في الخندق، وأخذ

المعول[1] وضرب به ضربة فلمعت منها برقة أضاءت ما بين لابتيها[2] -يعني لابتي المدينة- حتى لكأن مصباحا في جوف ليل مظلم، فكبر رسول الله ﷺ تكبيرة فتح، فكبر المسلمون، ثم ضرب ضربة أخرى فلمعت برقة أخرى، ثم ضرب به الثالثة فلمعت برقة أخرى.

فقال سلمان: بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما هذا الذي أرى؟! فقال ﷺ: أما الأولى فإن الله عز وجل فتح علي بها اليمن، وأما الثانية فإن الله فتح علي بها الشام والمغرب، وأما الثالثة فإن الله فتح علي بها المشرق. فاستبشر المسلمون بذلك وقالوا: الحمد لله موعد صادق. ثم قال ومما ظهر أيضا من آيات النبوة ما رواه أبو عبد الله الحافظ بالإسناد عن عبد الواحد بن أيمن المخزومي قال حدثني أيمن المخزومي قال سمعت جابر بن عبد الله قال كنا يوم الخندق نحفر الخندق فعرضت فيه كدية[3] وهي الجبل فقلنا يا رسول الله إن كدية عرضت فيه فقال رسول الله ﷺ: رشوا عليها ماء.ثم قام فأتاها وبطنه معصوب بحجر من الجوع فأخذ المعول أو المسحاة فسمى ثلاثاً ثم ضرب فعادت كثيباً أهيل فقلت له: ائذن لي يا رسول الله إلى المنزل ففعل فقلت للمرأة هل عندك من شيء فقالت عندي صاع من شعير وعناق[4] فطحنت الشعير وعجنته وذبحت العناق وسلختها وخليت بين المرأة وبين ذلك ثم أتيت إلى رسول الله ﷺ فجلست عنده ساعة ثم قلت: ائذن لي يا رسول الله ففعل فأتيت المرأة فإذا العجين واللحم قد أمكنا فرجعت إلى رسول الله ﷺ فقلت: إن عندنا طعيما لنا فقم يا رسول الله أنت ورجلان من أصحابك فقال وكم هو قلت صاع من شعير وعناق فقال للمسلمين جميعا قوموا إلى جابر فقاموا فلقيت من الحياء ما لا يعلمه إلا الله فقلت: جاء بالخلق على صاع شعير وعناق فدخلت على المرأة وقلت قد افتضحت جاءك رسول الله ﷺ بالخلق فقالت: هل كان سألك كم طعامك قلت: نعم فقالت الله ورسوله أعلم قد أخبرناه ما عندنا فكشفت عني غما شديدا فدخل رسول الله ﷺ فقال خذي ودعيني من اللحم فجعل رسول الله ﷺ يثرد ويفرق اللحم ثم يحم هذا ويحم هذا فما زال يقرب إلى الناس حتى شبعوا أجمعين ويعود التنور والقدر أملأ ما كانا ثم قال رسول الله ﷺ: كلي واهدي فلم نزل نأكل ونهدي قومنا أجمع أورده البخاري في الصحيح.

وَعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَنْقُلُ مَعَنَا التُّرَابَ يَوْمَ الأَحْزَابِ وَ قَدْ وَارَى التُّرَابُ بِيَاضَ بَطْنِهِ وَهُوَ يَقُولُ:

---

(١) المعول: الفأس العظيمة التي ينقر بها الصخر.

(٢) اللابة: الحرة وهي الأرض ذات الحجارة السود التي قد ألبستها لكثرتها، والمدينة المنورة ما بين حرتين عظيمتين.

(٣) الكدية: قطعة غليظة صلبة لا يعمل فيها الفأس.

(٤) العناق الأنثى من أولاد المعز قبل استكمال الحول.

لَاهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ لَمَا اهْتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا
فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا وَثَبِّتِ الأَقْدَامَ إِنْ لَاقَيْنَا
إِنَّ الأُولَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا

يَرْفَعُ بِهَا صَوْتَه.

رواه البخاري أيضا في الصحيح عن أبي الوليد عن شعبة عن أبي إسحاق عن البراء. قالوا ولما فرغ رسول الله ﷺ من الخندق أقبلت قريش حتى نزلت بين الجرف والغابة في عشرة آلاف من أحابيشهم ومن تابعهم من بني كنانة وأهل تهامة وأقبلت غطفان ومن تابعهم من أهل نجد حتى نزلوا إلى جانب أحد وخرج رسول الله ﷺ والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع في ثلاثة آلاف من المسلمين فضرب هناك عسكره والخندق بينه وبين القوم وأمر بالذراري والنساء فرفعوا في الآطام وخرج عدو الله حيي بن أخطب النضيري حتى أتى كعب بن أسد القرظي صاحب بني قريظة وكان قد وادع رسول الله ﷺ على قومه وعاهده على ذلك فلما سمع كعب صوت ابن أخطب أغلق دونه حصنه فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له فناداه يا كعب افتح لي فقال ويحك يا حيي إنك رجل مشئوم إني قد عاهدت محمدا ولست بناقض ما بينه وبيني ولم أر منه إلا وفاء وصدقا قال ويحك افتح لي أكلمك قال ما أنا بفاعل قال إن أغلقت دوني إلا على جشيشة تكره أن نأكل منها معك فأحفظ الرجل ففتح له فقال ويحك يا كعب جئتك بعز الدهر وببحر طام جئتك بقريش على سادتها وقادتها وبغطفان على سادتها وقادتها قد عاهدوني أن لا يبرحوا حتى يستأصلوا محمدا ومن معه فقال كعب جئتني والله بذل الدهر بجهام قد أهراق ماؤه برعد وببرق وليس فيه شيء فدعني ومحمدا وما أنا عليه فلم أر من محمد إلا صدقا ووفاء فلم يزل حيي بكعب يفتل منه في الذروة والغارب حتى سمح له على أن أعطاه عهدا وميثاقاً لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمدا أن أدخل معك في حصنك حتى يصيبني ما أصابك فنقض كعب عهده وبريء مما كان عليه فيما بينه وبين رسول الله ﷺ فلما انتهى الخبر إلى رسول الله ﷺ بعث سعد بن معاذ بن النعمان بن إمرئ القيس أحد بني عبد الأشهل وهو يومئذ سيد الأوس وسعد بن عبادة أحد بني ساعدة بن كعب بن الخزرج وهو يومئذ سيد الخزرج ومعهما عبد الله بن رواحة وخوات بن جبير فقال انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا فإن كان حقا فالحنوا لنا لحنا نعرفه ولا تفتوا أعضاد الناس وإن كانوا على الوفاء فاجهروا به للناس فخرجوا حتى أتوهم فوجدوهم على أخبث مما بلغهم عنهم قالوا لا عقد بيننا وبين محمد ولا عهد فشاتمهم سعد بن عبادة وشاتموه فقال سعد بن معاذ دع عنك مشاتمتهم فإن ما بيننا وبينهم أعظم من المشاتمة ثم أقبلوا إلى رسول الله ﷺ وقالوا

عضل والقارة[١] لغدر عضل والقارة بأصحاب رسول الله ﷺ خبيب بن عدي وأصحابه أصحاب الرجيع فقال رسول الله ﷺ الله أكبر أبشروا يا معشر المسلمين.

وعظم عند ذلك البلاء واشتد الخوف وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم حتى ظن المؤمنون كل ظن وظهر النفاق من بعض المنافقين فأقام رسول الله ﷺ وأقام المشركون عليه بضعا وعشرين ليلة لم يكن بينهم قتال إلا الرمي بالنبل إلا أن فوارس من قريش منهم عمرو بن عبد ود أخو بني عامر بن لؤي وعكرمة بن أبي جهل وضرار بن الخطاب وهبيرة بن أبي وهب ونوفل بن عبد الله قد تلبسوا للقتال وخرجوا على خيولهم حتى مروا بمنازل بني كنانة فقالوا تهيئوا للحرب يا بني كنانة فستعلمون اليوم من الفرسان ثم أقبلوا تعنق بهم خيولهم حتى وقفوا على الخندق فقالوا والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها ثم تيمموا مكانا ضيقا من الخندق فضربوا خيولهم فاقتحموا فجالت بهم في السبخة بين الخندق وسلع وخرج علي بن أبي طالب في نفر من المسلمين حتى أخذ منهم الثغرة التي منها اقتحموا وأقبلت الفرسان نحوهم وكان عمرو بن عبد ود فارس قريش وكان قد قاتل يوم بدر حتى ارتث وأثبته الجراح فلم يشهد أحدا.

فلما كان يوم الخندق خرج معلما ليرى مشهده وكان يعد بألف فارس وكان يسمى فارس يليل لأنه أقبل في ركب من قريش حتى إذا هو بيليل وهو واد قريب من بدر عرضت لهم بنو بكر في عدد فقال لأصحابه امضوا فمضوا فقام في وجوه بني بكر حتى منعهم من أن يصلوا إليه فعرف بذلك وكان اسم الموضع الذي حفر فيه الخندق المداد وكان أول من طفره عمرو وأصحابه فقيل في ذلك

عمرو بن عبد كان أول فارس جزع المداد وكان فارس يليل

وذكر ابن إسحاق أن عمرو بن عبد ود كان ينادي من يبارز فقام علي عليه السلام وهو مقنع في الحديد فقال أنا له يا نبي الله فقال إنه عمرو اجلس ونادى عمرو ألا رجل ويؤنبهم ويسبهم ويقول أين جنتكم التي تزعمون أن من قتل منكم دخلها فقام علي عليه السلام فقال أنا له يا رسول الله ثم نادى الثالثة فقال:

ولقد بححت من النداء بجمعكم هل من مبارز
ووقفت إذ جبن المشجع موقف البطل المناجز
إن السماحة والشجاعة في الفتى خير الغرائز

(١) عضل والقارة: قبيلتان من العرب، دخلا في الإسلام ثم غدرا، فكان إذا غدر أحد ضرب بهذا المثل.

فقام علي عليه السلام فقال يا رسول أنا فقال إنه عمرو فقال وإن كان عمرا فاستأذن رسول الله صلى الله عليه وآله فأذن له.

وفيما رواه لنا السيد أبو محمد الحسيني القائني عن الحاكم أبي القاسم الحسكاني بالإسناد عن عمرو بن ثابت عن أبيه عن جده عن حذيفة قال: فألبسه رسول الله صلى الله عليه وآله درعه ذات الفضول وأعطاه سيفه ذا الفقار وعممه السحاب على رأسه تسعة أكوار ثم قال له: تقدم. فقال لما ولى: اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ومن فوق رأسه ومن تحت قدميه. قال ابن إسحاق فمشى إليه وهو يقول:

لَا تَعْجَلَنَّ فَقَدْ أَتَاكَ مُجِيبُ صَوْتِكَ غَيْرَ عَاجِزِ
ذُو نِيَّةٍ وَبَصِيرَةٍ وَالصِّدْقُ مُنْجِي كُلِّ فَائِزِ
إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أُقِيمَ عَلَيْكَ نَائِحَةَ الجَنَائِزِ
مِنْ ضَرْبَةٍ نَجْلَاءَ يَبْقَى صَوْتُهَا بَعْدَ الهَزَاهِزِ

قال له عمرو: من أنت؟ قال عليه السلام: أنا علي. قال: ابن عبد مناف. فقال عليه السلام: أنا علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف. فقال: غيرك يا ابن أخي من أعمامك من هو أسن منك فإني أكره أن أهريق دمك. فقال عليه السلام: لكني والله ما أكره أن أهريق دمك فغضب ونزل وسل سيفه كأنه شعلة نار ثم أقبل نحو علي مغضبا فاستقبله علي بدرقته فضربه عمرو في الدرقة فقدها وأثبت فيها السيف وأصاب رأسه فشجه وضربه علي على حبل العاتق فسقط. وفي رواية حذيفة وتسيف علي رجليه بالسيف من أسفل فوقع على قفاه وثارت بينهما عجاجة فسمع علي يكبر فقال رسول الله صلى الله عليه وآله قتله والذي نفسي بيده فكان أول من ابتدر العجاج عمر بن الخطاب فإذا علي عليه السلام يمسح سيفه بدرع عمرو فكر عمر بن الخطاب. وقال: يا رسول الله قتله فجز علي رأسه وأقبل نحو رسول الله صلى الله عليه وآله ووجهه يتهلل. فقال عمر بن الخطاب: هلا استلبته درعه فإنه ليس للعرب درع خيرا منها فقال ضربته فاتقاني بسوأته فاستحييت من ابن عمي أن أستلبه.

قال حذيفة: فقال النبي صلى الله عليه وآله: **«أَبْشِرْ يَا عَلِيُّ فَلَوْ وُزِنَ اليَوْمَ عَمَلُكَ بِعَمَلِ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله لَرَجَحَ عَمَلُكَ بِعَمَلِهِمْ وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ بَيْتٌ مِنْ بُيُوتِ المُشْرِكِينَ إِلَّا وَقَدْ دَخَلَهُ وَهْنٌ بِقَتْلِ عَمْرٍو وَلَمْ يَبْقَ بَيْتٌ مِنْ بُيُوتِ المُسْلِمِينَ إِلَّا وَ قَدْ دَخَلَهُ عِزٌّ بِقَتْلِ عَمْرٍو»**[1].

(١) بحار الأنوار: ج٢٠، ص١٩٨.

وما بدلوا تبديلا

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (٢١) وَلَمَّا رَءَا الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (٢٢) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ[1] وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (٢٣) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٢٤)﴾.

هدى من الآيات:

بعد أن تعرض الدرس الماضي لصفات المنافقين يبين القرآن الحكيم في هذه الآيات صفات المؤمنين الصادقين عند الصعوبات والحروب، والصور المتقابلة في القرآن توضح بما فيه الكفاية الحقائق وبالخصوص في الحقل الاجتماعي.

فالمؤمنون -على خلاف ما كان عليه المنافقون من العصيان- يتبعون رسول الله ﷺ ويستجيبون لقيادته، فهو أسوة حسنة لهم في حياتهم بما جسده في حياته من صفات الخير، ولا ريب أن الاقتداء برسول الله ﷺ ليس عملا بسيطا، لأن الإنسان لا يستطيع أن يصبح تابعا للرسول، و مهتديا بهداه إلا إذا تجرد عن شهواته وحبه للدنيا، وإنما يتجرد عن حب الدنيا ذلك الذي يذكر الله كثيرا بذكر نعمه وعظمته وأسمائه، والشكر له دائما.

---

(١) قضى نحبه: النحب النذر، وقضى نحبه أي قُتل واستشهد في سبيل إنجاز عهده.

بينات من الآيات:

[٢١] يدعي بعض المنافقين أنهم قادة، وأن من صفات القائد في تصورهم أن لا يدخل المعركة ولا يضحي بنفسه، بل يجلس بعيدا عن الصراع ليصدر الأوامر فقط، لكن القرآن يؤكد بأن القيادة الحقيقية تتمثل في رسول الله ﷺ وأن حياته يجب أن تكون نموذجا لنا نقتدي به، والسبب أنه كان الأمثل في كل حقل فهو الأشجع والمقدام في الحروب، وصورة مناقضة للمنافق فهو يعمل أولاً ثم يأمر الناس، وكان الإمام علي عليه السلام المعروف بشجاعته وإقدامه يقول عنه: «**كُنَّا إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ وَلَقِيَ الْقَوْمُ الْقَوْمَ اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ الله ﷺ فَمَا يَكُونُ أَحَدٌ أَقْرَبَ إِلَى الْعَدُوِّ مِنْهُ**»[1].

وإذا قرر الحرب كان أول من يلبس لامتها، فبعد أن وضعت حرب الخندق أوزارها، وعادت قريش أدراجها منهزمة، عاد الرسول إلى بيته -وكان الوقت بعد الظهر- فوضع الحرب واستحم لصلاة العصر، وقبل الدخول فيها نزل عليه جبرائيل عليه السلام وقال له: يا محمد! وضعت لامة الحرب ونحن (أي الملائكة) لم نضعها؟!، فعرف النبي أنه يجب أن يبادر لحرب بني قريظة الذين ساعدوا كفار قريش في حرب الخندق، ونقضوا بذلك عهدهم مع الرسول ﷺ فسرعان ما لبس لامة حربه وقال للمسلمين: لا نصلي العصر إلا في بني قريظة، فمشى المسلمون إلى هناك، وحاصروا قلاعهم خمسة وعشرين يوما، إلى أن استسلموا وعاد المسلمون إلى المدينة، وهكذا كان الرسول هو السباق إلى الخيرات، كما كان القمة السامقة في كل فضيلة ومكرمة، فهو الذي يجب التأسي والاقتداء به لا المنافقين.

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ ولكن هل يتمكن من الاقتداء بالرسول كل أحد. كلا.. بل الذي ارتفع بإرادته وروحه وسلوكه عن حطام الدنيا، وتطلع إلى الآخرة.

﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ أما الذي يكون هدفه شهواته أو زينة الدنيا، فإنه لا يستطيع الاقتداء بالرسول ﷺ الذي أخلص نفسه ووجهه لله، وزهد في درجات هذه الدنيا الدنية، وزخرفها وزبرجها.

أما الصفة الأخرى لمن يتبع الرسول فهي: تذكر غايته الأساسية وهي رضوان الله، والاستقامة عليها، وحين يعرف الإنسان وجهته يعرف -بوضوح- سائر أهدافه، وتتوضح له استراتيجياته ومعالم سلوكه، إذ يجد المعيار السليم لمعرفة كل ذلك. وهكذا يعطي ذكر الله ضمانة للإنسان حتى لا ينحرف عن أهدافه التي تجمعها كلمة واحدة هي رضوان الله

(١) بحار الأنوار: ج١٦، ص٢٣٢.

﴿ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾

[٢٢] و بعد ذلك يثني السياق على أهم صفات المؤمنين، والتي تناقض صفات المنافقين وأهمها:

أولاً: أنهم لا تكسرهم الأزمات، ولا ينهزمون أمام الصعوبات مهما كانت، فهم يعرفون بأن ذلك كله من طبيعة طريقهم (ذي الشوكة) فكلما رأوا المصاعب تتزاحم في طريقهم كلما ازدادوا يقينا بصحة طريقهم، وتسليما لربهم وقيادتهم.

ولعل المؤمن يبحث عن ساعة حرجة يجرب فيها نفسه (إيمانه وإرادته) وبالتالي يظهر فيها كفاءاته الرسالية الحقيقية لوجه الله ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ﴾ لم ينهزموا كما فعل المنافقون، بل ازدادوا يقينا بخطهم ﴿قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾.

ومن هذا نستفيد أن التربية الرسالية السليمة هي التي تصارح الإنسان بطبيعة المسيرة، وأنها محفوفة بالمخاطر على صعيد الدنيا، مما يساعد الفرد على الاستقامة حين الأزمات والمصاعب، لأنها حينذاك لن تكون مفاجئة له، بل سيعتبرها أمرا طبيعيا وقد استعد لها فهي مما تزيده تثبيتا على طريقه، لهذا كان المؤمنون يزدادون إصرارا على مواصلة الدرب برغم الواقع الصعب حيث كان العدو قد جمع لهم، وجاء لحربهم بكل قوته، وبرغم الحرب النفسية التي كان يشنها المنافقون ضدهم. وحين يرى المؤمنون الصعوبات والأزمات وقد وعدهم الله ورسوله بها يتيقنون بالفرج لأنهم وعدوا به أيضا، وتحقق الوعد الأول يدل على تحقق الآخر ﴿قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ ردا على المنافقين، وإخمادا لأهواء النفس.

ألم يعدهم الرب سبحانه بالمواجهة التي تنتهي بالنصر المؤزر، إن أعظم عامل للصمود في الظروف الصعبة التنبؤ بها، والاستعداد النفسي مسبقا لمواجهتها، وها هم المؤمنون في هذا المستوى، وكما النار تفتتن الذهب، وكما المبرد يلمع زبر الحديد، كذلك مواجهة المشاكل تستخرج معدن المؤمن الصافي، وتجلي نفسه من أدرانها، هكذا زادت الحرب مع الأحزاب إيمانهم وتسليمهم ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ تجمع الأحزاب، وتخذيل المنافقين وتوهينهم ﴿إِلَّآ إِيمَٰنًا﴾ بالله، ورسالاته، والصراط المستقيم الذي هم عليه ﴿وَتَسْلِيمًا﴾ لربهم وقيادتهم، وحينما ندرس حياة الشعوب نجدها نوعين: فبعضها حينما يتعرض للضغوط والتحديات ينهار، والبعض الآخر -على العكس تماماً- يزداد قوة وثباتا، وتحديا، ويعود هذا الاختلاف لنوعية الثقافة التي يؤمن بها ويمارسها كلا النوعين. فبينما يمارس النوع الأول ثقافة التخاذل، يمارس النوع الثاني ثقافة التحدي، والمؤمنون الحقيقيون هم الذين يتمسكون بثقافة التحدي، فإذا بهم كلما تراكمت

العقبات والمشاكل أمامهم كلما فجروا طاقاتهم، وسدوا ثغراتهم، واستعدوا لمواجهتها، كما إنهم عند المصاعب يكتشفون أنفسهم، والطاقات التي أودعها الله فيهم، ويستثمرون كل ذلك في سبيل الانتصار على الأزمات والتحديات.

[٢٣] **ثانياً**: إنهم لا يفكرون في أنفسهم كأفراد، إنما كقيم وكجماعة وكأمة، فلا يفكر أحدهم في ذاته.

إنه ربما يقتل في المعركة، إنما يقول: إذا قتلت فسوف يأتي الآخرون ويتابعون مسيرتي (فالمهم عنده أن تنتصر القيم، لا أن ينتصر هو نفسه) وإذا بقيت فسوف أرث الشهداء الذين أريقت دماؤهم في هذا الطريق، وأتابع دربهم، وأفي بحقوقهم، فأنا مسؤول أمام الله عما أرثه من دماء الشهداء. فشعور المؤمن إذن شعور اجتماعي لا فردي.

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ وصار شهيدا في سبيل الله، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ لقاء الله ويستعد له، فالمؤمنون متماسكون كالبنيان المرصوص، بعضهم يمضي ويبقى البعض الآخر ليكمل مسيرته، دون أن يفكر أحدهم في نفسه وشهواته، ويقول لماذا أنا الذي أقتل وليس فلان؟ ولماذا أنا الذي أقتل ويبقى فلان يتنعم بالنصر والمكاسب؟ كلا.. فالقضية قضية صراع مستمر كل واحد يؤدي دورا معينا فيه، والمجموع الكلي هو المهم عندهم جميعا. وهذا نابع من اعتقاد المؤمنين بأنهم باعوا أنفسهم لله، فهم لا يملكونها، ولا يحق لهم أن يفكروا في مصالحها، إنما يتصرف فيها ربهم وقائدهم حسبما تقتضيه القيم الإلهية، فهم مسلمون الأمر لله ولقيادتهم، وهذا الإيمان هو الذي يبعث فيهم الاستقامة والصمود في الطريق ﴿وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾.

[٢٤] وبعد هذا العرض الصريح والمختصر لجانب من صفات المنافقين وبعدهم المؤمنين، يشير السياق القرآني إشارة إلى جزاء كل من المؤمنين والمنافقين إذ يقول: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ ولكن ليس بانتمائهم الاجتماعي الظاهر لحزب المؤمنين، بل بعملهم الذي يتجانس مع تسميتهم وانتمائهم الحقيقي ﴿بِصِدْقِهِمْ﴾ وتعالى الله أن تختلط عليه الأوراق، بلى؛ نحن البشر قد تغرنا المظاهر، فنسمي أنفسنا أو الآخرين بالصادقين، لمجرد حضورهم في تجمع مؤمن، ولكن الله وهو عالم الغيب ورب العالمين لا يعزب عنه مثل ذلك.

﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ﴾ بنفاقهم في كلامهم وعملهم، ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ إذا صححوا مسيرتهم، وعادوا عن النفاق إلى الإيمان، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ فهو يقبل التوبة الصادقة، لأنه لم يخلق الناس ليعذبهم، بل ليرحمهم كما في الآيات والأحاديث.

موقف القيادة الرسالية من الأحداث والأشخاص

﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ۚ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (٢٥) وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ (١) مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ (٢) وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢٧) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ (٣) وَأُسَرِّحْكُنَّ (٤) سَرَاحًا جَمِيلًا (٢٨) وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠) ۞ وَمَنْ يَقْنُتْ (٥) مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (٣١) يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ ۚ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ (٦) بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٣٢)﴾.

---

(١) ظاهروهم: المظاهرة المعاونة.

(٢) صياصيهم: حصونهم.

(٣) أمتعكن: أعطيكن متعة الطلاق.

(٤) أسرحكن: السراح الطلاق من غير خصومة.

(٥) يقنت: القنوت الطاعة وقيل معناه المواظبة.

(٦) فلا تخضعن: فلا ترفعن القول، ولا تلن الكلام للرجال، ولا تخاطبن الأجانب مخاطبة تؤدي إلى طمعهم فيكن.

هدى من الآيات:

نجد في هذا الدرس مسألتين هامتين هما:

الأولى: تتمة لما مر في الدروس السابقة حول قصة الأحزاب، وكيف أن ربنا نصر المؤمنين، ورد الكافرين يجرون أذيال الهزيمة و الفشل إلى بلادهم مكرهين، وقد خسروا بطلهم عمرو بن ود.

الثانية: حديث حول نساء النبي ﷺ.

وهنا يطرح **السؤال** التالي: ما هي العلاقة بين الفكرتين في السياق القرآني؟ أي ما هي العلاقة بين انتصار المسلمين بإذن الله في الحرب، وبين الوصايا و التعاليم الإلهية لنساء النبي في هذه السورة؟.

والجواب: يبدو أن محور سورة الأحزاب هو القيادة الرسالية في علاقاتها مع الأشخاص والأحداث التي تدور حولها، والآيات تؤكد بأنها مستقيمة على رسالة ربها، لا تلويها الأحداث المتطورة -بما تحمله من ضغوط وإغراءات- ولا يؤثر في مسيرتها الأشخاص الذين يحوطونها لأنها تتبع هدى الله فتحدد موقفها من الأحداث، وتستجيب لما يتفق مع هذا الهدى إذا اقترحه الآخرون، وترفض ما سواه مهما كان صاحب هذا الرأي قريبا أو معتمدا عندها، ومهما كانت الظروف.

ومن أبرز وأهم الحوادث في حياة القيادات هي الحرب، والقيادة الرسالية التي تجسدت يومها -في حرب الأحزاب- في أفضل وأكمل صورها في الرسول الأعظم محمد ﷺ كالجبل الأشم، لا تزلزلها العواصف، بل تتحدى متغيرات الزمان والحرب وفرار المنافقين وتعويقهم، و بالذات هزيمتهم في حرب الأحزاب التي هي أقسى وأشد الحروب خطورة على رسول الله وعلى الأمة الإسلامية آنذاك، من الناحية العسكرية، فالرسالة في أول انطلاقتها، والقيادة كما الأمة في بداية نشأتها وتكونها، وقد جمع الكفار فلولهم من كل حدب وصوب.

صحيح أن غزوة أحد كانت أعمق أثرا من الناحية النفسية على رسول الله ﷺ حيث ترك عمه حمزة سيد الشهداء مجندلا، تلوك كبده هند زوج أبي سفيان، كما إن ثلة من أصحابه الخلص لقوا مصرعهم فيها، إلا إن حرب الأحزاب كانت الأشد والأقوى عسكريا، وكان نصر الله للمسلمين في هذه الحرب دليلا واضحا على نصرة الله لعباده المؤمنين، كما إن استقامة القيادة الرسالية المتجسدة في شخص الرسول ﷺ يومذاك واستقامة من يحيطون به من صحبه الخلص، دليل على النموذج الأرقى للقيادة التي يجب أن تقاوم الحوادث المتغيرة، والظروف

الصعبة، وعموم ضغوط الحياة، فعظمة القيادة ومسؤوليتها تتجلى في استقامتها ومقاومتها للنكسات والظروف السلبية التي تعصف بالأمة وبالتجمع الذي تقوده.

ثم إن أقرب الناس إلى الإنسان وأمضاهم أثرا في شخصيته وقراراته -إذا كان مائعا ضعيف الإرادة- هي زوجه، ذلك أن زوجه حينئذ هي التي تصنع شخصيته، وبالذات إذا تعلق بها قلبه، وبالزواج ترسم خريطة الحياة المستقبلية للزوجين، فالزوجة من الناحية النفسية في غالب الأحيان صورة أخرى للزوج بعد فترة من الزواج، كما أن الزوج في أكثر الأحيان نسخة أخرى لزوجته ولهذا قيل: وراء كل عظيم امرأة، فالصورة الأخرى غير المرسومة ظاهرا لأكثر الرجال، والسطر غير المقروء في حياتهم هي زوجاتهم.

ولكن رسول الله ﷺ أنموذج القيادة الرسالية لا يتأثر أبدا بزوجاته، بل يضحي بهن في لحظة واحدة لو أمره الله بذلك، أو تعارض بقاؤه معهن مع أهداف رسالته، والآية (٢٧) ربما جاءت حينما كان الرسول ﷺ متزوجا بتسع زوجات، فأمره حينئذ بتخييرهن بين البقاء معه وتحمل الأذى والهجرة والفقر، أو الطلاق بالمعروف والإحسان، وبالفعل خيرهن ﷺ لأن بعضهن كانت تقول: لو يطلقنا رسول الله لوجدنا من يتزوجنا من أهلنا، ويخرجنا من هذا العيش المشين، فقبلت إحداهن الطلاق، فطلقها الرسول، ولكنها أصبحت ذليلة في قومها، فقيرة إلى أن ماتت، مريضة على أسوأ حال، دون أن يتزوجها أحد.

وكـان هذا التصرف من الرسول ﷺ معقولا، فالتي تختار الرسول زوجا لها -وهو الذي جاء مغيرا للعالم، وصانعا لأمة حسب وحي الله، ومؤسسا لتاريخ حضارتها- لابد أن تتحمل الصعوبات وتستوعب طموحاته وممارساته، وتكيف حياتها بما يتناسب مع كل ذلك.

إذن تتلخص العلاقة بين الفكرتين في محورية رسول الله كقائد رسالي للأمة، لا يتأثر بالأحداث و الظروف الصعبة كالحروب مثل حرب الأحزاب وهي أشدها، ولا بالأشخاص كالمنافقين أو زوجاته، وهنا نذكر بقوله تعالى:﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب: ٢١]، فالرسول هو القيادة التي يجب علينا الاقتداء بها إذا كنا في موقع القيادة، أو البحث عمن يكون امتدادا لها ثم التسليم له.

بينات من الآيات:

[٢٥] اجتمع الأحزاب وجاؤوا بخيرة فرسانهم، وكان ذلك لهدفين:

١ - التشفي من الإسلام والرسول والمسلمين، من الإسلام باعتباره يناقض أفكارهم

ومعتقداتهم، ومن الرسول لأنه زعيم الإسلام، والقيادة المضادة لهم، ومن المسلمين لخروج أكثرهم عن طاعتهم، ولما ألحقوا بهم من هزائم في غزوات سابقة كغزوة بدر.

٢- الانتصار وجمع الغنائم من المسلمين، سواءً كانت الغنائم أموالا أو أناسا يسترقونهم، وعموما فإن المشركين كانوا يشعرون بأن المدينة -بعد هجرة الرسول إليها- خرجت من تحت سيطرتهم، فلعلهم كانوا يرجون التمكن منها وإعادتها من جديد لنفوذهم.

ولكن الله أنعم على المسلمين حينما أفشل خطط العدو، فلم يصل إلى أهدافه من جهة، ومن جهة أخرى حينما نصر المؤمنين دون قتال أو خسائر وتضحيات.

﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ دون أن يحققوا أهدافهم منهزمين ﴿بِغَيۡظِهِمۡ﴾ وحقدهم الذي لم يشفوه، ومن دون غنائم ﴿لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا﴾ قويا إذ رد الكفار منهزمين مع كثرتهم، وعزيزا إذ نصر المؤمنين، فلو لم ينصرهم في حرب الأحزاب لصاروا أذلة أمام الكفار، ولزالت هيبتهم.

[٢٦] ومن فوائد حرب الأحزاب أنها كشفت أعداء الرسالة الحقيقيين، وجرت المسلمين إلى حرب كان الانتصار حليفا لهم فيها مع بني قريظة.

﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم﴾ أي أعانوا الكفار على المسلمين ﴿مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ وهم يهود بني قريظة ﴿مِن صَيَاصِيهِمۡ﴾ حصونهم وقلاعهم ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ﴾.

وكان الرعب من الآيات التي نصر بها الرسول ﷺ في حروبه ضد الأعداء، ولا ريب أن الهزيمة المعنوية والنفسية تنتهي إلى الهزيمة العسكرية، فالرسول يصبح الحاكم المطلق للجزيرة، يهابه الجميع، ويخافون سطوته لأنه يعبئ جيشا لمحاربة الروم -الدولة العظمى في ذلك العصر- وفي غزوة أحد حينما ينهزم المسلمون عسكريا، ينزل الوحي على النبي ﷺ بأن يجمع المجروحين من جيشه، ويلاحق العدو، فإذا بهم يحسبونه جمع جيشه من جديد لحربهم، فينهزمون بعد الانتصار بسبب الرعب.

وهكذا كان مصير بني قريظة الذين زعموا بأن الرسول ضعيف لأنه لم يحارب قريشاً وأحزابها، ولكنهم سرعان ما وجدوا المسلمين يحاصرون حصونهم، فانهزموا وكانت هزيمتهم بعامل الرعب لا بالسلاح.

﴿فَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ وَتَأۡسِرُونَ فَرِيقٗا﴾ وذلك في قصة مفصلة سنتعرض لذكرها في عقب الآية القادمة.

[٢٧] ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ﴾ أرض اليهود ﴿وَدِيَارَهُمْ﴾ الحصون والبيوت ﴿وَأَمْوَالَهُمْ﴾ إشارة إلى الممتلكات المادية التي غنمها المسلمون منهم: ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا﴾ بالرجال والخيل -تعبيرا عن الحرب- إنما أخذها المسلمون بالحصار.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ وهذا مما يعزز ثقة المؤمنين بربهم، وهو شعورهم بأنه صاحب الإرادة المطلقة، ولا ريب أن الذي يحس بأنه مدعوم من قوة لا متناهية سوف يزداد تسليما لها، واطمئنانا لوعدها، واستقامة على هداها.

غزوة بني قريظة

روى الزهري عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه قال لما انصرف النبي ﷺ مع المسلمين عن الخندق ووضع عنه اللأمة واغتسل واستحم تبدى له جبرئيل فقال عذيرك من محارب ألا أراك قد وضعت عنك اللامة وما وضعناها بعد فوثب رسول الله ﷺ فزعا فعزم على الناس أن لا يصلوا صلاة العصر حتى يأتوا قريظة فلبس الناس السلاح فلم يأتوا بني قريظة حتى غربت الشمس واختصم الناس فقال بعضهم إن رسول الله ﷺ عزم علينا أن لا نصلي حتى نأتي قريظة وإنما نحن في عزمة رسول الله ﷺ فليس علينا إثم وصلى طائفة من الناس احتسابا وتركت طائفة منهم الصلاة حتى غربت الشمس فصلوها حين جاءوا من بني قريظة احتسابا فلم يعنف رسول الله ﷺ واحدا من الفريقين.

وذكر عروة أنه بعث علي بن أبي طالب عليه السلام على المقدم ودفع إليه اللواء وأمره أن ينطلق حتى يقف بهم على حصن بني قريظة ففعل وخرج رسول الله ﷺ على آثارهم فمر على مجلس من أنصار في بني غنم ينتظرون رسول الله ﷺ فزعموا أنه قال مر بكم الفارس آنفا فقالوا مر بنا دحية الكلبي على بغلة شهباء تحته قطيفة ديباج فقال رسول الله ﷺ ليس ذلك بدحية ولكنه جبرئيل عليه السلام أرسل إلى بني قريظة ليزلزلهم ويقذف في قلوبهم الرعب قالوا وسار علي عليه السلام حتى إذا دنا من الحصن سمع منهم مقالة قبيحة لرسول الله ﷺ فرجع حتى لقي رسول الله ﷺ بالطريق فقال يا رسول الله لا عليك أن تدنو من هؤلاء الأخابث قال أظنك سمعت لي منهم أذى فقال نعم يا رسول الله فقال: لو قد رأوني لم يقولوا من ذلك شيئا فلما دنا رسول الله ﷺ من حصنهم قال يا إخوة القردة والخنازير هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته قالوا يا أبا القاسم ما كنت جهولا وحاصرهم رسول الله ﷺ خمسا وعشرين ليلة حتى أجهدهم الحصار وقذف الله في قلوبهم الرعب وكان حيي بن أخطب دخل مع بني قريظة في حصنهم حين رجعت قريش وغطفان فلما أيقنوا أن رسول الله ﷺ غير منصرف عنهم حتى

يناجز قال كعب بن أسد يا معشر اليهود قد نزل بكم من الأمر ما ترون وإني عارض عليكم خلالا ثلاثا فخيروا أيها شئتم قالوا ما هن قال نبايع هذا الرجل ونصدقه فو الله لقد تبين لكم أنه نبي مرسل وأنه الذي تجدونه في كتابكم فتأمنوا على دمائكم وأموالكم ونسائكم فقالوا لا نفارق حكم التوراة أبدا ولا نستبدل به غيره قال فإذا أبيتم على هذا فهلموا فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد رجالا مصلتين بالسيوف لم نترك وراءنا ثقلا يهمنا حتى يحكم الله بيننا وبين محمد فإن نهلك لم نترك وراءنا نسلا يهمنا وإن نظهر لنجدن النساء والأبناء فقالوا نقتل هؤلاء المساكين فلا خير في العيش بعدهم قال فإذا أبيتم علي هذه فإن الليلة ليلة السبت وعسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنوا فيها فانزلوا فلعلنا نصيب منهم غرة فقالوا نفسد سبتنا ونحدث فيها ما أحدث من كان قبلنا فأصابهم ما قد علمت من المسخ فقال ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازما.

قال الزهري وقال رسول الله ﷺ حين سألوه أن يحكم فيهم رجلا اختاروا من شئتم من أصحابي فاختاروا سعد بن معاذ فرضي بذلك رسول الله ﷺ ونزلوا على حكم سعد بن معاذ فأمر رسول الله ﷺ بسلاحهم فجعل في قبة وأمر بهم فكتفوا وأوثقوا وجعلوا في دار أسامة وبعث رسول الله ﷺ إلى سعد بن معاذ فجيء به فحكم فيهم بأن يقتل مقاتليهم ويسبي ذراريهم ونساءهم ويغنم أموالهم وأن عقارهم للمهاجرين دون الأنصار وقال للأنصار إنكم ذوو عقار وليس للمهاجرين عقار فكبر رسول الله ﷺ وقال لسعد لقد حكمت فيهم بحكم الله عز وجل. وفي بعض الروايات لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة. وأرقعة جمع رقيع اسم سماء الدنيا. فقتل رسول الله ﷺ مقاتليهم وكانوا فيما زعموا ستمائة مقاتل وقيل قتل منهم أربعمائة وخمسين رجلا وسبى سبعمائة وخمسين. وروي أنهم قالوا لكعب بن أسد وهم يذهب بهم إلى رسول الله ﷺ أرسالا يا كعب ما ترى يصنع بنا فقال كعب أ في كل موطن تقولون ألا ترون أن الداعي لا ينزع ومن يذهب منكم لا يرجع هو والله القتل. وأتي بيحيى بن أخطب عدو الله عليه حلة فاختية قد سفقها عليه من كل ناحية كموضع الأنملة لئلا يسلبها مجموعة يداه إلى عنقه بحبل فلما بصر برسول الله ﷺ فقال أما والله ما لمت نفسي على عداوتك ولكنه من يخذل الله يخذل ثم قال أيها الناس إنه لا بأس بأمر الله كتاب الله وقدره وملحمة كتبت على بني إسرائيل ثم جلس فضرب عنقه ثم قسم رسول الله ﷺ نساءهم وأبناءهم على المسلمين وبعث سبايا منهم إلى نجد مع سعد بن زيد الأنصاري فابتاع بهم خيلا وسلاحا. قال فلما انقضى شأن بني قريظة انفجر جرح سعد بن معاذ فرجعه رسول الله ﷺ إلى خيمته التي ضربت عليه في المسجد.

وروي عن جابر قال جاء جبرئيل إلى رسول الله ﷺ فقال من هذا العبد الصالح الذي مات

فتحت له أبواب السماء وتحرك له العرش فخرج رسول الله ﷺ فإذا سعد بن معاذ قد قبض(١).

تعليق: لقد قتل بسبب حكم سعد بن معاذ ما بين (٤٥٠ و٦٠٠) مقاتل من بني قريظة، مع أن الإسلام حساس في موضع القتل، فهو يعتبر من يقتل نفسا واحدة كأنما يقتل الناس جميعا ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ [المائدة: ٣٢]، مما يجعل هذا الحكم في ظاهره حكما جائرا في حقهم، أما حينما نعود إلى الواقع فإننا نكتشف صواب هذا الحكم حتى بالقياس إلى عادات المجتمع آنذاك. فالخيانة التي ارتكبها بنو قريظة بنقضهم العهد مع النبي ﷺ في ساعة الشدة، عندما أعانوا الكفار والمشركين عليه وعلى الأمة تستحق ذلك في حكم الشرع، وفي منطق المجتمع الذي يرفض الخيانة بشتى صورها، وفي كل الظروف.

فمع أن الحروب والغارات كانت سمة للعرب إلا إن الوفاء بالعهد، والالتزام بالمعاهدات، بل والدفاع عن الحلفاء أمر مقدس عندهم، ولأن بني قريظة لم يدافعوا عن رسول الله، بل وحاربوه مع سائر الأحزاب فإنهم استحقوا ذلك، وهذا أمر طبيعي تحكم به حتى التوراة.

ثم إن سعد بن معاذ الذي جرح بسهم في جبهته، في معركة الأحزاب واستشهد بعد حادثة بني قريظة كان صورة للإنسان الذي تأسى برسول الله ﷺ فهو ممن استجاب لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، وهو أيضا من المعنيين بقوله تعالى: ﴿صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

[٢٨] و من هذه الآية ينتهي السياق إلى المسألة الثانية التي تدور حول علاقة النبي ﷺ بأزواجه ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ فإن هذا لا يتفق مع أهداف النبي في الدنيا، ولا تطلعاته في الحياة.

ولعلنا نستلهم من هذه الآية أن المؤمن المجاهد الذي يريد التأسي برسول الله في كل شؤونه، ويسعى لتطبيق قوله سبحانه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الأحزاب:٢١]. أن عليه هو الآخر أن يتحرر من ضغط زوجته ولا يخضع لها إذا تحولت إلى عقبة في طريق الجهاد وحتى لو بلغ الأمر به إلى تهديدها بالطلاق يفعل ذلك ابتغاء مرضاة ربه، كما أمر الله تعالى رسوله المصطفى أن يقول لأزواجه اللاتي يردن الحياة

(١) بحار الأنوار: ج٢٠، ص٢٠٩.

الدنيا وزينتها: ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ﴾ من المستحب للمؤمن حينما يفارق زوجته أو صديقه أن تكون خاتمة المطاف طيبة حسنة، فيعطي للطرف الآخر هدية أو ما أشبه، وقد يستفاد من المتاع هنا نصف المهر إذا لم يدخل بالزوجة، وكله إذا دخل بها.

﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ أي طلاقا حسنا، بتفاهم من دون شجار، لأن هناك من الأزواج من يفترقون بعد العراك والكلام القبيح.

[٢٩] أما الخيار الآخر فهو بقاء العلاقة مع النبي بشرط أن تكون أهداف هذه العلاقة هي:

١- مرضاة الله وإن كانت مخالفة لما تميل له النفس ﴿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ﴾.

٢- التسليم للرسول ﴿وَرَسُولَهُ﴾ والذي يريد الرسول هو الذي يسلم لقيادته، وينتمي لتجمعه، ويحبه بقلبه انتماء سياسيا واجتماعيا وقلبيا، ولا يتحقق هذا الانتماء الشامل من دون التسليم إلى من يمثل الرسول في المجتمع بقيادته وسلوكه.

٣- حب الآخرة ﴿وَالدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ من طبيعة الإنسان أنه يعيش ضغثا من الدنيا وضغثا من الآخرة، وعلى هذا الأساس يجب أن تكون الأولوية في حياة الإنسان للدار الآخرة ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾[القصص: ٧٧].

وعموما فإن من يريد الله والرسول واليوم الآخر هو الذي يعمل من أجل ذلك، وهذه الحقيقة تؤكدها الآية الكريمة: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء:١٩]، وفي هذه الآية يؤكده قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ إذن فالانتساب للرسول بمجرد لقلقة اللسان وقبله الإيمان بالله واليوم الآخر وحده من دون السعي والعمل بما يتفق مع ذلك لا يكفي، إنما العمل هو الذي يقرب الإنسان أو يبعده من ربه، والله يقول: ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ﴾ [آل عمران: ٦٨]، وأولى الناس بالرسول، الذين يتأسون به، وليس قرابته بالنسب أو السبب، وما نجده في الروايات من تعظيم لمنزلة فاطمة عليها السلام ليس لقرابتها من الرسول إنما لاقتدائها به، وكونها نسخة أخرى من حياته صلى الله عليه وآله ولذلك أصبحت سيدة نساء العالمين.

[٣٠] ثم يتوجه النداء من الله مباشرة لنساء النبي: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴾ واضحة، مورست بإرادة تامة، ومن دون أسباب قاهرة، ولم تعقبها توبة ﴿يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾؛ وذلك لأنها سوف تصبح قدوة سيئة للأخريات، ولأنها

ترتبط بالرسول فقد يمس انحرافها بسمعته في المجتمع، كما يفترض في من يعيش بين يدي الرسول أن يكون مطيعا لا عاصيا أو منحرفا، فقد يرتكب الإنسان المعصية وهو يعيش في محيط من الانحراف، ولكن ما هو عذر العاصي في محيط كله يدعو للصلاح والطاعة؟!.

ثم يؤكد القرآن أن لا نتصور بأن انتسابنا للأولياء بأي شكل -غير العمل الصالح والتأسي بهم- يمكنه أن يخلصنا من النار، فإذا عملنا المعصية ثقل على الله أو عز عليه -تعالى عما يشركون- أن يعذبنا. كلا.. فالجميع عنده سواء، لا يميز بينهم سوى العمل الصالح: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾

[٣١] ثم من الجانب الآخر يضاعف الله العمل الصالح لنساء النبي ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ﴾ تسلم وتخضع ﴿لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ ولا تخرج عن طاعتهما ﴿وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ ترجمة خارجية لذلك التسليم، إذ لا يكفي خضوع القلب، بل لابد من تسليم جوارح الإنسان جميعها، والتي تعمل من نساء النبي ذلك ﴿نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾.

ولهذه الآية تفسيران:

الأول: أن المقصود من المرتين هو مضاعفة الجزاء، وهو أمر طبيعي، لأن السلوك الحسن لزوجات الرسول يصيرهن قدوات حسنة للآخرين وفي الحديث عن أبي جعفر عليه السلام قال: **«أَيُّمَا عَبْدٍ مِنْ عِبَادِ الله سَنَّ سُنَّةَ هُدًى كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِذَلِكَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْقَصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ وأَيُّمَا عَبْدٍ مِنْ عِبَادِ الله سَنَّ سُنَّةَ ضَلَالٍ كَانَ عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْقَصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»**[1].

الثاني: إضافة إلى ذلك يقصد بالمرتين الدنيا والآخرة، فأما في الدنيا فالجزاء برفع الله شأنهم بين الناس، وأما في الآخرة فما تؤكده عجز الآية: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾

[٣٢] ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ﴾ لان الله سيضاعف لكن الجزاء حسنا كان أو سيئا، والسياق يشير إلى أن هذه المفارقة ليست نتيجة للتفوق العنصري الذاتي، إنما لارتباطهن المباشر برسول الله صلى الله عليه وآله ولهذا حرص الإسلام على نقاء سمعتهن وطهارة سلوكهن الاجتماعي، ومن هذا المنطلق حدد الله أسلوب الكلام الذي ينبغي أن تتعاطاه نساء النبي مع أبناء المجتمع إذ قال: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ يجب أن يكون حديث المرأة المسلمة وبالذات نساء الرسول مع الجنس الآخر جادا رصينا، وخاليا من الدلال والتملق، حتى لا يجر هذا الأسلوب إلى علاقات غير مشروعة مع الآخرين، حفاظا

(١) وسائل الشيعة: ج١٦، ص ١٧٣.

على عفتها، وسلامة للأسرة والمجتمع المسلم. هذا من الناحية الاجتماعية؛ وللموضوع وجهة سياسية إذا تحدد في زوجة القيادة الرسالية أو غيرها مما يشكل خطرا على أمن الأمة ومسيرتها، لأن الآخرين من المنافقين -وعموم الأعداء- أصحاب الأطماع السياسية، يبحثون عن ثغرة ينفذون منها للقيادة ليحتووها، أو يؤثروا على قراراتها، وقد تكون هذه الثغرة هي زوج القيادة لو ضعفت وخضعت أمام الآخرين.

أما عن محتوى التعامل من قبل نساء النبي فيجب أن يكون متناسبا مع موقعهن، ومرضيا (معروفا) عند الرسول، وليس مخالفا له.

﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ وهكذا يجب أن يكون كلام زوجة الرسول ﷺ ومن يتنسب إلى القيادة متوافقا مع مواقفها وأسلوبها، إذ يجب أن يعرفوا بأنهم لا يمثلون أنفسهم إنما يمثلون القيادة بانتمائهم إليها، ولأنها يجب أن تكون جدية فلابد أن يكون كلام المنتمين جديا أيضا.

ولا تعني الجدية من قريب أو بعيد القول الخشن!. كلا.. وهذا درس يهم من يتسنم عُرى القيادة.

ذلك أن من مشاكل القيادات والتي تكون حسنة السلوك غالبا أن الحاشية (البطانة) تكون خلافا لذلك. لذا نستفيد عظتين حيويتين للقيادة والبطانة؛ فأما الحواشي فعليهم أن يتقوا الله لأن خطأهم يكون بعشرة كما صوابهم، وأما القيادات فيجب أن تكون حذرة من التأثر السلبي بالبطانة.

ولهذا الشطر من الآية الكريمة تفسير اجتماعي يهم المرأة وهو: أنه يجب على المرأة بأن تقتصر في حديثها مع الرجال عند وجود المبرر السائغ عقلائيا بما هو متعارف اجتماعيا وعقلائيا بكفايته، وهذا ما تؤكد عليه رواياتنا، وما يستفيده معظم الفقهاء منها.

إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت

﴿ وَقَرْنَ[1] فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ[2] أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣) وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا[3] خَبِيرًا (٣٤) إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٣٥) ﴾.

هدى من الآيات:

القران كتاب الله المحيط علماً بكل شيء، ولذلك نرى بعضه يصدق بعضاً، ومثله مثل هرم يبدأ بنقطة مركزة (أي التوحيد) ثم لا يزال يتوسع حتى تشمل قواعده رحاب العالمين، وهكذا تجد المثل العليا النابعة من التوحيد هي الحاكمة في شئون أقرب الناس إلى النبي ﷺ وهم نساؤه حيث إن عليهن المزيد من المسئولية بقربهم من الرسول -حيث عليهن أن يتجنبن الخضوع بالقول لكي لا يطمع الذي في قلبه مرض، وعليهن الاستقرار في بيوتهن وعدم التبرج،

---

(١) وقرن: أقِررن واستقررن.

(٢) الرجس: عمل الشيطان، وما ليس لله فيه رضى.

(٣) لطيفاً: ذا فضل، ويُعبر باللطف عن الحركة الخفية من تعاطي الأمور الدقيقة.

كما كان عليهن مثل غيرهن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والطاعة لله سبحانه وللرسول- ثم يبين ربنا سبحانه مقام أهل بيت النبوة الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا.

بينات من الآيات:

[٣٣] لا يعارض الإسلام خروج المرأة من حدود البيت وتعلمها، أو دخولها المعترك الاجتماعي والسياسي، وحتى العسكري بعض الأحيان، إنما يرفض خروجها بهدف الفساد والإفساد.

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ لما في ذلك من فساد النفوس، وانحطاط الأخلاق بالنسبة للمجتمع، ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ﴾ توثيقا للعلاقة مع الله، ﴿وَآتِينَ الزَّكَاةَ﴾ تطهيرا للمال والنفس، وبناءً لاقتصاد المجتمع.

ثم ينعطف السياق ليحدثنا عن ضرورة طاعة الله والرسول، كما يشير إلى طهارة أهل بيته،و هذه الانعطافات والالتفافات عادة ما يكون التدبر فيها مفتاحا لفهم الآيات، والعلاقة بينها، وتحول الخطاب من الغائب إلى المخاطب، أو من الخاص إلى العام، أو العكس هو من قبيل هذه الالتفاتات في السياق القرآني.

والمثل الظاهر للالتفات في القرآن هو ما نكرره عند كل صلاة في سورة الفاتحة، فبعد أن نقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾؛ كل ذلك بضمير الغائب نقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ بصيغة المخاطب، وذلك لأسباب منها:

١- لأن الإنسان في أول علاقته مع ربه يكون بعيدا عنه بُعد الذكر لا بُعد المسافة، لكنه حينما يستمر في ذكره والعبادة له يتقرب إليه، ولعل السورة تحدثنا عن هاتين المرحلتين، ففي البداية يخاطب الإنسان ربه بضمير الغائب، أما حينما يتقرب إليه فإنه يتحدث معه بضمير المخاطب القريب.

٢- عبارة: نعبدك ونستعينك، تحتمل الظن إننا نعبد غيره تعالى أيضا، أما وقد تقدمت كاف الخطاف التي تخص بالخطاب فقد حصرت العبادة والاستعانة في الله وحده.

وهنا في هذه الآيات من سورة الأحزاب نرى تغيرا في لحن القرآن، فبينما كان الخطاب بصيغة جمع المؤنث، موجها لنساء النبي: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ ...﴾ كان قبله في الآيات السابقة

بصيغة المفرد المؤنث في: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ﴾ و ﴿لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ﴾، وبعد الخطاب بالجمع المؤنث تحول إلى الصيغة العامة وجمع المذكر.

ولعل الحكمة في الانتقال من المفرد المؤنث إلى الجمع المؤنث: أن السياق أراد التأكيد على أن القيم العامة والواضحة كقيمة التقوى قائمة، وتشمل الجميع حتى نساء النبي ﷺ فلا تصبح المرأة من أهل الجنة بمجرد انتمائها للنبي، بل لابد أن تكون هي نفسها محسنة وصالحة أيضا. فالخطاب بالوصايا عام شامل، لكنه في تأسيس التفاضل والجزاء كان فرديا لا يرعى الانتساب بل العمل الصالح.

أما التحول من خطاب المؤنث إلى المذكر فهو إشارة إلى تبدل في المُخاطَب تبينه الروايات التي نوردها لاحقا، فكأنه جملة اعتراضية بين ما سبق من الآية وما قبلها وبين الآية التالية لعودة الخطاب للمؤنث: ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ.. ﴾، ولعل الحكمة في سوقها جملة اعتراضية هو بيان المقابلة لتأكيد استحقاق البيت الطاهر مقام تمثيل الرسول ﷺ، وربما أيضا أن الحكمة المتمثلة في تنقية ما حول الرسول من كل شائبة التي مرّ بيانها سابقا هي هنا مطلوبة لإمتداده ﷺ الطاهر أيضا.

فإذن عظة الأيات؛ أن الله سبحانه يذهب الرجس عن أهل البيت إذا كانوا ممن انتمى إلى الرسالة قلبا وقالبا، أما من انتمى ظاهرا بنسبه أو بسبب دون العمل فهو غير طاهر لأن ما يطهر الإنسان هو الرسالة والعمل الصالح بما يغيرانه من سجايا الإنسان الباطنة والظاهرة فدخولك في هذا البيت أو خروجك منه لا يؤثر إلا بقدر ما تستوعب من قيم هذا البيت ورسالته وسلوكه أو بالعكس، من هنا جاء في الحديث المأثور عن الإمام الصادق عليه السلام: **«وَلَايَتِي لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ وِلَادَتِي مِنْهُ لِأَنَّ وَلَايَتِي لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ فَرْضٌ وَ وِلَادَتِي مِنْهُ فَضْلٌ..»**[1].

﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ ولهذه الآية علاقتان وثيقتان بما قبلها:

الأولى: علاقتها الخاصة بقوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾، فالسورة كلها تدور حول قضية القيادة الرسالية، المتجسدة أيام الرسول ﷺ في شخصه، ومن بعده في من يمثل امتدادا حقيقيا لقيمه وقيادته، لاقتدائه به وهم أهل بيته الذين طهرهم الله عن الرجس، قال الإمام علي عليه السلام: **«أَنَا وَضَعْتُ فِي الصِّغَرِ بِكَلَاكِلِ الْعَرَبِ وكَسَرْتُ**

(١) بحار الأنوار: ج٣٩، ص٢٩٩.

نَوَاجِمَ قُرُونِ رَبِيعَةَ ومُضَرَ وقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ الله ﷺ بِالقَرَابَةِ القَرِيبَةِ والمَنْزِلَةِ الخَصِيصَةِ وَضَعَنِي فِي حِجْرِهِ وأَنَا وَلَدٌ يَضُمُّنِي إِلَى صَدْرِهِ ويَكْنُفُنِي فِي فِرَاشِهِ ويُمِسُّنِي جَسَدَهُ ويُشِمُّنِي عَرْفَهُ وكَانَ يَمْضَغُ الشَّيْءَ ثُمَّ يُلْقِمُنِيهِ ومَا وَجَدَ لِي كَذْبَةً فِي قَوْلٍ ولَا خَطْلَةً فِي فِعْلٍ ولَقَدْ قَرَنَ اللهُ بِهِ ﷺ مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيماً أَعْظَمَ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَتِهِ يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ المَكَارِمِ ومَحَاسِنَ أَخْلَاقِ العَالَمِ لَيْلَهُ ونَهَارَهُ ولَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ اتِّبَاعَ الفَصِيلِ أَثَرَ أُمِّهِ يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَخْلَاقِهِ عَلَماً ويَأْمُرُنِي بِالِاقْتِدَاءِ بِهِ ولَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِحِرَاءَ فَأَرَاهُ ولَا يَرَاهُ غَيْرِي ولَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يَوْمَئِذٍ فِي الإِسْلَامِ غَيْرَ رَسُولِ الله ﷺ وخَدِيجَةَ وأَنَا ثَالِثُهُمَا أَرَى نُورَ الوَحْيِ والرِّسَالَةِ وأَشُمُّ رِيحَ النُّبُوَّةِ»[1].

ولم يكن هذا الحديث كلاما كتبه الإمام عليه السلام في كتاب وأبقاه لتقرأه الأجيال، إنما هي خطبة ألقاها أمام عامة المسلمين، وصدقوه جميعا، ولم يرد في التاريخ أن أحدا قد كذبه في ذلك.

والعلاقة بين آية التأسي وهذه الآية: أنه كما تجب طاعة الله والرسول على نساء النبي والمسلمين، تجب كذلك طاعة أهل بيته الذين تعنيهم الآية وهم الأئمة عليهم السلام الذين أذهب الله عنهم الرجس، وطهرهم بالعلم والتقوى والعصمة.

الثانية: علاقتها العامة بالآيات السابقة حول نساء النبي -ومنهن المرأة المسلمة- فهذا الاهتمام والتركيز الذي يوليه الإسلام للمرأة في صورة تعاليم تربوية واجتماعية وسياسية نابع من نظرة الدين لموقعها الحساس في المجتمع المسلم والأسرة المسلمة، ودورها الخطير في مستقبلها، فتحقيق هدف الإسلام -وهو بناء المجتمع النموذجي الذي ينطلق من الأسرة النموذجية- يبدأ من خلق المرأة الفاضلة.

ولعله لهذا السبب جاء الحديث عن البيت الفاضل الطاهر بعد مجموعة التعاليم في شأن المرأة، إشارة إلى هدف هذه التعاليم القرآنية.

وقبل أن نمضي قدما في التدبر في بقية آيات هذا الدرس، نورد بعض النصوص التي تفسر بشكل أوضح الآية الكريمة والمروية عن الكتب المعتمدة لدى الفرق الإسلامية جميعا.

يقول صاحب تفسير الميزان رحمه الله: «وبهذا الذي تقدم إشارة للشرح بتأييد ما ورد في أسباب النزول: أن الآية نزلت في النبي ﷺ وعلي وفاطمة والحسنين عليهم السلام خاصة، لا

(١) بحار الأنوار: ج١٤، ص٤٧٤.

يشاركهم فيها غيرهم»[١].

وهي روايات جمة تزيد على سبعين حديثا، يربو ما ورد منها من طرق أهل السنة على ما ورد منها من طرق الشيعة. فقد روتها أهل السنة بطرق كثيرة عن أم سلمة، وعائشة، وأبي سعيد الخدري، وسعد، ووائلة بن الأسقع، وأبي الحمراء، وابن عباس، وثوبان مولى النبي، وعبد الله بن جعفر، وعلي، والحسن بن علي عليهما السلام في قريب من أربعين طريقا.

ورووتها الشيعة عن علي، والسجاد، والباقر، والصادق، والرضا عليهم السلام وأم سلمة، وأبي ذر، وأبي ليلى، وأبي الأسود الدؤلي، وعمر بن ميمون الأودي، وسعد بن أبي وقاص في بضع وثلاثين طريقاً.

- في الدر المنثور أخرج الطبراني عن أم سلمة: أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لفاطمة: «**ايتيني [ايتيني] بِزَوْجِكِ وَابْنَيْكِ فَأَتَتْ بِهِمْ فَأَلْقَى عَلَيْهِمْ كِسَاءً ثُمَّ رَفَعَ يَدَهُ عَلَيْهِمْ فَقَالَ اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ آلُ مُحَمَّدٍ فَاجْعَلْ صَلَوَاتِكَ وَبَرَكَاتِكَ عَلَى آلِ مُحَمَّدٍ فَإِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ قَالَتْ فَرَفَعْتُ الكِسَاءَ لِأَدْخُلَ مَعَهُمْ فَاجْتَذَبَهُ وَقَالَ إِنَّكِ لَعَلَى خَيْرٍ**»[٢].

ورواه في غاية المرام، عن عبد الله بن أحمد بن حنبل، عن أبيه بإسناده، عن أم سلمة[٣].

- وفيه أخرج ابن مردويه، عن أم سلمة، قالت: «نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي بَيْتِي ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾ قَالَتْ: وَفِي البَيْتِ سَبْعَةٌ رَسُولُ اللهِ وَجَبْرَئِيلُ وَمِيكَائِيلُ وَعَلِيٌّ وَفَاطِمَةُ وَالحَسَنُ وَالحُسَيْنُ عليهم السلام، قَالَتْ: وَأَنَا عَلَى البَابِ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله أَلَسْتُ مِنْ أَهْلِ البَيْتِ؟ قَالَ صلى الله عليه وآله: **إِنَّكِ إِلَى خَيْرٍ مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ**»[٤].

- وفي الكتاب ذاته أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، عن أم سلمة زوج النبي: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله كَانَ فِي بَيْتِهَا عَلَى مَنَامَةٍ لَهَا، عَلَيْهِ كِسَاءٌ خَيْبَرِيٌّ، فَجَاءَتْ فَاطِمَةُ بِبُرْمَةٍ فِيهَا حَرِيرَةٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله: **ادْعِي لِي زَوْجَكِ وَابْنَيْهِ حَسَناً وَحُسَيْناً**. فَدَعَتْهُمْ فَبَيْنَمَا هُمْ يَأْكُلُونَ إِذْ نَزَلَتْ عَلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله هَذِهِ الآيَةُ: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾. قَالَتْ فَأَخَذَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله بِفَضْلِ الكِسَاءِ فَغَشِيَهُمْ إِيَّاهُ. ثُمَّ قَالَ صلى الله عليه وآله: **اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي وَخَاصَّتِي فَأَذْهِبْ عَنْهُمُ**

(١) تفسير الميزان: ج١٦، ص٣١١ وما بعدها.
(٢) الدر المنثور: ج٥، ص١٩٨.
(٣) غاية المرام: ج٣، ص١٧٧.
(٤) الدر المنثور: ج٥، ص١٩٨.

الرِّجْسَ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيراً. قَالَهَا النَّبِيُّ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، فَأَدْخَلْتُ رَأْسِي فِي الكِسَاءِ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله ﷺ وَأَنَا مَعَكُمْ؟. فَقَالَ ﷺ: **إِنَّكِ إِلَى خَيْرٍ**»[1].

وروي الحديث في غاية المرام، عن عبد الله بن حنبل بثلاث طرق، عن أم سلمة، وكذا عن تفسير الثعلبي[2].

- وفيه -الدر المنثور- أخرج ابن مردويه، والخطيب، عن أبي سعيد الخدري قال: كان يوم أم سلمة أم المؤمنين، فنزل جبرائيل إلى رسول الله ﷺ بهذه الآية: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾ قال: فَدَعَا رَسُولَ الله ﷺ بحَسَنٍ وَحُسَيْنٍ وَفَاطِمَةَ وَعَلِيٍّ فضمَّهُمْ إِليه، وَنَشَرَ عَلَيْهِم الثَّوْبَ وَالحِجَابُ عَلَى أُمِّ سَلمة مضْرُوبٌ ثُمَّ قَالَ ﷺ: **اللَّهُمَّ هَؤُلاءِ أَهْلُ بَيْتِي وَخَاصَّتِي فَأَذْهِبْ عَنْهُمُ الرِّجْسَ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيراً** قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ فأَنَا مَعهُمْ يَا نَبِيَّ الله؟ قَالَ: أَنْتِ عَلَى مَكَانِكِ وَأَنْتِ عَلَى خَيْرٍ»[3].

- وفيه أيضا عن مسلم في صحيحه بإسناده، عن يزيد بن حيان، عن زيد بن أرقم، قال: «قَالَ رَسُولُ الله ﷺ **إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمُ الثَّقَلَيْنِ أَحَدُهُمَا كِتَابُ الله عَزَّ وَجَلَّ وَهُوَ حَبْلُ الله مَنِ اتَّبَعَهُ كَانَ عَلَى الْهُدَى وَمَنْ تَرَكَهُ كَانَ عَلَى الضَّلالَةِ وَفِيهِ**. فَقُلْنَا مَنْ أَهْلُ بَيْتِهِ نِسَاؤُهُ؟! قَالَ: لَا. ايْمُ الله إِنَّ المَرْأَةَ تَكُونُ مَعَ الرَّجُلِ العَصْرَ مِنَ الدَّهْرِ فَيُطَلِّقُهَا فَتَرْجِعُ إِلَى أَبِيهَا وَقَوْمِهَا، أَهْلُ بَيْتِهِ أَصْلُهُ وَعَصَبَتُهُ الَّذِيْنَ حُرِمُوْا الصَّدقةَ بَعْدَهُ»[4].

كما إن الآيات منقولة في كتب أخرى من جملتها الصحاح، بما لا يمكن إنكاره لبلوغه حد التواتر، وهكذا تؤكد الأحاديث ما فسرناه بخصوص هذه الآية الكريمة.

بالإضافة إلى هذه الروايات، فإنا من خلال دراستنا للتاريخ نجد أن وضعا خاصا كان يتمتع به أهل البيت ﷺ وبالذات فاطمة الزهراء والأئمة المعصومين عليهم السلام ولا يمكن لمؤرخ منصف أن ينكر تميزهم بالرغم مما لقوه من الضغوط والمصاعب، فقد كانوا يجسدون روح الإسلام وقيمه في سلوكياتهم الشخصية، ودعوتهم للناس، وقيادتهم للحركة الرسالية عبر التاريخ، ومواجهتهم للطغاة و... الخ.

بلى، كانت في أيام حياتهم بعض الأقلام والألسنة التي باعت نفسها للطغاة، تحاول

(١) الدر المنثور: ج٥، ص١٩٩.
(٢) غاية المرام: ج٣، ص١٧٧.
(٣) الدر المنثور: ج٥، ص١٩٨.
(٤) الدر المنثور: ج٥، ص١٩٨.

النيل منهم لقاء المال والجاه، أما الآن فبإمكان الجميع أن ينظروا للتاريخ نظرة واضحة مجردة ليكتشفوا دور أهل البيت في التاريخ الإسلامي، وإذ أنزل الله هذه الآية فيهم فلعلمه بأنهم سوف يجسدون الحق في حياتهم، من خلال اقتدائهم بالرسول، وتربيته لهم، وهو الذي ربى البشرية ودفعها دفوعات حضارية، لا زالت تتقدم بسببها إلى اليوم وغد، ونتساءل: أوليس الرسول قادرا على أن ينقل تلك الروح إلى أولاده؟

إن علماء النفس والتربية والاجتماع يجمعون على أن الأب يؤثر في أولاده مرتين: مرة من خلال التربية، ومرة من خلال الوراثة -هذا بغض النظر عن العامل الغيبي الذي يختص به أهل بيت النبوة- ونحن من مجمل دراستنا للتاريخ، ومعرفتنا بهذه العلوم، وواقع حياة الرسول وسيرته، وحياة أهل البيت وسيرتهم نستطيع أن نكتشف بأن تلك الرسالة امتدت بعد الرسول في أهل بيته وخاصة الأئمة عليهم السلام.

وهو لم يأل جهدا في بيان هذه الحقيقة، فلم يدع مناسبة إلا وأكد فيها منزلة أهل البيت عند الله وعنده.

كما يرويه أحمد بن حنبل في مسنده، عن زيد بن ثابت قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله: **«إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمُ الثَّقَلَيْنِ خَلِيفَتَيْنِ كِتَابَ الله حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ وَعِتْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي وَإِنَّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ»**[1].

عن ابن عباس قال: وقال صلى الله عليه وآله: **«مَنْ دَانَ بِدِينِي وَسَلَكَ مِنْهَاجِي وَاتَّبَعَ سُنَّتِي فَلْيَدِنْ بِتَفْضِيلِ الأَئِمَّةِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي عَلَى جَمِيعِ أُمَّتِي فَإِنَّ مَثَلَهُمْ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ مَثَلُ بَابِ حِطَّةٍ فِي بَنِي إِسْرَائِيل»**[2].

وقال صلى الله عليه وآله: **«إِنَّمَا مَثَلُ أَهْلِ بَيْتِي فِيكُمْ كَمِثْلِ سَفِينَةِ نُوحٍ مَنْ رَكِبَهَا نَجَا وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا غَرِقَ وَمَثَلُ بَابِ حِطَّةٍ مَنْ دَخَلَهُ نَجَا وَمَنْ لَمْ يَدْخُلْهُ هَلَكَ»**[3].

وفي الأثر أنه صلى الله عليه وآله كان يطرق باب دار علي وفاطمة عليهما السلام ويقول: **«الصَّلَاةَ أَهْلَ الْبَيْتِ»**[4]. ثم يقرأ الآية: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾، بصوت عال عند الفجر، استمر لذلك ستة أشهر، وكان هدفه أن يسمع جميع الناس بذلك الأمر، ولم يكن هذا التأكيد من رسول الله صلى الله عليه وآله بدافع العاطفة والشفقة على

---

(١) مسند أحمد بن حنبل: ج٥، ص١٨١.
(٢) الأمالي للشيخ الصدوق: ص١٣٣.
(٣) الأمالي للشيخ الطوسي: ص٦٠.
(٤) بحار الأنوار: ج٣٥، ص٢٢٣

أولاده، إنما كان أمرا إلهيا مباشرا، كما إن سنة الله في الحياة تقتضي أن يبقى خط رسالي صالح العمل، وطاهر النفس، تمتد الرسالة من خلاله للأجيال، ولعل حفظ الله للرسالة في قوله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، يتم بوسائل عديدة من أهمها وجود الخط الأصيل الذي يحفظ الرسالة من التحريف.

كما إنه لابد للناس من قدوة وإمام، وخط أصيل يستوعب أفراده روح الرسالة، ويجسدونها في سلوكهم، ويتوارثونها عبر الأجيال ليكرسوها في الأمة جيلا بعد جيل، ومدة بعد مدة، وفي دعاء الندبة إشارة واضحة إلى هذه الفكرة، فقد ورد فيه: **«أَيْنَ أَبْنَاءُ الْحُسَيْنِ صَالِحٌ بَعْدَ صَالِحٍ وَصَادِقٌ بَعْدَ صَادِقٍ أَيْنَ السَّبِيلُ بَعْدَ السَّبِيلِ أَيْنَ الْخِيَرَةُ بَعْدَ الْخِيَرَةِ أَيْنَ الشُّمُوسُ الطَّالِعَةُ أَيْنَ الأَقْمَارُ الْمُنِيرَةُ أَيْنَ الأَنْجُمُ الزَّاهِرَةُ أَيْنَ أَعْلَامُ الدِّينِ وَقَوَاعِدُ الْعِلْمِ أَيْنَ بَقِيَّةُ اللهِ الَّتِي لَا تَخْلُو مِنَ الْعِتْرَةِ الْهَادِيَةِ»**[1].

وفي أصول الكافي قال الإمام الباقر عليه السلام: **«وَاللهِ مَا تَرَكَ اللهُ أَرْضاً مُنْذُ قَبَضَ آدَمَ** عليه السلام **إِلَّا وفِيهَا إِمَامٌ يُهْتَدَى بِهِ إِلَى اللهِ وهُوَ حُجَّتُهُ عَلَى عِبَادِهِ ولَا تَبْقَى الأَرْضُ بِغَيْرِ إِمَامٍ حُجَّةٍ للهِ عَلَى عِبَادِهِ»**[2].

فليس غريبا إذن أن نجد الحديث عن أهل البيت في سورة الأحزاب التي جاءت لبيان الرسالة وموضوع القائد الرسالي، وسوف نجد الآيات المناسبة لهذا الموضوع في ضمن السورة -وهو أمر طبيعي- إذ لا بد للقائد الرسالي من امتداد في المجتمع.

[٣٤] ثم يذكرنا الله بواحدة من الواجبات التي ينبغي على زوجات الرسول مراعاتها وهو ضرورة أن يكن داعيات للرسالة، ملتزمات بها.

﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ لأنها السبيل لتقويم السلوك والطهارة، وليس من شك أن التلاوة التي لا يعقبها العمل لا تنفع صاحبها، وإنما يؤكد الله على نساء النبي بذكر الآيات لكي لا يتصورن الرسالة ما دامت تنطلق من بيوتهن إلى الناس فهي لا تخصهن، بل إن مسؤوليتهن تبليغ الرسالة، فالقرآن كما جاء ليصنع قدوة للرجال تتمثل في الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله فكذلك جاء أيضا ليصنع قدوة للنساء ونساؤه أولى بالعمل بها.

﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ فهو يحيط بكن، ويعلم هل استوعبتن الرسالة، وعملتن

---

(١) بحار الأنوار: ج٩٩، ص١٠٦، من دعاء الندبة.

(٢) الكافي: ج١، ص٥٩.

بها أم لا.

[٣٥] ثم نجد إشارة إلى حقيقة هامة وهي: أن ما جاء في القرآن من الآيات بصيغة المذكر لا يدل على اختصاصها بالذكور دون الإناث، إنما يشمل الجنسين: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ﴾ كل ذلك قولاً وعملاً ﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ﴾ الذي يكون الإحساس سمة علاقتهم مع الآخرين، فهم كما يسعون لإصلاح أنفسهم وبنائها يسعون لبناء المجتمع وسد حاجته ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾ تزكية للنفس ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً﴾ إن أخطؤوا لأن مسيرتهم العامة هي الصلاح ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ على أعمالهم الصالحة.

وعموما فإن ما تقدم من الصفات هو صورة نظرية لسمات المجتمع الإسلامي، والأسرة المسلمة، في ظل الالتزام بالقرآن الكريم، ومسؤوليتنا السعي والاجتهاد لإيجادها في واقعنا بتجسيدها عمليًا.

محورية القيادة الرسالية في المجتمع

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ (١) مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا (٣٦) وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا (٢) زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا (٣٧) مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا (٣) (٣٨) ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا (٤) (٣٩)﴾.

هدى من الآيات:

حينما نرجع إلى الشريعة الإسلامية -كما سائر الأنظمة- نجد فيها ثلاث قوى أساسية هي التشريعية والقضائية والتنفيذية، أما الأولى فإن وظيفتها تشريع القوانين والأحكام العامة، وأما الثانية فشأنها تطبيق القوانين على الوقائع المختلفة والفصل بينها حال تزاحم الحقوق، بينما مهمة القوة التنفيذية هي تطبيق القانون الذي تقضي به كلا القوتين على الواقع.

---

(١) الخيرة: التخيير والاختيار.

(٢) وطراً: الوطر كل حاجة يكون لك فيها همة، فإذا بلغها البالغ قيل: قد قضى وطره وإربه.

(٣) قدراً مقدوراً: قضاءً مقضياً، وقيل: معناه جارياً على مقدار لا يكون فيه التفاوت من جهة الحكمة.

(٤) حسيباً: أي حافظاً لأعمال خلقه، ومحاسباً ومجازياً عليها.

وفي الشريعة الإسلامية تتركز جميع هذه القوى في القيادة الرسالية العليا وهو النبي ﷺ أو من يمثل امتدادا حقيقيا له. فهي المرجع التشريعي والقضائي الأعلى، وإذا قضى النبي أو من يكون خليفة حقيقيا له لا يحق لأحد الاعتراض عليه.

ويضرب لنا القرآن مثلا من واقع الأمة الإسلامية على هذه الحقيقة، حيث عارض الإسلام العادات الجاهلية الغاصبة حرمة الزواج من مطلقة الابن بالتبني، ووضحت الآيات بأن ابن الإنسان هو الذي ينسل من صلبه، أما الآخر الذي يلتقطه ويتبناه فلن يصبح أبنا له أبدا، لأن الأبوة كما البنوة وعموم العلاقات الاجتماعية المشابهة قضية طبيعية واقعية وليست محض اعتبارية.

وكان هذا القضاء الجديد يومذاك يحتاج إلى من يملك الجرأة والإقدام، وهنا تبرز وبصورة واضحة القدوة في الأمة، فإذا بالرسول ﷺ يتزوج من مطلقة زيد بن حارثة وهو ابنه بالتبني، وكان النبي قد خرق عادتين جاهليتين في هذه الحادثة، الأولى ما تقدمت الإشارة إليها، والثانية أنه زوج زينب بنت جحش -ذات الحسب والنسب الشريف- من رجل أقل نسبا، تأكيدا لقيمة التقوى، ونسفا للقيم الجاهلية المادية.

ورفعا للحرج في مثل هذه الحوادث عن المسلمين، ولأن خرق العرف الاجتماعي سوف يسبب شيئا من الإحراج للرسول، وربما ألوانا من الضغط عليه من قبل الساذجين والمنافقين، فقد حذره الله من الخضوع للناس على حساب الحق، مؤكدا بأن أهم صفات المبلغ للرسالة هي الخشية من الله وحده، والتوكل عليه.

بينات من الآيات:

[٣٦] المؤمن حقا هو الذي يسلم لقضاء الله ورسوله تسليما مطلقا في جميع جوانب الحياة، ذلك أن كلمة الله، والرسول، والقيادة التي تمثل امتدادا صحيحا له، يجب أن تكون هي الحاسمة في المجتمع الإسلامي ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾.

والقرآن حينما يوجه الخطاب بصيغة المذكر فإنه يشمل النصف الآخر للمجتمع بصورة طبيعية، ولكنه هنا يخص النساء أيضا ﴿وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾، لأن الكثير من الأحكام -وبالذات في باب القضاء- ترتبط بالنساء، ولابد أن يخضعن كما الرجال لقضاء الله والرسول خضوعا حقيقيا.

والخضوع الحقيقي هو الذي تشير إليه الآية الكريمة: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥]. فحتى في المجال الفكري والنفسي لا يجوز للمؤمن أن يتضايق من قضاء الرسول، بل ينبغي أن يسلم له راضيا به دون أدنى شك أو تردد.

﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴾ ولعل أهم ما قضى به الله والرسول أن اختار أهل البيت عليهم السلام، وقضى بطاعتهم، إذ أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا، فلا يجوز للمؤمن الاعتراض على هذا القضاء أو الفسوق عمليا عنه، وهذا مما يعزز تفسير الآية الكريمة (٣٣) في الدرس الماضي.

[٣٧] و كمثال على قضاء الله في الحقل الاجتماعي، يستعرض السياق بشيء من التفصيل قصة زيد بن حارثة بن شرحبيل، فهي من المسائل التي كان قضاء الله فيها مخالفا للعرف آنذاك، وزيد ابن شيخ لقبيلة اسمه حارثة، أغارت عليها قبيلة أخرى، فأخذ وبيع في مكة، فاشتراه الرسول صلى الله عليه وآله والذي كان يسعى حتى قبل بعثته لتصفية آثار الجاهلية قدر ما يستطيع، وهكذا ينبغي للإنسان المؤمن السعي بما يستطيع وكيفما يقدر لإزالة آثار الجاهلية. فالرسول صلى الله عليه وآله لم يكن قادرا على شراء كل العبيد وعتقهم أو تربيتهم، ولكنه اشترى بعضهم.

وفي قصة طويلة جاء والد زيد زائرا لمكة، وطلب من الرسول أن يشتري ولده، فجعل الرسول الخيار لزيد في البقاء معه أو الرحيل مع والده -بعد أن أعتقه- فاختار البقاء مع المسلمين وفي كنف النبي صلى الله عليه وآله.

فعاش كأبرز صحابة الرسول، وقد أبلى في الإسلام بلاء حسنا، وكذلك ابنه أسامة رضي الله عنه، ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ إذ جعله يعيش تحت ظل رسول الله صلى الله عليه وآله، فيهتدي للإسلام، ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾، وكان إنعام الرسول يتمثل في عتقه لزيد من العبودية. وقد حدث أن أراد زيد طلاق زوجته زينب بنت جحش فنهره الرسول وقال: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ﴾ لا تطلقها، ﴿وَاتَّقِ اللَّهَ ﴾ في طلاقها ومضارتها.

﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾ أي أن الله كتب زينب زوجة لك وقد أعلمك بذلك، ومهما أخفيت ذلك فإنه سيظهره يوما من الأيام.

﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ ﴾ هكذا يحكي الله عن رسوله، بالرغم من أن آية لاحقة تصف المبلغ للرسالة بأنه لا يخشى إلا الله، فكيف نوفق بين الآيتين؟.

الجواب: إن الرسول ﷺ لم يكن يخشى أحدا إلا الله، ولكنه كان يخشى الناس أن يكفروا برسالة ربه لو تزوج بزينب، بسبب شكهم في أن الرسول ضغط على زيد (ابنه بالتبني) ليطلق زوجته ثم يتزوجها بعده. وهكذا كانت سيرة الأنبياء أنهم يكلمون الناس على قدر عقولهم، وفي رواية عن الصادق عليه السلام: «**مَا كَلَّمَ رَسُولُ الله ﷺ العِبَادَ بِكُنْهِ عَقْلِهِ قَطُّ. وَقَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ إِنَّا مَعَاشِرَ الأَنْبِيَاءِ أُمِرْنَا أَنْ نُكَلِّمَ النَّاسَ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ**»(١)، وهذه الآية تشبه قوله تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ**﴾ [المائدة: ٦٧].

فخشية الرسول من تبليغ بعض بنود الرسالة لم تكن على نفسه، إنما على الناس أن يكفروا به وبها.

﴿**فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا**﴾ أي لما تمتع بها زيد فترة من الوقت ثم طلقها زوجها الله رسوله. وكانت زينب تفتخر على سائر زوجات الرسول بأن الله هو الذي زوجه منها وبنص القرآن.

أما الهدف من وراء ذلك فهو كسر العادة الجاهلية، ورفع الحرج عن المؤمنين في الزواج من مطلقات أبنائهم بالتبني.

﴿**لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا**﴾ ولأن البعض ربما يتصور بأن هذا القضاء سوف يفشل بسبب تعارضه مع العرف الاجتماعي، أكد ربنا بأن أمور الحياة بيده وليست بيد الناس، وأنه قادر على إجراء ما يريد.

﴿**وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا**﴾ فمع أن بعضا من أمور الحياة خولها الله للإنسان، إلا إن مسيرتها العامة بيده، يفعل ما يشاء، ولهذا قال الإمام علي عليه السلام: «**عَرَفْتُ اللهَ سُبْحَانَهُ بِفَسْخِ العَزَائِمِ وحَلِّ العُقُودِ ونَقْضِ الهِمَمِ**»(٢).

[٣٨] ثم يؤكد القرآن بأن القيادة الرسالية ليست هي التي تنسى الدنيا من أجل الآخرة، أو تنسى ضرورات الحياة، فالرسل -وهم قادة الناس- بشر فرض الله عليهم أن يعيشوا كسائر البشر حياة تجمع العقل والحاجة، ولا يمكن لأحد أن يتجاوز هذا الفرض لكونه قائدا، ثم يدعي بأن ذلك من ضرورات الرسالة، فمن لا معاش له لا معاد له.

---

(١) الكافي: ج١، ص٢٣.

(٢) بحار الأنوار: ج٥، ص١٩٧.

وأئمة المتقين هم الذين يطلبون من الله أن يهبهم أفضل الأزواج والبنين، في الوقت الذين يطلبون أن يجعلهم أئمة للمتقين: ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان:٧٤].

وهذا هو السلوك المتكامل للقيادة، والذي يجعلها أسوة للآخرين، وهو سلوك القادة الرساليين من الأنبياء، والأوصياء، والأولياء عبر التاريخ، وهو دليل على نوع الرسالة التي يدعون الناس إليها.

إن الحياة الفاضلة هي التي تدعو إليها الآية الكريمة: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ [القصص:٧٧]. ولا يمكن للقائد أن يتضخم فيه جانب على حساب الجانب الآخر، لأن الناس آنئذ لن يتبعوا هذه القيادة، لأن التمتع بالدنيا كما التطلع للآخرة قضية يقرها العقل البشري.

إذن لا داعي للحرج، وذلك لأسباب هي:

أولاً: أن زواجه من زينب واجب مفروض عليه من قبل الله، كما إنه من نفع الرسول لذلك جاء التعبير بـ ﴿لَهُ﴾ وليس عليه ﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ ﴾.

ثانياً: أن التمتع بالدنيا إلى جانب السعي للآخرة ليس جديدا على الأنبياء والقيادات الرسالية، إنما هو سنة جرت بها الحياة ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ﴾.

ثالثاً: لا بد أن نعتقد -نحن المؤمنين- بأن أوامر الله حكيمة ودقيقة، وهذا يبعثنا نحو التسليم لقضائه.

ونهايات الآيات التي هي مفاتيح لمعرفة إطارها العام، تهدينا إلى حكمة الله وأنه جعل كل شيء بقدر وحساب، ولو أن الرسول ترك متع الدنيا التي فرضها الله له، باعتقاد أن الآخرة هي الأهم، لخرجت حياته من التوازن، فلابد أن يستجيب لأوامر الله، فالدين ليس شيئا يصنعه الإنسان بفكره البسيط، إنما يجب أن يتبعه كما هو، وفي الحديث: «**إِنَّ الله يُحِبُّ أَنْ يُؤْخَذَ بِرُخَصِهِ** (المباحات) **كَمَا يُحِبُّ أَنْ يُؤْخَذَ بِعَزَائِمِهِ** (الواجبات)»[1]. وحينما أقسم عثمان بن مظعون أن يصوم الدهر نهره الرسول، وقال له: «**فَصُمْ وَافْطِر، وَنَمْ وَقُمْ، وَأَنْتِ زَوْجكَ، فَإِنِي أَنَا أَصُومُ وَأُفْطِر وَأَنَامُ وَأُصَلي..**»[2] ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾.

(١) وسائل الشيعة: ج١ ص١٠٧.

(٢) مجمع الزوائد، الهيثمي. ج٢، ص٢٦٠.

[٣٩] ثم إن صاحب الرسالة والذي يريد أن يكون مبلغا لها بين الناس، يجب أن يضع في حسابه معارضة الناس له ولرسالته، وبالتالي عليه أن يتجاوزهم ولا يخشاهم، فيدع ما فرض الله له، أو يترك واجبا من واجباته خوفا منهم، كما يجب عليه أن يتوقع الضغط عليه من قبل الآخرين، ومن ثم يستعد لمواجهة هذه الضغوط التي أهونها الدعايات السيئة والعزلة من قبل المجتمع أو السجن والتعذيب أو التهجير من قبل السلطات الفاسدة، لأن الاستقامة أمام ذلك سوف تنتهي به في الدنيا إلى أهدافه وهي الهداية والتغيير، وفي الآخرة إلى روضات الجنات.

﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ ﴾ أما من أين يستمد الإنسان الرسالي روح الاستقامة؟ إنما من خشية الله التي يقاوم بها إرهاب الناس وضغوطهم، وأيضا من التوكل عليه الذي يجبر به ضعفه، وأهم معاني التوكل على الله -والذي هو من جوانب العظمة في الإنسان الرسالي- العمل لله وتحمل كل شيء في سبيله، ثم احتسابه عنده، فهذا يزيده استقامة ومضيا على طريق الرسالة، والإمام الحسين عليه السلام حينما ذبح سهم حرملة ولده الرضيع علي الأصغر تقوى على المصاب عندما اعتبره طريقة لرضى الله قال: «هَوَّنَ عَلَيَّ مَا نَزَلَ بِي أَنَّهُ بِعَيْنِ الله»[١].

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا﴾ فالمؤمن الحقيقي لا يبحث عن مصالحه ولذاته من الرسالة، بل يبحث عن طرق تحقيقها حتى لو كلفه ذلك الكثير، بلى؛ مستعد لتبليغها، ولو خسر سمعته ومكانته الاجتماعية والسياسية وغيرها.

(١) بحار الأنوار: ج٤٥، ص٤٥.

وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

ينقسم السياق في هذا الدرس إلى شطرين، يدعونا شطره الأول إلى ذكر الله وتسبيحه وبالتالي إلى المزيد من المعرفة بربنا عز وجل، ويبين لنا شطره الثاني عبر كلمات بسيطة في ظاهرها، وعظيمة ومركزة في معناها جانبا من صفات الرسول القائد، لو تدبرنا فيها لانفتحت لنا أبواب المعرفة بشخصيته العظيمة، وما أحوجنا نحن المسلمين إلى هذه المعرفة.

والعلاقة بين الموضوعين تبينها الآية الكريمة: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١]، فمعرفة الرسول والاقتداء به لا يمكن إلا للإنسان المؤمن والعارف بالله، لأن الرسول جاء من عند الله، وكلما ازداد الإنسان معرفة بربه ازداد معرفة بنبيه، وفي الدعاء «اللَّهُمَّ عَرِّفْنِي نَفْسَكَ فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تُعَرِّفْنِي نَفْسَكَ لَمْ أَعْرِفْ نَبِيَّكَ اللَّهُمَّ عَرِّفْنِي رَسُولَكَ فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تُعَرِّفْنِي رَسُولَكَ لَمْ أَعْرِفْ حُجَّتَكَ اللَّهُمَّ عَرِّفْنِي

حُجَّتَكَ فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تُعَرِّفْنِي حُجَّتَكَ ضَلَلْتُ عَنْ دِينِي»[١].

إذن معرفة الله مفتاح لكل المعارف الأخرى، ولعله لذلك جاء في الحديث «أَوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَتُهُ»[٢]. ولأن هذا الدرس يعرفنا بصفات الرسول الأكرم ﷺ كان لا بد أن يذكرنا بالله أولاً، لذلك وجدنا أول السياق دعوة إلى ذكر الله وتسبيحه، بينما يخوض نهايته حديثا عن صفات النبي، وقد نعته القرآن بأنه شاهد، فما هو الشاهد؟.

كما يتحرك لسان الميزان ليحدد الوزن فإن الشاهد هو ميزان المجتمع، والرسول بـرسالته وبحياته مقياس يتعرف به الإنسان على ما إذا كان هو على الحق أو على الباطل.

ولكن الرسول ليس شاهدا بسلوكه وحسب، إنما يبشر من يعمل الخير بالجزاء الحسن، كما يحذر الذي يعمل السيئات من عاقبة السوء، كما إنه يدعو الناس إلى ربهم وما يقربهم إليه، وأكثر من ذلك يوضح لهم الطريق، ويبرمج لهم الحياة، فهو شاهد، ومبشر، ونذير، وداع إلى الله، وسراج منير.

والذي يجمع هذه الصفات كلها هي استقامة الرسول، والاستقامة هي عدم الخضوع لأي ضغط أو شهوة، الأمر الذي يصعب على الإنسان بما فيه من جهل وغرائز وشهوات إحرازه لولا تنزيه الله وعصمته، ولهذا نقرأ في نهاية الدرس خطاب الله لرسوله: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾.

بينات من الآيات:

[٤٠] من طبيعة الرسالة الإلهية أنها لا تفرق بين إنسان وآخر إلا بمقياس التقوى، ورسول الله يجسد هذه الرسالة، فهو لا يجعل بينه وبين الآخرين علاقة أرفع من الرسالة، ومع أن للرسول أولادا هم (قاسم-طيب-طاهر-إبراهيم) إلا إن الله ينفي أبوته لأي رجل منهم، فلماذا؟.

هل لأنهم (كما ذكر البعض) ماتوا قبل أن يبلغوا مبلغ الرجال، ولم يكن الحسن والحسين عليهما السلام حين نزول الآية ببالغين أيضا، والمنفي خصوص الرجال. وقد نفى الذكر أبوته لزيد الذي دعي لوقت أنه ابن محمد ﷺ في سياق نفي أبوته لأحد من ﴿رِّجَالِكُمْ﴾ فلا تشمل ولده الذين لو بلغو لكانوا رجاله ﷺ.

---

(١) الكافي: ج١، ص٣٣٧.
(٢) نهج البلاغة: خطبة ١.

أم لما هو أشمل من هذا وهو نفي العلاقة المادية بين الرسول وبين أمته كالتي زعمها اليهود في علاقتهم بموسى، وحسبوا أنها وحدها كافية لشرفهم وكرامتهم عند ربهم، بل ونجاتهم من جزاء أعمالهم المنكرة، فجاءت الآية تحصينا للأمة الإسلامية من تسرب هذه الفكرة الشيطانية إلى صفوفهم.

ويبدو أن الإجابة الأولى ظاهر الآية وتفسيرها، والثانية باطنها وتأويلها، وكلاهما صحيح، بلى؛ إن الرسول سمى نفسه أبا لهذه الأمة حين قال ﷺ: «**أَنَا وَعَلِيٌّ أَبَوَا هَذِهِ الأُمَّةِ**»[1].

ولكن الواضح أن مراد الآية ليس الأبوة المادية بل المعنوية التي تفوق تلك بدرجات، ولذلك كان الشطر الثاني من الآية هذه يكرس العلاقة المعنوية بين الرسول وأمته.

وهذا يعني أن الصفة الأساسية للرسول ليست أبوته إنما رسالته، فلا يمكن لأحد أن يدعي نبوته للرسول وبالتالي تميزه عن الناس بها، إنما يتميز الإنسان بخضوعه للنبي واتباعه لرسالته.

وإذ ننسب فاطمة وأبناءها عليهم السلام بأنهم أبناء الرسول وأهل بيته فليس ذلك فقط لقرابتهم الاجتماعية منه، إنما لتجسيدهم قيمه ورسالته في الحياة مما جعلهم أبناءه قلبا وقالبا. روحيا وجسديا.

﴿**مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ**﴾ وهذا نفي للعلاقة المادية المجردة، بينما الشطر الثاني من الآية إثبات للرسالة والعلاقات المنبثقة منها: ﴿**وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ**﴾

وفي تفسير الرسول لهذه الآية: قال جابر بن عبد الله الأنصاري، قال النبي ﷺ: «**إِنَّما مِثْلِي فِي الأَنبياء كَمِثْلِ رَجُلٍ بَنَى دَاراً فَأَكْمَلَهَا وَحَسَّنَهَا إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَة، فَكَانَ مَنْ دَخَلَهَا فَنَظَرَ إِلَيْهَا قَالَ: مَا أَحْسَنَهَا إِلَّا مَوْضِعَ هَذِهِ اللبنةِ. قَالَ ﷺ: فَأَنَا مَوْضِعَ اللبِنَة، خَتَم بِي الأَنبياء**»[2]. وهذا يعني أن الكيان الرسالي غير مكتمل من دون الرسول.

وفي نهاية الآية الكريمة يؤكد الله على إحاطته علما بالأشياء، فما هو معنى ذلك، وما علاقته بما قبله؟.

حينما نراجع آيات القرآن حول الطبيعة نجدها تحدثنا عن النمو والتكامل، فالسماوات

(١) بحار الأنوار: ج١٦، ص٩٥.

(٢) تفسير مجمع البيان: ج٨، ص١٦٦.

والأرض وعموم الطبيعة إنما وصلت لهذه الصورة من الكمال عبر مراحل، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ [السجدة: ٤].

وهذه الآية تكشف لنا طبيعة النمو البشري، وأن البشرية منذ خلق الله آدم ، إلى أن بعث النبي الأكرم كانت في مسار تكاملي، وأن الرسالات كانت تنسخ بعضها بعضا، وتهيمن على التي قبلها لأسباب من أهمها التكامل، حتى جاءت الرسالة المحمدية خاتمة لكل الرسالات، لأنها في آخر المراحل -وهذا من معاني الإحاطة- فلم يكن بدعا، ولا خلافا للحكمة أن يبعث الله رسوله الأكمل في آخر مرحلة.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ ولعل خاتمة الآية تشير أيضا إلى أن الله ضمن رسالته الخاتمة كل ما احتاجته وتحتاجه حياة البشرية حتى قيام الساعة، وذلك لإحاطته علما بكل ما قد يقع، وكيف يقع، وما هي حاجة الناس عندما تتطور حياتهم. أوليست البشرية تتطور في إطار سنن الله التي لا تتبدل ولا تتغير، أوليس الله عليما بتلك السنن التي أجراها؟! بلى؛ ولذلك جعل رسالته الخاتمة مهيمنة على تلك السنن.

[٤١] و حتى يعرفنا الله بهذا الرسول العظيم يعرفنا بنفسه أولاً، وذلك حين يدعونا لذكره.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ لان أجل الإنسان مستور عنه، ولا يعلم أي خاطرة أو كلمة أو حركة تكون هي خاتمة حياته، فلعل خاطرة الانحراف، أو كلمة الخبث، أو حركة السوء تكون نهاية المطاف، فتهوي به سبعين خريفا في النار -كما يقول الرسول - وهكذا يجب عليه أن يستقيم على الحق بقلبه ولسانه وجوارحه وذلك بذكر الله، الذي يعني اتصال قلب الإنسان بربه عز وجل، قال الإمام الصادق : «**مَا ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُ بِشَيْءٍ أَشَدَّ عَلَيْهِ مِنْ خِصَالٍ ثَلَاثٍ يُحْرَمُهَا قِيلَ وَمَا هُنَّ قَالَ الْمُوَاسَاةُ فِي ذَاتِ يَدِهِ وَالْإِنْصَافُ مِنْ نَفْسِهِ وَذِكْرُ اللهِ كَثِيراً أَمَا إِنِّي لَا أَقُولُ سُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ للهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَلَكِنْ ذِكْرُ اللهِ عِنْدَ مَا أَحَلَّ لَهُ وَذِكْرُ اللهِ عِنْدَ مَا حَرَّمَ عَلَيْهِ**»[1].

وما يدري البشر أن فكرة شيطانية واحدة تسبب دماره. أوليس إبليس بدأ الكفر بفكرة جالت في خاطره حينما قال: لو أنصفني الله لكنت أنا شيخ الملائكة وسيدهم، فأخرج الله كبره عندما امتحنه بالسجود لآدم ؟!.

(١) الكافي: ج٢، ص١٤٥.

وفي خطبة للإمام علي عليه السلام في المبادرة إلى صالح الأعمال أكد على هذه الفكرة إذ قال: «فَاتَّقُوا اللهَ عِبَادَ الله وبَادِرُوا آجَالَكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ وابْتَاعُوا مَا يَبْقَى لَكُمْ بِمَا يَزُولُ عَنْكُمْ وتَرَحَّلُوا فَقَدْ جُدَّ بِكُمْ واسْتَعِدُّوا لِلْمَوْتِ فَقَدْ أَظَلَّكُمْ وكُونُوا قَوْماً صِيحَ بِهِمْ فَانْتَبَهُوا وعَلِمُوا أَنَّ الدُّنْيَا لَيْسَتْ لَهُمْ بِدَارٍ فَاسْتَبْدَلُوا فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثاً ولَمْ يَتْرُكْكُمْ سُدًى ومَا بَيْنَ أَحَدِكُمْ وبَيْنَ الجَنَّةِ أَوِ النَّارِ إِلَّا المَوْتُ أَنْ يَنْزِلَ بِهِ»[1].

[٤٢] ثم تؤكد الآيات على ضرورة استمرار الصلة بين العبد وربه.

﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ ففي كل يوم ينبغي للإنسان أن يفتتح حركته وانطلاقته بذكر ربه، ويختتمها بذلك أيضا، ولعل في الآية تأكيد على صلاة الصبح وفرضي المغرب والعشاء، وأن أبرز أهدافها ربط الإنسان في أول اليوم وآخره بخالقه عبر التسبيح.

وإذا كان ظاهر التسبيح هو قول: «سبحان الله» فإن باطنه ومحتواه هو ما تهدف إليه هذه الكلمات من رفع الإنسان عن حضيض الشرك إلى سماء التوحيد و القيم، فليس صادقا في تسبيحه من يلفظ هذه الكلمات ولكنه يقدم شهواته على القيم، أو يطيع الآخرين بمعصية الله، أو يحاول الخلط بين الحق والباطل، ضغثا من هذا وضغثا من ذاك.

[٤٣] و لا شك أن ذكر الله وتسبيحه سوف يستتبع جزاء من عند الله: ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة:١٥٢]، وهذا الجزاء يتمثل في أعظم صورة في الهداية الإلهية للإنسان من الظلمات إلى النور، مما يؤكد بأن الهدف من الذكر هو الهداية، وأنها -أي الهداية- تحصل من مجموع أمرين هما: سعي الإنسان (ذكره وتسبيحه) وصلة الله له بالتوفيق والرحمة.

﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ والظلمات هي الجهل والعجز وسائر الصفات السلبية، بينما النور ما يخالفها، وهذا من رحمة الله بالمؤمنين.

ما هي صلاة الرب؟، وما هي الصلاة؟.

قال علماء اللغة: أن لها معنيين: «أحدهما النار وما أشبهها من الحمى، والآخر جنس من العبادة»[2].

(١) نهج البلاغة: خطبة: ٦٤.

(٢) معجم مقاييس اللغة: لابن فارس: ج٣، مادة (صلى).

ولكن يبدو أن هناك علاقة بين الصلاة والصلة في الاشتقاق الكبير، فيكون الاصطلاء بالنار هو الاقتراب منها أو الاتصال بها، ومنها قولهم: حليت العود بالنار، وهكذا يشترك المعنيان، لأن معنى الصلاة يكون التعطف وهو نوع من الصلة بين العبد وربه.

وجاء في تفسير البصائر: «أريد بالصلاة هنا العناية بحال المؤمنين، وذلك لأن الصلاة في الأصل: التعطف، لأن المصلي يتعطف في ركوعه وسجوده، فاستعير لمن يتعطف على غيره حنوا وترؤفا. ولذلك قيل: إن الصلاة من الله تعالى الرحمة، ومن الملائكة الاستغفار، ومن الناس الدعاء. ثم أضاف قائلا: وعلى الخامس (وهو ما ذكرنا آنفا) جمهور المفسرين وهو المروي»[1].

وجاء في الحديث المأثور عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**الصَّلَاةُ مِنَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ رَحْمَةٌ ومِنَ المَلَائِكَةِ تَزْكِيَةٌ ومِنَ النَّاسِ دُعَاءٌ**»[2]. وهكذا نستوحي من كل ذلك أن لكلمة (الصَّلَاةُ) معنى واحدا هو الترؤف، والتعطف، والمزيد من العناية، والتوجه.

وهذا المعنى مشترك بين العبد وربه، فالله سبحانه يتعطف على المؤمنين بالمزيد من الرحمة، وعلى العباد أن يتعطفوا على رسولهم بطلب التعطف من الله له (وهو الدعاء) أما الملائكة فهم من جهة يستغفرون ربهم للمؤمنين، ومن جهة ثانية يقومون بدور مباشر في نشر رحمة الله لهم.

وهكذا نجد أن خاتمة الآية تدل على معنى الصلاة من الله على المؤمنين.

﴿**لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ**﴾ من شح الذات، والجهل، والعجز، والسلبية، والحقد، والبغضاء إلى رحاب الحق، والمعرفة، والإرادة، والأمل، والمحبة، والسلام: ﴿**وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا**﴾.

[٤٤] هذا عن رحمة الله بالمؤمنين في الدنيا، أما في الآخرة فإن أبرز تجليات رحمة الله بهم تكون في أمرين:

الأول: السلامة، تحية من الله لهم: ﴿**وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ**﴾ [الرعد: ٢٣،٢٤]. وقال تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ** ﴾ [الحجر: ٤٥-٤٦].

وهذه التحية بالإضافة إلى معناها الظاهر وهو قول: (السلام عليكم) فإنها تعني السلامة الجسدية من النقص العضوي والصحي، والسلامة الروحية من الرذيلة والصفات السلبية،

---
(١) تفسير البصائر: ج٣٢ ص٢٢٨.

(٢) وسائل الشيعة: ج٧، ص١٩٦.

والسلامة الاجتماعية، والاقتصادية وهكذا، وبالتالي الكمال في سائر جوانب الحياة، ذلك أن التحية هي طلب الحياة، ويتبادل المؤمنون التحية بالسلام، إشارة إلى طهارة القلوب وصفائها ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾.

الثاني: الجزاء الكريم ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾.

لماذا يقول الله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾؟.

لعل حكمة ذلك تكمن في أن الإعداد يدل على التدرج، مرحلة بعد مرحلة، وشيئا بعد شيء، مما يوحي على أن هذا الأجر نتيجة لأعمال المؤمنين الصالحة التي هي الأخرى صارت بالتدريج، فكلما عمل الإنسان خيرا أضاف إلى رصيده وزنا بقدره ونوعيته، ويصف الرب الأجر بأنه كريم والكريم يعني أمرين:

الأول: أن الأجر جزيل جدا، لأن المعطي كريم، ومن صفات الكريم أنه يعطي الأجر أكثر مما هو مستحق، فكيف إذا كان المعطي هو الله وهو أكرم الأكرمين؟.

الثاني: أن هذا الأجر يكون خالصا من الإذلال الذي يمس بكرامة الإنسان.

[٤٥] ثم يؤكد القرآن للرسول دوره في الحياة، وما دام القرآن وفي هذه السورة بالذات أكد كون الرسول أسوة حسنة للمؤمنين فإننا نستوحي من هذه الآية دور المؤمنين أيضا.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا﴾ والشاهد: هو الدليل عليه، فشاهد القول: الدليل عليه، وشاهد القضاء: هو الدليل على الحادثة، وحينما يسمي القرآن الرسول شاهدا فذلك يعني أنه ﷺ دليل وميزان بسلوكه الحسن، يهدي الإنسان إلى معرفة نفسه وموقعه من الحق.

﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ مبشرا للمؤمنين بالجنة، ومنذرا للعاصين بالنار.

[٤٦] ولكن الرسول لا يكتفي بذلك وحسب، إنما يسعى وبشتى الوسائل الشرعية الممكنة لدعوتهم للحق.

﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ﴾ ولا يمكن لأحد أن يسمي نفسه داعيا إلى الله إلا إذا أكمل نفسه، وصيرها من حزب الله، ثم أذن الله له في ذلك إذنا مباشرا عبر الوحي كالأنبياء والأوصياء، أو غير مباشر من خلال القيم الإلهية، فربما يتصور الإنسان أنه يدعو الناس إلى الله، ولكنه في الواقع يدعوهم إلى الشيطان.

وعن رسول الله ﷺ لما سئل عن سبب بعض تسمياته قال ﷺ: «**أَمَّا الدَّاعِي فَإِنِّي**

أَدْعُو النَّاسَ إِلَى دِينِ رَبِّي وَأَمَّا النَّذِيرُ فَإِنِّي أُنْذِرُ بِالنَّارِ مَنْ عَصَانِي وَأَمَّا الْبَشِيرُ فَإِنِّي أُبَشِّرُ بِالْجَنَّةِ مَنْ أَطَاعَنِي»[١]. والرسول كما الشمس في المنظومة، يمثل مركز الإشعاع المعنوي عبر الأجيال. أوليس ينبعث منه نور الوحي إلى الحياة؟!.

﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ كما ينبعث إلى كل أفق، كذلك تشمل معارف القرآن، وأحكام الشرع، وتعاليم الرسول كل نواحي الحياة، ومن هنا نستوحي من كلمتي ﴿سِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ المناهج المفصلة في رسالة النبي وسيرته.

فالرسول ليس يدعو إلى الله، ويبشر وينذر فحسب، إنما يضع أمامنا المناهج التفصيلية التي تقربنا إلى الله، وتنتهي بنا إلى الجنة، وتبعدنا عن النار.

والسؤال: لماذا لم يكتف السياق بكلمة سراج، بل قال: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾؟.

الجواب: إنما قال ذلك ليؤكد صفة الإشعاع المستمر في شخصية الرسول، فقد يكون السراج متقدا، وقد ينطفىء، بينما النبي يبقى منيرا يضيء أبدا حتى بعد وفاته، لأن إشعاعه إنما هو برسالته وسيرته وهما باقيتان عبر الدهور.

[٤٧] و تجاه هذه الرسالة التي يحملها الرسول ومن يتبعه إلى الناس هناك موقفان:

الأول: الإيمان والتسليم والذي ينتهي بأصحابه إلى الفلاح في الدنيا والآخرة، ولابد للرسالي أن يبشر من حوله بهذه النتيجة ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾.

[٤٨] **الثاني**: العصيان بالكفر والنفاق، وتجاه هؤلاء يجب على الرسول الاستقامة أمام ضغوطهم، بل يجب عليه أن لا يغضب عليهم، أو يحمل في نفسه الحقد ضدهم، ذلك أنه ينبغي للرسالي أن يكون قلبه قطعة من الرحمة والنور حتى مع أعدائه.

وهذا نبي الرحمة ﷺ وقد طرده الكفار والمشركون من بكة، وبعدها من الطائف يقف وقد أدمت الأحجار قدميه، فيجول ببصره إلى السماء ثم يقول: «**اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**»[٢]، ثم لما عاد إلى مكة منتصرا لم يفكر في الانتقام، بل قال كلمته المشهورة: «**اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ**»[٣]. وهذه هي الاستقامة الحقيقية، أن يستقيم الإنسان حتى في عاطفته.

﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ﴾ أما من أين يستمد الرسالي روح

(١) بحار الأنوار: ج٩، ص٢٩٤.
(٢) بحار الأنوار: ج١١، ص٢٩٨.
(٣) الكافي: ج٣، ص٥١٢.

الاستقامة؟ فذلك من توكله على الله، أما لو اعتمد على نفسه أو على الآخرين فإنه لن يستطيع ذلك.

ومن الملاحظ: أن القرآن يأمر بالتوكل عندما يأمر بالسلم مع الأعداء، أو الصبر عليهم، أو ترك أذاهم، أو ما أشبه، كقوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنفال:٦١].

ولعل السبب هو أن المبادرة بالاعتداء على الآخرين تأتي -عادة- من الخوف منهم، ومن يتوكل على الله لا يخاف، ولذلك لا يعتدي على أحد، بل لا ينتقم منهم حتى لا يشكلوا خطرا حقيقيا عليه.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ وعندما يدعو القرآن الرسول إلى التوكل على الله لا يكتفي بالقول: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ إنما يتبع ذلك بقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ وذلك حتى لا نعتقد بإمكانية الخلط في التوكل بين الله والآخرين، ففي الوقت الذي نرفع فيه شعار الإسلام نعتمد على الغرب أو الشرق، كلا.. ففي الله الكفاية.

وكان الله على كل شيء رقيبا

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٤٩) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ[١] عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥٠) ۞ تُرْجِي[٢] مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي[٣] إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ ۖ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (٥١) لَّا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا (٥٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ[٤] وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ

---

(١) ما أفاء الله عليك: أعطاك من الغنيمة والأنفال.

(٢) ترجي: الإرجاء هو التأخير والمراد منه تبعد عن نفسك من تشاء من أزواجك.

(٣) وتؤوي: الإيواء ضم القادر غيره، والمراد منه بأن تقربها إلى نفسك.

(٤) غير ناظرين إناه: أنى الطعام يأني إذا بلغ درجة النضج أي غير منتظرين نضجه وطبخه.

فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَئْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا (٥٣) إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٥٤)﴾.

هدى من الآيات:

تتناول آيات هذا الدرس الحديث عن العلاقة الزوجية عند الرسول ﷺ وبعض محدداتها، وقبل الدخول في تفاصيل الآيات هناك ملاحظتان:

الأولى: أن وجود آيات في القرآن الحكيم تنهى الرسول عن بعض الأمور دون الآخرين، أو تفرض عليه واجبات من دونهم، أو تزجره على بعض أفعاله، وتكشف بعض ما أخفاه، كما في زواجه بزينب بنت جحش، كل ذلك يدل على أن القرآن ليس من عند الرسول نفسه، وإنما هو وحي من الله له، فلحن القرآن، يهدينا إلى أن المتكلم غيره، إذ لو كان هو المتحدث لما تكلم على نفسه بزجر أو نهي.

الثانية: توجد في القرآن كما في الأحاديث بعض الأحكام الخاصة بالرسول ذاته، كوجوب صلاة الليل عليه، وجواز زواجه بأكثر من أربع، وبمن تهب نفسها له، وخصائص أخرى رفعها بعض العلماء إلى أكثر من سبعة عشر خصيصة، ومع أن هذه الأمور لا تنسحب إلى غير الرسول ﷺ حتى إذا كان من القيادات الإسلامية، إلا إن ذلك يدل على أن بعض الأمور تخص القائد بصورة مجملة، وينبغي للجميع معرفتها ومراعاتها، ومن أهم هذه الأمور هو الوقت الهام عند القيادة.

فبالرغم من أن جميع الأفراد يعتقدون بضرورة القرب من القيادة باعتبارها نقطة الحزم، وقطب الرحى الاجتماعية، إلا إنهم يجب أن يعرفوا بأن للآخرين من أبناء المجتمع والأقرباء كما القائد نفسه حقا في وقته، فيجب أن لا يطيلوا الجلوس عنده بعنوان الاستفادة من علمه وتجاربه إلا بمقدار الحاجة والضرورة، وذلك ليتسنى له التفرغ لسائر الأعمال التي تعود على الجميع بالنفع والفائدة.

وتنبع أهمية هذا الأمر من أن القائد الذي يصرف أوقاته في قضايا لا طائل منها سوف

لن يجد وقتا يصرفه في الأمور القيادية الهامة، كالمطالعة، والتفكير، والمبادرة، ووضع الخطط، مما يضعف قيادته (قراراته وخططه) الأمر الذي يعود على الجميع بالضرر، ومن هذا المنطلق نهى الله المؤمنين أن يدخلوا على الرسول إلا بإذن مسبق، ثم إذا جلسوا إليه فواجبهم أن لا يطيلوا استئناسا للحديث معه، أو انتظارا للطعام، ومع ذلك لا بد من التأكيد على أهمية الجانب الجماهيري في القيادة، وأنه من الخطأ أن تنفصل عن الناس.

بينات من الآيات:

[٤٩] إذا عقد المؤمن على امرأة، ثم طلقها من قبل أن يمسها، فلا تجب عليها العدة، بل يجوز لها أن تتزوج بعد الطلاق مباشرة، وإذا كان فرض لها مهرا محددا وجب عليه دفع النصف لها، وعند كون المهر محدداً، فإن لها عليه أن يمتعها بأن يدفع لها شيئا من المتاع ذهبا أو مالا أو لباسا مما يجبر كسر شأنها عند قريناتها.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ من دون نزاع أو جدل، أو تهمة يلقيها كل طرف على الآخر، تبريرا للفرقة، أو تشفيا من صاحبه، وهذا الأمر ينبغي أن ينسحب على جميع العقود والمعاملات الاجتماعية والمالية وغيرهما.

[٥٠] ثم ينتقل السياق لبيان بعض أحكام الزواج بالنسبة للرسول ﷺ فالزواج من الشؤون البشرية التي ينبغي للأنبياء الاهتمام بها، باعتبارهم الأسوة للناس في سائر الجوانب حتى الاجتماعية منها، فليس من الصحيح أن يجد الرسول غضاضة ولا حرجا في الزواج لكونه نبيا أو قائدا، وهذا ما أكدته الآية الكريمة: ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ﴾ [الأحزاب: ٣٨]. والزواج الذي يحل للرسول ﷺ على أنواع ثلاثة:

الأول: ما يلتقي فيه مع الناس من جهة، ويختلف معهم من جهة أخرى، وهو الزواج العام فتحل المرأة للرسول كما لسائر المؤمنين بعد العقد والمهر، بينما يختلف الرسول عن غيره في جواز زواجه بأي عدد شاء من دونهم، إذ لا يحل لهم الزواج الدائم بأكثر من أربع نساء: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ ﴾.

وعن الحلبي عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «سَأَلْتُهُ عَنْ قَوْلِ الله عَزَّ وجَلَّ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ﴾ قُلْتُ كَمْ أُحِلَّ لَهُ مِنَ النِّسَاءِ؟ قَالَ عليه السلام: مَا شَاءَ مِنْ شَيْءٍ»[1].

(١) الكافي: ج٥، ص ٣٨٧.

الثاني: ما يتفق فيه مع سائر المؤمنين، وهو الزواج من الإماء والأقرباء.

﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾ والأمة: هي المرأة التي يتملكها الرجل بالأسر أو الشراء، ولا يكتفي الله بالتعبير ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ إنما يضيف ﴿مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾، وذلك ليقول للرسول ولنا أيضا: بأن الزواج لا يتم من غير ثمن، فهو إن لم يكن بالأجر (المهر) فبالأسر، وكلاهما فيه تعب وصعوبة.

ومما يجوز للرسول الزواج منهن القريبات اللاتي تربطه بهن العلاقة العائلية ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ أما التي لا تهاجر مع الرسول ﷺ، وتبقى في مكة فلم يكن جائزا له الزواج منها.

الثالث: ما ينفرد به النبي عن سائر المؤمنين وهي المرأة التي تهب نفسها له، فإنه يجوز له الزواج بها من دون أجر: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وفي تضاعيف الكلام يلاحظ انسجام التعابير مع تخصيص المورد للرسول وحده، فقد تكررت كلمة: ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾ مرتين في موقع يمكن الاستغناء عن الثانية لولا هذا الأمر، ثم أكد ربنا: ﴿خَالِصَةً لَّكَ﴾ تحديدا للخطاب بأنه يعني الرسول ﷺ وحده، ولم يكتف بذلك إنما صرح بانفراده بها، إذ قال: ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

قال الحلبي: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن المرأة تهب نفسها للرجل ينكحها من غير مهر؟ فقال: «**إِنَّمَا كَانَ هَذَا لِلنَّبِيِّ ﷺ وأَمَّا لِغَيْرِهِ فَلا يَصْلُحُ هَذَا حَتَّى يُعَوِّضَهَا شَيْئاً يُقَدِّمُ إِلَيْهَا قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ بِهَا قَلَّ أَوْ كَثُرَ ولَوْ ثَوْبٌ أَوْ دِرْهَمٌ وقَالَ يُجْزِئُ الدِّرْهَمُ**»[1].

وعن محمد بن قيس عن أبي جعفر عليه السلام قال: «جَاءَتِ امْرَأَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَدَخَلَتْ عَلَيْهِ وهُوَ فِي مَنْزِلِ حَفْصَةَ والمَرْأَةُ مُتَلَبِّسَةٌ مُتَمَشِّطَةٌ فَدَخَلَتْ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ الله إِنَّ المَرْأَةَ لَا تَخْطُبُ الزَّوْجَ وأَنَا امْرَأَةٌ أَيِّمٌ[2] لا زَوْجَ لِي مُنْذُ دَهْرٍ ولاَ وَلَدَ فَهَلْ لَكَ مِنْ حَاجَةٍ فَإِنْ تَكُ فَقَدْ وَهَبْتُ نَفْسِي لَكَ إِنْ قَبِلْتَنِي فَقَالَ لَهَا رَسُولُ الله ﷺ خَيْراً ودَعَا لَهَا ثُمَّ قَالَ ﷺ: **يَا أُخْتَ الأَنْصَارِ جَزَاكُمُ اللهُ عَنْ رَسُولِ الله خَيْراً فَقَدْ نَصَرَنِي رِجَالُكُمْ ورَغِبَتْ فِيَّ نِسَاؤُكُمْ**. فَقَالَتْ لَهَا حَفْصَةُ: مَا أَقَلَّ حَيَاءَكِ وأَجْرَأَكِ وأَنْهَمَكِ لِلرِّجَالِ فَقَالَ لَهَا رَسُولُ الله ﷺ: **كُفِّي عَنْهَا يَا حَفْصَةُ فَإِنَّهَا خَيْرٌ مِنْكِ رَغِبَتْ فِي رَسُولِ الله فَلُمْتِهَا وعَيَّبْتِهَا**.

ثُمَّ قَالَ لِلْمَرْأَةِ: **انْصَرِفِي رَحِمَكِ اللهُ فَقَدْ أَوْجَبَ اللهُ لَكِ الجَنَّةَ لِرَغْبَتِكِ فِيَّ وتَعَرُّضِكِ لِمَحَبَّتِي**

(١) الكافي: ج٥، ص٣٨٤.
(٢) الأيم: التي لا زوج لها، بكراً كانت أو ثيباً.

وسُرُورِي وسَيأْتِيكِ أَمْرِي إنْ شَاءَ اللهُ فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ﴾ قَالَ ﷺ: فَأَحَلَّ اللهُ عَزَّ وجَلَّ هِبَةَ المَرْأَةِ نَفْسَهَا لِرَسُولِ الله ﷺ ولَا يَحِلُّ ذَلِكَ لِغَيْرِه»[1].

وتأكيد رابع يضيفه القرآن بأن هذا الحكم يخص الرسول وحده حين يقول، بأن للمؤمنين أحكاما خاصة تختلف عن أحكام النبي في الزواج: ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾ من وجوب المهر، فلا يمكن لأحد غير النبي أن يتزوج امرأة من دون مهر أبدا، والسبب أن المهر فرض للمرأة، ضمانا لها من استهتار بعض الرجال، والرسول معصوم أن يحيف زوجته أو يظلمها.

وإذ ينتهي الحديث لهذه الفكرة فمن أجل رفع الحرج عن النبي ﷺ حيث خص دون غيره ببعض الأمور، تبين ذلك الآية الكريمة: ﴿لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾.

[٥١] و هكذا ينساب السياق مبينا جانبا من حدود العلاقة الزوجية عند الرسول حيث يقول: ﴿تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُۖ وَمَنِ ٱبۡتَغَيۡتَ مِمَّنۡ عَزَلۡتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكَۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعۡيُنُهُنَّ وَلَا يَحۡزَنَّ وَيَرۡضَيۡنَ بِمَآ ءَاتَيۡتَهُنَّ كُلُّهُنَّۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمٗا﴾ وقد انقسم المفسرون في هذه إلى فريقين:

الأول: ربطها بما قبلها، وقال أن الآية: ﴿تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُۖ﴾ يخاطب الرسول: بأنك حر ترفض من تهب نفسها إليك، أو تقبلها وتتزوجها، واستندوا في رأيهم هذا إلى خبر عن الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «قُلْتُ: أ رَأَيْتَ قَوْلَهُ: ﴿تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُۖ﴾ قَالَ عليه السلام: مَنْ آوَى فَقَدْ نَكَحَ و مَنْ أَرْجَأَ فَلَمْ يَنْكِحْ»[2].

الثاني: فسرها بحرية الرسول ﷺ في تقسيم وقته على زوجاته كيفما يشاء، وليس كما ترى زوجاته، أو على أساس قانون معين له.

وانسجاما مع هذا الرأي يكون تفسير الآية: إنك يا رسول الله تستطيع أن تنام عند من تشاء من زوجاتك، وتترك الأخريات: ﴿تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُۖ﴾، بل أنت حر لو عينت ليلة ما لزوجة ما ثم بدا لك أن تغير الوقت أن تفعل بما تراه ﴿وَمَنِ ٱبۡتَغَيۡتَ مِمَّنۡ عَزَلۡتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكَۚ﴾، وهذا الأمر يرفع احتمال النزاع بين زوجات الرسول لعلمهن بأن الأمر

(١) الكافي: ج٥، ص٥٦٨.
(٢) الكافي: ج٥، ص٣٨٧، تفسير القمي: ج٢، ص١٩٢.

بيده لا بأيديهن: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ﴾. والله يعلم حقيقة ما تنطوي عليه القلوب إزاء حكم النبي ﷺ فليكن ذلك محل انتباه ورعاية في بواطنهن كما الظاهر، والله حينما شرع ذلك إنما كان لعلمه بمصالح العباد، وما يتطلبه موقع النبي ﷺ.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ فلا يعاجل بالحساب بما تنطوي عليه القلوب، ليعطي فرصة للرشد.

[٥٢] وكما كانت الآيات السابقة قد أحلت للرسول بعض الأمور، جاءت هذه الآية لتحرم عليه أمورا أخرى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا﴾ وفي هذه الآية أقوال عديدة:

١ - أن الآية جارية على ظاهر لفظها، ومعنى ذلك: لا يجوز للرسول بعد نزول هذه الآية أن يتزوج غير زوجاته التسع، ولا أن يطلق إحداهن ليتزوج غيرها، باستثناء الإماء.

٢ - و هناك روايات تخالف هذا الرأي، حيث تستنكر أن يجوز للإنسان العادي استبدال زوجاته، بينما يحرم ذلك على الرسول ﷺ وتفسير الآية بأنها تحرم عليه الزواج من غير النساء اللاتي حددتهن الآية السابقة، ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ..﴾.

وبناء على المعنى الأول فقد أوقف الله حرية الرسول ﷺ في الزواج، وذلك ليعرفنا أن تزوج النبي لم يكن بهدف الشهوة إنما لأهداف نبيلة أخرى، فمرة يتزوج امرأة بعد أن جربت الحياة الزوجية التي انتهت بالطلاق عدة مرات من أجل أن يستر عليها، ويتزوج بثانية لكي يستميل عشيرتها، وبثالثة من أجل أن ينقض عادة جاهلية قائمة في المجتمع تقضي بحرمة الزواج من مطلقات الأدعياء. ويكون مجرى الآية لحماية النبي ﷺ من الضغوط من قبائل وبيوتات العرب للتصاهر مع النبي ﷺ والتنافس بينهم في نيل شرف مصاهرته.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ على هذا لدفع مبرر ربما يستعين به من يعرض على النبي ﷺ، وإنما سيق الخطاب للنبي من باب إياك أعني واسمعي يا جارة. واستثناء الإماء لأن المشكلة تكمن مع الحرائر، والله العالم.

[٥٣] ثم يبين الله بعد ذلك العلاقة بين الرسول ومن يحضر إلى منزله محددا بعض الأحكام والأدب التي تمس هذه العلاقة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟﴾.

١- الدخول إلى بيت النبي يجب أن يكون مسبقا بإذن.

٢- وعند الدعوة إلى الطعام يجب أن لا يدخل مسبقا، وينتظر أوان الطعام، لأن من آداب الأكل في بيوت الآخرين أن يأتي في الوقت المناسب، وذلك لأن المجيء أول النهار وانتظار الغداء يسبب الإزعاج لصاحب البيت، وقد جاء في السيرة: «أن رسول الله ﷺ أولم على زينب بتمر وسويق، وذبح شاة، فأمر أنسا أن يدعو أصحابه، فترادفوا أفواجا، فوج يدخل فيخرج، ثم يدخل فوج، إلى أن قال: يا نبي الله! قد دعوت حتى ما أجد أحدا أدعوه، فقال: ارفعوا طعامكم، وتفرق الناس وبقي ثلاثة نفر يتحدثون فأطالوا، فقام رسول الله ﷺ ليخرجوا، فطاف بالحجرات، فرجع فإذا الثلاثة جلوس مكانهم، وكان ﷺ شديد الحياء، فتولى، فلما رأوه متوليا خرجوا ونزلت الآية»[1].

٣- ولكن إذا دعيتم فادخلوا، ولا يمنعكم الحياء من الاستجابة للرسول.

﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا﴾ ولا تطلبوا الجلوس عند النبي حتى لو كان بهدف نبيل، كالاستفادة من حديثه، أو حديث بعضكم مع بعض ﴿وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾.

ثم يبين القرآن خلفية هذا النهي: بأن الجلوس ربما يؤدي إلى إحراج الرسول وأذاه، بما ينتهي إليه من آثار سلبية على برنامج حياته العائلية أو السياسية.. الخ.

﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾

٤- وعلى الضيف أن يراعي حرمة البيت الذي يحل فيه، فلو اضطرته الحاجة للتعامل مع أهله من النساء يجب أن يتعامل معهن بأدب، وبمقدار حاجته، ومن وراء حجاب، فبعد نزول هذه الآية صار حراما على المؤمنين التحدث مع نساء الرسول إلا بهذه الكيفية.

﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ أما عن حكمة هذا التشريع فهي الوقاية من الذنب، والتي لا تتم إلا بطهارة القلب، وهذه الطهارة لا تتأتى إلا بابتعاد الإنسان عن أسباب المعصية، والتي من بينها حديث المرأة مع الرجل وبالذات إذا لم يكن ثمة حجاب بين الطرفين، ذلك أن من طبيعة المرأة كما من طبيعة الرجل أن يميل أحدهما للآخر بالغريزة، ولعل الحديث بينهما بغير الصورة التي تهدي لها الآية ينتهي إلى المعصية.

﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ ولأن الرسول كان يدرك هذه الحقيقة لم يكن ليتقبل هذه الحالة، بل كانت تلحق به الأذى النفسي ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾.

(١) جوامع الجامع للعلامة الطبرسي: ج٣، ص٧٧.

ولكي يقطع الله الطريق على القلوب المريضة، وبالتالي ينهي هذه المشكلة التي تؤذي الرسول، حرم الزواج من نسائه بعده ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًا﴾.

ومع ملاحظة ظروف نزول الآية نعرف أن هذا الحكم يختص بنساء النبي اللاتي تعرضن لأذى المنافقين، حيث طمع بعضهم في الزواج منهن بعد الرسول، وصرح بذلك بوقاحة، فحرم الله ذلك عليهم.

إن احترام بيت الرسالة كان يقتضي عدم ظهور نساء الرسول في المواقع العامة، وعدم تحدثهن مع الرجال إلا من وراء ستر، بينما يحل مثل ذلك لغيرهن إذا حافظن على حدود الستر والعفاف.

قال علي بن إبراهيم: «لَمَّا أَنْزَلَ اللهُ ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ﴾ وَحَرَّمَ اللهُ نِسَاءَ النَّبِيِّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ غَضِبَ طَلْحَةُ فَقَالَ: يُحَرِّمُ مُحَمَّدٌ عَلَيْنَا نِسَاءَهُ وَيَتَزَوَّجُ هُوَ بِنِسَائِنَا لَئِنْ أَمَاتَ اللهُ مُحَمَّداً لَنَرْكُضَنَّ بَيْنَ خَلَاخِيلِ نِسَائِهِ كَمَا رَكَضَ بَيْنَ خَلَاخِيلِ نِسَائِنَا. فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ﴾»[1].

وربما كان هدف هؤلاء المنافقين هو إيذاء الرسول إلا إنهم يخفون هذه النوايا ببعض التبريرات كقولهم: لماذا يتزوج هو بنسائنا، ولا يصح لنا العكس، فهددهم الله من طرف خفي إذ قال:

﴿إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ وهناك حكمة أخرى لهذا التشريع الإلهي يذكره بعض المفسرين: إن مركز نساء النبي العظيم كان يستهوي الطامعين في السلطة أو الشهرة، وكان أمثال هؤلاء يمنون أنفسهم بنكاح أزواج النبي من بعده للحصول على مكانة اجتماعية تعقبها مناصب سياسية، ولعل بعضهم كان ينوي نشر أفكاره من خلال ذلك بادعاء أنه أضحى من أهل البيت وهم أدرى بما في البيت.

ولعل الآية تشير -من طرف خفي- إلى عدم جواز استغلال مكانة أزواج النبي للوصول إلى مراكز سياسية أو اجتماعية كما حصل فعلا -ومع الأسف- بين المسلمين من بعد رحيل الرسول ﷺ.

[٥٤] ثم كشف هذا الواقع، وأكد للمنافقين أنه يعلم به ﴿إِن تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا﴾ بالتصريح به ﴿أَوۡ تُخۡفُوهُ﴾ بمختلف المظاهر والتبريرات التي تخدعون بها الناس الذين لا يعلمون إلا

(١) بحار الأنوار: ج١٧، ص٢٧. تفسير القمي: ج٢، ص١٩٤.

الظاهر ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾

وأخيرا: فإن هذه الآية الكريمة -وكما أشرنا في بدايات الدرس- تصلح أن تكون نبراسا للمسلمين في كل مكان في علاقتهم مع قيادتهم، فيحترمونها، ويفرضون على أنفسهم حقوقا لها، لكي يستطيع القائد تقديم أكبر قدر من الخدمة للأمة، ولمبادئها وأهدافها.

صلوا عليه وسلموا تسليما

﴿لَّا جُنَاحَ[1] عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ[2] مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ[3] ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ[4] فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ[5] ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾.

(١) جناح: ذنب.
(٢) يدنين عليهن: يُقربن ويغطين.
(٣) جلابيبهن: الجلباب خمار المرأة الذي يغطي رأسها وجهها.
(٤) والمرجفون: الارجاف إشاعة الباطل والأخبار الكاذبة.
(٥) لنغرينك بهم: الإغراء الدعاء إلى تناول الشيء بالتحريض عليه، والمراد تسلطك يا رسول الله عليهم.

هدى من الآيات:

يتابع السياق في هذا الدرس حديثه عن نساء النبي، وضرورة احتجابهن عن الأجانب من الرجال والنساء إلا ما استثني، وإذ يفرض عليهن الحجاب تجاه غير المؤمنات من النساء، فلأنهن قد يصبحن نافذة للأجانب من الرجال على المرأة المؤمنة، ويصفن جمال المؤمنات لهم، حيث لا يملكن رادعا دينيا عن القيام بهذا العمل.

ثم ينتقل السياق إلى الحديث عن الرسول ﷺ بعد الحديث عن نسائه، وقد سبق القول: بأن العلاقة بين أسرة الرسول والرسول نفسه، أي النواحي القيادية فيه لهي علاقة وثيقة، لأنها العلاقة بين مركز الإنسان الذي منه ينطلق ويتقدم، وبين أهدافه ووسائل تحركه في الحياة، فلا ريب أن البيت الصالح والذي يكون أهله في مستوى المسؤولية سوف يساعد الإنسان على القيام بمهامه، وإذا كان المثل الشائع يقول: وراء كل رجل عظيم امرأة، فإنا نقول: وراء كل رجل عظيم بيت مبارك. ولهذا كان من أهم تطلعات عباد الرحمن الذين تحدثنا عنهم سورة الفرقان هو البيت الصالح، وإمامة المتقين. لأنهم يدركون أهمية هذا الأمر في تحقيق طموحهم الأسمى وهو قيادة المجتمع: ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٤]. ومن أجل أن يطمئن قلب الإنسان، وينطلق لقيادة المجتمع، لا يكفي أن تكون زوجته وحدها صالحة، لأن للأولاد وعموم أفراد الأسرة أثرا بالغا على شخصية القائد، وهنا يجب أن نؤكد على ضرورة التفات المرأة إلى موقعها في حياة زوجها، فإن طبيعة سلوكها معه سوف تؤثر في حياته، فعليها إذن أن تسعى لتنظيم حياتها وأسرتها معه.

من هنا نجد الامتزاج والاختلاط بين شطري السياق واضحا في تمام السورة، يلتقيان تارة وينفصلان أخرى ليلتقيا من جديد وهكذا، وهذان الشطران هما بعد القيادة في البيت، وبعدها في المجتمع.

ثم يدعونا القرآن للصلاة على النبي ﷺ الذي يصلي عليه الله وملائكته وينتهي السياق بالإشارة إلى أذى المنافقين للرسول ﷺ في حياته وبعد وفاته، المتمثل في عدم تطبيق مناهجه، و عدم القيام بمسؤولياتهم تجاهه كقائد، وأعظم من ذلك محاولتهم الحط من شأنه، والذي يناقض صلاة المؤمنين عليه وتسليمهم له، وينذرهم القرآن بالطرد من المدينة، واجتثاث جذورهم منها إذا ما استمروا في عملهم هذا، كما نجد في -البين- توصية للمؤمنات بضرورة الحجاب، وقاية لهم من أذى المنافقين، وأصحاب القلوب المريضة، والمرجفين.

بينات من الآيات:

[٥٥] تحدثنا هذه الآية عن بعض حدود الحجاب الاجتماعية، وبيان من يستثنى من هذا الحكم ممن يمكن لنساء النبي عدم التحجب معهم.

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ﴾ أي لا عتب ولا ذنب على نساء النبي، لو لم يتحجبن عمن تشير إليهم الآية وهم: ﴿فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ أن يتحدثن معهم من دون حجاب، ثم تضيف الآية: ﴿وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾ أي النساء اللواتي يتحدث معهن في الدين، ثم يستثني القرآن الأخريات من النساء في وضع خاص، وذلك إذا كن إماء تحت أيديهن ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ من غير نسائهن (المؤمنات) فعموم النساء غير المؤمنات يجب التحجب عنهن إلا الإماء، وذلك للحرج والوقوع في ما لا يطاق، ولأن الأمَة مقطوعة عن مجتمعها الكافر فهي لا تكون نافذة عليه.

وفي الآية التفاتة لطيفة يتعرض لها المفسرون وهي سكوتها عن الخال والعم، ويرجعون ذلك لحرمة جلوس نساء النبي لهذين الاثنين من غير حجاب، والسبب أن أبناء العم والخال يجوز لهم الزواج من أبناء العمة والخالة، فمن الممكن أن يحكي العم والخال لأولادهم حال بنت أخيهما أو أختهما، مما يمكنهما تشجيعهم على الزواج منها بعد طلاقها أو وفاة زوجها، بينما يحرم ذلك بقاعدة خاصة على المؤمنين جميعا من نساء النبي ﷺ فوجب عليهن التحجب عن أخوالهن وأعمامهن من دون سائر المؤمنات[1]، وهو يناسب سبب نزول الآية السابقة. والذي يؤيد هذا الرأي أن من تعرضت لهم الآية من الذكور لا يجوز لهم الزواج من نساء النبي وإن نزلوا.

وهناك رأي آخر يقول: «فقد إمتنع عن ذكر الأعمام والأخوال هنا، وذلك لأنه حينما ذكر أولاد الأخ وأولاد الأخت ، فسوف يتضح حكم الأعمام والأخوال من المحارم، لأن لهذه المحرمية جانبان، فكما أن ابن الأخ محرم بالنسبة إلى المرأة، فإنها ستكون محرما أيضا بالنسبة إلى ابن أخيها -ونحن نعلم أن مثل هذه المرأة تعتبر (عمة) -ولأن ابن الأخت كما هو محرم عليها فإنها ستكون محرما بالنسبة إلى ابن الأخت، ونعلم أن مثل هذه المرأة هي (الخالة). وعندما تكون العمة والخالة محرما بالنسبة إلى ابن الأخ وابن الأخت، فإن العم والخال سيكونان أيضا محرما بالنسبة إلى ابنة الأخ وابنة الأخت، حيث لا فرق بين العم والعمة، والخال والخالة»[2].

---

(١) راجع تفسير مجمع البيان: ج٨ ص٤٧٧، فقد أورد عن الشعبي وعكرمة أنهما قالا: «إنما لم يذكر العم والخال لئلا ينعتاهن لأبنائهما».

(٢) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ج١٣ ص٣٣٨.

ولم تذكر الآية أيضا والد الزوج أو ابنه لأنهما -بالنسبة إلى نساء النبي- لم يكونا موجودين عملا.

وبعد هذه المجموعة من الأحكام المتقدمة يحث القرآن نساء النبي على التقوى قائلا: ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ﴾ وهذا التأكيد على التقوى لسببين:

الأول: حتى لا تزعم أية زوجة للرسول أن مجرد انتمائها إليه يعفيها عن المسؤوليات الدينية، أو يجعلها أرفع درجة من غيرها. كلا.. بل الأهم من الانتماء الظاهري انتماؤها الواقعي للنبي بالتقوى.

الثاني: لأن التقوى أفضل وازع نفسي عن تعدي حدود الشريعة، وما لم يسع المؤمن نحو إيجاد روح التقوى في نفسه فإنه لن يستطيع الالتزام بكثير من الأحكام، ذلك أن من طبيعة البشر أنه يريد أن يكون مطلقا كما يهوى، وليس من شيء يواجه هذه الطبيعة كالتقوى لما توجده من إحساس بالرقابة الإلهية الدائمة وجاء في أحد التفاسير: ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ﴾ في نقل الكلام من الغيبة إلى الخطاب دلالة على فضل تشديد فيما أمرن به من الاحتجاب والاستتار، أي واسلكن طريق التقوى فيما أمرتن به، واحتطن فيه[1]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾.

الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله

[٥٦] في سياق الحديث عن عظمة الرسول والأحكام التي يتميز بها يدعو الله المؤمنين إلى الصلاة عليه، والتسليم لقيادته، فلا يكتمل علاج المحيط الاجتماعي إلا من خلال الصلاة على الرسول صلى الله عليه وآله والتسليم له، فما هو معنى الصلاة على النبي؟.

لعل أصل معنى الصلاة هو التعطف والترؤف -كما ذكرنا آنفا- أما الصلاة على النبي فهي الدعاء إلى الله بأن يرحمه، ويرفع درجته، ويبلغه المقام المحمود الذي وعده، أما صلاة الله على نبيه، فبالنسبة إلى الله تأخذ الكلمات غاياتها وتترك مبادئها، فحينما نقول بأن الله يحب، ويبغض، وينتقم، فليس المعنى أنه تطرأ عليه هذه الحالات -سبحانه- فتغير فيه شيئا كما تغير في نفوسنا وأجسامنا، إنما تصدق على الله الغايات منها، فعطفه على الإنسان هو هدايته له، وإنعامه عليه، وصلاته على نبيه، إنه يستجيب الدعاء في حقه، وبسببه يرفع مقامه.

وصلاة الملائكة على الرسول صلى الله عليه وآله تعني الدعاء له عند ربهم، وتأييد تابعيه، أما صلاة المؤمنين التي أوجبها الرب علينا في صلواتنا، وندب إليها في كل وقت، وبالذات عند ذكره

(١) تفسير جوامع الجامع: ص٣٧٧.

ﷺ فهي تعني الدعاء له، والتقرب إلى مقامه الكريم، ومن أبرز الحكم فيها:

أولاً: تصحيح عقيدة المسلم، ففي الوقت الذي يجب أن يعظم المسلم نبيه ﷺ لا يجوز أن يغلو فيه فيمرق من الدين، بلى؛ يكرمه من خلال الدعاء إلى الله سبحانه لتبقى صلته الأولى بربه، ومن خلال توحيد الله، وحبه الشديد يكرم المسلم الرسول ويحبه، وفي ذات الوقت تبقى علاقته بالرسول وسيلته للتقرب إلى الله.

ومن دون التسليم له ولمن أمر الرسول باتباعه، ومن دون حب الرسول وحب من أمر بحبهم لا يمكن أن يتقرب المسلم إلى ربه. هكذا تحمل كلمات الصلاة على الرسول وآله إطار العقيدة الإسلامية، وتعني المزيد من التقرب إلى الله ولكن بالرسول، والمزيد من حب الرسول، ولكن في الله.

ثانياً: أن ذلك حق علينا تجاه الرسول الذي أجهد نفسه من أجل البشرية، وتحمل الأذى في سبيل هدايتها، حتى قال ﷺ: **«مَا أُوذِيَ نَبِيٌّ قَطُّ بِمِثْلِ مَا أُوذِيتُ»**[١].

وأبرز شكر نقدمه للنبي ﷺ على ما نملك اليوم من الهداية والخير، اللذين كانا بسببه، يكون بالصلاة عليه (الدعاء له).

ثالثاً: أن صلاتنا عليه يعود علينا بالنفع والخير، كما جاء في الدعاء للمؤمن، ففي الحديث قال الإمام الصادق عليه السلام: **«دُعَاءُ المُسْلِمِ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الغَيْبِ يَسُوقُ إِلَى الدَّاعِي الرِّزْقَ ويَصْرِفُ عَنْهُ البَلَاءَ ويَقُولُ لَهُ المَلَائِكَةُ لَكَ مِثْلَاهُ»**[٢].

وحينما ندعو الله للرسول أن يرفع درجته من الناحية المعنوية والمادية فإنا أيضا ترتفع درجاتنا كتابعين له.

جاء في الحديث المأثور عن الرسول ﷺ: **«مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ ومَلَائِكَتُهُ ومَنْ شَاءَ فَلْيُقِلَّ ومَنْ شَاءَ فَلْيُكْثِرْ»**[٣].

إن الرسول هو قائدنا في الدنيا والآخرة، فكلما ارتفعت درجته، وعلا مقامه، فإن درجات المؤمنين به ترتفع وتعلو، جاء في حديث مأثور عن الإمام الصادق عليه السلام: **«أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ يَا رَسُولَ الله ﷺ إِنِّي أَجْعَلُ لَكَ ثُلُثَ صَلَوَاتِي لَا بَلْ أَجْعَلُ لَكَ نِصْفَ**

(١) بحار الأنوار: ج٣٩، ص٥٥.
(٢) وسائل الشيعة: ج٧، ص١١٢.
(٣) وسائل الشيعة: ج٧، ص١٩٤.

صَلَوَاتِي لَا بَلْ أَجْعَلُهَا كُلَّهَا لَكَ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ إِذاً تُكْفَى مَئُونَةَ الدُّنْيَا والآخِرَةِ»[1].

وفي رواية: «إِنَّ رَسُولَ الله جَاءَ ذَاتَ يَوم وَالبُشْرى تُرَى فِي وَجْهِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: إِنَّه جَاءَنِي جِبرائِيلُ، فَقَالَ: أَمَا تَرْضَى يَا مُحمدُ أَنْ لا يُصَلي عَلَيْكَ أَحَدٌ مِنْ أُمتكَ صَلاةً وَاحِدَةً إِلَّا صَلَيْت عَلَيهِ عَشْرا، وَلَا يُسلِمُ أحدٌ مِنْ أُمتكَ إِلَّا سَلمْت عَلَيْهِ عَشْرا»[2].

وحتى في الدنيا فإنه كلما ارتفعت درجته ﷺ كلما ارتفع شأن المسلمين جميعا.

رابعاً: إن الصلاة على النبي ﷺ من وسائل استجابة الدعاء، وقد يدعو العبد ربه ألف مرة فلا يستجيب له حتى يصلي على محمد ﷺ يبدأ بها ويختم.

قال الرسول ﷺ: «صَلَاتُكُمْ عَلَيَّ إِجَابَةٌ لِدُعَائِكُمْ وزَكَاةٌ لِأَعْمَالِكُمْ»[3].

وقال الإمام علي عليه السلام: «لَا يَزَالُ الدُّعَاءُ مَحْجُوباً حَتَّى يُصَلَّى عَلَى مُحَمَّدٍ وآلِ مُحَمَّدٍ»[4].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «مَنْ كَانَتْ لَهُ إِلَى الله عَزَّ وجَلَّ حَاجَةٌ فَلْيَبْدَأْ بِالصَّلَاةِ عَلَى مُحَمَّدٍ وآلِهِ ثُمَّ يَسْأَلْ حَاجَتَهُ ثُمَّ يَخْتِمْ بِالصَّلَاةِ عَلَى مُحَمَّدٍ وآلِ مُحَمَّدٍ فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يَقْبَلَ الطَّرَفَيْنِ ويَدَعَ الوَسَطَ إِذَا كَانَتِ الصَّلَاةُ عَلَى مُحَمَّدٍ وآلِ مُحَمَّدٍ لَا تُحْجَبُ عَنْهُ»[5].

أما عن الهدف المباشر لهذه الصلاة فهو التسليم للرسول، واتخاذه أسوة وإماما، وقد أفرد العلامة المجلسي في كتابه بحار الأنوار باباً خصصه لتفسير هذه الآية الكريمة[6].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ وكم هو عظيم أن يستجيب العبد المؤمن إلى ربه بالصلاة على النبي ﷺ ليتمي إلى حزب الله الذي يضم الملائكة المقربين، ولكن ليس كل صلاة تحقق له هذا الانتماء، إنها التي يتلفظها بلسانه، عارفا بحدودها في عقله، مسلمة لها نفسه، خاضعة لها جوارحه، فإذا سمع الخطيب يقول: قال رسول الله ﷺ يجب أن يصلي عليه بلسانه، ويستوعب الصلاة بمعرفته، ويستعد لتطبيقها بنفسه، ثم ينطلق من عنده للعمل وفقها وبما تقتضيه، ومن الناحية النفسية الذي يدعو لآخر في غيابه فإنه سيحبه حتى لو كانت بينهما عداوة، ذلك أن الدعاء يلين جانب الداعي للطرف الآخر

(١) وسائل الشيعة: ج٧ ص٩٢.
(٢) سنن النسائي: ج٣، ص٥٠، تفسير القرطبي: ج١٤ ص٢٣٧.
(٣) وسائل الشيعة: ج٧، ص٩٦.
(٤) الكافي: ج٢، ص٤٩١.
(٥) بحار الأنوار: ج٩٠، ص ٣١٦.
(٦) راجع بحار الأنوار: ج٢، ص١٩٩ وما بعدها.

من جهة، ومن جهة أخرى يشعر المدعو له بالميل ومن ثم المحبة، حتى ولو لم يفعل شيئا غير الدعاء، لأن للقلوب عليها شواهد، ولأن النفوس جنود مجندة، تتآلف غيبيا كما تتآلف شهوديا.

ونحن عندما نصلي على رسول الله ﷺ فإن حبه واحترامه يسمو في قلوبنا إلى أن نصير محبين له، مما يسهل علينا طاعته، والتأسي به، وقد قرأت في علم النفس: أنه وبعد التجارب العديدة ثبت أن الحب أقوى عامل للطاعة، وأن الطفل -على سبيل المثال- أكثر ما يطيع أمه حبا لها، لا خوفا منها، وفي المقابل تقدم الأم لطفلها الحنان والعطف والتضحيات لأنها تحبه.

[٥٧] إن الذي يبتعد عن رسول الله ﷺ يبتعد عن رحمة الله وهؤلاء هم الذين يؤذون رسول الله، سواء بالنيل من شخصيته أو بأذى ذريته أو بمخالفته أو ما أشبه.

وفي أكثر من مناسبة قرنت طاعة الله بطاعة رسوله، وهنا نجد أن السياق يذكر أذى الله قبل أذى الرسول للتأكيد بأن الموقف من الرسول يحدد الموقف من رب العالمين، فمن آذى الرسول فقد آذى الله.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾

وهؤلاء بدل الصلاة على النبي وآله المفروضة عليهم تراهم يؤذون النبي في نفسه أو في أهل بيته أو في التابعين له، فتلحقهم لعنة الله في الدنيا بالابتعاد عن بركاته، وفي الآخرة بالحرمان من شفاعة الرسول ﷺ.

ونستوحي من الآية فكرة هامة وهي: أن الأمة التي تؤذي القيادة الرسالية بمخالفتها، والاستهانة بها تعذب في الدنيا والآخرة، بينما الأمم التي تعودت على الخضوع لقيادة الحق تكون أعز وأعظم شأنا في الدنيا والآخرة.. وواضح من واقع الأمة الإسلامية أنها حين التزمت بالطاعة للقيادة الرسالية في مطلع فجرها صارت أعز الأمم وأفضلها، أما حين نبذت أئمة الحق انحرفت مسيرتها نحو الدمار والتخلف.

[٥٨] ولأن ثمة أناس لا يستطيعون النيل من الرسول، فإنهم يحاولون المس بكرامة المؤمنين، وقد تعرض السياق لأذى المؤمنين، مؤكدا بأنه ينتهي إلى العذاب أيضا، ولا ريب أن من يؤذي أتباع الرسول -نساء أو رجالا- فإنه يؤذي نفس النبي، وبالتالي يؤذي الله.

ولقد ثبت في التاريخ: أن أبا طالب -والد الإمام علي عليه السلام- كان من أرفع المؤمنين درجة، وأقربهم إلى النبي ﷺ وقد سمى الرسول العام الذي توفي فيه أبو طالب رضي الله عنه بعام الحزن، وكيف لا وكان له بمنزلة الأب الحنون؟! ولكن أقحمت بعض الروايات الملفقة حوله

في كتب التاريخ بهدف إسقاط شخصيته.

وحينما ندرس خلفيات هذه الروايات نجد أن هدفها النيل من بطل الإسلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ذلك أن مروجيها لم يجدوا نقصا في شخصية الإمام فانتقصوا والده، والملاحظ أن هذه المرويات انتشرت أيام بني أمية الذين بنوا سلطتهم على الحقد الدفين للإمام علي وأهل بيته عليهم السلام.

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ ﴾ إنما بالافتراء المحض، والتهم الكاذبة ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ والبهتان هو التهمة التي لا واقع لها، و إذ يصف القرآن أذاهم بذلك فلكي يرفع التهمة أولاً عن المؤمنين، أما الإثم المبين فهو الذنب التام الذي يمارسه صاحبه عن وعي وعمد، وجاء في الأثر عن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال: «**مَنْ بَهَتَ مُؤْمِناً أَوْ مُؤْمِنَةً أَوْ قَالَ فِيهِ مَا لَيْسَ فِيهِ أَقَامَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى تَلٍّ مِنْ نَارٍ حَتَّى يَخْرُجَ مِمَّا قَالَ فِيهِ**»[1].

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ نَادَى مُنَادٍ أَيْنَ الصُّدُودُ لِأَوْلِيَائِي فَيَقُومُ قَوْمٌ لَيْسَ عَلَى وُجُوهِهِمْ لَحْمٌ فَيُقَالُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ آذَوُا الْمُؤْمِنِينَ وَنَصَبُوا لَهُمْ وَعَانَدُوهُمْ وَعَنَّفُوهُمْ فِي دِينِهِمْ ثُمَّ يُؤْمَرُ بِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ**»[2].

[٥٩] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ﴾ والجلباب هو العباءة، وإنما أمر الله المؤمنات بتثبيت العباءة لأنهن وهن يلبسنها قد لا يراعين الألبسة التي تليها، فقد تكون مما لا يليق ظهوره للآخرين، ويبين القرآن أن الهدف الأهم من وراء هذا الفرض: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.

والمعرفة هنا تحتمل أحد تفسيرين:

١ - أن يعرفن من بين النساء، أنهن ينتسبن إلى رسول الله أو إلى فلان من المؤمنين، فيؤذين إمعانا في الأذى لذلك الطرف، سواء بالكلام البذيء أو غيره.

٢ - أن تعرف مفاتنهن وزينتهن مما يسبب الأذى لهن، والملاحظ أن قسما من المؤمنات لا يراعين كيفية الحجاب تماما، ولكن ليس بهدف الإفساد، إنما لعوامل تربوية وثقافية سلبية، أو لقلة الوعي الديني، فيؤدي ذلك إلى إثارة بعض أبناء المجتمع، الذين قد تنتهي إثارتهم إلى الاعتداء.

---

(١) وسائل الشيعة: ج١٢، ص٢٨٧.

(٢) الكافي: ج٢ ص٣٥١.

وعن هذه الآية جاء في تفسير القمي: «فَإِنَّهُ كَانَ سَبَبَ نُزُولِهَا أَنَّ النِّسَاءَ كُنَّ يَخْرُجْنَ إِلَى المَسْجِدِ وَيُصَلِّينَ خَلْفَ رَسُولِ الله ﷺ فَإِذَا كَانَ بِاللَّيْلِ وَخَرَجْنَ إِلَى صَلَاةِ المَغْرِبِ وَالعِشَاءِ وَالغَدَاةِ يَقْعُدُ الشَّبَابُ لَهُنَّ فِي طَرِيقِهِنَّ فَيُؤْذُونَهُنَّ وَيَتَعَرَّضُونَ لَهُنَّ..»[1].

وقد عبر القرآن بكلمة: ﴿وَنِسَآءِ﴾ في عطفه الحديث عن المؤمنين على أمره رسول الله ﷺ دون التعبير بـ (زوجات المؤمنين وبناتهم) لما في كلمة نساء من ظلال خاص يشمل من جهة الزوجات والبنات، ويشير إلى الحد الشرعي للحجاب، فوجوبه على الأنثى لا يكون إلا إذا بلغت مبلغ النساء عرفا شرعا.

[٦٠] ولأن مشكلة الحجاب ذات طرفين، فإنا نجد السياق في الوقت الذي يفرضه على النساء يزجر الرجال عن إيذائهن، لأنه كما يجب على المرأة الحجاب يجب على الرجل غض البصر، وهنا نجد السياق حادا مع المنافقين، والذين في قلوبهم مرض، والمرجفين (وهم الذين يذيعون في البلد الإشاعات الكاذبة).

يقول تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ وكل هؤلاء تجمعهم السلبية الاجتماعية، والذاتية، فالمنافق يعيش بشخصيتين الأولى مع المجتمع والرسالة وهي الظاهرة، والثانية ضدهما وهي الباطنة، أما مريض القلب فهو يعيش العقد، ومختلف الأمراض النفسية، التي يبحث عن متنفس لها، ودائما ما يكون تنفيسه هو التشفي من أبناء المجتمع، أما المرجف فإن طبيعته تضعيف النفوس، وبث الوهن والخوف في صفوف المجتمع، عبر إشاعة الفواحش والأخبار السلبية فيه، ويبدو أن هذه الآية تؤول معنى الأذى في الآية السابقة، فهؤلاء هم الذين يؤذون المؤمنين.

ولا بد للمجتمع والقيادة الرسالية من مواجهة هذا القطاع من الناس حتى تستمر مسيرته التصاعدية، ونهاية هذا الدرس يحدد الموقف السليم من هؤلاء إن لم يرتدعوا بالإنذار.

﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ نحرضك عليهم لإخراجهم من المدينة، وتطهير المجتمع من رجسهم ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ﴾ في المدينة ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾.

إن إبعاد هؤلاء عن المجتمع، وبالتالي عن التأثير فيه أمر مهم، لأن من طبيعتهم الإفساد، فلا حل معهم إلا الاجتثاث الجذري، حتى لا ينفثوا سمومهم، أو يتوسعوا ليكونوا لهم خطا انهزاميا سلبيا في المجتمع، ويبدو أن نزول هذه الآية -وعموما سورة الأحزاب- بعد استئصال الخطر الآتي من مشركي قريش، ويهود المدينة يدل على أن اهتمام المسلمين انعطف نحو تصفية

(١) تفسير القمي: ج٢، ص١٩٦.

الحسابات الداخلية، خصوصا مع المنافقين الذين كانوا يقومون بأدوار خبيثة ضد المجتمع الإسلامي.

ونستوحي من ذلك أمرين:

أولاً: حينما تعجز القوى المعادية عن كسر شوكة المسلمين تحاول التأثير عليهم داخليا بإثارة المنافقين وضعاف النفوس.

ولعل الأعداء فعلوا مثل ذلك بعد انهزامهم في الأحزاب، مما دفع بالمسلمين لمواجهة الوضع بقوة وحزم.

ثانياً: حينما ينتصر المسلمون في جبهة خارجية عليهم أن يستثمروا انتصارهم في تقوية جبهتهم الداخلية، وتطهير صفوفهم من المنافقين، ولكن بعد الإنذار وفتح المجال للتوبة أمامهم.

[٦١] وحينما يبعد هؤلاء إلى مدينة أخرى يفقدون حماية المسلمين، فيحيط بهم الخطر. ﴿ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا ﴾ وهنا حكمان حكم بالإبعاد، وآخر بالقتل، واختلف المفسرون فيها، ولعل الإبعاد هو مقدمة قتلهم، وقال البعض أن القتل يشمل من لم يخرج منهم بعد الإبعاد.

[٦٢] و هذا القضاء قانون إلهي لابد من تطبيقه في كل مكان وزمان، لأنه يرتبط بثوابت الحياة وقوانينها العامة، وهذا الفريق من الناس -هو الآخر- لا يختص بعهد رسول الله ﷺ وحسب، إنما وجد في العهود السابقة وسيبقى سنة جارية في اللاحقة أيضا ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ وفي الحديث عن علي بن إبراهيم: «نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ مُنَافِقِينَ كَانُوا فِي المَدِينَةِ يُرْجِفُونَ بِرَسُولِ الله ﷺ إِذَا خَرَجَ فِي بَعْضِ غَزَوَاتِهِ يَقُولُونَ قُتِلَ وَأُسِرَ فَيَغْتَمُّ المُسْلِمُونَ لِذَلِكَ وَيَشْكُونَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَأَنْزَلَ اللهُ فِي ذَلِكَ ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أَيْ نَأْمُرُكَ بِإِخْرَاجِهِمْ مِنَ المَدِينَةِ إِلَّا قَلِيلاً»[1].

(١) تفسير القمي: ج٢ ص١٩٦.

إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض

﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ[1] مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾.

هدى من الآيات:

في نهاية هذه السورة وبعد بيان ضرورة الطاعة للقيادة الرسالية، وأنها فرض إلهي، يبين لنا القرآن الآثار السلبية لرفضها، فقد توعد الله المنافقين بالنفي، وإعلان الحرب ضدهم، كما حذر الكفار بأن كفرهم سيؤدي بهم إلى الخلود في السعير، أما متى يحين ميعاد هذا الجزاء؟ فقد

(١) وأشفقن: خفن أن يحملوها خوف الخيانة فيها.

تجاوز السياق الإجابة عن ذلك، مكتفيا بالتأكيد على حتمية وقوعه، وأن تبرير الكفر بطاعة الكبراء لن يغني عن العذاب شيئا.

ثم يوضح ربنا وجاهة النبي ﷺ عنده، ناهيا المؤمنين عن التشبه ببني إسرائيل الذين آذوا موسى عليه السلام حيث اتهموه بقتل هارون، وبالبرص، كما ادعى عليه قارون -بالتعاون مع فاجرة من بني إسرائيل- أنه زنى بها، لكن الله برأه من كل ذلك، وفي هذا إشارة إلى أن أراجيف المنافقين سوف تذهب سدى بقدرة الله، وفي الأثناء يدعو الله المؤمنين للتقوى، ذلك أنها أساس المنطق السليم، فهي تبعد الإنسان عن الكذب والتهمة، وتدعوه للتثبت في منطقه، كما تصلح سعيه في الحياة، وتمحو أخطاءه، ولأن التقوى لا تتم إلا بطاعة الله والقيادة الرسالية، وجدنا الآية تصفها بالفوز العظيم.

وتختم السورة آياتها بالحديث عن أمانة عرضها الرب على السماوات والأرض والجبال، فرفضتها خوفا من عدم تحملها، وبالتالي من العذاب والغضب الإلهي المترتب على ذلك، بينما تحملها الإنسان، فخانها المنافقون والكفار بظلمهم وجهلهم، فما هي هذه الأمانة؟

من ناحية السياق، جاءت الكلمة بعد الحديث عن الطاعة، مما يوحي بأنها تعني الطاعة لله وللرسول، وبالذات لرسول الله، لما في طاعته من خروج من سجن الذات، الأمر الذي يستصعبه البشر، فقد يكون سهلا عليه الاستجابة للقيادة في الأمور العادية كالصلاة، والزكاة، والحج، ولكن من الصعب عليه الخضوع لإنسان مثله في الظاهر لو نصبه الرسول قائدا له.

وهناك أقوال أخرى حول الأمانة تبناها بعض المفسرين، فقال بعضهم أنها الأمانة المتعارفة، كما لو أعطاك شخص ما ماله لتحفظه له فإن ذلك مما يصعب على الإنسان رعايته وأداؤه، وقال آخرون: أنها العقل والعلم والإرادة والحرية، ومثلوا على ذلك بأن الله وهب العقل للإنسان من دون المخلوقات الأخرى كالحيوانات، ووهبه الإرادة والاختيار دون الملائكة الذين جردهم عن الشهوة الدافعة لهم باتجاه الشر والفساد، وقد وصفهم عز وجل بقوله: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٧].

وكل هذا صحيح ولكن التجربة الحقيقية للإنسان بعقله وعلمه واختياره إنما تكون في طاعة الرسول بتمام المعنى، التي تعتبر أصعب تجليات الاختيار في حياة البشر، فلا معارضة إذن بين القول بأن الأمانة هي العقل، وبين القول بأنها الطاعة للرسول بدلالة السياق القرآني.

بينات من الآيات:

[٦٣] ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ﴾

تقف وراء هذا السؤال فكرتان:

الأولى: استبعاد الإنسان بطبعه للجزاء، بالتسويف تارة، وبطول الأمل أخرى، فإذا بالشباب يتصور الموت بعيدا عنه، والشيخ يطول أمله بالبقاء أضعاف عمره، وربما مات الواحد بعد هذه التصورات بلحظة، فقامت قيامته[1] وما دام الأمر كذلك، والإنسان يجهل لحظة موته، فعليه أن لا يغتر بنفسه، وبماله، وعشيرته، لأنهم لا يغنون عنه شيئا يوم القيامة، ولا يدفعون عنه الموت في الدنيا، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: **«فَاتَّقَى عَبْدٌ رَبَّهُ نَصَحَ نَفْسَهُ وقَدَّمَ تَوْبَتَهُ وغَلَبَ شَهْوَتَهُ فَإِنَّ أَجَلَهُ مَسْتُورٌ عَنْهُ وأَمَلَهُ خَادِعٌ لَهُ والشَّيْطَانُ مُوَكَّلٌ بِهِ يُزَيِّنُ لَهُ الْمَعْصِيَةَ لِيَرْكَبَهَا ويُمَنِّيهِ التَّوْبَةَ لِيُسَوِّفَهَا إِذَا هَجَمَتْ مَنِيَّتُهُ عَلَيْهِ أَغْفَلَ مَا يَكُونُ عَنْهَا فَيَا لَهَا حَسْرَةً عَلَى كُلِّ ذِي غَفْلَةٍ أَنْ يَكُونَ عُمُرُهُ عَلَيْهِ حُجَّةً وأَنْ تُؤَدِّيَهُ أَيَّامُهُ إِلَى الشِّقْوَةِ»**[2].

وأسباب الموت كثيرة جدا، ومهما أبعدت أسبابا منها عنك فإن غيرها يلزمك ولأنه سنة جارية على الخلق.

الثانية: الزعم الخاطئ بأن على القيادة أن تعرف كل شيء، وكأنها المسؤول المباشر عن كل جزء من الدعوة، والواقع أنها تنتهي مسؤوليتها بإبلاغ الرسالة لتبدأ مسؤولية الناس، أما متى تكون الساعة، فليست الإجابة على ذلك من ضروريات القيادة ولا من مسؤولياتها، ذلك أنه يكفي للإنسان العلم بحصولها لكي تبدأ مسؤوليته تجاهها، كما يكفي الرسول والقائد مسؤولية بيان ذلك للناس، ثم إن علم الساعة مما يختص به الله عز وجل.

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ ولعل: تفيد الترجي، مما يدل على كفاية الاحتمال بقرب الساعة موعظة للإنسان، حتى يعمل بما يقتضيه هذا العلم، إيمانا وعملا وتسليما للقيادة.

[٦٤] ولكن الكافرين يبحثون عن مبرر لكفرهم بالساعة، مهما كان سخيفا وخارجا عن حدود الموضوعية، ولكن هل يدفع ذلك العذاب عنهم؟ كلا.. فقد أبعدهم الله عن رحمته، وأعد لهم سعيرا.

---

(١) إشارة للحديث المروي عن النبي صلى الله عليه وآله: **«مَنْ مَاتَ فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ»**. بحار الأنوار: ج٥٨، ص٧.

(٢) نهج البلاغة: خطبة ٦٤.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴾ ولنستمع شيئا عن هذا السعير، فقد جاء في تفسير علي بن إبراهيم عن أبي بصير رحمه الله عن أبي عبدالله قال: «قُلْتُ لَهُ يَا ابْنَ رَسُولِ الله خَوِّفْنِي فَإِنَّ قَلْبِي قَدْ قَسَا!. قَالَ عليه السلام: «يَا أَبَا مُحَمَّدٍ اسْتَعِدَّ لِلْحَيَاةِ الطَّوِيلَةِ فَإِنَّ جَبْرَئِيلَ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله وَهُوَ قَاطِبٌ وَقَدْ كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ يَجِيءُ وَهُوَ مُتَبَسِّمٌ فَقَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله يَا جَبْرَئِيلُ جِئْتَنِي الْيَوْمَ قَاطِباً. فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ قَدْ وُضِعَتْ مَنَافِخُ النَّارِ. فَقَالَ وَمَا مَنَافِخُ النَّارِ يَا جَبْرَئِيلُ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَمَرَ بِالنَّارِ فَنُفِخَ عَلَيْهَا أَلْفَ عَامٍ حَتَّى ابْيَضَّتْ ثُمَّ نُفِخَ عَلَيْهَا أَلْفَ عَامٍ حَتَّى احْمَرَّتْ ثُمَّ نُفِخَ عَلَيْهَا أَلْفَ عَامٍ حَتَّى اسْوَدَّتْ فَهِيَ سَوْدَاءُ مُظْلِمَةٌ لَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنَ الضَّرِيعِ قَطَرَتْ فِي شَرَابِ أَهْلِ الدُّنْيَا لَمَاتَ أَهْلُهَا مِنْ نَتْنِهَا وَلَوْ أَنَّ حَلْقَةً وَاحِدَةً مِنَ السِّلْسِلَةِ الَّتِي طُولُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً وُضِعَتْ عَلَى الدُّنْيَا لَذَابَتِ الدُّنْيَا مِنْ حَرِّهَا وَلَوْ أَنَّ سِرْبَالاً مِنْ سَرَابِيلِ أَهْلِ النَّارِ عُلِّقَ بَيْنَ السَّمَاءِ وَ الأَرْضِ لَمَاتَ أَهْلُ الدُّنْيَا مِنْ رِيحِهِ.

قَالَ: فَبَكَى رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله وَبَكَى جَبْرَئِيلُ فَبَعَثَ اللهُ إِلَيْهِمَا مَلَكاً فَقَالَ لَهُمَا إِنَّ رَبَّكُمَا يُقْرِئُكُمَا السَّلَامَ وَيَقُولُ قَدْ أَمِنْتُكُمَا أَنْ تُذْنِبَا ذَنْباً أُعَذِّبُكُمَا عَلَيْهِ. فَقَالَ أَبُو عَبْدِ الله عليه السلام: فَمَا رَأَى رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله جَبْرَئِيلَ مُتَبَسِّماً بَعْدَ ذَلِكَ»[1].

وأعظم ما في العذاب الذي ينال الكافرين، خلودهم الأبدي فيه، بين الموت والحياة: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦].

ثم إن علاقاتهم السلبية بالقيادات المنحرفة من الطواغيت وأصحاب المال والوجاهة لن تنفعهم، لأن الذي ينفع هنالك علاقة الإنسان بربه، وبالقيادة الرسالية التي يرتضيها: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾

[٦٦] ومن صور العذاب الظاهر لهؤلاء في جهنم تقليب وجوههم فيها ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ﴾ ولهذه معنيان:

الأول: أن تقليب الوجه هو تبدله من حال إلى حال، ومن صورة إلى أخرى.

الثاني: هو أنها تقلب في النار على كل جانب لكي تنالها من جميع الجهات، كما يقلب اللحم في الأفران لتنضجه من جميع نواحيه.

وعند مشاهدة هذه الألوان من العذاب يتمنى الكفار والمنافقون لو أنهم استجابوا لله وأطاعوا الرسول، وأنى ينفع الكلام في دار الجزاء، وقد أضاعوا على أنفسهم فرصة العمل في

(١) بحار الأنوار: ج٨، ص٨١.

الحياة الدنيا؟!.

﴿ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴾ بينما كانوا يعتذرون عن الاستجابة للحق، والتسليم لقيادة الرسول في الدنيا، وهذا مما يدل على ارتفاع الحجب والتبريرات يوم القيامة، وأن تبريرهم لكفرهم بأنهم لا يعلمون بميعاد الساعة إنما كان للتملص من مسؤولية الإيمان والطاعة لا أكثر.

[٦٧] و مما يقدمه أهل النار لتبرير كفرهم بالقيادة الرسالية أنهم انخدعوا بالقيادات الضالة، ووقعوا تحت تأثيرها. وكل ذلك مرفوض عند الله، لأن الإنسان متصرف وعاقل، وليس آلة جامدة تحركها الأيدي كيف تشاء، فهو إذن مسؤول عن قراراته وأعماله وسلوكياته، وقد حمله الله هذه المسؤولية التي رفض حملها كل الخلائق، وإذا ضيعها فإنما بجهله وظلمه، ومن يعتذر بمثل: إن الأوامر تأتي من فوق، أو إنني عبد مأمور لا ترتفع عنه المسؤولية.

﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾ السادة: فهم كالحاكم والقائد السياسي، والعسكري، أو النظام الاقتصادي، وسائر الجهات التي يعود عصيانها بالأذى على الناس، أما الكبراء فهم أصحاب الوجاهة الاجتماعية، أو الاقتصادية، وعموم الجهات التي يتبعها الإنسان لمصلحة معينة بإرادته المجردة وليس للخوف منها، وكان من الحري بهم الطاعة لله ولرسوله، خوفا من عذاب الله، ورغبة في ثوابه ورضاه.

ونستوحي من هذه الآية بالإضافة إلى سابقتها: أن السبيل يعني القيادة الرسالية، ذلك أن القيادات المنحرفة ليس تضل الإنسان عن المنهج السليم وحسب، بل وتضله عن القيادة الصالحة.

قال أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة له يوم الغدير: «**وَتَقَرَّبُوا إِلَى الله بِتَوْحِيدِهِ وَطَاعَةِ مَنْ أَمَرَكُمْ أَنْ تُطِيعُوه وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الكَوافِرِ وَلَا يَجْنَحْ بِكُمُ الغَيِّ** [ولا يجنح بكم العمى] **فَتَضِلُّوا عَنْ سَبِيلِ الله بِاتِّبَاعِ أُولَئِكَ الَّذِينَ ضَلُّوا وَأَضَلُّوا قَالَ اللهُ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ فِي طَائِفَةٍ ذَكَرَهُمْ بِالذَّمِّ فِي كِتَابِهِ:** ﴿إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾»[1].

وقال علي بن إبراهيم في تفسيره: «﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾ **أَيْ طَرِيقَ الجَنَّةِ، وَالسَّبِيلُ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عليه السلام**»[2].

(١) بحار الأنوار: ج٦٤، ص١١٦.

(٢) تفسير القمي: ج٢، ص١٩٧. بحار الأنوار: ج٣٠، ص١٥٢.

[٦٨] وعادة ما يبحث المضللون عن أعذار ترفع عنهم مسؤولية الانحراف، وتلقيها على كاهل السادة والكبراء منهم، وقد يستطيعون خداع الناس في الدنيا بسببها، ولكن أنى لهم خداع الله؟!.

﴿ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ﴾ السادة والكبراء ﴿ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ والله سوف يعذب هؤلاء ضعف الآخرين وأكثر، إلا إن ذلك لن يرفع عن أولئك العذاب، إنما سيمكثون في السعير ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾.

[٦٩] ثم يحذر الله المؤمنين مباشرة بعد تحذيرهم الضمني بالتعرض إلى حال المضللين في الآخرة من الصبر الذي انتهى إليه أولئك باتباعهم القيادات المضلة فهي دوما تسعى لإشاعة الأفكار الخاطئة، والأراجيف والدعايات الباطلة حول قيادة الحق لفض الناس من حولها، وجرهم نحوهم عن طريق الإعلام.

يقولون: لا تنصاعوا لهذه القيادة فإنها تورطكم، وتعرضكم للسجن والقتل والتشريد: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ﴾ ما تثيره القيادات المضلة من شائعات حول القيادة الرسالية سوف تنفضح، لأن حكمة الله وبالتالي قوانين الحياة وسننها قائمة على نصرة الحق وأهله ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾.

[٧٠] ولأن الشائعات الباطلة قد تتلاقفها الألسن دعا الله المؤمنين إلى الكلمة الصالحة، وإلى تحمل مسؤولية الكلام، ولا يتم ذلك إلا بالتفكير والاستقراء المنطقي، وقبل ذلك كله بتقوى الله، ذلك أن التقوى تصنع في النفس نوعا من الرقابة الذاتية والمحاسبة، فالمتقي يخشى من اتهام الآخرين، ومن المشي بالغيبة والنميمة، وهذه الأمور من مقومات الإعلام المنحرف، والشائعات ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ ولا يكون القول سديدا حتى يكون سليما، وفي وقته المناسب، ولا يكون كذلك إلا بالتفكير والنظر إلى الواقع والمستقبل. والذي يميز المؤمن عن المنافق أن المؤمن يتحمل مسؤولية كلامه، فهو يفكر كثيرا قبل الكلام، بينما المنافق يبادر بالحديث دون رؤية فيبتلى بكلام، وفي الحديث: «**وإِنَّ لِسَانَ الْمُؤْمِنِ مِنْ وَرَاءِ قَلْبِهِ وإِنَّ قَلْبَ الْمُنَافِقِ مِنْ وَرَاءِ لِسَانِهِ**»[١].

ولو تكلم المؤمن بكلام ثم اكتشف أنه كان خطأ اعترف بالخطأ، وتراجع عن موقفه وكلامه، أما المنافق فتأخذه العزة بالإثم.

قال أبو عبد الله عليه السلام لعباد بن كثير البصري الصوفي: «**وَيْحَكَ يَا عَبَّادُ غَرَّكَ أَنْ عَفَّ**

(١) بحار الأنوار: ج٦٨، ص٢٩١.

بطْنُكَ وفَرْجُكَ إنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمالَكُمْ اعْلَمْ أَنَّهُ لا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنْكَ شَيْئاً حَتَّى تَقُولَ قَوْلًا عَدْلًا»[1].

وقال رسول الله ﷺ وقد سأله أحدهم: وهل يحاسبنا ربنا على ما نقول؟! قال: «**وهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِم؟!**»[2].

[٧١] ولكي يكون كلامنا سديدا يجب أن نبتعد عن التبرير، والكذب والنميمة، والغيبة، والتهمة، وكل آفات اللسان، وهذا ينعكس مباشرة على سلوكنا، وسلامة تحركنا في الحياة ﴿ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ وفي الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «**إِنَّ اللهَ جَعَلَ لِلشَّرِّ أَقْفَالًا وجَعَلَ مَفَاتِيحَ تِلْكَ الأَقْفَالِ الشَّرَابَ وشَرٌّ مِنَ الشَّرَابِ الكَذِبُ**»[3].

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ والسؤال: ما هي العلاقة بين صلاح الأعمال والطاعة لله وللرسول؟.

من خلال السياق القرآني نكتشف أن الكلام السديد هو الكلم الحق الطيب والذي يدعم التسليم لله ولرسوله.

[٧٢] والتسليم للقيادة هو الأمانة، وهو من أبرز تجليات الإرادة والوعي البشريين.

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾ ولكن الإنسان تحملها بما استن الله في خلقته، وبظلمه وجهله الذين ارتكز فيهما يخون هذه الأمانة.

﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ الظلوم صيغة المبالغة من الظلم، والجهول صيغة المبالغة من الجهل، وهذا يشير إلى أنهما صفتان مغروزتان في الإنسان، وهما من طبيعته العدمية الضعيفة، وهو يستطيع التغلب على هاتين الطبيعتين عن طريق العمل الصادق، والوعي الدائم، وبالتالي عن طريق اتصاله برسالة الله وتسليمه له ولأوليائه، من الرسل والأئمة والقيادات الصالحة.

[٧٣] وهذا هو أبرز مصاديق تحمل الأمانة، التي يتحدد مصير الإنسان حسب موقفه منها، فمن يخونها -وهم المنافقون والكفار- يصير إلى الجحود والعذاب، ومن يرعاها ويحفظها

---

(١) الكافي: ج٨، ص١٠٧.
(٢) بحار الأنوار: ج٧٢، ص٢٦٠.
(٣) وسائل الشيعة: ج٢٥ ص٣٣١.

يصير إلى التوبة والثواب.

﴿ لِيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ﴾ على خيانتهم ورغبتهم عن التسليم، ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾؛ لأن المؤمن الحقيقي حينما يقع في الذنب بسبب الغفلة أو الجهل سرعان ما ينتبه لخطئه، فيعود إلى مسيرته المستقيمة، فيتوب الله عليه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.

والطريف هنا أن تنتهي هذه السورة -التي اشتملت على آيات العذاب والعقاب- بالإشارة إلى غفران الله ورحمته، مما يعمق فينا -نحن البشر- الملفوفين بالظلم والجهل الأمل بربنا عز وجل.

الأمانة في الأحاديث

وختاما لتفسير هذه السورة نذكر جانبا من الأحاديث التي ركزت على تفسير الأمانة بأنها التسليم للقيادة الرسالية:

١- قال الإمام الرضا عليه السلام وقد سأله الحسين بن خالد عن قوله عز وجل: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ ... ﴾. فقال: «**الأَمَانَةُ الوَلايَةُ مَنِ ادَّعَاهَا بِغَيْرِ حَقٍّ فَقَدْ كَفَرَ**»[١].

وقال أبو بصير: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ .. ﴾ قال: «**الأَمَانَةُ الوِلَايَةُ**...»[٢]. وعنه عليه السلام قال: «**هِيَ وَلايَةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام**»[٣].

وفي كتاب الاحتجاج للطبرسي رحمه الله، عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث طويل يقول فيه عليه السلام لبعض الزنادقة، وقد قال الزنديق متسائلا من جملة أسئلة:

وأجده يقول: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ فما هذه الأمانة ومن هذا الإنسان وليس من صفته العزيز العليم التلبيس على عباده!.

فقال عليه السلام: «**وَأَمَّا الأَمَانَةُ الَّتِي ذَكَرْتَهَا فَهِيَ الأَمَانَةُ الَّتِي لا تَجِبُ وَلَا يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ إِلَّا فِي الأَنْبِيَاءِ وَأَوْصِيَائِهِمْ لِأَنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ائْتَمَنَهُمْ عَلَى خَلْقِهِ وَجَعَلَهُمْ حُجَجاً فِي أَرْضِهِ**

(١) بحار الأنوار: ج٧٥ ص٢٨٠.
(٢) بحار الأنوار: ج٢٣، ص ٢٧٩.
(٣) الكافي: ج١، ص٣١٤.

فَبِالسَّامِرِيِّ وَمَنِ اجْتَمَعَ مَعَهُ وَأَعَانَهُ مِنَ الكُفَّارِ عَلَى عِبَادَةِ العِجْلِ عِنْدَ غَيْبَةِ مُوسَى مَا تَمَّ انْتِحَالُ مَحَلِّ مُوسَى عليه السلام مِنَ الطَّغَامِ وَالِاحْتِمَالُ لِتِلْكَ الأَمَانَةِ الَّتِي لَا يَنْبَغِي إِلَّا لِطَاهِرٍ مِنَ الرِّجْسِ فَاحْتَمَلَ وِزْرَهَا وَوِزْرَ مَنْ سَلَكَ فِي سَبِيلِهِ مِنَ الظَّالِمِينَ وَأَعْوَانِهِمْ وَلِذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله: مَنِ اسْتَنَّ سُنَّةَ حَقٍّ كَانَ لَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ وَمَنِ اسْتَنَّ سُنَّةَ بَاطِلٍ كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ»[1].

---

(١) بحار الأنوار: ج٩٠ ص١١٦.



* مكية.

* عدد آياتها: ٥٤.

* ترتيبها النزولي: ٥٨.

* ترتيبها في المصحف: ٣٤.

* نزلت بعد سورة لقمان.

فضل السورة

عن الرسول الأعظم ﷺ أنه قال: «**وَمَنْ قَرَأَ سُورَةَ سَبَأَ لَمْ يَبْقَ نَبِيٌّ وَلَا رَسُولٌ إِلَّا كَانَ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ رَفِيقاً وَمُصَافِحاً**».

(مستدرك الوسائل: ج٤ ص٣٤٦)

الإطار العام

مسؤولية الإنسان؛ سُنّةٌ إلهيّة

أقتُبس إسم السورة من قصة مشهورة عند العرب، وقد بين القرآن عبرتها الأساسية، وهي قصة حضارة سبأ، التي دمرت بسيل العرم لانحرافها وفسادها.

تتشابه آيات الذكر في بيان مسؤولية الإنسان عن أفعاله، وتفنيد الأعذار التي يتشبث بها البشر للفرار عنها بزعمه.

ومن غرر السور التي تزرع الإحساس بالمسؤولية الذي لو ترسخ في قلب الإنسان لزكاه، وأصلح أعماله، هي سورة (سبأ) التي تذكرنا أيضاً بالوحي المنزل على النبي ﷺ.

وواقع الجزاء (المسؤولية) تجل لاسمي الحكيم الخبير اللذين نحمد الله بهما، فهو العالم بما يلج في الأرض ومايخرج منها (الآيات: ١-٢). وعند قيام الساعة يتجلى الجزاء بأبرز صوره، حيث لا ينفع تشكيك الكفار بها، وحيث يحيط الرب علماً بكل شيء، لا يعزب عنه مثقال ذرة؛ وحيث الجزاء الوافر للصالحين، والعذاب الأليم لمن يسعون في آيات الله معاجزين (معاندين ومتحدّين) (الآيات: ٣-٥).

وينقسم الناس فريقين تجاه الوحي؛ فبينما يراه أهل العلم هو الحق، يستهزئ به الكفار، ويقولون: هل الرسول مفتر أم به جنة؟ كلا؛ بل إنهم لا يؤمنون بالآخرة، فهم في العذاب والضلال البعيد.

وينذرهم الذكر بأن كفرهم برسالات الله قد يعرضهم لعذابه، الذي إن شاء خسف بهم الأرض أو أسقط عليهم من السماء كسفاً (الآيات: ٦-٩).

ويعرض السياق صورتين للحضارة؛ أُولاهما صالحة حيث استمرت، بينما الثانية دمرت

لفسادها، وهما بالتالي صورتان بارزتان لواقع الجزاء والمسؤولية.

فلقد آتى الرب النبي داود عليه السلام فضلاً، وألان له الحديد، وعلمه صنعة الدروع السابغة، وسخر لسليمان عليه السلام الريح والجن،وأمر داود سليمان عليه السلام بالشكر له، فاستمرت حضارتها إلى ما بعد موت النبي سليمان، الذي ما دل على موته إلاالأرضة التي أكلت عصاته، فعلمت الجن أنهم بقوا في العذاب لجهلهم بالغيب (وبالتالي لا يجوز الاعتماد عليهم للهروب من الجزاء كما زعم الجاهليون).

أما الصورة الثانية؛ فتتمثل في قصة سبأ، الذين آتاهم الله جنتين عن يمين وشمال، وأمرهم أيضاً بالشكر، فأعرضوا،فأرسل عليهم سيل العرم.

ومثلهم مثل القرى الآمنة التي بارك الله فيها، فكفرت، فجعلهم الله أحاديث يعتبر بها كل صبار شكور (الآيات: ١٠-١٩).

وينسف القرآن الكريم أسس التبرير التي يعتمد عليها الكفار، والتي هي في ذات الوقت حجب للقلب، وغشاوةللبصر:

ألف: إلقاء اللوم على إبليس الذي صدق عليهم ظنه، ويؤكد الذكر أنه لا سلطان له عليهم، وإنما يبتلي الله به الناس، ليعلم من هو المؤمن حقاً بالآخرة ممن هو منها في شك.

باء: الأنداد الذين يزعمون أنهم يغنون عنهم شيئاً، ويجرمون اعتماداً عليهم، إنهم لا يملكون مثقال ذرة في السماوات والأرض، ولا شرك لهم في السلطة، ولا أعوان لهم ولا أعضاد، ولا تنفع شفاعتهم إلا لمن أذن الله له، كما أنهم لا يملكون للناس رزقاً، ولا يتحملون عنهم وزراً.

جيم: إن الناس إما على هدى أو في ضلال مبين، وإن أهل الصلاح لا يزرون من مسؤولية المجرمين شيئاً (الآيات: ٢٠-٢٧).

ويذكر السياق بأن الرسول بشير ونذير لكافة الناس، وأن وعد الله آتٍ، لا يستأخر ساعة ولا يستقدم ساعة، ويصورهم مسؤوليتهم عن إيمانهم بالرسالة، وأن جزاء كفرهم اليوم يتجلى عند قيام الساعة، حيث يتلاوم الكفار، ويلقي بعضهم المسؤولية على عاتق البعض الآخر (الآيات: ٢٨-٣١).

دال: يلقي المستضعفون اللوم على المستكبرين، ولكنهم لا يتحملون عنهم وزراً، بل يقولون لهم: إنكم كنتم مجرمين. وحين يشترك الجميع في الأغلال يعلمون أنهم كانوا جميعاً

مسؤولين عن أعمالهم (بشهادة أنهم في العذاب مشتركون) (الآيات: ٣١-٣٤).

هـاء: كثرة الأموال والأولاد لا ترفع عن أصحابها الجزاء والمسؤولية، ويزعم المترفون الذين كفروا بالرسالات الإلهيةأنهم غير معذبين، ويفند الذكر هذه الفكرة بما يلي:

أولاً: إن الرزق من الله، فكيف يقف حاجزاً دون جزاء الله؟

ثانياً: إن الأموال والأولاد لا يقربونهم عند الله زلفى، إلا بقدر الاستفادة منها في العمل الصالح والإنفاق. ويعود القرآن ليذكرنا: أن الإنسان مسؤول عن رفضه، وأن الذين يسعون في آيات الله معاجزين يحضرون للجزاء غداً عندربهم (الآيات: ٣٥-٣٩).

واو: إن بعضهم كانوا يعبدون الجن، ويزعمون أنهم يعبدون الملائكة، (كل ذلك ليستمروا في جرائمهم اعتماداً على شفاعة الملائكة) بينما ترفضهم الملائكة.

ويبين الرب أنهم لا يملكون لبعضهم نفعاً ولا ضراً، وأن الظالمين مجزيون بالنار، (ولا ينقذهم ادعاؤهم الانتماء إلى الملائكة من جزاء ظلمهم) (الآيات: ٤٠-٤٢).

ويكشف القرآن الحجب التي يتلبس بها قلب الكافر الواحد بعد الآخر.

أولاً: حجاب التقليد، حيث تراهم يتهمون رسولهم بالإفتراء أو بالسحر، لأنه يريد أن يصدهم عما كان يعبد آباؤهم.

ويقول الذكر: إن آباءهم لم ينزل عليهم كتاب يدرسونه، ولا بعث فيهم نذير (حتى يفتخروا بآبائهم الذين لم يكن لهم رسالة ولا معرفة) (الآيات: ٤٣-٤٤).

ثانياً: حجب الغرور، حيث تجدهم يكذبون بالرسالة اعتماداً على قوتهم، في حين أن قوة الأمم الغابرة التي كانت أكثر من هؤلاء عشرات المرات لم تدفع الجزاء المتمثل في العذاب النكير (الآية: ٤٥).

ثالثاً: حجاب الغفلة، حيث يدعوهم الرب للقيام من أجل الله، والتفكر في رسولهم ليعرفوا دلائل الصدق فيه. فهو ليس بمجنون لكنه يرى عذاباً شديداً فينذر به. (وهذا هو دليل حماسه الكبير الذي فسره الكفار بالجنون)، وهو لا يطلب أجراً إلا ما يعود بالتالي إليهم، وهذا شاهد صدق على أنه حق.

ثم إن الرب يشهد له بالصدق، وهو على كل شيء شهيد. فهو يقذف بالحق فيهدم أركان

الباطل، فلا يتجدد ولا يعود (الآيات: ٤٦-٤٨).

ويؤكد ربنا أن خسارة الضلالة تعود على صاحبها، (فالإنسان مجزي بضلالته شاء أم أبى) (الآيات: ٤٩-٥٠).

ويحذر الرب من مغبة الضلالة، حيث لا يفوت أحد منهم من قبضة العدالة، بل يؤخذون من مكان قريب، فيقولون: آمنا! ولكن هيهات، فقد فات الآوان، وهنالك حيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأتباعهم من قبل. كل ذلك بسبب أنهم كانوا في شك مريب (الآيات: ٥١-٥٤).

وله الحمد وهو الحكيم الخبير

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١) يَعْلَمُ مَا يَلِجُ[1] فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ[2] فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (٢) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ[3] عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٣) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ[4] أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ[5] (٥) وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٦)﴾.

هدى من الآيات:

تبدأ هذه السورة المباركة بالحمد، وبذكر اسمين من أسماء الله، وهما الحكيم الخبير، ومن خصائص القرآن أنه يبين آياته وعبره، بعد التمهيد لها ببراعة الاستهلال، وهو بدء المتكلم

(١) يلج: يدخل.
(٢) يعرج: يصعد.
(٣) لا يعزب: لا يفوته ولا يخفى عليه.
(٤) معاجزين: المعاجز الذي يحاول إبطال حجة الطرف الآخر، وقيل مثبطين.
(٥) رجز أليم: العذاب السيء.

بالإشارة إلى حديثه، وفي القرآن الحكيم نجد بيانا للموضوعات التي يفصلها السياق بعدئذ عبر ألفاظ مجملة، مما يدل على نزول الوحي من عند الله، إذ لا يقدر أحد على التحدث بهذا الإجمال والتفصيل، وبهذه الإحاطة غير الله.

وعند البحث عميقا في هذه السورة التي تبدأ بالحمد، نجد إشارات وتجليات لاسمي الحكيم والخبير، وحديثا عن جوانب من انعكاساتها في الحياة، وهكذا تبدأ المعارف الإلهية والقرآنية كما الدين بذكر الله، وتنتهي إليه، وفي الحديث: **«أَوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَتُهُ»**[1].

وهكذا تتركز المعرفة ثم تتسع وتعود بعدها لتتركز مرة أخرى. في البدء نتعرف على أن ربنا حميد وحكيم وخبير، ثم نفتش في الحياة وإذا بها تدلنا بما فيها من سنن وأنظمة على ذلك، والنظرة الكلية للحياة (الفلسفة العامة) يجب أن توفر للإنسان الإجابة على السؤال التالي: ما هي السنن والأنظمة العامة التي تسير الحياة؟.

وبتعبير آخر: إن الحكمة (الفلسفة) هي التي تبصرنا بحقيقة أنفسنا، وما يحيط بنا من الخلائق، وبما تحكمها من سنن ثابتة، وبالتالي تجعلنا قادرين على معرفة أفضل وعمل أصلح. وهذه الحكمة نجدها مفصلة في كتاب ربنا الحكيم، وأكثر آيات الذكر تبصرنا بتعابير ميسرة يستطيع أن يستوعب مضامينها حتى الطفل الصغير، وبشكل متكامل، فقوله الحمد لله الحكيم الخبير يشتمل على حقائق كثيرة في الحكمة العامة، لأنه يحدد بداية الكون ونهايته وهدفه، وأنه قائم على علم ونظام يتجليان في كل جزء وجزء منه، لأن خالقه هو الله الذي يملك السماوات والأرض حاضرا ومستقبلا مما يوجب علينا الحمد له في كل مكان وزمان.

والخبير هو المحيط بدقائق الأمور نظريا وعمليا، ومن مصاديق خبره أنه يحيط علما بكل ما يلج في الأرض وما يخرج منها حتى الغازات التي تمتصها الأرض أو التي تلفظها، يعلم الله وزنها وحجمها وطبيعتها، كما يحيط علما بكل ما ينزل من السماء وما يعرج إليها، وألطف ما يعرج هو النية الحسنة والعمل الصالح اللذان يرفعهما الله.

ثم يشير السياق إلى أحد تجليات الحكمة الإلهية، حينما يذكرنا بأن الله عادل في جزائه للناس، فالذي يعمل الصالحات يجازيه بالمغفرة والرزق الكريم، بينما يعذب الذين يعملون السوء برجز أليم.

---

(١) نهج البلاغة: خطبة١.

بينات من الآيات:

[١] ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ قال بعض المفسرين أن معنى الآية: يا أيها القارئ للقرآن قل الحمد لله، والحال أننا لا نحتاج إلى تقدير كلمة (قل) لأن جملة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ مفيدة للمعنى المطلوب، فهي حقيقة واقعية. فالحمد التام الدائم لله تعالى شئنا أم أبينا، قلنا أم سكتنا، عرفنا أم جهلنا، ومن هو أحق بالحمد ممن خلق فرزق، وقدر فألهم، وصور فأحسن.

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وما في الدنيا صورة مصغرة ومحدودة مما في الآخرة، وحين نتذكر بالآيات التي تدل على أن ربنا حميد في الدنيا نعرف أنه حميد في الآخرة ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ ومن آيات حمده حكمته وخبره ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

[٢] ولكن ما هي تجليات هاتين الصفتين الإلهيتين؟.

يحدثنا القرآن عن علم الله ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ أولاً، وذلك عندما يعرفنا بإحاطته علماً بكل شيء، وعن حكمته ثانياً، وذلك عندما يذكرنا بجزائه العادل للخلق.

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ فالله محيط بكل شيء خبرا، وجاء في تفسير الآية عن علي بن إبراهيم: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قال: «مَا يَدْخُلُ فِيهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ: يَعْنِي الْمَطَرَ. ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ قَالَ: مِنَ النَّبَاتِ ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ يَعْنِي: مِنْ أَعْمَالِ الْعِبَادِ»[١].

ولكن الله لا يتخذ علمه وسيلة ليضار بها البشر بأن يحاسبهم دون عفو وبأن يعاجلهم بالعقوبة دون حلم، بل هو رحيم بهم، وبعلمه يرحمهم، وإذا علم منهم ذنبا فإنه يغفره لهم ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾.

روى أبو بصير عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «لَمَّا رَأَى إِبْرَاهِيمُ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْتَفَتَ فَرَأَى رَجُلًا يَزْنِي فَدَعَا عَلَيْهِ فَمَاتَ ثُمَّ رَأَى آخَرَ فَدَعَا عَلَيْهِ فَمَاتَ حَتَّى رَأَى ثَلَاثَةً فَدَعَا عَلَيْهِمْ فَمَاتُوا فَأَوْحَى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِ يَا إِبْرَاهِيمُ دَعْوَتُكَ مُجَابَةٌ فَلَا تَدْعُو عَلَى عِبَادِي فَإِنِّي لَوْ شِئْتُ لَمْ أَخْلُقْهُمْ»[٢].

[٣] وإذ يذكرنا القرآن بأسماء ربنا الحسنى -وأنه حكيم خبير وعليم- فلكي ينعكس ذلك على وعينا وسلوكنا. أوليس ربنا حكيما، إذا لا بد من يوم الجزاء، وإنما يكفر البعض

(١) تفسير القمي: ج٢ ص١٩٨.
(٢) بحار الأنوار: ج٧، ص٤١.

بالساعة تهربا من حقيقة الجزاء ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُ ﴾ وهكذا بهذه البساطة أرادوا التملص من ثقل المسؤولية، بيد أن ربنا الجبار قال لهم كلمته التي لا تبديل لها: ﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ ﴾ وحين تعرضون أمام ربكم تعرفون أن كتاب ربكم قد احتوى كل صغيرة وكبيرة من أعمالكم ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴾.

[٤] ويبين القرآن الهدف من الساعة، وبالتالي الهدف من التذكرة بالرقابة الإلهية على العباد، ألا وهو إثبات تحقيق العدل الشامل، الأمر الذي يستوجب الحساب الحق.. الذي لا يغفل عن أي شيء يصدر من البشر مهما كان صغيرا.

﴿ لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴾

فما دامت مسيرة المؤمن العامة هي الصلاح، فإن ما يشوبها من ذنوب بسبب غفلته، يفتديها الله بغفرانه، كما يثيبه على إيمانه وعمله الصالح بألوان الرزق الكريم، الذي يصفه الحديث بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على بال بشر.

[٥] موقف المؤمن من آيات ربه هو التسليم الذي يسمو به إلى درجة رؤية الحق مباشرة، بينما موقف الكافر هو التمرد، ولكن كيف يرفض البشر المزود بالعقل الحقيقة التي تترى عليها شواهد لا تحصى؟ أو تقدر العين أن تنزوي عن أشعة الشمس بسهولة؟!.

كلا.. كذلك ليس من السهل أن يرفض الإنسان الحقائق الكبرى التي يذكر بها الوحي، كحقيقة المسؤولية إلا بصعوبات بالغة، لذلك فهم:

أولاً: يسعون سعيا حثيثا -وببالغ الجهد- من أجل إثبات كفرهم الباطل، وإقامة الأدلة على ضلالتهم.

ثانياً: هدفهم من هذا السعي ليس إقناع أحد بالحقيقة، وإنما إسكات المؤمنين وإعجازهم بإثارة الشبهات حول الحقائق، كلما ردت لهم شبهة منها أعدوا شبهة جديدة مكانها، فهم لا يهدفون الاقتناع بحديث الطرف الآخر، ولا إقناعه لأنهم على باطل، وإنما يهدفون أن يخصموه مؤقتا، لكي لا تقتحم أدلة الحق رحاب قلوبهم.

﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ ﴾ وآيات الله هي شواهد صدق رسالاته، والتعبير بـ (معاجزين) بالغ الدقة حيث الطرف الثاني (وهم المؤمنون) يحاولون إقناعهم أيضا، وبالتالي محاولة إعجازهم (إيصالهم إلى حد العجز عن الإدلاء بحجة جديدة) فكل طرف يحاول إعجاز

الطرف الثاني، وهذه الكلمة توضح خطة الإعلام عند الكفار القائمة فقط على أساس إسكات الخصم، وطمس معالم الحق أمام عينيه .

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٌ﴾ الرجز -كما قالوا- أشد العذاب، ولعله يشير إلى ما يقابل الكريم في الآية السابقة، وعلى هذا يكون معناه عذابا أليما فيه الذل والهوان، أوليسوا قد تكبروا، فهم يستحقون الصغار والرجز.

[٦] ومن الناس من يعرج به اليقين درجة يرى الحق واضحا لا ريب فيه، أولئك هم أولو العلم ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ والعلم -هنا- ليس مجرد المعلومات التي يختزنها الذهن البشري، ولا الألفاظ المتشابهة التي تتزاحم في ذاكرة المعاجزين من أدعياء العلم، وإنما هو ذلك النور الإلهي الذي يشرق على القلب فيجد الحقائق وجدانا، ويعيها وعي دراية لا وعي رواية، حتى يقول أمثلهم هدى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «**لَوْ كُشِفَ الغِطَاءُ مَا ازْدَدْتُ يَقِينا**»[1].

﴿ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ﴾ فهم يعلمون الحق، ويرون ما أنزل إلى الرسول، فيعرفون أن ذلك الحق التام الذي لا يشوبه هوى، ولا يخالطه باطل أو جهل هو هذا الوحي المنزل.

﴿وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ والذي يؤتى العلم هو الذي يحيط به، فيستطيع فهم القرآن، والتمييز بين الحق والباطل، بين الدساتير والمناهج الحديثة المضلة وبين الآيات القرآنية، كما ميز سحرة فرعون بين حبالهم وعصيهم التي يخيل للناس أنها تسعى وبين الآية الحقيقية التي جاء بها نبي الله موسى عليه السلام.

ولعل اختيار اسمي العزيز الحميد، من بين أسماء الله الحسنى، جاء انسجاما مع الجو العام للسورة، التي هي تجليات اسم الحمد، ولأن الإنسان يتطلع إلى العزة وحميد الخصال، فلما رأى أولو العلم الوحي عرفوا أنه يحقق ذلك الطموح.

ويبدو أن الآيات الثلاث تبين ثلاثة نماذج من الناس: المسلمون أولاً ثم الكفار ثم الصديقون.

---

(١) غرر الحكم: حكمة ٢٠٨٦.

اعملوا آل داود شكرا

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا[1] مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى[2] مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ[3] وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ[4] ۖ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا[5] شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا[6] شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ[7] ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ[8] مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ

(١) كسفاً: أي قطعاً.

(٢) أوّبي: التأويب الترجيع بالتسبيح، وأوبي معه أي سبحي معه.

(٣) سابغات: السابغ التام من اللباس.

(٤) السرد: سرد الحديد نظمه، والسرد هو نسج الدرع، مأخوذ من سرد أي أحكم صنعتك في نسج الدروع، فلا تكون حلقة في الدرع وسيعة والأخرى ضيقة بل متشابهة ومتساوية.

(٥) غدوها: حركة الريح في الغدوة وهي الصباح إلى نصف النهار.

(٦) رواحها: جريها مساءً من العصر حتى الليل.

(٧) عين القطر: عين النحاس، والمراد بالعين معدنه حتى يتمكن من استعماله في الظروف والأواني ويصنع به كيف يشاء.

(٨) يزغ: ينحرف ويميل.

مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ(١) وَتَمَٰثِيلَ(٢) وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ(٣) وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ(٤) ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾.

هدى من الآيات:

استلهاما من اسمي الحميد العزيز لربنا عز وجل، وانطلاقا من الحديث عن البعث والنشور، وبيانا لبعض الشبهات التي يبثها المشركون إنكارا للمعاد يحدثنا هذا الدرس -من بدايته- عن استنكارهم الظاهر لحقيقة النشور بعد الموت والتمزق.

إن الكثير من الذين ينكرون الحقائق إنما ينكرونها لأنها أكبر من أفقهم وتفكيرهم الضيقين، وهذه من مشاكل البشر المعقدة، إنهم يكفرون بكل ما لم يصل إليه علمهم وعقلهم، ولكن الله يضرب لهؤلاء فكرة البعث فيقول: صحيح أن ذلك من المستحيلات بالقياس إلى القدرة البشرية، ولكنه ممكن عند الله الذي يجمع الزمان والأعضاء ليعيد الخلق من جديد. وحتى يكون هذا الحديث مقبولا من الناحية المنطقية والفطرية، يدعو ربنا هؤلاء إلى التفكر في الآيات من حولهم، لأنها من مظاهر القدرة لربنا الحميد.

ولعل لهذا التأكيد المتكرر في القرآن على ضرورة التفكر في آيات الله فائدة مهمة هي: إرساء قاعدة صلبة للبحث العلمي الرصين عند الإنسان الذي اعتاد -ومن أول يوم عملت حواسه- على هذه الآيات، وألفها حتى أصبحت لا تثير انتباهه، لكنه لو نظر إليها وكأنها جديدة وبقلب متفتح، وعقل منير، لازداد علما، وتوسع أفقه، مما يجعله أقدر على استيعاب الحقائق وتفهمها.

ثم يضرب القرآن لنا مثلا من حياة داود وابنه سليمان عليهما السلام حيث إن قصصهما تجليات لاسمي العزيز الحميد.

(١) محاريب: جمع محراب، والمحراب هو محل العبادة والصلاة، ولعل المراد بها المساجد، وإنما سمي محراباً لأنه محل المحاربة مع الشيطان والنفس.

(٢) تماثيل: جمع تمثال، وهو الشيء المصنوع من معدن أو طين أو حجر أو خشب، كتماثيل القصور والأشجار والأنهار وغيرها، وقال صاحب المجمع أنها تماثيل الحيوانات لأنها لم تكن محظورة في ذلك الوقت.

(٣) جفان كالجواب: الجفان هي القصاع وظروف الأكل، والجواب جمع جابية وهي الحوض العظيم يجبى فيه الماء.

(٤) قدور راسيات: جمع قدر وهو ما يطبخ فيه الطعام، وراسيات جمع راسية بمعنى الثابتة في الأرض، الكبير الذي يراد دوام الطبخ فيه يبنى في الأرض حتى لا يزول ولا يتحرك.

فقد بلغ داود من الملك والسيطرة مبلغا عظيما، حتى شملت هيمنته الطبيعة فكانت الجبال والطيور تسبح معه، والحديد طوع يده يصوغه كيف يشاء، أما سليمان فقد ورث ملك والده، وزاده الله عليه ملكا، وهذه القصص والأمثال تفتح أمام البشر آفاقا، وتدعوهم إلى السير فيها والوصول إلى أبعادها، فقصة داود توحي بإمكانية تسخير الطير والحديد لخدمة الحضارة الإنسانية، وقصة سليمان تشير إلى إمكانية الاستفادة من الريح.

بينات من الآيات:

[٧] ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ وهم يستهزئون، ويحاولون الانتقاص من الرسول والرسالة: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ أي تفرقت أعضاؤكم، وتمزقت بددا. ﴿إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾.

[٨] ثم يتساءلون بحيرتهم: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ هل ما يدعيه افتراء على الله؟!.

إنهم لو عادوا إلى وجدانهم لعرفوا أن الرسول لا يمكن أن يفتري على ربه الكذب، وهو الصادق الأمين، وقد بين بوضوح العقاب الذي ينتظر الذين يفترون على الله الكذب، ثم إنه أول المصدقين بالبعث، والعاملين بما يستوجبه هذا التصديق. ألا يرون كيف يكاد يشقي نفسه بالعبادة حتى نزلت عليه الآية: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴾ [طه: ١-٢].

لذلك تراهم أضربوا بالترديد عن الافتراء، إلا إنهم بكفرهم قالوا فيه قولا كبيرا، لأنهم كانوا من المعاجزين الذين يعملون بجهدهم على مقاومة القرآن، قالوا:

﴿أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ﴾ وهي الجنون. والترديد بين الافتراء والجنون دون الجزم لتشويش الرؤية، إذ أن النبي معروف بالصدق والحكمة. فكأنما جعلوا تفسير الإخبار بالمعاد لا يخرج عنهما دون تعيين.

ويجيب القرآن على هذه التساؤلات بأن المشكلة ليست في الحقائق التي يبينها الرسول، ولا في أسلوبه، حتى يتهم بالكذب تارة، وبالجنون أخرى، إنما المشكلة في الكفار أنفسهم، ومشكلتهم هي ضيق الأفق فلا يستوعبون النشور بعد الموت، والسبب كفرهم وعدم اتباعهم المنهج السليم الذي يقودهم إلى الحقائق ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴾ قالوا: «إن العذاب هنا يقابل افتراءهم على رسولهم بالكذب، بينما الضلال يقابل نسبة الجنون عليه»[1].

(١) التفسير الكبير للرازي: ج٢٥، ص٢٤٤ نقل بالمعنى.

ويبدو لي أن السياق يؤكد على أن السبب في كفر هؤلاء بالرسول يكمن في كفرهم بالآخرة الذي يجعلهم يواجهون الحقائق دائما فيعيشون العذاب. أرأيت كيف يعاني من يعارض حكومة قاهرة، كيف يحيط به العذاب، كذلك الذين لا يؤمنون بالآخرة يضطرون مخالفة حقائق الخليقة.

ومن جهة ثانية إنهم يعيشون في حالة من الضلال البعيد جدا عن الهدى، وآية ذلك أنهم ينسبون من يهديهم إلى الحقائق وإلى سبيل سعادتهم إلى الجنون، فهل تترقب لمثل هؤلاء هدى؟

ونستوحي من الآية أنه لا يضل الإنسان عن أهدافه وعن الحقائق، إلا عندما يكون الطريق الذي يختاره خاطئا، وهؤلاء حين كفروا بالبعث وقعوا في الانحراف الكبير.

[٩] و حتى يتسع أفقهم، ويهتدوا لصحة الحقائق، وما يقوله الرسول، يدعوهم القرآن للنظر في آيات الكون العظيمة والتفكر فيها، لأنها علامات وشواهد على قدرة الله. كما إنه ينذرهم بأن استرسالهم في الضلالة قد يعرضهم لعذاب شامل من نوع عذاب القرون الغابرة، كأن يخسف الله بهم الأرض أو يسقط عليهم من السماء شهبا.

﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ ﴾ ويبين لنا ربنا حقيقة هامة هي: إن الكون المحيط بنا قائم بالله، وتهيمن عليه وتدبر شؤونه قدرته القاهرة، كما تشير الآية إلى بعض الحقائق العلمية، فقد جعل الله الأرض في موقع معين، وضمن نظام دقيق بحيث تحافظ على اتزانها، وتمكن الخلق من العيش عليها، وأنشأ حجابا واقيا بين الأرض والسماء، هو الغلاف الجوي الذي يمنع سقوط النيازك والشهب من السماء على الأرض.

ولكن من الذي يكشف هذا النظام المحكم وما وراءه من عظمة الرب؟.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ إن الآيات وحدها لا تهدي الإنسان إلى الحقيقة كلها، فقد يؤمن بها ويتبعها الفرد فتأخذ بيده إلى الهدف، وقد يراها ولكنه يكفر بخلفياتها وما تشير إليه فلا تنفعه، والقرآن يقول بأن الآيات المبثوثة في الكون تهدي إلى الحقيقة، ولكن على شرط أن يكون المتفكر فيها عبدا مسلما لله، فالعبودية والإنابة إذن شرطان للاستفادة من الآيات.

إن من مشاكل الإنسان أنه حينما يسير في ركاب العلم، وتنكشف له الحقائق، وتتضح أمامه الألغاز المهمة في الحياة، فإنه لا ينظر إلى خلفياتها إنما ينظر إليها بذاتها، فهو حينما

يكتشف مكونات الذرة وهي النواة والإلكترون والبروتون، ثم يجد أن كل عناصر الحياة المادية ومكوناتها، تعتمد على نفس النظام وهو الذرة، مع اختلاف التركيب، لا يهتدي من خلال ذلك إلى حقيقة التوحيد، وأن اليد التي خلقت الذرة هي التي خلقت المجرة.

وفكرة أخيرة نستوحيها من الآية الكريمة هي: أننا عندما نتعمق في فهمنا للآية نجد أن القرآن يربط بين فهم الحياة وتزكية النفس، فكأن الذين لا يتصفون بالإنابة إلى ربهم لا يفهمون الحياة فهما حقيقيا.

[١٠] وكما أن لأسماء الله تجليات في الطبيعة، فإن لها تجليات أخرى في تاريخ البشر، ولعل هذه هي علاقة السياق بين الحديث عن الطبيعة وبيان جانب من قصة داود وسليمان عليهما السلام.

وهناك صلة أخرى بين الموضوعين في السياق هي: أن الآية السابقة تنذر الكفار بينما تبشر هذه الآية المؤمنين من خلال قصة داود الذي آتاه ربنا فضلا حين أناب إليه.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ وهذا الفضل مظهر لاسم الحمد الإلهي، حيث خص الله نبيه داود بأمور من دون الآخرين، وكانت هذه الأمور من أركان وخصائص الحضارة التي بناها عليه السلام.

وفي الآيات ما يلقي الضوء على بعض معالم العمران في عهد النبيين داوود وسليمان عليهما السلام؛ فاستثمار وتسخير الطبيعة، والمعرفة والقوة البشرية اللازمين لذلك، والقوة التي توفر الأمن والمنعة، وشبكة الاتصال والتواصل. وفي سور أخرى بينت معالم الحكم بالحق وهنا أوردته في إطار الشكر.

قال تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ فكلاهما كان خاضعا لداود، وسخر له ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ وكان لتسخير الحديد هدف يشير له القرآن في الآية اللاحقة:

[١١] ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ لقد أمر الله داود عليه السلام بصناعة الدروع السابغة (أي الواسعة) حتى يلبسها المقاتل من غير تعب، كما أمره بالإتقان في حياكتها، حتى تكون حلقاتها منتظمة ومتساوية تؤدي كل واحدة دورها المحدد،و لعل الآية تشير إلى ضرورة الإتقان في العمل، ولا سيما في الصناعة، ولكن الصناعة المتقنة كأي تقدم حضاري أخر يجب أن تكون بهدف حكيم هو العمل الصالح: ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

ونستوحي من الآية أن الله الذي سخر لداود كل هذه الأمور، لم يرتض منه أن تكون بديلا عن السعي والعمل الشخصي، لأن قيمة الإنسان تكمن في سعيه وعمله.

وفي الحديث أن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «**أَوْحَى اللهُ عَزَّ وجَلَّ إِلَى دَاوُدَ عليه السلام أَنَّكَ نِعْمَ العَبْدُ لَوْ لَا أَنَّكَ تَأْكُلُ مِنْ بَيْتِ المَالِ ولَا تَعْمَلُ بِيَدِكَ شَيْئاً قَالَ: فَبَكَى دَاوُدُ عليه السلام أَرْبَعِينَ صَبَاحاً فَأَوْحَى اللهُ عَزَّ وجَلَّ إِلَى الحَدِيدِ أَنْ لِنْ لِعَبْدِي دَاوُدَ فَأَلَانَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ لَهُ الحَدِيدَ فَكَانَ يَعْمَلُ كُلَّ يَوْمٍ دِرْعاً فَيَبِيعُهَا بِأَلْفِ دِرْهَمٍ فَعَمِلَ ثَلَاثَمِائَةٍ وسِتِّينَ دِرْعاً فَبَاعَهَا بِثَلَاثِمِائَةٍ وسِتِّينَ أَلْفاً واسْتَغْنَى عَنْ بَيْتِ المَالِ**»[1].

كما نستوحي أن شكر نعم الله وحمده عليها يكون بالاستفادة منها في سبيل الخير والصلاح.

[١٢] ثم يضرب الله لنا مثلا آخر من حياة نبيه سليمان عليه السلام فيقول: ﴿ وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ﴾

قال علي بن إبراهيم: «**كَانَتِ الرِّيحُ تَحْمِلُ كُرْسِيَّ سُلَيْمَانَ فَتَسِيرُ بِهِ فِي الغَدَاةِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ وَبِالعَشِيِّ مَسِيرَةَ شَهْرٍ**»[2]. وإذا عرفنا أن مسيرة الشهر تضاهي (٧٢٠) كيلو متراً نعرف أن السرعة تقترب من سرعة الطائرة اليوم خلال الساعة الواحدة.

﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ﴾ يعني الرصاص والنحاس.

﴿ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ وتدلنا هذه الآية على أمرين:

الأول: أن الجن ليسوا كما تزعم الأساطير أقوى من البشر، بل الإنسان قادر على تسخيرهم بإذن الله.

الثاني: أنه يمكن للإنسان أن يبلغ من التطور والتكامل الصناعي والمعنوي إلى درجة يسخر الأرواح -كالجن- في صالحه.

[١٣] ويبين لنا الله جانبا من أدوار الجن في حضارة سليمان عليه السلام إذ يقول: ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ ﴾ وهي أماكن الصلاة التي تتقدم بيت العبادة ﴿وَتَمَـٰثِيلَ﴾ أي المجسمات التي تماثل الخلق الطبيعي في ظاهرها ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ﴾ والجفان الأواني التي يقدم فيها الطعام، وقد وصفها الله لعظمتها وسعتها بالحفر أو الأحواض، لأن سليمان ما كان يقدر

(١) الكافي: ج٥، ص٧٤.
(٢) تفسير القمي: ج٢، ص١٩٩، بحار الأنوار: ج١٤، ص٧٥.

على إطعام جيشه في أوان صغيرة لكثرتهم[١].

﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ﴾ والراسية هي الثابتة، مما يدل على أن لسليمان قدورا ثابتة، وأخرى متحركة كان يحتاجها عند حركته وتنقله.

﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ إن أهم عبرة في هذه الآيات الكريمة هي ضرورة الشكر العملي، فقبل أن يكون بيد الإنسان الفضل والخير الإلهي ربما يكون مقبولا منه الشكر القولي وحده، أما بعده فيجب أن يتحول هذا الشكر إلى برنامج عملي ونعني بذلك ثلاثة أمور:

الأول: العمل الصالح، كما قال ربنا لنبيه داود: ﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ﴾، فعلى سبيل المثال يكون الشكر العملي للمال الإنفاق في سبيل الله، والتصدق على الفقراء، وإقامة المشاريع الإسلامية، وبالتالي استخدام هذه النعمة في أهدافها المحددة.

الثاني: الإبقاء والمحافظة على العوامل التي سببت الفضل والنعمة، فالعالم إنما أصبح عالما بسبب الدراسة والقراءة والتفكير والعمل، فشكر العلم هو المحافظة على هذه العوامل، لأنها تحفظ العلم وتزيده.

الثالث: الوصول بالنعمة إلى غايتها وهدفها، وهدف كل شيء في الحياة وسيلة لهدف أكبر حتى يتصل الإنسان بهدفه الأعظم وهو الطاعة والتسليم لله، فالمجاهد يقرأ حتى يتكلم، ويتكلم مع الناس لكي يهديهم، ويهديهم حتى تتكون مجموعة رسالية، وتتكون هذه المجموعة من أجل العمل السياسي والعسكري والثقافي الشامل، وذلك بهدف تغيير الواقع الفاسد، لكي يقوم بدله حكم الله، الذي يدافع عن المستضعفين، ومن ثم يقيم حضارة إسلامية متكاملة، وهكذا.. فالشكر العملي إذن أن ترقى من هدف لآخر أسمى منه.

---

(١) راجع مجمع البيان في تفسير الآية: ج٨، ص٤٩٦.

صورتان لحضارتين

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ (١) تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ (٢) فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (١٤) لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ (٣) وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ (٤) وَأَثْلٍ (٥) وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (١٧) وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (١٨) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (١٩) ﴾.

هدى من الآيات:

يبدو أن سورة سبأ تتمحور حول علاقة الإنسان بالحضارة، حيث تعرض آياتها نموذجين منها، يتمثل الأول في قصة آل داود الذين اتخذوا الملك وسيلة لعمارة الأرض، وإصلاح الناس،

(١) دابة الأرض: الدابة عموم ما يدب على الأرض، والمقصود بها هنا هي الأرضة.
(٢) منسأته: والمنسأة العصا الكبيرة التي يسوق بها الراعي غنمه، ولعل المقصود بها هنا الصولجان باعتبار سليمان ملكاً.
(٣) سيل العرم: السيل العظيم الشديد، وقيل العرم اسم للجُرذ الذي ثقب السكر، كما قيل أنه المطر الشديد.
(٤) خمط: كل شجر له شوك، والمراد مرٌّ بشعٌ.
(٥) أثل: الأثل الشجر الذي لا ثمر يؤكل له كالسمر.

وشكر الله، ويتمثل الثاني في قصة سبأ وقرى أخرى، حيث لم تنفعهم الحضارة الزراعية التي أنعم الله بها عليهم، إنما ازدادوا كفرا بدل الشكر، وتوغلا في الجاهلية.

ومن اختلاف هاتين القصتين نعرف: أن السلطة -كما القوة- ليست شيئا مكروها أو ممدوحا بذاتها عند الإسلام، أو في نظر العقل، إنما موقف الإنسان منها هو الذي يضفي عليها صفة الخير أو الشر، فإذا اتخذها طريقا للخير كانت خيرا وإلا فشر.

كما نستفيد من واقع القصتين أن هناك أجلين لحياة الإنسان ولما يعطيه ربه من النعم:

الأول: هو الأجل المسمى المحدد عند الله، وهو العمر الطبيعي للإنسان.

الثاني: الأجل المعلق والذي يستنزله الإنسان بعمله، فيطول إذا أكان العمل خيرا كالصدقة والإحسان، ويقصر إذا كان شرا كقطيعة الرحم.

فبالنسبة للحضارات لا تبقى للأبد لأن هناك سنة إلهية عليا تقضي بفناء الإنسان، وبوار ملكه بعد أن ينقضي أجله المسمى، قال ربنا سبحانه: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١٤٠]، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام:١٦٥].

وهكذا نجد أن الحضارات تسير ضمن دورة معينة، فعادة ما يعقب نموها وازدهارها التدهور والانحطاط، والذي يمكننا أن نسميه بالأجل الطبيعي للحضارة.

ولكن الناس كثيرا ما يستعجلون هذه السنة بعصيانهم وكفرهم، الأمر الذي يسبب موت كثير من الحضارات في ريعان شبابها.

إن قصة سليمان ووالده عليهما السلام صورة للحضارة التي امتدت فترة من الزمن، ثم انتهت بصورة طبيعية، بينما قصة سبأ الذي انتهت حضارتهم بسيل العرم صورة مناقضة تجسد النهاية غير الطبيعية. فداود وسليمان عليهما السلام ضربا مثالا للحضارة البشرية النموذجية، ولما تم المثل انتهت حضارتهم، فهي بدأت من نشأتها حتى صارت شبابا ثم هرمت وماتت، لكن حضارة سبأ ماتت في شبابها.

بينات من الآيات:

[١٤] أبقى الله نبيه سليمان عليه السلام منتصبا على عصاه بعد الموت، وذلك بهدف فضيحة الجن الذين كانوا يدعون بأنهم يعلمون الغيب، ولإبطال الاعتقاد السائد لدى قسم من الناس بأنهم كذلك، والذي تحول إلى نمط من الثقافة الجاهلية بل عبادة، ولعل لهذه الحادثة أثرها

الكبير في القضاء على الجانب الأكبر من عبادة الجن الشائعة في التاريخ.

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ﴾ ولعل القضاء هنا هو إجراء القدر الأول، ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ﴾ وهي الأرضة ﴿تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ﴾ أي العصا التي يتوكأ عليها، والاعتماد على العصا ليس دليلا على العاهة أو المرض، لأن موسى عليه السلام المعروف ببطشه وقوته كان يتوكأ عليها أيضا: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه: ١٨].

وحينما أكلت الأرضة العصا التي يعتمد عليها سليمان خر إلى الأرض ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾.

ولهذه الآية تفسيران:

الأول: أن معناها بعد أن خر جسد سليمان عليه السلام إلى الأرض عرفت الجن بموته الذي مضى عليه عام واحد، فتمنوا علم الغيب، إذ لو أوتوا ذلك لما بقوا يعملون هذه المدة، ويشير هذا الأمر إلى أن الجن كانوا مسخرين بالقوة، وما كانوا يقدرون على التمرد ضد سليمان في حياته.

الثاني: أنه لما خر جسد سليمان إلى الأرض، وكان الجن قد عملوا له سنة كاملة، دون علم بموته، افتضح أمرهم عند الناس، وانكشف للجميع أنهم لا يعلمون الغيب، إذ لو كانوا كذلك لما بقوا يعملون شيئا لا يريدونه، ولعلنا نستفيد من آخر الآية: ﴿مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾؛ أن خضوع الإنسان إلى حاكم لا يرتضيه سواء كان الحاكم صالحا كسليمان، أو طالحا كفرعون، أو حتى قيام الإنسان بعمل لا يقتنع به، من أشد الأمور إيلاما وعذابا له، أو ربما كان هؤلاء الجن من العصاة فأراد سليمان عذابهم بالأعمال الشاقة.

قال الإمام الباقر عليه السلام: «إِنَّ سُلَيْمَانَ بْنَ دَاوُدَ عليه السلام قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ لِأَصْحَابِهِ إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَدْ وَهَبَ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي سَخَّرَ لِيَ الرِّيحَ وَالإِنْسَ وَالجِنَّ وَالطَّيْرَ وَالوُحُوشَ وَعَلَّمَنِي مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَآتَانِي مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَمَعَ جَمِيعِ مَا أُوتِيتُ مِنَ المُلْكِ مَا تَمَّ لِي سُرُورُ يَوْمٍ إِلَى اللَّيْلِ وَقَدْ أَحْبَبْتُ أَنْ أَدْخُلَ قَصْرِي فِي غَدٍ فَأَصْعَدَ أَعْلاهُ وَأَنْظُرَ إِلَى مَمَالِكِي فَلا تَأْذَنُوا لِأَحَدٍ عَلَيَّ لِئَلَّا يَرِدَ عَلَيَّ مَا يُنَغِّصُ عَلَيَّ يَوْمِي. قَالُوا نَعَمْ.

فَلَمَّا كَانَ مِنَ الغَدِ أَخَذَ عَصَاهُ بِيَدِهِ وَصَعِدَ إِلَى أَعْلَى مَوْضِعٍ مِنْ قَصْرِهِ وَوَقَفَ مُتَّكِئاً عَلَى عَصَاهُ يَنْظُرُ إِلَى مَمَالِكِهِ مَسْرُوراً بِمَا أُوتِيَ فَرِحاً بِمَا أُعْطِيَ إِذْ نَظَرَ إِلَى شَابٍّ حَسَنِ الوَجْهِ وَاللِّبَاسِ قَدْ

خَرَجَ عَلَيْهِ مِنْ بَعْضِ زَوَايَا قَصْرِهِ فَلَمَّا بَصُرَ بِهِ سُلَيْمَانُ عليه السلام قَالَ لَهُ: مَنْ أَدْخَلَكَ إِلَى هَذَا القَصْرِ وَقَدْ أَرَدْتُ أَنْ أَخْلُوَ فِيهِ اليَوْمَ فَبِإِذْنِ مَنْ دَخَلْتَ؟.

فَقَالَ الشَّابُّ: أَدْخَلَنِي هَذَا القَصْرَ رَبُّهُ وَبِإِذْنِهِ دَخَلْتُ. فَقَالَ: رَبُّهُ أَحَقُّ بِهِ مِنِّي فَمَنْ أَنْتَ؟. قَالَ: أَنَا مَلَكُ المَوْتِ. قَالَ: وَفِيمَا جِئْتَ؟. قَالَ: جِئْتُ لِأَقْبِضَ رُوحَكَ. قَالَ: امْضِ لِمَا أُمِرْتَ بِهِ، فَهَذَا يَوْمُ سُرُورِي وَأَبَى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَكُونَ لِي سُرُورٌ دُونَ لِقَائِهِ.

فَقَبَضَ مَلَكُ المَوْتِ رُوحَهُ وَهُوَ مُتَّكِئٌ عَلَى عَصَاهُ فَبَقِيَ سُلَيْمَانُ عليه السلام مُتَّكِئاً عَلَى عَصَاهُ وَهُوَ مَيِّتٌ مَا شَاءَ اللهُ وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ وَهُمْ يُقَدِّرُونَ أَنَّهُ حَيٌّ فَافْتَتَنُوا فِيهِ وَاخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّ سُلَيْمَانَ عليه السلام قَدْ بَقِيَ مُتَّكِئاً عَلَى عَصَاهُ هَذِهِ الأَيَّامَ الكَثِيرَةَ وَلَمْ يَتْعَبْ وَلَمْ يَنَمْ وَلَمْ يَأْكُلْ وَلَمْ يَشْرَبْ إِنَّهُ لَرَبُّنَا الَّذِي يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَعْبُدَهُ.

وَقَالَ قَوْمٌ: إِنَّ سُلَيْمَانَ عليه السلام سَاحِرٌ وَإِنَّهُ يُرِينَا أَنَّهُ وَاقِفٌ مُتَّكِئٌ عَلَى عَصَاهُ يَسْحَرُ أَعْيُنَنَا وَلَيْسَ كَذَلِكَ. فَقَالَ المُؤْمِنُونَ: إِنَّ سُلَيْمَانَ هُوَ عَبْدُ اللهِ وَنَبِيُّهُ يُدَبِّرُ اللهُ أَمْرَهُ بِمَا شَاءَ فَلَمَّا اخْتَلَفُوا بَعَثَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الأَرَضَةَ فَدَبَّتْ فِي عَصَاهُ فَلَمَّا أَكَلَتْ جَوْفَهَا انْكَسَرَتِ العَصَا وَخَرَّ سُلَيْمَانُ عليه السلام مِنْ قَصْرِهِ عَلَى وَجْهِهِ فَشَكَرَتِ الجِنُّ لِلأَرَضَةِ صَنِيعَهَا فَلِأَجْلِ ذَلِكَ لَا تُوجَدُ الأَرَضَةُ فِي مَكَانٍ إِلَّا وَعِنْدَهَا مَاءٌ وَطِينٌ وَذَلِكَ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَ: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾»[1].

[١٥] ثم يضرب القرآن مثلاً آخر وذلك من تاريخ اليمن، كشاهد على الحضارة التي تموت فجأة وقبل أجلها الطبيعي، وسبأ التي يذكرنا بها القرآن قبيلة عاشت على الطرف الجنوبي لشبه الجزيرة العربية، وكانت تتقلب في نعماء الله حتى بطرت معيشتها، فتكبرت عن الشكر له، ولم ترع العوامل المسببة للخير، فدمر الله سدها الذي تقوم عليه حضارتها الزراعية، فانهارت وبادت، وتبددت القبيلة حتى انقرض كيانها، فضرب به المثل العربي: (تفرقوا أيادي سبأ).

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ وكان ينبغي لهؤلاء أن لا يقفوا عند الآية، إنما يستدلوا بها على الحقيقة التي تهدي إليها، وهي كما تبين آخر الآية معرفة رب النعم وهو الله، ومن ثم شكره لتزداد النعمة وتدوم، والملاحظ أن الله استخدم للتعبير عما فيه سبأ من النعيم كلمة: ﴿مَسْكَنِهِمْ﴾ ولم يقل بيوت، ولعل المسكن هو البيت الذي يأوي إليه الإنسان مطمئنا مرتاحا ساكنا، بينما البيت هو محل المبيت، وربما أتاه الإنسان قلقا حزينا.

(١) بحار الأنوار: ج١٤، ص١٣٦.

وقوله عز وجل: ﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ يكشف عن الطبيعة الجغرافية، ذلك لأنه يفهم من هذا التعبير وجود نهر يقسم البلاد إلى شطرين، ولعل هذا النهر يتصل بالسد حيث تفرغ المياه فيه ليحملها إلى الجنان التي على جانبيه.

وكان من المفروض أن تستفيد سبأ مما تنتجه الأرض، عارفين بأنه من عند الله، ثم يشكرونه.

﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ وقد أمر الله آل داود بذلك، فلما استجابوا وشكروا استمرت حضارتهم، حتى وافاها أجلها الطبيعي بموت سليمان، أما هؤلاء فلم يشكروه، مما أدى إلى اندحار حضارتهم.

والمجتمع حينما تكون مسيرته العامة الشكر لله مباشرة، أو الشكر للعباد قربة له، فإنه يصبح مجتمعا فاضلا خيرا، أو كما يعبر القرآن:

﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ لأنه يسير في ركاب الحق، أما بالنسبة للذنوب والأخطاء الجانبية فإنها لا تقضي على الحضارات، بالذات إذا لم يكن مصدرها التحدي والعناد، إنما يصلحها الله ويغفرها ﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾.

[١٦] كانت هذه دعوة الله لهم ولا تزال تشمل البشرية جيلا بعد جيل، لكنهم رفضوها ﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ والفاء تفيد العطف والتعقيب بلا فاصل، فالآية إذن تشير إلى سرعة التكذيب، كما تشير إلى سرعة الجزاء، وهذا يدل على أن حضارتهم لم تبق كثيرا، وربما دلت على أن حضارتهم مهما طالت فإن الله يختصر المسافة بين التكذيب والجزاء، فمهما عاشوا فهو قليل عند الله حقير.

يقول علي بن إبراهيم: «وَكَانَتْ لَهُمْ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ عَنْ مَسِيرَةِ عَشَرَةِ أَيَّام فِيمَنْ يَمُرُّ لَا تَقَعُ عَلَيْهِ الشَّمْسُ مِنَ التِفَافِهَا فَلَمَّا عَمِلُوا بِالمَعَاصِي وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَنَهَاهُمُ الصَّالِحُونَ فَلَمْ يَنْتَهُوا بَعَثَ اللهُ عَلَى ذَلِكَ السَّدِّ الجُرَذَ وَهِيَ الفَأْرَةُ الكَبِيرَةُ فَكَانَتْ تَقْلَعُ الصَّخْرَةَ الَّتِي لَا يَسْتَقِلُّهَا الرَّجُلُ وَتَرْمِي بِهَا فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ قَوْمٌ مِنْهُمْ هَرَبُوا وَ تَرَكُوا البِلَادَ فَمَا زَالَ الجُرَذُ تَقْلَعُ الحَجَرَ حَتَّى خَرَّبُوا ذَلِكَ السَّدَّ فَلَمْ يَشْعُرُوا حَتَّى غَشِيَهُمُ السَّيْلُ وَخَرَّبَ بِلَادَهُمْ وَ قَلَعَ أَشْجَارَهُم»[(١)].

﴿وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ وقد

(١) تفسير القمي: ج٢، ص١٩٩، بحار الأنوار: ج١٤، ص١٤٣-١٤٤.

اختلف المفسرون في معنى الخمط والأثل، إلا إنهما كما يبدو شجرتان بريتان شوكيتان، قد تكون إحداهما الأراك والأخرى السمر، وكذلك السدر من الأشجار التي تقاوم الجفاف.

[١٧] و يبين الله السبب الرئيسي الذي يقف خلف هذه النهاية المدمرة ألا وهو الكفران بالنعمة ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ ﴾ بالله وبأنعمه، ﴿وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾.

ومن هذا المقطع نستفيد حقيقتين: فمن جانب هناك إشارة إلى أن الجزاء يشمل كل كفـور، دون أن يختص بهذه الجماعة التي يذكرها القرآن، ومن جانب آخر يوضح تعبير ﴿ٱلْكَفُورَ﴾ بأن الرب يعطي فرصة للعباد عند الخطيئة، المرة بعد الأخرى رحمة بهم، فهو لا يأخذهم بالعذاب في بادئ الأمر، إنما بعد الإصرار على الذنب، وصيغة المبالغة ﴿ٱلْكَفُورَ﴾ تدل على تكرار الكفر بالنعمة.

هكذا بادت الحضارة الزراعية التي انتشرت ربوعها على أطراف شبه الجزيرة، التي لم يكن الرجل يحتاج وهو يمشي بين أغصانها المتدلية بأصناف الثمر لكي يقطف منها ما يشاء، إلا للقليل من الجهد، وحلت محلها حياة قاسية.

[١٨] ثم ينتقل بنا السياق إلى تجربة حضارية ثالثة، من واقع القرى التي امتدت من اليمن حتى مكة والمدينة، والتي تميزت بالظهور وهو الارتفاع أو القوة أو الشهرة، وبالنظام والامتداد، وأخيرا بالأمن الذي يعتبر من أعظم نعم الله على الإنسان.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾ أي بين أهل سبأ الذين مر الحديث عنهم في الآيات السابقة، ﴿وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ﴾ وهي مكة وما حولها؛ ﴿قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ﴾ .

ولعل هذه إشارة إلى النظام، حيث جعل الله السير فيها مقدورا، ويعتبر ذلك ميزة لحضارة هذه القرى، لأنها كانت تعيش في منطقة جبلية يصعب السير فيها، وربما كانت جبالها ووديانها تبتلع القوافل الضائعة.

﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴾ وهذه العبارة توحي لنا بمعنيين:

الأول: سعة الحضارة، إذ يسير فيها الإنسان أياما وليالي، فهي إذن ممتدة شاسعة المساحة.

الثاني: الأمن الذي كانت تتمتع به هذه القرى، والجدير بالذكر أن الأمن في ذلك الزمان وفي هذه المنطقة التي يحدثنا عنها القرآن بالذات كان أمرا نادرا بسبب عصابات قطاع الطرق، والوحوش.

[١٩] لكن هؤلاء رفضوا هذه الخيرات والمعطيات، التي تمخضت عنها الحضارة الجديدة، وبدؤوا يحنون إلى الماضي، حيث القبلية والتفرقة الحاكمة، وحيث الروح الفردية المستبدة.

﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ ولعلهم في هذا الجانب وبهذه الروح يشبهون بني إسرائيل، حيث تقدمت بهم الحضارة حتى صار أكلهم يتنزل عليهم من السماء منا وسلوى، لكنهم رفضوه، وأخذهم الحنين إلى القديم من البقل والعدس والفوم، فذمهم الله على هذه النفسية السلبية المتخلفة وقال: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ۚ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ۗ﴾ [البقرة:٦١]. ويصف الله هذه الثقافة بأنها صورة للظلم الذي يعود على صاحبه بالضرر والفساد.

﴿وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ ومضربا للمثل في خاتمة السوء، وتهدينا الآية إلى نهاية هؤلاء، حيث تحولوا من الواقع المتحضر القائم على الأرض، إلى مجرد أحدوثة على ألسنة الناس، والقرآن الكريم يشير إلى أن حضارتهم إنما تبددت بسبب الروح الفردية التي نخرت كيانها فيقول: ﴿وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ﴾ حيث تحولت النزعة الأنانية إلى واقعها المر، ولا ريب أن الحضارة تولد بالجهود الجماعية المنظمة، حيث تتركز الجهود، وحين تنعدم الروح الجماعية، والتفكير المشترك، والسعي الموحد، تؤول إلى الدمار.

وفي تفسير الآية عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**هَؤُلَاءِ قَوْمٌ كَانَ لَهُمْ قُرًى مُتَّصِلَةٌ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ وأَنْهَارٌ جَارِيَةٌ وأَمْوَالٌ ظَاهِرَةٌ فَكَفَرُوا بِأَنْعُمِ الله وغَيَّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ فَأَرْسَلَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ عَلَيْهِمْ سَيْلَ العَرِمِ فَغَرَّقَ قُرَاهُمْ وأَخْرَبَ دِيَارَهُمْ وَأَذْهَبَ بِأَمْوَالِهِمْ**»[١]. وقصص هذه الحضارات الأربع تنطوي على كثير من الدروس والعبر التي تنفع البشرية في مسيرتها الحضارية الصاعدة، والبشرية أحوج ما تكون وهي تنشد الرقي أن تدرس تجارب الحضارات الأخرى، وبالذات الماضية منها، لأنها مرت بدورة حضارية كاملة.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ إنها ليست قصصا للتسلية واللهو، بل تحمل مشاهدها الدروس والعبر، وحتى يستوعب الإنسان الفرد أو الأمة ذلك عقليا وأهم منه عمليا لابد أن تتوفر فيه صفات معينة: أبرزها الصبر الدائم، والشكر الكثير، لأن الصبر آية سكينة النفس، وحصانة العقل، وبعد النظر، ومعرفة عواقب الأمور، وكل تلك الصفات ضرورية لوعي الحقائق، ومعرفة غيب الأحداث، وماورائيات الظواهر التاريخية.

---

(١) الكافي: ج٢، ص٢٧٤.

أما الشكر فإنه دليل العلم، فالجاهل لا يرى أسبابا للنعم، ولا يفهم أن لكل ظاهرة حادثة عوامل، أوجدت بها، وتستمر معها، وبالتالي لا يبلغ إلى معرفة من أنعم عليه فلا يشكره، هكذا تتصل صفة الشكر والصبر بعالم المعرفة، وهكذا تزيد المعرفة بالشكر والصبر.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى: إن عبرة هذه القصص هي الشكر والصبر.

فالقصص الأربع من حضارتي داود وسليمان، وحضارتي سبأ والقرى التي امتدت منها إلى مكة المكرمة، تلهمنا درس الصبر والشكر، فسليمان وداود عليهما السلام إنما تقدمت حضارتهما، واستقامت إلى أجلها الطبيعي حينما صبرا وجدا في تأسيسها، وشكرا الله حفاظا لها من الزوال، أما الحضارتان الأخريان فدمرتا بنهاية غير طبيعية، لانعدام صفتي الصبر الذي يعبر عن الجد والاستقامة، والشكر الذي يجسد الاتصال الحقيقي بحبل الله، والمحافظة على أسباب الرقي، واللذان يعتبران روحا لأية حضارة.

وكلمة أخيرة: هل إن شبه الجزيرة التي استضافت الحضارات، والتي انبعثت فيها آبار النفط بالخير والبركة، سوف يستفيد أهلها وحكامها من قصص آبائهم، فتكون حضارتا داود وسليمان عليهما السلام مثلا لهم، أم لن يعتبروا بتاريخهم، ولا يصبروا على دين الله ولا يشكروا له، فتكون الحضارتان الأخيرتان أمثولة لهم؟!.

بل هو الله العزيز الحكيم

﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

كثيرة هي الآيات القرآنية التي تنسف الأفكار التبريرية وغيرها، مما يحول بين الإنسان والسعي، فالحق وبالذات في كلياته العامة واضح كالشمس إلا إن الهوى يحجبه عن عقل الإنسان، ولكي تبرر النفس البشرية تثاقلها عن تطبيق الحق وانحرافها عنه فإنها تلجأ إلى الأفكار الباطلة، ولا بد لمن يريد العودة إلى الرشاد من نسف هذه الأفكار، ورفع تلك الحجب، لكي يتصل عقله اتصالا مباشرا بالحق، وهذا من أهم أهداف الآيات القرآنية، إذ نجدها تبطل الأفكار التبريرية الواحدة تلو الأخرى، فإذا بها تجابه فكرة شفاعة الأنداد ببيان حقيقة التوحيد،

وتنسف فكرة الاطمئنان إلى الدنيا بأن الدنيا مرحلة بسيطة في حياة البشر، وتبطل الجبر بتأكيد إرادة الإنسان ومسؤوليته.

وأول ما يعالجه هذا الدرس -الذي جاء لينقض جانبا من الثقافة السلبية- هو فكرة الحتمية، فالكثير من الناس يسعون لتبرير واقعهم المنحرف (السياسي) كخضوعهم للسلطات الجائرة ومؤسساتها، أو (الاجتماعي) كاستجابتهم لضغوط الآباء والمجتمع أو (الاقتصادي) كاستجابتهم للنظم الاقتصادية الفاسدة وما أشبه بفكرة الجبر والإكراه، وإذا أراد البشر تحدي حتمية اتباع إبليس، ومن يجسده في الدنيا، فعليه أن يتسلح بالإيمان بالآخرة، لأنه يعلو به على الحتميات. فلو هدده الطاغوت بالقتل إذا لم يتحول إلى خانع تابع له، وعبد يسعى في خدمته وأهدافه، لقال: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٥]، وإذا توعده بالسجن قال: ﴿ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾ [يوسف: ٣٣]. وهذا المنطق هو الذي جعل السحرة يستقيمون أمام جبروت فرعون وظلمه.

بينات من الآيات:

[٢٠] حينما أمر الله الملائكة بالسجود لآدم أبى إبليس -الذي جمع معهم لعبادته- السجود تكبرا، فطرده الله بعد أن حذر البشر منه، فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾ [البقرة:١٦٨]. لكن إبليس اكتشف نقاط الضعف في الإنسان من حب للمال والسلطان، فظن في نفسه أنه قادر على إغوائه ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا﴾ [النساء:١١٨]. والله يؤكد أن إبليس وجد لظنونه مصداقا بين الناس.

﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ ولعلنا نستفيد من هذا التعبير أن إبليس ظن أنه سوف يتخذ من أبناء آدم نصيبا مفروضا، ثم سعى حتى جعل ذلك الظن الذي ظنه صادقا وذلك بإغواء الناس.

بلى؛ إن إبليس عدو خطير لأنه قد خطط سلفا للإيقاع بالبشر، وسعى جاهدا لتنفيذ تلك الخطط. وهكذا اتبعه الناس أجمعون، إلا مجموعة من الناس هم الفريق المؤمن بالله واليوم الآخر.

﴿فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ ولا يدل هذا الاستثناء، على أن الفريق الآخر من المؤمنين اتبعوا إبليس، إذ معنى ﴿مِّنَ﴾ هنا التفسير والبيان، أي اتبعه إلا فريقا وهم المؤمنون.

ومن أهم مصاديق صرف الشيطان للإنسان عن الحق هو إضلاله عن اتباع القيادة

الصادقة، وهذا ما يفسر الروايات التي جاءت مؤولة الآية الكريمة بأنها تعني القيادة الرسالية[1].

[٢١] ولكن هل هو جبرٌ الانصياع إلى أمر إبليس، حتى يبرر الإنسان انحرافه بأن لا حول له ولا طول تجاه ضغوطه وأساليبه الماكرة؟ بالطبع كلا.. والله ينفي هذه الحتمية بعد الإشارة إلى عدمها، من خلال تقسيم الناس إلى مطيعين لإبليس ومخالفين له، إذ لو كانت حتمية تقضي بالخضوع له لما تمرد عليه فريق المؤمنين، فالناس إذن هم الذين يقررون طاعة الرب أو اتباع إبليس.

﴿ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ ﴾ يقهرهم به، بلى إن وسائل الشيطان والطغاة كثيرة وماكرة، ولكن الإنسان قادر على مواجهتها ببصيرة الإيمان، وسلاح التوكل، ولو تسلح بهما لما أضعفت نفسيته ولما ضللته وسائل الإعلام والتوجيه المنحرفة وغيرها.

والله يؤكد أن الهدف في خلق إبليس ليس إضلال الناس، فحاشا لله أن يريد إضلال عباده وقد خلقهم ليرحمهم، وإن أراد ذلك لما بقي أحد مؤمنا، وإنما خلقه ليمتحن الناس من خلاله ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ علما فعليا لا الذاتي واقعيا مستندا لفعل العباد ﴿مَن يُؤْمِنُ بِٱلْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ وإلا فإن الله بكل شيء عليم، يعلم بمعرفته وخبرته المطلقة المؤمن من الكافر.

والآية تؤكد على الإيمان بالآخرة هو حجر الزاوية في مسيرة الإنسان وتحديد مصيره، بل وفي إيمانه، وبالتالي فإن شكه فيها يبعثه على الشك العام في سائر الحقائق.

﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾ يسجل للإنسان أو عليه كل عمل وحركة، ويحفظها في كتابه الذي يلقاه يوم القيامة منشورا.

ونستوحي من الآية أن ثمة سلطانا محدودا لإبليس على بني آدم، لا يبلغ درجة الحتم بل يقف عند حدود الضغط، وأن الحكمة من إعطاء إبليس هذا السلطان المحدود ابتلاء البشر ليعرف مدى إيمانهم بالآخرة، فمن كان إيمانه بها ثابتا فإنه يثبت أمام إرهاب إبليس ومن يتبعه ويمثله من أولي القوة والثروة والتضليل، ألا ترى كيف صمد السحرة بعد إيمانهم برب موسى وهارون عليهما السلام أمام تهديد فرعون لأنهم كانوا واثقين من اليوم الأخر، فلم يفلح إبليس وخليفته فرعون من النيل من صلابتهم شيئا. تعال نقرأ القرآن: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ

(١) راجع نور الثقلين: ج٤، ص٣٣٣-٣٣٤.

وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٤٩-٥١].

وهكذا كل من تعرض لضغط أولياء الشيطان عليه أن يتذكر الآخرة ليصمد أمامهم. وهذه التجلي الأول للثقافة التبريرية في الآيات؛ أي «الحتمية».

[٢٢] والتجلي التبريري الثاني الذي يعالجه هذا الدرس، هي «الشفاعة» التي تعني الاعتماد على قوى أخرى تنقذ الإنسان من نار جهنم كالأصنام، وقد أقحمت هذه الأفكار في المسيحية تحت عنوان الفداء، إذ كانوا في القرون الوسطى وإلى اليوم يذهبون للكنائس من أجل الحصول على صك الغفران.

ولا شك أن الاعتقاد بوجود منقذ غير الله يفرض على الله شفاعته صورة أخرى للشرك.

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ من الشركاء، وخضعتهم لهم، وهم كما يبدو ثلاثة أصناف من الشركاء:

الأول: أصحاب الثروة، الذي يظن الناس أنهم يرزقونهم، وأنهم لما يظهر لهم من ثروتهم وملكهم يشاركون الله في ملكه للحياة، والقرآن ينفي ملكيتهم ولو بمقدار الذرة المتناهية في الصغر ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾.

الثاني: أصحاب السلطة، والزعم بأن شخصا أو نظاما يشارك الرب في إدارة الخليقة، وتدبير شؤون السماوات والأرض، وينفي السياق ذلك بقوة ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ ﴾.

الثالث: وسائط القوة والثروة، من الجنود والخدم والوزراء، والقرآن ينفي أن يكون للأنداد شرك حتى بهذا القدر ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾.

[٢٣] وإنما كانت تعبد هذه الأصنام طمعا في شفاعتها وإن لم تملك شيئا، إذ يزعمون أن لها وجاهة عند الله. وينقض القرآن هذا الاعتقاد فيقول: ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ الشفاعة هي الدعاء وما يترتب عليه، والله ليس مجبورا أن يستجيب لأحد دعاءه في حق نفسه أو في حق الآخرين مهما كان هذا مقربا عند الله، ويبين القرآن هذا المعنى في قول الله إلى حبيبه محمد ﷺ: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ [التوبة: ٨٠].

إذن لا مجال لفكرة الفداء في الرسالة الإلهية، بلى؛ إن الله شفيع للإنسان، ويقبل شفاعة الآخرين فيه حينما تكون عنده مؤهلاتها، حيث يقول ربنا سبحانه: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ

﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:٦٤]. فمعنى الشفاعة الحقيقي إذن هو ما تقدمت الإشارة إليه وهو ما تؤكده هذه الآية الكريمة. بأن يشعر الإنسان نفسه بالذنب، وبضرورة التوبة لله منه، وما يستلزم ذلك من انكسار القلب، وعقد العزم على عدم العود إليه، ثم المجيء للقيادة الرسالية أو من يجسدها والاستغفار عنده.

وبكلمة: هناك مفهوم للشفاعة يتخذه الإنسان غطاء لجرائمه، وتهربه عن مسؤولياته، وهي الشفاعة الشركية المرفوضة التي يزعم صاحبها أن أصنام السلطة والثروة وجنودهما قادرين على إنقاذه من غضب الرب لأنهم يشاركون الله في سلطانه تعالى الله عما يشركون.

وهناك شفاعة مسؤولة تبعث الإنسان نحو المزيد من المسؤولية والطاعة وهي التي يبينها القرآن في أكثر من مناسبة، والتي تعني دعاء الرسول والأئمة والصالحين بالمغفرة لمن أذن الله له بذلك، وهم المسلمون المطيعون لله وللرسول والأئمة بصفة عامة.

وإنما تبعث هذه الفكرة نحو المزيد من العمل لأنها تقاوم اليأس، وتزيد من طاعة القيادة الإلهية. عَنْ أَبِي العَبَّاسِ المُكَبِّرِ قَالَ: «دَخَلَ مَوْلَى لِامْرَأَةِ عَلِيِّ بْنِ الحُسَيْنِ عليه السلام عَلَى أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام يُقَالُ لَهُ أَبُو أَيْمَنَ فَقَالَ يَا أَبَا جَعْفَرٍ تُغْرُونَ النَّاسَ وَتَقُولُونَ شَفَاعَةُ مُحَمَّدٍ شَفَاعَةُ مُحَمَّدٍ فَغَضِبَ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام حَتَّى تَرَبَّدَ وَجْهُهُ[1] ثُمَّ قَالَ عليه السلام: **وَيْحَكَ يَا أَبَا أَيْمَنَ أَغَرَّكَ أَنْ عَفَّ بَطْنُكَ وَفَرْجُكَ أَمَا لَوْ قَدْ رَأَيْتَ أَفْزَاعَ القِيَامَةِ لَقَدِ احْتَجْتَ إِلَى شَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله وَيْلَكَ فَهَلْ يَشْفَعُ إِلَّا لِمَنْ وَجَبَتْ لَهُ النَّارُ**، ثُمَّ قَالَ عليه السلام: **مَا أَحَدٌ مِنَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ إِلَّا وَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى شَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله يَوْمَ القِيَامَةِ**.

ثُمَّ قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام: **إِنَّ لِرَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله الشَّفَاعَةَ فِي أُمَّتِهِ وَلَنَا شَفَاعَةً فِي شِيعَتِنَا، وَلِشِيعَتِنَا شَفَاعَةً فِي أَهَالِيهِمْ**. ثُمَّ قَالَ عليه السلام: **وَإِنَّ المُؤْمِنَ لَيَشْفَعُ فِي مِثْلِ رَبِيعَةَ وَ مُضَر وَإِنَّ المُؤْمِنَ لَيَشْفَعُ حَتَّى لِخَادِمِهِ وَيَقُولُ: يَا رَبِّ حَقُّ خِدْمَتِي كَانَ يَقِينِي الحَرَّ وَ البَرْدَ**»[2].

وعندما تغشاهم أفزاع القيامة تطير ألبابهم، وتزيغ أبصارهم، ولا يعودون إلى رشدهم إلا بعد أن يفرغ الله قلوبهم من الفزع، وهنالك يتساءلون: ماذا قال الرب؟ ويجاوبون: لقد قال الحق ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ وحرف ﴿حَتَّىٰٓ﴾ يدل على أن الفزع يستمر معهم إلى أن يفرجه الله عنهم، مما يدل على أن الشركاء لا يغنون عنهم شيئا.

وكلمة ﴿فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ تشبه قول العرب (قُرِّدَ البعير) إذا أخذ منه القراد، ويسمونه

(١) تغيير لونه.

(٢) تفسير القمي: ج٢، ص٢٠٢.

السلب، ومعناه سلب عنهم الفزع.

﴿قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ﴾ لعل السائل والمجيب هم نفس الفريق، فسأل البعض عن مصير الناس، وأجاب الآخرون، إذ هم من يُكشف الفزع عن قلوبهم. فالكلام يكون خاصا بالذين يؤذن لهم بالشفاعة، حيث ينزع عنهم الفزع حينما يؤذن لهم بالشفاعة، بينما يبقى الآخرون في فزع عظيم حتى يُشفع لهم. فالشفعاء هم: ﴿عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٨].

ويحتمل أن يكون السائل هم الناس المتسائلين عن مصائرهم وإمكانية أن يُشفع لهم، فيجيب من يؤذن لهم بالشفاعة؛ بأن الشفاعة لمن ارتضى وبالحق: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴾ [طه:٨٢]، واتخذ مع الرسول سبيلا: ﴿ قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ﴾ [الفرقان:٥٧]، وأما غيره فـ﴿ وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ﴾ [الفرقان:٢٧].

﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ فلا شفاعة إلا بإذنه. ولا يتبدل القول لديه.

وفي الآية تفسيرات عديدة، بيد أن ما ذكرنا أنسب إلى السياق من غيره في ما يبدو لي.

[٢٤] ثم يمضي السياق قدما في تفنيد الأفكار التبريرية و منها الزعم بأن غير الله يرزق شيئا، وسواء كان السلطان أو المترف أو غيرهما فإن ربنا ينفي أن يكون الرازق حقا غير الله.

﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ من يرسل السحاب، ويبعث بأشعة الشمس، ويهدي الإنسان إلى طرائق الزراعة والصناعة، ويرزقه القوة؟

﴿قُلِ ٱللَّهُۖ﴾ ثم يستفيد من أسلوب التشكيك المنهجي لإيصال الإنسان إلى الحقيقة: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ وهذا الأسلوب يجعل الكافر يشكك في طريقه شكا منهجيا، كما يشك -على الأقل- في صدق الرسالة، مما يجره للبحث والتعرف، وهذا بالطبع سيقوده إلى الحق، مرحلة فمرحلة، وإنما يبقى في الضلال الذي لا يشكك نفسه، بل يعتقد جازما أنه على الصواب.

وكما أن جزم الإنسان بأن طريقه هو الأصح من دون بحث وتدقيق خطأ، فإن اعتقاده بصحة كل اعتقاد كما يدعي ذلك البعض هو الآخر خطأ.

[٢٥] و الفكرة التبريرية الرابعة التي ينسفها القرآن: هي الاعتقاد بأن عمل الإنسان يمكن أن يلقى على عاتق غيره، وإذا كان هذا ممكنا في الدنيا، حيث يلقي بالمسؤولية على الآخرين، فإنه مستحيل في الآخرة.

﴿ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ فكل إنسان يلزم طائره في عنقه.

[٢٦] ولكي نتخلص من هذه الفكرة التبريرية يجب أن نتطلع إلى الآخرة، حيث نقف جميعا أمام الله ليحكم بيننا وهناك يتحدد المصير الأبدي.

﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ فلابد أن نعتقد بيوم يتميز به الحق عن الباطل وأن أهلهما بحكم الله، وضرورة هذا الاعتقاد أن الإنسان ربما يعتمد على نفسه في التمييز بينهما، فإذا بالضغوط والإغراءات تؤثر فيه وتضيع منه المقاييس.

وعلى سبيل المثال: لو لم تكن في العالم مقاييس وموازين محدودة للباعة لاجتهد كل واحد في تحديد مكيال خاص به، وهذا أمر خطير ينهي إلى التلاعب بالاقتصاد، لكن إيجاد مقياس محدد يفرض على الجميع (البائع والمشتري) تكييف أنفسهم مع هذا المقياس، فيكون حاكما بينهم، كذلك العلم بوجود مقياس ثابت عند الله لا بد أن ننتهي إليه جميعا يقف دون العمل بالأهواء.

[٢٧] وفي نهاية هذا الدرس يذكرنا القرآن بأن الشركاء ليس فقط لا يملكون شيئا، بل هم أنفسهم ليسوا بشيء إذا فكر الإنسان فيهم.

﴿ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ﴾ وادعيتم أنهم يتصرفون في الحياة معه، أو يؤثرون عليه، أو يعينونه، ﴿كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ﴾ الذي لا يحتاج إلى معين لأنه قوي وقادر بذاته، ﴿ٱلْحَكِيمُ ﴾ الذي يحيط بالأمور علما، ويتصرف فيها بدقة، فلا يخطئ حتى يحتاج إلى من يسدده أو يصحح حكمه عز وجل.

هل يجزون إلا ما كانوا يعملون

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَـٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

بعد أن نسف السياق التبريرات التي يحتمي بها المجرمون هربا من المسؤولية، أبلغهم أن الرسول ﷺ جاء مبشرا ومنذرا لهم جميعا، فالناس أمام مسؤولياتهم شرع سواء، وأن وعد الله بالجزاء آت، وأن لكل أمة أجلا هم بالغوه، ولن يؤخر عنهم إذا جاءهم لحظة واحدة، كما لا يتقدم أجلهم باستعجالهم.

وحين تحدى الكفار الرسالة، وقالوا: لن نؤمن بها ولا بالذي سبقها من الكتب، أنذرهم

الرب أنهم سوف يندمون يوم الجزاء الأكبر، حين يرون العذاب، وتوضع الأغلال في أعناق الذين كفروا جزاء بما كانوا يعملون، وهنالك لا ينفعهم التبرير الذي يتوسلون به اليوم حين يلقي المستضعفون (التابعون) المسؤولية على المستكبرين (المتبوعين).

ويبين السياق فساد هذا التبرير عندما يصور الحوار الساخن بينهما، حين يرجع بعضهم إلى بعض القول فيقول المستضعفون: أنتم كنتم السبب في ضلالتنا، فيتبرأ من ذلك المستكبرون، ويقولون: إنكم كنتم مجرمين بأنفسكم، ولا يسع المستضعفين آنئذ إلا إلقاء اللوم على الزمن فيقولون: بل مكر الليل والنهار، إذ يأمروننا بالكفر.

بينات من الآيات:

[٢٨] إن ما يميز الرسول ﷺ عن سائر الأنبياء أنه بعث لعامة الناس، إذ لم تختص دعوته بجماعة دون أخرى، ولا بقوم دون آخر، وهذا بذاته دليل على صدق رسالته، ذلك أن الإنسان مهما حاول التجرد فإنه يبقى ابن بيئته التي تعكس عليه آثاره في واقع الثقافة، كما تعكس عليه الآثار الطبيعية. من هنا حين يأتي الرسول برسالة تتجاوز القومية، والعنصرية، والإقليمية، نظريا وعمليا، فان ذلك يكون دليلا على أن رسالته إلهية.

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ ويلاحظ هنا تقديم البشارة على الإنذار، بينما نجد العكس في بعض الآيات، ولعل الحكمة أنه إذا كان الحديث عن هداية الإنسان استلزم تقديم الإنذار لأنه الأقوى أثرا في البشر، بينما إذا جرى الحديث عن شخص الرسول تقدمت البشارة للدلالة على أنه بعث رحمة للعالمين.

والسؤال: من الذي تسوقه البشارة إلى العمل الصالح، ويمنعه الإنذار عن الذنب؟.

إنه العالم. أوليس العلم يجعل الإنسان يؤمن بالحقائق؟! لهذا جاءت آيات كثيرة تؤكد على علاقة العلم بالإيمان، وتكميل أحدهما للآخر، ومن أبرزها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: ٢٨]. وإنما لا يستجيب غالبية الناس للرسل ببشارتهم وإنذارهم لجهلهم، فإذا رأيت أغلب الناس كفارا فلا تستوحش من ذلك، ولا تظن بأن ذلك دليل على ضعف أدلة الرسالة، بل على أن الإيمان -كما العلم- درجة رفيعة لا يبلغها إلا الصفوة من الناس ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ فهم لا يؤمنون.

[٢٩] ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ ويتشبث الإنسان بتبرير فاسد آخر حين يتساءل: إذن أين الجزاء؟! لماذا يتأخر عن المجرمين؟! إذا كنتم صادقين في أن

لكل عمل صالح جزاء حسنا يبشر به الرسول، ولكل جريمة عقابا ينذر به.

[٣٠] ويبطل السياق هذا التبرير أيضا بأن الجزاء آت، وأن تأخيره لأجل محدود، وأنه حين يحين ميعاده لا يتأخر ساعة ولا يتقدم.

﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ وقد أخفى الله أجل الإنسان، فهو لا يدري متى يوافيه الموت والجزاء، ولعل أي لحظة يمر بها تحمل في طياتها أجله، مما يدعوه إلى التسارع والمبادرة لعمل الخير، والاستقامة عليه. يقول الرسول ﷺ لأبي ذر رضي الله عنه: **«يَا أَبَا ذَرٍّ اغْتَنِمْ خَمْساً قَبْلَ خَمْسٍ شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ وصِحَّتَكَ قَبْلَ سُقْمِكَ وغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ وفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ وحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ»**[١].

ذلك أن الحكمة من إخفاء الأجل هي بعث روح المبادرة في الإنسان، هكذا يقول الإمام الصادق عليه السلام: **«ثُمَّ (لو) عَرَفَ ذَلِكَ** -يعني أجله- **وَثِقَ بِالبَقَاءِ وَانْهَمَكَ فِي اللَّذَّاتِ وَالمَعَاصِي وعَمِلَ عَلَى أَنَّهُ يَبْلُغُ مِنْ ذَلِكَ شَهْوَتَهُ ثُمَّ يَتُوبُ فِي آخِرِ عُمُرِهِ وَهَذَا مَذْهَبٌ لَا يَرْضَاهُ اللهُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَا يَقْبَلُه** -إلى أن يقول عليه السلام- **فَكَانَ خَيْرَ الأَشْيَاءِ لِلإِنْسَانِ أَنْ يُسْتَرَ عَنْهُ مَبْلَغُ عُمُرِهِ فَيَكُونَ طُولَ عُمُرِهِ يَتَرَقَّبُ المَوْتَ فَيَتْرُكَ المَعَاصِيَ وَ يُؤْثِرَ العَمَلَ الصَّالِح»**[٢].

والساعة التي تعنيها الآية الكريمة ليست كما هي عندنا، إنما هي في عرف القرآن اللحظة وأقل منها. والناس يموتون بين فاتح لعينه وآخر مغمضها. ولا يتأنى لأحد دفع الموت أو تأخيره بل ولا الانتقال من حال إلى حال. إذن لماذا نستهين بالزمن! ولماذا نقتل المسافة التي تفصلنا عن أجلنا باللهو واللعب والمعصية، ونحن لا نعرف متى ينتهي هذا الزمان!

[٣١] إن من عقبات الإيمان بالرسالة حالة العناد التي يعالجها الذكر ببيان نتائجها السيئة، فيحدثنا السياق عن كلمة الكفار: بأنهم لا يؤمنون بالقرآن، ولا بالكتب التي سبقته، وكأنهم قد عقدوا العزم على هذا الرفض القاطع لرسالات ربهم.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ والله يعالج مشكلة العناد هذه عن طريق تصوير مشاهد رهيبة من يوم الآخرة.

ومن بين تلك المشاهد التي تتعرض لها آيات هذا الدرس وقوف الظالمين أمام ربهم، يلوم بعضهم بعضا، ولعل هذه المعالجة القرآنية تدل على أن الإنسان يعتمد أولاً على قوة

---

(١) وسائل الشيعة: ج١، ص١١٤.

(٢) بحار الأنوار: ج٣، ص٨٢.

أرضية يزعم أنها تمنعه من ربه، وتخلصه من جزاء كفره، ثم يستكبر على ربه، ويتحدى رسالاته، لذلك يبين السياق بطلان ذلك، ويصور لنا مشهد الحوار بين الكفار ومن كانوا يعتمدون عليهم في الدنيا في كفرهم بالرسالة، فيقول: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يلقي بعضهم المسؤولية على البعض الآخر، طمعا في النجاة من الذل والعذاب. ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ متصورين أنهم يقدرون على ذلك، كما هو الحال في الدنيا، ويتشبث بعضهم وهم المستضعفون بحجة اتباع المستكبرين ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ ولكن هل خلق الله الناس مستكبرا ومستضعفا حتى يكون لبعضهم على بعض سلطان مبين؟! كلا.. بل خلقهم أحرارا، ولكن خضع بعضهم للبعض الآخر بحريته، فشجعه على الاستعلاء في الأرض.

ولو عرف الإنسان مدى ضلالة الاعتماد على أولي القوة والثروة وأدعياء العلم والدين ممن ينصبون أنفسهم سادة على الناس، ويأمرونهم باتباعهم، لما تورط كثير من الناس في الجرائم، اتباعا للسلاطين والمترفين ومؤيديهم من أدعياء العلم والدين.

ولكن الإنسان يزعم أن هؤلاء المستكبرين ينقذونه من عذاب ربه يوم القيامة، كما أنهم يوفرون له بعض الحماية في الدنيا، ولا يعلم أنهم مجرد ابتلاء له في الدنيا، وأنهم لا يغنون عنه من عذاب ربه شيئا.

[٣٢] أما المستكبرون فإنهم من جانبهم يدفعون عن أنفسهم التهمة بأن الإنسان حر ومختار، لا يمكن لأحد إجباره على نمط معين من الحياة، وإذا ترك الحق للباطل فبما ينطوي عليه قلبه من النزوع إلى الجريمة.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟﴾ وهم يحاولون إلقاء المسؤولية عن كاهلهم.

﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَـٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم﴾ بلى، قد يتوسل المستكبرون بالمكر والأساليب المضلة، ولكن يبقى الإنسان صاحب القرار، وإذا انحرف فلخبث في سريرته، ولا يعدو إضلال المستكبرين له دور التشجيع ﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾.

وهذا ضرب من الشماتة على الإنسان من قبل من كان يزعم أنه يخلصه وينجيه، ولعل ذلك من أشد أنواع العذاب الذي يلقاه أصحاب النار.

ولو عقل الناس هذه الحقيقة لانهارت أسس الظلم في المجتمعات، حين يعلو المستكبرون فيها، ويعيثون فسادا، ويتبعهم المستضعفون زاعمين أن ذلك يلقي المسؤولية عن كاهلهم،

ويجعلهم مبرئين من الجرائم التي يرتكبونها بحق بعضهم، ويقولون: المأمور معذور، وكأن الله أمرهم باتباعهم، أو أنه خلقهم مستضعفين وجعل أولئك مستعلين عليهم.

[٣٣] ومن صور الفكر التبريري الذي يعتمده الإنسان: اعتقاده بأن الزمان هو الذي يفرض عليه نوعا من السلوك، فيلقي عليه اللوم!.

إن تطاول واستمرار تضليل المستكبرين للمستضعفين مع خبث الأساليب وتنوعها له دور كبير في الإضلال. ومع أن هذا مما لا يجد معه المستكبرون دفعا له إلا أن هذا لا ينفع المستضعفين المتابعين لهم.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ والكفر بالله ليس بالضرورة نفي وجوده بقدر ما هو تحدي رسالاته، واتباع الأهواء، أو الأشخاص، أو القوانين الوضعية، وهذا ما يبعث على الإنسان بالندامة يوم الحساب، حيث يتبرأ منه الأنداد المزيفون، ويكتشف أنهم لا ينفعونه بل يضرونه، وأن الكلمة الفصل هناك لله الحق.

﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ ولات حين مندم. وقد أسروا إذ أن إظهاره لا ينفعهم وقد أسقط في أيديهم أن تبريراتهم ليست بشيء.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وحتى يقاوم الإنسان فكرة إلقاء المسؤولية على الآخرين، يؤكد القرآن مرة أخرى بأن ما يلاقيه الإنسان في الآخرة من ألوان العذاب وصنوفه هو جزاء أعماله في الدنيا، وأساسا -في الرسالة الإلهية- الجزاء من جنس العمل، فالصلاة التي يقيمها المؤمن في الدنيا تتحول حورية في الآخرة، وعلى العكس فإن الغيبة تصبح زقوما يؤذي صاحبه، وربما تحولت إلى حيات وعقارب والتي ورد في الحديث أن حجمها بحجم البغل، ولعل الأغلال التي يجعلها الله في أعناق الكفار هي ذات القيود التي يغل بها الناس أنفسهم باتباعهم في الدنيا للأهواء والأشخاص والقوانين، ولعل خاتمة الآية تشير إلى ذلك حين تقول: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ ولم يؤكد القرآن الكلام بحرف الباء فيقل: بما كانوا يعملون، للإشارة إلى أن الأغلال هي ذات الأعمال التي عملوها في الدنيا والله العالم.

وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ[1] إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

في سياق تفنيد التبريرات التي يتشبث بها الإنسان للتهرب من مسؤولياته تبين الآيات ضلالة الاعتماد على المال والثروة، فما من قرية أرسل الله فيها منذرين إلا وادعى مترفوها بأنهم الأولى بالقيادة، لأنهم يملكون الثروة، فهم في زعمهم مرضيون عند ربهم، ولا يمسهم العذاب.

---

(١) زلفى: مصدر زلف بمعنى قرب وهو منصوب على المصدرية أي تقربكم تقرباً.

وينسف القرآن هذه الفكرة مرتين:

الأولى: حينما يذكرنا بأن ثروة هؤلاء ليست من أنفسهم، بل هي من عند الله.

الثانية: عندما يبين لنا بأن مقياس رضى الرب عن الإنسان ليس ما يملك من الثروة، فرب غني بغيض عند ربه، ورب فقير مرضي عنده، إنما الثروة كما السلطة والقوة وسائر النعم الإلهية وسائل لابتلاء الإنسان واختباره في الدنيا.

ثم يوجهنا السياق لاتخاذ الثروة سبيلا لمرضاة الخالق باستخدامها الصحيح، وإنفاقها في سبيله، كما يؤكد ذلك بأن ما يعطيه الإنسان في سبيل الله يخلف له بزيادة الخير في الدنيا، وبالجنان في الآخرة، ثم بأن ما يملكه الناس إنما هو من الله وليس من عند أنفسهم.

ثم تعالج الآيات فكرة عبادة الأولياء -كالملائكة، والجن، والصالحين- من دون الله، وذلك عبر حوار بين الله وملائكته، إذ يسألهم: هل كان هؤلاء يعبدونكم؟ فتنفي الملائكة ذلك، وتستغفر الله خوفا ورهبة مما يدعيه الناس عنهم أما عن هدف هذه العبادة فهو التهرب من المسؤولية، والزعم بأن الملائكة سوف ينقذونهم من نار جهنم إن هم عبدوهم.

بينات من الآيات:

[٣٤] يبدو أن أغلب المترفين -وهم الذين نعمهم الله فأسرفوا- معاندون، ويكفرون بالرسالات، بل ويحملون لواء الحرب ضدها.

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ ولعل القرآن عبر في هذه الآية بكلمة ﴿قَرْيَةٍ﴾ عن المدينة، بل عن الحضارة بأجمعها، استصغارا لها، ولأن من لا يعبدون الله، ولا يتبعون رسالاته في حياتهم وحضارتهم أقلية وإن كثرت أعدادهم، ذلك أن القيمة الحقيقية للإنسان كما المجتمع بقربه من الحق أو بعده عنده، لا بما يملك من تقدم مادي بحت.

[٣٥] أما لماذا يكفر هذا الفريق فذلك -كما يصرحون أنفسهم- للأسباب التالية:

الأول: كثرة الأموال والأولاد، ولعل التعبير كما الأموال لا يختص بظاهر الكلمتين إنما تشمل كلمة الأموال كل أنواع الثروة، كما تنطوي كلمة الأولاد أيضا على الأتباع والمطيعين.

﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾ إذ إن أول أهداف الرسل هو تغيير القوة السياسية الحاكمة على الناس، ولكن المترفين يعارضون ذلك مبررين رفضهم بأن السلطة لا تكون

لصاحب الحق والعلم، إنما للمترف بما يملك من المال والأتباع.

الثاني: الاعتقاد بأن من يملك المال والرجال لا يلحقه الأذى، ولا يشمله العذاب الإلهي، حتى ولو فعل الفواحش.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ ولعل هذه الفكرة تكون سببا لتوغلهم في الجرائم، لأن اعتماد الإنسان على ما يملك من مال ومؤيدين، بعيدا عن هدى الله والعقل يقحمه في المهالك، وهذا ما دفع أمريكا للدخول في حرب فيتنام، فتمرغ أنفها، وسقطت هيبتها المزيفة، كما سقط الإتحاد السوفياتي باحتلاله أفغانستان الإسلامية غرورا واستكبارا، فتعرضت لهزائم منكرة على يد المسلمين هنالك.

وما يدريك لعل الغرور يكون سببا لانتهاء الجاهلية الحديثة؟ فقد قال الإمام علي عليه السلام يصف بعض الأقوام: «**زَرَعُوا الفُجُورَ وسَقَوْهُ الغُرُورَ وحَصَدُوا الثُّبُورَ**»[1].

وقال عليه السلام: «**طُوبَى لِمَنْ لَمْ تَقْتُلْهُ قَاتِلاتِ الغُرُورِ**»[2].

[٣٦] ويعالج ربنا هذا الانحراف النفسي حينما يذكر بأن ما في أيدي الناس من مال إنما هو من عند الله لا من عند أنفسهم حتى يغتروا بها.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ فتارة يزيد الله الرزق للعبد حتى يكفيه وأكثر، وتارة يضيق عليه فيه، فالغنى والفقر إذن بيده عز وجل، ولعل غنيا اليوم يكون فقيرا غدا أو العكس، إلا إن الغالبية من الناس لا يعقلون هذه الحقيقة لأنهم لا يعلمون إلا ظاهر الحياة الدنيا، فيعتقدون مثلا أن سعيهم فقط يدر الرزق، ولو تعمقوا في الحياة قليلا لعرفوا أن ذلك وسيلة فقط أما السبب الحقيقي فهو رحمة الله.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولعل من مشاكل البشر العقلية والنفسية أنهم لا يتدرجون في تعليل ظواهر الحياة لمعرفة العلة الأسمى والأرفع، إنما يقتصرون على الأسباب الظاهرة المباشرة.

[٣٧] ثم لنفترض بأن المترفين يملكون الأموال والأولاد، فهل ذلك يقربهم إلى ربهم. كلا..

---

(١) بحار الأنوار: ج٢٣، ص١١٧.

(٢) غرر الحكم: حكمة ٧١٧٥.

﴿ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ ﴾ بلى، من الممكن أن يكون المال والأتباع وسيلة لرضى الرب، وذلك إذا بعث الإيمان في القلب، وتحول إلى أعمال الخير والصلاح، فعمر بالمال الحرث والنسل، واستخدمت القوى البشرية للدفاع عن المستضعفين وإحقاق الحق، ومتى صار أصحاب المال والأتباع بهذا المستوى عظم شأنهم عند ربهم بزيادة الخير لهم في الدنيا، وأعطاهم الجنان والأمن في الآخرة.

﴿إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ﴾ لإيمانهم من جهة، ولعملهم من جهة أخرى.

وفي تفسير القمي قال: ذكر رجل عند أبي عبد الله عليه السلام الأغنياء ووقع فيهم، فقال أبو عبد الله عليه السلام: «**اسْكُتْ فَإِنَّ الغَنِيَّ إِذَا كَانَ وَصُولاً لِرَحِمِهِ وبَارّاً بِإِخْوَانِهِ أَضْعَفَ اللهُ لَهُ الأَجْرَ ضِعْفَيْنِ لِأَنَّ اللهَ يَقُولُ وما أَمْوالُكُمْ ولا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنا زُلْفى إِلَّا مَنْ آمَنَ وعَمِلَ صالِحاً فَأُولئِكَ لَهُمْ جَزاءُ الضِّعْفِ بِما عَمِلُوا وهُمْ فِي الغُرُفاتِ آمِنُونَ**»[1].

أما جزاء الآخرة فهو الأمن من فزع يومئذ ﴿وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾.

[٣٨] كان هذا جزاء الغني حينما يستخدم قدراته المادية والبشرية في سبيل إعلاء كلمة ربه، أما إذا كان الغنى طريقا للجحود، ولحرب الرسالات الإلهية، فليس جزاؤه سوى العذاب الشديد.

﴿ وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا ﴾ وهي القرآن، وما يتصل به من الحقائق المعنوية والمادية كالقيادات وآيات الطبيعة.

﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ أي يجعلونها عاجزة عن بيان الحقيقة، عبر إثارة الشبهات الزائفة حولها، أو تفسيرها على غير وجهها.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ﴾ أرادوا ذلك أو رفضوه.

وتتضمن الآية الكريمة معنيين:

الأول: أن المعاند الذي قرر الكفر بالله، والسعي من أجل تحريف آياته ذاتها، أو تأويل دلالاتها، فإنه حتى لو قرأ القرآن أو بحث عن الحقائق فليس للإيمان بها وإنما للبحث عن وسيلة لردها ومعارضتها.

---

(١) وسائل الشيعة: ج٩، ص٤٧٦.

الثاني: أن المنحرف يستخدم كل قوة يملكها في غير أهدافها المشروعة، فإذا بالمال الذي هدفه تقويم النظام الاجتماعي، وتحريك الفاعلية الاقتصادية، يصبح وسيلة لدمار المجتمع، وإفساد الاقتصاد، وإذا بالسلطة التي هدفها إقامة العدل، وبناء الحياة الفاضلة، تصير أداة لفساد الأرض، وهلاك الحرث والنسل: ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

وإذا بالآيات التي هي وسيلة الهداية تضحي عندهم محورا للمعاجزة وللجدال العقيم، فتزيدهم كفرا وطغيانا.

وحينما نقرأ اليوم عن اقتصاد العالم نرى كيف صارت الثروة أداة لهدم الحضارة، فميزانيات التسلح في هذا العصر تبتلع إنتاج الحضارة البشرية، وكل التقدم العلمي والصناعي لديها، فإذا بالمترفين وحفاظا على مصالحهم، يلقون بالقنابل المدمرة على مدينة بنتها القوى والفاعليات البشرية خلال عشرات السنين، فتدمرها في بضع دقائق، كما فعلت القنبلة الذرية في هيروشيما ونكزاكي، أو كما فعلت قنابل الحلفاء في المدن الألمانية.

[٣٩] إذن فما هو الموقف السليم من الآيات والأفكار السليمة، ومن الثروة والقوة وهما من آيات الله؟.

الجواب: معرفة المنعم مقدمة لشكره النظري والعملي ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ﴾ فالذي يرى أن ربه هو الذي أعطاه ما يملك لا يكفر به، ولا يحارب رسالاته، وعباده الصالحين، ولا يخشى من الإنفاق في سبيله، بل يسعى لذلك إحساسا منه بالمسؤولية. أوليس القدرات والإمكانات كما النفس أمانة من عند الله؟! فلماذا لا يردها حين يطلبها منه؟ بلى، سوف يعطيها راضيا مطمئنا لرزق ربه ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ وذلك من ناحيتين:

الناحية الغيبية: قال رسول الله ﷺ: «**وَمَنْ يَبْسُطْ يَدَهُ بِالْمَعْرُوفِ إِذَا وَجَدَهُ يُخْلِفِ اللهُ لَهُ مَا أَنْفَقَ فِي دُنْيَاهُ وَيُضَاعِفْ لَهُ فِي آخِرَتِهِ**»[1].

وقال أبو عبد الله عليه السلام: «**إِنَّ الرَّبَّ تَبَارَكَ وتَعَالَى يُنْزِلُ أَمْرَهُ كُلَّ لَيْلَةِ جُمُعَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا مِنْ أَوَّلِ اللَّيْلَةِ وفِي كُلِّ لَيْلَةٍ فِي الثُّلُثِ الأَخِيرِ وأَمَامَهُ مَلَكٌ يُنَادِي هَلْ مِنْ تَائِبٍ يُتَابُ عَلَيْهِ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ يُغْفَرُ لَهُ هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَيُعْطَى سُؤْلَهُ اللَّهُمَّ أَعْطِ كُلَّ مُنْفِقٍ خَلَفاً وكُلَّ مُمْسِكٍ تَلَفاً إِلَى أَنْ**

(١) الكافي: ج٢، ص١٥٤.

يَطْلُعَ الفَجْرُ فَإِذَا طَلَعَ الفَجْرُ عَادَ أَمْرُ الرَّبِّ إِلَى عَرْشِهِ فَيُقَسِّمُ الأَرْزَاقُ بَيْنَ العِبَادِ الخَبَرَ»[(١)]. ولعل الناحية الغيبية في خلف الرزق ومضاعفته تكمن في البركة الإلهية التي يسبغها على عبده، وفي التوفيق إلى القرارات الصائبة، والتصرفات المالية النافعة.

الناحية الطبيعية: إن ما يدفع الإنسان للبحث عن حوائجه ومن بينها المال هو الشعور بالحاجة، ولا شك أن المنفق سوف يسعى بقواه العقلية والمادية من أجل التعويض عما أنفقه، عبر تحريك المال من خلال المشاريع والأعمال المختلفة.

وحتى ينفق الإنسان في سبيل الله، لابد أن يتعرف على كرم ربه عز وجل، لهذا لم يكتف القرآن بذكر ما تقدم -من أن الله يخلف على من أنفق- إنما أضاف: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾.

والأحاديث تؤكد هذه الحقيقة، قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ صَدَّقَ بِالخَلَفِ جَادَ بِالعَطِيَّةِ**»[(٢)]. وقال ﷺ: «**مَنْ أَيْقَنَ بِالخَلَفِ سَخَتْ نَفْسُهُ بِالنَّفَقَةِ**»[(٣)].

وهل يصدق بالخلف ويوقن به إلا إذا عرف أن ربه خير الرازقين.

ثم لماذا لا ينفق الإنسان ماله في سبيل الله وهو إن بقي لم ينتفع به، وإن أنفقه كان في سبيل الحق، قال الإمام الباقر عليه السلام للحسين بن أيمن: «**يَا حُسَيْنُ أَنْفِقْ وأَيْقِنْ بِالخَلَفِ مِنَ اللهِ فَإِنَّهُ لَمْ يَبْخَلْ عَبْدٌ ولَا أَمَةٌ بِنَفَقَةٍ فِيمَا يُرْضِي اللهَ عَزَّ وجَلَّ إِلَّا أَنْفَقَ أَضْعَافَهَا فِيمَا يُسْخِطُ اللهَ عَزَّ وجَلَّ**»[(٤)].

[٤٠] هروبا من ثقل المسؤولية يتشبث البشر بأي تبرير، ولابد من إبطال كل تبريراته، ليتحمل أمانته بصدق، وما عبادتهم للأصنام أو الملائكة أو الجن إلا صورة لهذه الحقيقة، ويفند السياق هذه العبادة عبر ذكر الحوار الذي يجري بين الرب وبين عباده المكرمين من الملائكة، حيث يجمعهم هم والذين زعموا أنهم يعبدونهم من المشركين، ثم يخاطب الملائكة بما يوحي: كيف رضيتم بعبادة المشركين لكم؟!.

فيجيبون:

أولاً: نحن لا نتخذ من دونك وليا، وبالتالي لا نرضى بعبادة أحد لنا.

---

(١) مستدرك الوسائل: ج٥، ص٢١٠، تفسير القمي: ج٢ ص٢٠٤.
(٢) الكافي: ج٤، ص٢.
(٣) الكافي: ج٤، ص٤٣.
(٤) المصدر السابق: ص٤٣.

ثانياً: إذا كانت العبادة حقا هي الطاعة فإنهم كانوا مطيعين للجن وليس لنا نحن الملائكة.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ المشركون ومن عبدوهم.

﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ ولعل تقديم المفعول الذي يدل على الحصر يوحي بأن طبيعة العبادة لا تتجزأ، فلو كانوا يعبدوا الملائكة حقا فلابد أنهم كانوا يخلصون العبادة لهم.

[٤١] هنالك انكشف زيف ادعاء المشركين عبادتهم للملائكة إذ.. ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ﴾ لا يمكن أن نرضى بشريك لك، فأنت الرب القدوس، الذي لا شريك له.

﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ ويبدو أن معنى «الولي» هو القريب، فيكون مراد الملائكة: أنت الذي نتقرب إليك، ولسنا نرضى بقرب هؤلاء الذين لا يسوى ولاؤهم لنا شيئا، فما قيمة عبادة همج رعاع، لا يضرون ولا ينفعون؟!.

ونستوحي من هذه الإجابة: أن علينا ألا نرضى بطاعة الناس لنا إذا كانت تسخط الرب، فإن طاعتهم لا تغني شيئا عن عذاب الرب، وما قيمة طاعتهم إذا أسخطت ربنا الذي بيده نفعنا وضرنا وهو بكل شيء قدير؟!.

ثم أشارت الملائكة إلى أن عبادة المشركين هي للجن في الواقع.

﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ فالعبادة هي الطاعة، وبالطاعة تنعكس توجهات المعبود على سلوك العابد، وبما أن سلوك المشركين المنحرف يعكس توجهات الجن فإنهم كانوا في الواقع يعبدون الجن التي هي الموجودات الغيبية التي يمكن أن تكون منحرفة، ولذلك أمرنا الله أن نستعيذ به منهم في سورة الناس فقال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١-٦].

ثم إن العبادة تعكس عادة صلة العابد بالمعبود، وصلة هؤلاء كانت مع الجن دون الملائكة، إذ إن الجن كانت توسوس في صدورهم، وتدعوهم إلى الضلالة.

﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ فالجاهليون كانوا ينسبون الخوارق للجن، ويقدسونها، ولعل تغيير الصيغة من العموم إلى الأكثرية جاء بسبب أن العبادة أشمل من الإيمان إذا فسرناها بالتسليم والطاعة المطلقة، فكثير أولئك الذين يعبدون السلاطين خوفا وطمعا ولا يؤمنون

بهم، ومن أبرز مظاهـر العبادة بلا إيمان طاعة البسطاء للأحبار والرهبان، واتخاذهم أربابا من دون الله، دون أن يسجدوا لهم، أو يؤمنوا بأنهم خالقوهم ورازقوهم.

[٤٢] وينسف القرآن الكريم أساس الشرك، وعبادة الملائكة والجن بأن الخلائق لا تملك نفعا، ولا تدفع ضرا من دون أمر الله وإذنه ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾ ويؤكد ربنا مسؤولية الإنسان عن أفعاله دون أن يقدر الشركاء الذين يعبدون من دون الله نجاته من النار ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾.

قل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ[1] مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾ ﴾.

(١) التناوش: بمعنى التناول، أي لا يتمكنون من تناول الإيمان المفيد لحالهم.

هدى من الآيات:

في سياق معالجة أمراض الفؤاد، والتبريرات التي يتشبث بها الكفار يداوي الذكر هنا مرض التقليد الأعمى، الذي يدعو إلى تكذيب الرسول، ويسوق الحجج على صدق الرسالات:

أولاً: بأن القوم جاهليون، ولا رسالة إلهية لهم من قبل حتى يفتخروا بها، ولا رسول نذير.

ثانياً: أن الله أهلك القرون الغابرة بتكذيبهم، وقد كانوا أشد منهم قوة، وما بلغ هؤلاء معشار ما بلغه أولئك.

ثالثاً: ليقوموا لله مثنى وفرادى، ثم يعودوا إلى ضمائرهم ويتساءلوا في أنفسهم: هل صحيح ما يتهمون به رسولهم من الجنون، أفلا يعرفون أن صفاته صفات من ينذرهم بعذاب شديد وليس صفات مجنون حاشاه؟!.

رابعاً: أن ما نسبوه إليه من الكذب ينفيه شدة إخلاصه لرسالته، وأنه لا يطالبهم بأجر، بل كل ما يبتغيه هو خير لهم، وأن يشهد ربه على أفعاله.

خامساً: أنه يذكر أبدا بالحق، وأن الحق باق، ويقذفه الله على الباطل فيدمغه، وأنه إذا جاء الحق زهق الباطل، وهذا أكبر شهادة على صدق رسالات الله، حيث إنها حق، وإن الله ينصرها.

وتشير الآيات إلى أن الهدى من الله، وأن الرسول يهتدي بهدى الله، وأن عاقبة الضلالة تعود إلى صاحبها.

سادساً: يحذرهم عذاب الله الذي أعده للكافرين برسالاته حين يؤخذون فزعين، لا يفوت أحد منهم هربا، بل يؤخذون من مكان قريب.

وحينذاك قالوا: آمنا، ولكن كيف يؤمنون هنالك ولا ينفعهم الإيمان إلا في الدنيا؟! ويكون مثلهم مثل من يريد التناوش من مكان بعيد. أوليسوا قد كفروا به من قبل يوم كانت الفرصة متاحة؟!.

وهكذا لا يبلغون مناهم كما لم يبلغ الأولون أمانيهم لأنهم كانوا في شك مريب.

بينات من الآيات:

[٤٣] يخلط أعداء الرسالة أمرها عادة وأمر صاحبها، فإذا بهم يتركون الحديث عنها وعن الآيات الواضحة التي تتلى عليهم ويحاولون النيل من رسولهم (مبلغها إليهم).

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ ﴾ فهم يريدون أولاً إسقاط شخصية الرسول ﷺ في المجتمع، حتى يتسنى لهم رفض أفكاره، وذلك عن طريق إثارة العصبيات الجاهلية، وإنهم لو أفلحوا في ذلك لأوجدوا هدفهم وهو العداء بين المجتمع وبين الرسول، بحيث يتخذ المجتمع موقفا مسبقا تجاه كل ما يصدر عنه من الأفكار، وكان هذا وراء كفرهم، إلا إنهم برروا كفرهم بأن اتهموا الرسول ﷺ.

﴿وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ﴾ حتى لا يسلم الناس مباشرة للرسالة، ثم يقوموا بإعطاء المقاييس الخاطئة التي تنتهي إلى نتيجة من جنسها، ولهذا أسموا الرسالة بالإفك المفترى وهو الكذب المحبوك، و لما اكتشفوا أن الكذب هو ما يخالف الحقيقة، وأن الذي يقوله الرسول ﷺ عين الحقيقة، فكروا في تغيير موقفهم بالبحث عن تسمية أكثر مناسبة من الكذب، فيها شباهة بالواقع ولو ظاهرا، حتى يقنعوا المجتمع بأن ما يراه ليس هو الحق، فلم يجدوا في نظرهم أفضل من تهمة السحر ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾

[٤٤] ويبين الله الدافع الحقيقي لهؤلاء نحو تكذيب الرسالة ومعارضتها ألا وهو الجهل، وفي الحديث قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**النَّاسُ أَعْدَاءُ مَا جَهِلُوا**»[1]. وجهل المجتمع الذي جاءه الرسول ﷺ يتجسد في انعدام الخلفية الفكرية الصحيحة.

﴿ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ﴾ أي لم تصلهم أصداء الرسالات الأخرى فيستنيروا بها ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴾ فتكون ثمة بقايا لحركته الرسالية فيهم، ليقيسوا بينك وبينه فيعرفون الحقيقة، فإنكار هؤلاء نابع من غرور الجهل لا من أسس علمية، ولعل في الآية إشارة إلى أن هؤلاء الذين يتغنون بأمجاد أجدادهم، ويخشون عليها من الرسالة، لا يوجد في ماضيهم نور المعرفة أو ضياء الرسالة، فلا ينبغي لهم أن يقلدوا آباءهم البعيدين عن العلم والرسالة.

[٤٥] ثم ينسف الله قاعدة أخرى لكفرهم وهي غرورهم بقوتهم، وينذرهم بأن القوة الظاهرية لا تمنع عنهم جزاء كفرهم وظلمهم، وأن الذين كفروا بالرسالات من قبلهم كانوا

---

(١) نهج البلاغة: حكمة: ٤٣٨

أشد منهم قوة، وأكثر جمعا، ولكن الله دمرهم فهل يقدرون على تجنب هذا المصير.

﴿ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ﴾ من القوة ﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِى﴾ غرورا بما يملكون من طاقات وإمكانات وجهلا بها، ولكن هل منعت قوتهم عنهم العذاب؟! كلا.. إنما تعرضوا لنقمات الله الجبار، والقرآن يوجهنا لدراسة تاريخ تلك الأمم ومصائرهم للاعتبار بها فيقول: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ والنكير: السوء الذي ينكره الإنسان ولا يريده، إشارة إلى فظاعة الخطب والدمار اللاحق بهم.

[٤٦] وبعد أن نسف القرآن قواعد الكفر، وأبطل أعذار رفض الرسالة من اتباع الآباء، أو الغرور بالقوة، دعاهم إلى التفكر. ويبدو جليا من الآية أن التفكير العقلاني الجاد والمتحرر من الحجب هو مفتاح الهداية.

وهذا هو المنهج السليم في الدعوة: أن ترفع في البدء الحجب التي تمنع الرؤية كالتواطئ على الضلالة، ثم تخاطب الوجدان، وتستثير العقل بالدعوة إلى التفكر.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ﴾ بصورة جماعية -اثنان اثنان وأكثر- أو بصورة فردية.

ويجب أن يكون هذا القيام الجاد بهدف التفكر لمعرفة الحقيقة التي تخالف أراجيف الكبراء والمترفين حول الرسول ﷺ ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ وأول ما يذكرهم به بعد استثارة عقولهم هو أن صاحبهم الذي عرفوه طوال أربعين سنة ليس بمجنون، وكيف يكون به جنة والحكمة تتفجر من جوانبه، وتشهد مواقفه على كمال عقله، وفصل منطقه؟!.

فهو إنما يتحدث لكم عن حقيقة لو تركتموها أصابتكم نقمة، وهذا أدعى إلى التفكر، وأقوى في إثارة العقل.

وإذا كان الله قد رفع عن أمة النبي محمد ﷺ العذاب المادي كالصواعق والريح كرامة له، فإن سنته في تعذيب الجاحدين جارية في صور أخرى كالتخلف والتبعية والحروب، فما تعيشه الأمة الإسلامية إلى اليوم إنما بسبب الأفكار والعادات المتخلفة التي تعارض رسالة الله.

ولعل هذه الآية تنسحب إلى كل الدعوات الإصلاحية، وفي كل عصر، فليس من الصحيح أن يرفض المجتمع أو يقبل أية دعوة بصورة ارتجالية سريعة، فلعل ما يرفضه يكون صحيحا، ولعل ما يقبله يكون خطأ، إنما يجب عليه التفكر الشامل عميقا، في ظروف مناسبة،

وعبر منهج حكيم، وبهدف شريف هو التوصل إلى الحقيقة، ولهذا أكد القرآن أن يكون القيام لله وليس لهدف آخر، إذ من الممكن أن يطلب العلم من أجل المصالح الشهوانية المادية كالشهرة والمال فلا يبلغ الحقيقة، بينما إذا أخلص الإنسان نيته لله عند بحثه عن الحق هداه الله إليه، لأن من شروط التفكير السليم الهدف السليم منه، ولعل هذا هو سبب تقديم النية المخلصة (القيام لله) على التفكير.

بعد أن نسف السياق قواعد الجحود ورفع عن الأبصار غشاوات العناد والمعاجزة ثم أمرهم بالتفكر بنية صادقة، ذكرهم بشواهد صدق الرسول ﷺ ومن أبرزها: إخلاصه في دعوته، حيث لا يطمع في أجر، اللهم إلا أجرا يعود إليهم نفعه، أوليس الكاذب أو الساحر يقترف جريمة التضليل بهدف مادي؟! وها هو الرسول لا يبحث عن أجر مادي فهو إذا صادق.

[٤٧] ولأن التفكير السليم سوف يقود الإنسان للإيمان بالله، والالتزام بالدين، الأمر الذي يكلف شيئا من التضحية كضريبة لتحمل الرسالة، يؤكد القرآن أن هذه التضحيات تخرج من يد الناس لتعود إليهم بالنفع في الدنيا والآخرة.

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ وليس للرسول، لأنه يعمل لله وليس للمصلحة، وهذا من الدلائل على صدق الأنبياء في دعوتهم.

﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ يلحظ كل جهد وحركة في سبيله، ليضيف ذلك إلى رصيد الرساليين، ويثيبهم على عملهم بالتوفيق والنصر في الدنيا، وبالجنة والرضوان في الآخرة.

[٤٨] ثم تهدينا الآيات إلى إحدى خصائص الأنبياء في صراعهم مع أنصار الباطل وهي شهادة الله على صدق رسالاتهم، لأنها حق، والله يؤيد الحق، ولمعرفة الرسل بهذه الحقيقة فإنهم يتوكلون على ربهم، ويخوضون غمار التحديات دون أن يخشوا أحدا أو يخافوا فشلا.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾ على كيان الباطل فيهدمه، والله.. ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾.

ولأن الرسول يوحى إليه من لدن علام الغيوب، فهو يبصر ما لا يراه الآخرون، ويتدرج من نصر إلى نصر حتى يفتح الله على يديه البلاد، وهذا أقوى شاهد على صدقه، وأنه يدعو إلى الله الذي هو على كل شيء شهيد، ولعل خاتمة الآية السابقة كانت تمهيدا لبيان هذه الحقيقة وهي شهادة الله على صدق رسالته.

[٤٩] وحين يأتي الحق يزهق الباطل، ورب أمة تبقى غارقة في الغي والضلال مئات السنين، لكنها تهتدي للحق إذا جاءها مصلح يحمل راية الحق: ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ فهو مسلوب الإرادة أمام الحق، وهذا يعني أن ما نراه من غلبة ظاهرية لأنصار الباطل على أنصار الحق، ليس لقوة فيهم بل لضعف في الطرف المقابل، فهؤلاء تدعمهم إرادة الله، وسنن الحياة، ومنطق الحق، وكان أحرى بهم، أن يربحوا المعركة لولا انفصام العلاقة بينهم وبين عوامل النصر.

ولعل معنى ﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ﴾: أنه لم يكن -منذ البدء- شيئا، فهو زهوق بذاته.

وفسروا الآية تفسيرات شتى، وربما الأقرب ما ذكرناه آنفا، ويحتمل أيضا أن يكون المعنى: أن الباطل لا يبتدئ في كيان جديد ولا يتجدد كيانه السابق .

[٥٠] ثم إن الضلالة نابعة من نفس الإنسان، بما تنطوي عليه من الضعف والعجز والجهل و... بينما الهدى نعمة من الله له، وإذا ضل الإنسان فإن المردود السلبي للضلالة سيعود عليه.

﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ وفي الآية تذكرة بالرسالة، وأنها مبعث الهدى، وأن الضلالة تعود على صاحبها بالخسار العظيم.

ولعل خاتمة الآية تشتمل على طلب بالهداية، في أرقى صيغ الدعاء، بما تشتمل عليه العبارات من تنزيه لله، واعتراف بالضعف أمامه، والحاجة إليه، وأنه مصدر الخير الذي ذروته الهداية للحق، وأنه السميع لدعاء عبده برحمته، والقريب في الإجابة بكرمه وجوده.

[٥١] وفي نهاية السورة يعود السياق للتذكير بالآخرة، لأنها أعظم فكرة تعطي التوازن لروح الإنسان وعقله، ولهذا نجد الذكر الحكيم يؤكد على الإيمان بالآخرة عند حديثه عن مختلف حقول المعرفة.

وإنما يجحد البشر الحق اتباعا لشهواته، وبحثا عن مصالحه في زعمه، فإذا عرف أن الجحود ينتهي به إلى نار جهنم فأية مصلحة له فيه؟

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ ﴾ فهم يرهبون يوم القيامة، ولكنهم لا يستطيعون الفرار من العدالة الإلهية حينئذ.

﴿وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ لأن قدرة الله وحكومته تشمل الكون بأكمله، فأينما كانوا

فهم قريبون من أخذ الله.

[٥٢] وفي اللحظة التي ينزل فيها عذاب الله يرى الكفار عين الحقيقة، وأنه لا خيار سوى الإيمان، وكان ينبغي لهم أن يؤمنوا بذلك، في يوم الحرية والاختيار التي يكون عليها الثواب والعقاب، لأنها تلتقي وحكمة الله من خلق الدنيا.

﴿ وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ ﴾ لما رأوا العذاب أو نصر المؤمنين، ولكن هيهات فالإيمان بعيد عنهم، لأنه قمة سامية لا يصلها الإنسان إلا بالنية الصادقة والعمل الصالح، بل والسعي الحثيث والجهاد الدؤوب.

﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ﴾ فليس الإيمان كلمة يقولها الواحد في اللحظة الأخيرة من عمره، وكيف يعيد الإنسان دورة الزمن إلى الوراء، فيشتغل إلى أيام حريته التي قصر فيها، كلا.. إنه يشبه التناوش من مكان بعيد، كمن يقف على الأرض ويريد أن يتناول بيده ما على الذرى السامقة.

وفي الحديث قال أبو حمزة الثمالي: «سألت أبا جعفر عليه السلام عن قوله عز وجل: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ﴾ قال عليه السلام: **إِنَّهُمْ طَلَبُوا الْهُدَى مِنْ حَيْثُ لَا يُنَالُ وَقَدْ كَانَ لَهُمْ مَبْذُولًا مِنْ حَيْثُ يُنَالُ**»[1].

[٥٣] لقد كفروا بالوحي في الدنيا وفاتت فرصتهم ﴿ وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ ﴾ فهم يتكلمون على غير بصيرة، وبعيدا عن الواقع، انهم يتخرصون بغير علم، وليست لديهم معرفة تتيح لهم الحكم الصائب، وإنما هو أمر غائب عنهم وهم بعيدون عن الإحاطة به فإذن كلامهم غير علمي لا يستند إلى منهج علمي. بينما يقذف الله بالحق وهو يعلم بتفاصيل كل شيء، وهذا ما يجعل الوحي صادقا لا نقص فيه، بينما كلامهم باطل في باطل.

[٥٤] ومن الشواهد على أن الباطل سراب لا ينتهي إلى شيء، أن من اتبعه كان يبحث من ورائه عن الملذات والشهوات، ولكن الموت أو نصر المؤمنين، الذي يقضي به الله عليهم يحول بينهم وبين الوصول إليها ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ وهذه سنة جرت على الأجيال الماضية من أمثالهم، لكنهم لم يستفيدوا ممن سبقهم فحلت بهم الندامة، ولفهم الأسف.

﴿ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ﴾ ويبين الله السبب المباشر لهذه النتيجة السيئة، ألا وهو

(١) تفسير القمي: ج٢، ص٢٥٦، بحار الأنوار: ج٥٢، ص١٨٧.

الشك في الرسالة، التي لو آمنوا بها لحصلوا على مصالحهم أيضا، ذلك أنها الطريق للسعادة، وقد حذرتهم سابقا من هذه العاقبة فلم يستجيبوا لها ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾.



* مكية.

* عدد آياتها: ٤٥ .

* ترتيبها النزولي: ٤٣ .

* ترتيبها في المصحف: ٣٥.

* نزلت بعد سورة الفرقان.

فضل السورة

عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «مَنْ قَرَأَ الحَمْدَيْنِ جَمِيعاً حَمْدَ سَبَإٍ وحَمْدَ فَاطِرٍ مَنْ قَرَأَهُمَا فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ لَمْ يَزَلْ فِي لَيْلَتِهِ فِي حِفْظِ الله وكِلَاءَتِهِ ومَنْ قَرَأَهُمَا فِي نَهَارِهِ لَمْ يُصِبْهُ فِي نَهَارِهِ مَكْرُوهٌ وأُعْطِيَ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وخَيْرِ الآخِرَةِ مَا لَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِهِ ولَمْ يَبْلُغْ مُنَاهُ».

(ثواب الأعمال: ص١١٠)

الإطار العام

معرفة الله؛ ينبوع كل خير

اتُخذ اسم هذه السورة من فاتحتها التي شرعت بحمد الله على ما فطر السماوات والأرض.

تذكرنا سورة فاطر بمحامد ربنا الكريم الذي فطر السماوات والأرض، وجعل الملائكة رسلاً، وأتقن الصنع، وأحسن التدبير، وهو العزيز الحكيم.

ولأن معرفة الرب ينبوع كل خير، وأصل كل فضيلة وخلق كريم، فإن القرآن يشفي صدور المؤمنين من أوساخ الغفلة، ببيان أسماء الله وكريم فعاله وواسع رحمته. فله الملك والتدبير، فما فتحه من رحمة لا ممسك لها، وما أمسكها فلا مرسل لها (الآيات:١-٢).

وضلالة البشر عن هذه الحقيقة تدعوه إلى الشرك بالله العظيم. ويذكر القرآن الناس جميعا بأن فاطر السماوات والأرض ومبتدعهما بدءاً هو الذي يرزق الإنسان منهما، فهو الحقيق بالعبادة وحده لا إله إلا هو فأنى يؤفكون (الآية: ٣).

ولكي يعرف البشر ربه؛ فهو بحاجة إلى إزالة حواجز مثل حب الدنيا والغرور بها، واتباع المضلين المغرورين بها،واتباع الشيطان أو عدم الحذر الكافي منه. ويذكرنا القرآن بأن وعد الله (بالجزاء) حق، فعلينا إذن تجاوزهذه الحواجز، ويبين جزاء الكفار وحسن جزاء الصالحين (الآيات: ٤-٧).

وبعد أن يبصرنا السياق بحاجز تزيين الآعمال (و لعله العادة السيئة) يعود ليذكرنا بربنا العزيز تمهيداً لبيان محور هام (ولعله الأساسي) في هذه السورة، فترى ما هو ذلك المحور؟.

يتطلع الإنسان نحو العزة والغنا، ولكنه يضل -عادة- الطريق، وبدل أن يحصل عليهما

بالإيمان بالله والعمل الصالح، تراه يؤمن بالشركاء المزعومين، ويمكر السيئات. ويذكرنا القرآن بأن الأنداد لا يملكون قطميراً، وأن المكر السيء لا يحيق إلا بأهله، وأن السبيل القويم لبلوغ الطموح المشروع في العزة والغنا هو سبيل الله، ومعرفة أنه الفاطر الرازق العزيز الغني، وأنه المالك الحق، وأنه الحكيم الذي يجازي كلاً بعمله، وأنه يحب الصالحين..

وخلاصة المحور : تبصير البشر بالسبيل القويم لبلوغ تطلعاته المشروعة.

هكذا يذكر السياق بأن الله أرسل الرياح لتثير السحاب، وينزل الغيث حيث يشاء فيحيي به الأرض بإذنه، فهو الرزاق، أو ليس الزرع والضرع من الغيث؟.

وهكذا ينتشر الناس في يوم البعث للحساب.

ومن أراد العزة فلله العزة جميعاً. (هكذا ينبغي الحصول على العزة، وهي أعظم طموح عند البشر، لأنها تعني الأمن والسلامة الذكر الحسن عند الرب لا عند الطغاة والأنداد). ولكن كيف؟ ومن هو الذي يعزه الله؟.

الجواب: صاحب الكلم الطيب والعمل الصالح، أما المكر السيء فيمحقه ولا يجنى منه إلا البوار (الآيات: ٨-١٠).

منذ أن كنا نطفة أو جنيناً، إلى الولادة، وحتى زيادة العمر ونقصانه، كل ذلك بيد الله، وهو مسجل في كتاب، وهو عند الله يسير، (فلماذا نطلب الغنا من غيره؟ أوليس خلقنا وأجلنا بيده، فلو قصر أعمارنا ماذا تنفعنا العزة أو الغنا)؟. (الآية: ١١).

وبيده الملك، انظر إلى هذين البحرين، أحدهما ملح أجاج، والثاني عذب فرات. إنهما لا يستويان (فلا يستوي الصالح ولا المسيء) و لكن مع ذلك يرزقنا الله منهما لحماً طرياً، وحلية نلبسها، وذلل ظهرهما للسفن الماخرة لتنقل البضائع، ولتهدينا إلى نعمه فنشكره بها.

وهو الذي يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل، وسخر الشمس والقمر، وحدد مسيرتهما. فهو المالك حقاً، بينما لا يملك الشركاء المزعومون من قطمير. (فلابد أن نبحث عن الغنا عند ربنا المالك، وليس عند الطغاة والمترفين)، وهم لا يكشفون الكرب عند الشدائد، فلا يسمعون الدعاء، ولا يستجيبون لو سمعوا، ولا ينفعون يوم القيامة، ولا أحد أفضل من الخبير ينقل النبأ (الآيات: ١٢-١٤).

ويؤكد السياق على فقر البشر -كل البشر- إلى ربه، وأن الله هو الغني (فلا يجوز الخضوع لهذا وذاك طلبا لغناه).

وهل هنالك فقر أعظم من أن الله إن يشأ يذهبهم جميعاً ويأت بآخرين بيسر؟.

ويبدو أن المحور الثاني الذي يتحدث عنه القرآن هنا بتفصيل، وهو محور المسؤولية، يتصل بالمحور الأول، إذ أن معرفة الإنسان بأنه مجازى بعمله يجعله بعيداً عن المكر السيء، مندفعاً نحو العمل الصالح، يبلغ أهدافه بالسعي والاجتهاد عبر المناهج السليمة.

لا أحد يحمل عن أحد ثقل أعماله ووزرها حتى ولو كان ذا قربى. (ولا يفهم هذه الحقيقة ويخشى ذنبه إلا من يخشى ربه بالغيب ويقيم الصلاة ويتزكى)، وإنما ينذر الرسول من يخشى الله ويقيم الصلاة ويتزكى، وإنما يتزكى لنفسه (الآيات: ١٥-١٨).

ويجب أن يكون مفهوماً وبوضوح هذا الأمر، إنه لا يستوي الكافر والمؤمن الصالح، إذ هذه المعرفة تساهم كثيراً في اختيار المنهج السليم لبلوغ الأهداف.

لا يستوي الأعمى والبصير (فلا يستوي الكافر والمؤمن)، ولا الظلمات ولا النور (فأين الضلالةوأين الهدى)، ولا الظل ولا الحرور (السلام والأمن والعافية خير من الحرب والخوف والمرض)، وما يستوي الأحياء (الذين يستمعون كلام الله ويحيون به) ولا الأموات (الآيات: ١٩-٢٢).

وإن الله بعث الرسول منذراً بعذاب نكير يصيب المكذبين، كما أرسل في كل أمة نذيراً ومبشراً الصالحين بأن لهم أجراً حسناً (الآيات: ٢٣-٢٦).

والمحور الثالث في السورة فيما يبدو هو: الإشارة إلى اختلاف ألوان الجبال، وألوان البشر والدواب والأنعام، ووعي العلماء لإشارات هذا الاختلاف، وأنهم المصطفون الذين أورثهم الله الكتاب على اختلاف مستوياتهم، وجزاؤهم الحسنى عند ربهم، ولعل هذا المحور يتصل بالمحور الأول في بيان نموذج حي عمن اتبع رضوان ربه فهداه الله إلى السبيل القويم للعزة والغنا والجزاء الحسن.

ألا ترى إلى الغيث حين ينزل من السماء يخرج الله به ثمرات مختلفا ألوانها؟ إن في ذلك لآية على التدبير وحسن التقديرودقة النظم، وأن الله مهيمن على الخليقة.

وإذا نظرت إلى الجبال رأيت فيها جدداً بيضاً وحمراً وغرابيب سود، وهي تشهد بطبقات الصخور في الأرض ذات الطبيعة المختلفة، و تشهد أيضاً على السيطرة التامة.

وهكذا الناس والدواب والأنعام كل منها مختلف ألوانه، واختلاف اللون مع وحدة الخصائص يشهد على حسن التدبير، كما يشهد على أن الخليقة تختلف. وهكذا الناس ليسوا

سواء في درجاتهم، فليس سواء عالم وجهول، إنما يخشى الله من عباده العلماء، و إن الذين يتاجرون مع الله بتلاوة الكتاب، وإقامة الصلاة، والإنفاق في سبيله سراً وعلانية، فان تجارتهم لن تبور، وأن الله يزيدهم من فضله، وهو غفور وشكور (الآيات: ٢٧-٣٠).

والكتاب الذي أنزل على الرسول ﷺ حق ويصدق الذي بين يديه، وقد أورثه الله الذين اصطفاهم من عباده (وهم ورثة الأنبياء من علماء أهل بيت الرسول ﷺ فمنهم ظالم لنفسه (إذ لم يتحمل علم الكتاب كماينبغي، بل خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً)، ومنهم مقتصد (قد حمل الكتاب بقدر مناسب، وهو العالم الرباني الذي يصوم نهاره ويقوم ليله)، ومنهم سابق بالخيرات (وهو الإمام الذي بلغ حق اليقين) (الآيات: ٣١-٣٢).

وجزاؤهم جميعاً جنات عدن يدخلونها يحلون فيها أساور من ذهب ولؤلؤاً، وهم يحمدون الله على ما أذهب عنهم الحزن، بينما الكفار يخلدون في العذاب الشديد، ولا ينفعهم الصراخ، ويقال لهم: ألم نعمركم ما يكفيكم للتذكرة، وأرسلناإليكم النذير؟ (الآيات: ٣٣-٣٧).

ويعود السياق لبيان أسماء الله الحسنى، مما يوجب علينا تقواه والحذر من عقابه. فالله يعلم غيب السماوات والأرض، ويعلم ما في الصدور (فعلى الإنسان مراقبته علانية وسراً)، وهو الذي يستبدل قوماًبآخرين، وإن عاقبة الكفر مقت وخسارة، وأما الشركاء المزعومون، لا يقدرون على نجاتهم من عذاب الله، لأنهم لايملكون شيئاً، فهم لم يخلقوا شيئاً من الأرض، وليسوا مؤثرين في تدبير السماوات، ولم يحصلوا على تخويل من الله بإدارةشؤون الخلق، وإنما يعدون أنفسهم غروراً، والله يمسك السماوات الأرض و يمنعهما من الزوال فما الذي يصنعه الطغاةوالمترفون؟ (الآيات: ٣٨-٤١).

ولعل الآيات الأخيرة من السورة إعادة تأكيد على محاورها، ببيان أنهم أقسموا بالله أنهم يبادرون إلى قبول النذيرأكثر من غيرهم، ولكنهم ازدادوا نفوراً بعد أن جاءهم النذير، و السبب أنهم كانوا يريدون العزة بالكفر والاستكبار،ويريدون المال بالمكر. أما الكفر؛ فقد أورثهم المقت والصغار، وأما المكر فقد أورثهم الفقر وعاد عليهم بالخسران، ولايحيق المكر السيء إلا بأهله (الآيات: ٤٢-٤٣).

وينذرهم السياق بأنهم يتعرضون لعاقبة الكفار من قبلهم، فهل ينتظرون ذلك المصير الذي جرت عليه سنن الله التي لاتبديل فيها ولا تحويل؟! دعهم يسيرون في الأرض لينظروا عاقبة الظالمين من قبلهم.(الآية: ٤٤).

وتختم السورة التي تركزت في بيان تدبير الله للخلق، ببيان أن الله لو أخذ الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة،ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى، فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيراً (بعض يعذبهم وبعض يغفر لهم) (الآية: ٤٥).

وخلاصة القول في إطار هذه السورة؛ أنها تدور حول فكرة أساسية ومؤثرة في تربية الإنسان وتزكيته، وهي أن الله هو المهيمن عليه، وهو الذي يدبر أموره وشؤون الكون، ذلك أن الإنسان الذي يشهد بذلك ليس فقط يطمئن إلى رحاب ربه، وإنما يدفعه هذا الشعور أيضاً إلى أن يجدد تصرفاته وسلوكه وفق مناهج الله سبحانه وتعالى.

وهناك إيحاء آخر لهذه الفكرة، وهو أن لا يطمئن البشر إلى رخاءٍ، ولا ييأسوا عند ضراءٍ.

الملائكة رسل الله

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ(١) السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۚ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ(٢) (٣) وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٥) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦) الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٨)﴾.

هدى من الآيات:

عندما نتذكر أن ربنا حميد -بكل المحامد الكريمة- أوليس قد فطر السماوات والأرض، واستوى على عرش القدرة حيث جعل الملائكة رسلا (لتدبير الأمور) عندئذ يهدينا الرب إلى أن

(١) فاطر: الفطر الشق عن الشيء بإظهاره للحس، وفاطر السماوات خالقها.

(٢) فأنى تؤفكون: أي كيف تصرفون عن طريق الحق إلى الضلال، من أفك بمعنى انصرف، ومنه يسمى الإفك إفكاً لأنه صرفٌ للكلام عن الحقيقة إلى خلاف الواقع.

مقاليد الأمور بيده، فإذا فتح للناس رحمة فلا أحد يمسكها، وإذا أمسكها فلا أحد يرسلها، فهو العزيز الحكيم، وهو الذي يرزق الناس من السماوات والأرض، ومن نعمه الظاهرة رسالاته التي يكذب بها الناس عادة، ولكن الأمور ترجع إلى الله سبحانه فلا يجوز أن نغتر بزينة الدنيا أو بتضليل الغرور، ويحذرنا الرب من الشيطان، ويدعونا إلى عداوته، لأنه يدعو حزبه إلى عذاب السعير.

هكذا نتلو في الدرس الأول من سورة فاطر التذكرة بالأصول الثلاثة: التوحيد، والرسالة، واليوم الآخر.

بينات من الآيات:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ نزلت البسملة مع جبرائيل كلما نزلت سورة، وكان الأصحاب يعلمون نهاية السورة إذا نزلت البسملة.

وقد أكدنا: أن اسم الله يعني الصفات الجلالية والجمالية التي يذكر بها، كصفة العزة، والقدرة، والعظمة من الصفات الجلالية، وصفة الرحمة، والغفران، والخلق، والرزق من الصفات الجمالية، ولقد خلق ربنا بهذه وتلك الخليقة، فلولا رحمة الله، وقدرته، وعلمه ما وجدت.

فلو كان ربنا مقتدرا، ولم يكن رحيما، لم يكن ليخلق الخلق، ولماذا يخلقه؟ بلى؛ لقد خلقنا برحمته فقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨-١١٩].

سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ الله عليه السلام: عَنْ قَوْلِ الله عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ قَالَ عليه السلام: **خَلَقَهُمْ لِيَأْمُرَهُمْ بِالعِبَادَةِ**. قَالَ -الراوي-: وسَأَلْتُهُ عَنْ قَوْلِ الله عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ قَالَ عليه السلام: **خَلَقَهُمْ لِيَفْعَلُوا مَا يَسْتَوْجِبُونَ بِهِ رَحْمَتَهُ فَيَرْحَمَهُمْ**»[1].

وهكذا على البشر التوسل إلى الله بأسمائه الحسنى، والبسملة أعظمها، فبرحمته التي وسعت كل شيء ﴿الرَّحْمَنِ﴾ وبرحمته الدائمة التي لا تزول ﴿الرَّحِيمِ﴾ نستعين في أعمالنا.

[١] ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ لا حمد لأحد إلا مجازا، أما الحمد حقا فهو لله، إذ هو الخالق الرازق.

---

(١) وسائل الشيعة: ج١ ص٨٤.

وقد يفتتن الإنسان بحمد ما سواه، لأنه تسبب في وصول نعمة إليه، ويغفل عن حمد ربه الذي وهب له الكينونة الأولى، ولا تزال نعمه تترى عليه بما لا يحصيها العادون.

أما الذاكرون ربهم فيقولون: الحمد لله بجميع محامده كلها على جميع نعمه كلها، والحمد لله كما هو أهله، و يستحقه حمدا كثيرا كما يحب ربنا ويرضى.

وأول ما نحمد ربنا عليه أنه خلقنا، وخلق السماوات والأرض.

﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الفطر في اللغة هو الانشقاق، وقد قال ربنا في سورة (الملك): ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ [الملك: ٣].

وفطر الله السماوات والأرض من العدم، وأنشأهما من غير مثال يحتذي به، أو خلق يخلق على شاكلته. لقد انشق جدار الظلام الأبدي بإذن الله عن هذه الخلائق التي لا تحصى ولا تحد. ولعل الكلمة توحي بمعنى الإبداع، والإنشاء، والتكون من دون أصل سابق، أو مادة قديمة، حسب ما ذكر بعض المفسرين.

وقد جاء في هذا المعنى عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «**أَنْشَأَ الْخَلْقَ إِنْشَاءً وابْتَدَأَهُ ابْتِدَاءً بِلَا رَوِيَّةٍ أَجَالَهَا ولَا تَجْرِبَةٍ اسْتَفَادَهَا ولَا حَرَكَةٍ أَحْدَثَهَا ولَا هَمَامَةِ نَفْسٍ اضْطَرَبَ فِيهَا أَحَالَ الأَشْيَاءَ لِأَوْقَاتِهَا ولَأَمَ بَيْنَ مُخْتَلِفَاتِهَا وغَرَّزَ غَرَائِزَهَا وأَلْزَمَهَا أَشْبَاحَهَا عَالِماً بِهَا قَبْلَ ابْتِدَائِهَا مُحِيطاً بِحُدُودِهَا وانْتِهَائِهَا عَارِفاً بِقَرَائِنِهَا وأَحْنَائِهَا ثُمَّ أَنْشَأَ سُبْحَانَهُ فَتْقَ الأَجْوَاءِ وشَقَّ الأَرْجَاءِ وسَكَائِكَ الْهَوَاءِ**»[1].

وربما توحي الكلمة أيضا: بأن الله فتق السماوات والأرض بعد أن كانتا رتقا، أي كانت كتلة متراصة، فأحدث فيها انفجاراً عظيماً بهيبته، يعبر عنه -سبحانه- بقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

فكانت السماوات والأرض، ولعل الآية التالية تشير إلى ذلك: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠].

وتقول بعض النظريات العلمية الحديثة: أن الكون كان سديما[2]، فتكونت منه الشموس بما لا يعلمون.

---

(١) نهج البلاغة: من خطبة له عليه السلام يذكر فيها ابتداء خلق السماء والأرض.

(٢) السديم: هو الغبار الكثيف.

﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾، و﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾: هي القوى العالمة، الشاعرة، المطيعة لله، وبعضهم موكلون بالخليقة، فللسماء ملك، وللشمس ملك، وللبحر ملك، وللريح ملك، وللمطر ملك، وللإنسان ملائكة حفظة وكتبة.

وبما أن هذه السورة تذكرنا بتدبير الله -سبحانه وتعالى- للسماوات والأرض كان مناسبا الإشارة إلى الملائكة الموكلين به، لكي لا يزعم البعض أن الملائكة قوى مستقلة فيعبدوهم من دون الله، كما عبد بعضهم الشمس، وبعض القمر، وبعض النجوم، و.. و..

هكذا نستوحي من كلمة ﴿رُسُلًا﴾ أنهم مجرد حملة الأوامر إلى حيث يجري تنفيذها بإذن الله وبحوله وقوته.

وكلمة ﴿رُسُلًا﴾ لا تعني الاختصاص بالرسالة التشريعية، التي منها (التوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم وقرآن محمد) ولكن الملائكة تتنزل بإذن ربها من كل أمر، في سائر شؤون الخليقة ﴿أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٖ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ﴾.

جاء في الأثر عن طلحة بإسناده، يرفعه إلى النبي ﷺ قال: «**المَلَائِكَةُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَجْزَاءٍ جُزْءٌ لَهُ جَنَاحَانِ وجُزْءٌ لَهُ ثَلَاثَةُ أَجْنِحَةٍ وجُزْءٌ لَهُ أَرْبَعَةُ أَجْنِحَةٍ**»[1]. و لبعض الملائكة أكثر من ذلك بكثير، يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في صفة الملائكة: «**إِنَّ للهِ تَبَارَكَ وَ تَعَالَى مَلَائِكَةً لَوْ أَنَّ مَلَكاً مِنْهُمْ هَبَطَ إِلَى الأَرْضِ مَا وَسِعَتْهُ لِعِظَمِ خَلْقِهِ وَكَثْرَةِ أَجْنِحَتِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَوْ كُلِّفَتِ الجِنُّ وَ الإِنْسُ أَنْ يَصِفُوهُ مَا وَصَفُوهُ لِبُعْدِ مَا بَيْنَ مَفَاصِلِهِ وَحُسْنِ تَرْكِيبِ صُورَتِهِ، وَكَيْفَ يُوصَفُ مِنْ مَلَائِكَتِهِ مَنْ سَبْعُمِائَةِ عَامٍ مَا بَيْنَ مَنْكِبَيْهِ وَشَحْمَةِ أُذُنِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَسُدُّ الأُفُقَ بِجَنَاحٍ مِنْ أَجْنِحَتِهِ دُونَ عِظَمِ بَدَنِه**»[2].

﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُۚ﴾ وقد أكدنا القول في سورة سابقة: أن الكون في حالة توسع دائم ومستمر، وهذه الآية توحي بأن يد الله مطلقة، وأن بيده البداء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ﴾

[٢] وما نراه من صنوف الخلائق، وعجيب صنعها، وعظيم تقديرها، وتدبير شؤونها، يهدينا إلى أن خالقها مقتدر لا يعجزه شيء، مما يزيدنا ثقة به واطمئنانا لتدبيره، وسكينة في القلب تساعدنا على تقلبات الحياة، فلا نقنط بالبلاء، ولا نستريح عند الرخاء، ولانطمئن إلى الدنيا وأسبابها التي لا تثبت على حال.

---

(١) الكافي: ج٨، ص٢٧٢.

(٢) التوحيد للشيخ الصدوق: ص٢٧٧.

﴿ مَا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾ فإن رحمة الله لا أحد يستطيع أن يمنعها عنك إذا قدرت لك، ﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ عزيز لأنه قادر، وحكيم يرسل لمن يشاء ويمسك عمن يشاء، كيفما يشاء بحكمة وليس عبثا.

[٣] ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ فهو الذي خلقنا، وهو الذي يرزقنا، وفي آيات قرآنية قال الله سبحانه وتعالى: أنه خلق الكون في يومين، و قدر الأقوات في أربعة أيام، مما يهدينا إلى أن الذي خلقنا في يومين أعطى ضعف الوقت للرزق، فلم الخوف إذا من توقف رزقه؟

فهل من خالق غير الله يرزقنا، من الذي وزع الثروات في الأرض، ومن الذي وهب لمنطقة أرضا زراعية، و لأخرى معادن أودعها ضمير الأرض منذ ملايين السنين ليستفيد منها الإنسان الآن وغدا.

وثقة البشر برزق ربه كفيلة بسد أبواب الشيطان التي يلج منها لتضليله إذ يصور له أن الآخرين يرزقونه.

ولعل هذه الثقة تدفعه إلى البحث عن الرزق في حقول الطبيعة، ويسعى في مناكب الأرض يحرثها، ويثير دفائنها، ويسخر طاقاتها لمصلحته، ولا يجلس في انتظار الآخرين أن يرزقوه أو يطعموه.

وهكذا تكون الفكرة المستوحاة من الآية أولاً تساهم في تزكية النفس، بينما تساهم الفكرة الثانية في بناء الحضارة بالاعتماد على رزق الله، وتفجير الطاقات المهيأة للإنسان.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ أين تذهبون؟! وإلى أي إفك وكذبة يدفعكم شياطين الجن والإنس الذين يوحون إليكم بأنهم رازقوكم.

[٤] ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ﴾ في الآيات القرآنية تأكيدات كثيرة على هذه الفكرة: ونستوحي من ذلك: أن آراء الناس ليست مقياساً سليماً لمعرفة الحق، ذلك أن الإنسان يجعل -عادة- آراء الآخرين مقياسا، فيقول: ما دام الناس يقولون: هذا كذب فهو كذلك، ومن هنا يؤكد ربنا: ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٣] وإن أكثر الناس قاوموا رسالات الله فأظهرها الله بالرغم من ذلك.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ وهكذا أكد السياق أن الرازق هو الله، وأن آراء الناس ليست مقياسا، وأن الأمور لا تعود إلى هذا أو ذاك، ممن يتخذهم الناس أندادا من دون الله، بل إلى الله

ترجع الأمور، وهناك يكون الحساب عادلا حيث يجازى المحسن جزاء الضعف، ولا يعاقب المسيء إلا بمثل عمله.

[٥] ثم يؤكد الله هذه الحقيقة فيقول: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ إنما يكذب الناس برسالة الله لأنهم عبدوا الدنيا وما فيها من مباهج وزينة، فبعض غرتهم الدنيا مباشرة كالطغاة والسلاطين وكثير من الناس، وبعض غرهم المغررون بالدنيا من هؤلاء، وإنما أهلك هؤلاء السذج اتباعهم لأولئك من دون لذة أو شهوة.

فترى أدعياء الدين والعلم يستخدمهم السلاطين للتغرير بالبسطاء من الناس فيسلبون منهم دينهم ودنياهم، و إنما يرفل بالنعم الطغاة وأعوانهم، ولا يبقى للضعفاء سوى الضلالة والغرور ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ وقيل إن الغرور: هو الشيطان.

[٦] للإنسان عدوان:

- عدو داخلي وهو النفس.

- عدو خارجي وهو الشيطان.

وعلى الإنسان أن يتخذ موقفا واضحا من الشيطان لكي يتميز نداءه التضليلي عن داعي الله، ذلك أن الإنسان يملك في نفسه قوتين متضادتين هما: العقل والهوى، ويؤيد العقل الملائكة بينما الهوى يدعمه الشيطان و من مكر الشيطان بالإنسان خلط الأوراق عليه، حتى لا يميز هذا عن ذلك، فتراه يلبس الباطل بالحق، و يوسوس في الصدور حتى يتشابه الحق بالباطل، ولكن إذا عرف الإنسان أن في قلبه شيطانا يسعى لإغوائه، و اتخذه عدوا تميز العقل عن الهوى في نفسه، وأمكنه معرفة طبيعة دواعيه النفسية هل هي من عقله أو من هواه.

وفي الحديث الشريف عن النبي ﷺ قال: «**مَا خُيِّرَ عَمَّارٌ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا اخْتَارَ أَشَدَّهُمَا**»[١] لأن الأقرب إلى النفس أقرب إلى الشيطان ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ علما أنه يأتي بعض الأحيان في صورة الناصح، إنه عدو مبين، يأتي لك من تسعة وتسعين بابا من الخير كي يوقعك في الباب المئة. إنه عدو وقد آلى على نفسه أن يضل بني آدم، ويدخلهم معه النار.

هكذا تناصح الصالحون بألا يغفل ابن آدم عن عدوه الخطر وهو الشيطان، فهذا الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام حين يأتي إليه رجل ويقول له: بأبي أنت وأمي عظني موعظة

(١) بحار الأنوار: ج٢٢ ص٣٢٠.

يقول له: «**إِنْ كَانَ الشَّيْطَانُ عَدُوّاً فَالغَفْلَةُ لِمَاذَا**»(١). وجاء في حديث أن الله أوحى إلى كليمه موسى بن عمران عليه السلام، وكان من بين وصاياه: «**مَا دُمْتَ لَا تَرَى الشَّيْطَانَ مَيِّتاً فَلَا تَأْمَنْ مَكْرَه**»(٢).

وخطورة هذا العدو اللدود أنه لا يرضيه شيء إلا إذا أوقع فريسته في نار السعير مباشرة ﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ﴾ ممن يطيعونه.. ﴿لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

[٧] ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ وعذاب الدنيا مهما كان لا يبلغ شدة عذاب الآخرة، فعلى العاقل أن يتحمل صعوبات الدنيا لكي يتجنب عذاب الآخرة، كمن يهرب من النار عبر طريق شائك يدمي رجله، بلى؛ أن ينجو من النار على حساب رجله أفضل من أن يلتهمه سعيرها.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ لماذا يؤكد القرآن على المغفرة للذين آمنوا وعملوا الصالحات؟.

ربما لأن المغفرة للمذنب، وأبناء آدم -عادة- يذنبون فإذا عرفوا غفران الله عظم الأمل في قلوبهم حيث يقول لهم الرب: ما دمتم تعملون الصالحات فسوف يغفر لكم ذنوبكم.

[٨] ثم يؤكد القرآن على أن الشيطان يزين الأعمال السيئة للإنسان حتى يراها صالحة.

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ يزينه له الشيطان، فيراه حسنا، ذلك أن الإنسان يحب نفسه ولا يحب أن يقال عن عمله أنه سيء، وهكذا تتكرس الخطايا عنده، إذ تنقلب مقاييسه وقيمه فبعد أن كان يتحاشاها أضحى اليوم يراها حسنة.

وبالنسبة إلى هذا الرجل يصعب عليه الإقلاع من الذنوب فيضله الله.

يقول الحديث المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**بَيْنَمَا مُوسَى عليه السلام جَالِساً إِذْ أَقْبَلَ إِبْلِيسُ وعَلَيْهِ بُرْنُسٌ ذُو أَلْوَانٍ فَلَمَّا دَنَا مِنْ مُوسَى عليه السلام خَلَعَ البُرْنُسَ وقَامَ إِلَى مُوسَى فَسَلَّمَ عَلَيْهِ فَقَالَ لَهُ مُوسَى مَنْ أَنْتَ فَقَالَ أَنَا إِبْلِيسُ قَالَ أَنْتَ فَلَا قَرَّبَ اللهُ دَارَكَ قَالَ إِنِّي إِنَّمَا جِئْتُ لِأُسَلِّمَ عَلَيْكَ لِمَكَانِكَ مِنَ اللهِ قَالَ فَقَالَ لَهُ مُوسَى عليه السلام فَمَا هَذَا البُرْنُسُ قَالَ بِهِ أَخْتَطِفُ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ فَقَالَ مُوسَى فَأَخْبِرْنِي بِالذَّنْبِ الَّذِي إِذَا أَذْنَبَهُ ابْنُ آدَمَ اسْتَحْوَذْتَ عَلَيْهِ قَالَ إِذَا أَعْجَبَتْهُ نَفْسُهُ واسْتَكْثَرَ عَمَلَهُ وصَغُرَ فِي عَيْنِهِ ذَنْبُهُ**»(٣).

---

(١) من لا يحضره الفقيه: ج٤، ص٣٩٣.
(٢) الخصال: ج١، ص٢١٧.
(٣) الكافي: ج٢، ص٣١٤.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ﴾ فالله يضل هذا الإنسان الذي يبرر أعماله الفاسدة، فيسلب عقله، ويتركه في ظلمات لا يبصر، ويهدي الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات بما صبروا وأطاعوا ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾ حين لا يؤمنون بك، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾.

للّه العزة جميعا

﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ (٩) مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ[1] (١٠) وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١١) وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ[2] لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) ﴾.

هدى من الآيات:

في إطار تبيان تدبير الله لأمور السماوات والأرض، وتكريس حالة السكينة في نفوس المؤمنين به، يربط السياق هنا بين سنن الله في الخليقة وبين سننه في حياة البشر.

ويدعونا إلى إلقاء نظرة فاحصة إلى السحاب الذي تحمله الرياح، وتبعثه إلى البلاد الميتة فيحييها، ثم نظرة إلى حياة الإنسان وما يختلج في قلبه من نزعات وتطلعات، فكل شخص يريد أن يصبح عزيزا، منيع الجانب، ولكن البعض قد يخطئ الطريق، فلا يعرف أن العزة الحقيقية

(١) يبور: من بار إذا فسد، أي أن مكرهم يفسد ولا ينفذ.

(٢) مواخر: جمع ماخرة، يقال مخرت السفينة الماء إذا شقته لتسير.

إنما هي عند الله عز وجل، وأن المعراج إليه هو الإيمان والعمل الصالح، ويدفعه هذا الخطأ إلى اصطناع المكائد والمكر، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله فلا يحصل على عزة ولا غنى.

إن ربنا سبحانه يذكرنا بأيام ضعفنا: من الذي قوانا؟ أولم نك نطفة من مني يمنى؟ من الذي سوانا فعدلنا؟

إن الرب الذي جعل من النطفة المهينة إنسانا سويا، هو الذي يعز من يشاء، ويذل من يشاء، ويتصل الحديث عن العزة بالحديث عن البحرين هذا عذب فرات سائغ شرابه، وهذا ملح أجاج، ومع أنهما لا يستويان، إلا إن الله يرزق العباد منهما جميعا بحيث يستخرجون لحما طريقا كما يستخدمونهما لمصلحة النقل فيهما عبر السفن.

وكل ذلك الحديث يربطه سبحانه بالليل والنهار: فمن يولج النهار في الليل، ويولج الليل في النهار؟! أوليس الله، فلماذا نطلب العزة عند غيره؟!.

بينات من الآيات:

[٩] إن المؤمن يجعل الحياة مدرسة، ويجول ببصره في أرجائها ليزداد وعيا وهدى، ومن أكثر تجليات الحياة روعة ساعة انبثاقها عندما يأمر الله الرياح لتحمل السحب الثقيلة بالبركات إلى موات الأرض حيث يحيط السكون بكل شيء فيحييها الرب بها.

﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾ الرياح تثير السحاب، كما يثير الزارع الأرض للزرع، فترسله كيفما يشاء الله.

﴿فَسُقْنَـٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ وكلمة ﴿فَسُقْنَـٰهُ﴾ تدل على أن ربنا هو الذي يدبر الغيث فيرسله إلى بلد ميت فيحييه، وسقاية الغيث ليست فوضى إنما هي خاضعة لعمل بني آدم، فليس مطر سنة أقل من مطر سنة أخرى في بلد، ولكن عمل البشر هو الذي يزيده أو ينقصه تماما، وما الرياح إلا وسيلة لأن الله أجرى الأمور بأسبابها.

﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ تعال إلى أرض موات لتجد البشر صرعى الجوع، والأحياء في ضمور، وأديم الأرض يشكو العطش، فإذا أنزل عليها الرب الماء اهتزت، ودبت الحيوية في الإنسان، وانتعش الأحياء. إن هذا مظهر من مظاهر انبثاق الحياة ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾.

[١٠] وكما الأرض يحييها الرب بالغيث، وكما الأموات ينشرهم كيف يشاء يوم القيامة،

كذلك المجتمع المتخلف الذي يحيط به سكون المقابر يحييه ربنا بعزته، فإذا أراد المجتمع الاستقلال والتقدم والعزة وبالتالي الحياة فعليه أن يعرج إلى الله بالعمل الصالح والكلم الطيب.

هذه قدرة الله أن جعل -هذا البلد الذي مات فيه كل شيء- ينبض بالحياة، فكيف يكفرون بالبعث والنشور، أفلا يؤمنون بأن ربنا قادر على أن ينزل مثل هذا المطر على أجداثهم، فتنمو فيها الحياة، مثلما ينموا الزرع، و يخرج الناس من قبورهم كما تخرج النباتات؟! وقد دلت بعض الروايات على أنه: «**إِذَا أَرَادَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَبْعَثَ الخَلْقَ أَمْطَرَ السَّمَاءَ أَرْبَعِينَ صَبَاحاً فَاجْتَمَعَتِ الأَوْصَالُ وَ نَبَتَتِ اللُّحُومُ**»[1].

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ لا عند الشركاء، أوليس من اعتز بغير الله ذل؟!.

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ الكلم الطيب هو العقيدة الصالحة، لأن الكلمة في القرآن لا تدل على اللفظ، بل على ما ورائها من معنى، كما قال ربنا سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [ابراهيم: ٢٤] وقد فسرت هذه الآية بالقيادة الرسالية، ولا ريب أن سنام العقيدة الصالحة ومظهر صدق الإنسان في إيمانه هو التسليم للقيادة الإلهية (الولاية) والكلم الطيب يصعد إلى الرب ويصعد معه صاحبه معنويا. أوليس الإيمان هو أثقل ما في ميزان العبد، وما عبد الله بمثل التوحيد؟.

ولا ريب أن الكلم الطيب -كما الشجرة الطيبة- تنتشر فروعها في كل أفق، فمن العقيدة الصحيحة يشع التسامح والحب ونبذ العصبيات والأفكار اليائسة والسلبية، وكل أولئك يقرب العبد إلى ربه زلفى.

كما إن العمل الصالح يرتفع إلى الله ويرتفع صاحبه به فيتقرب إليه، وبالكلم الطيب والعمل الصالح يصل المجتمع إلى العزة الإلهية.

وقد ذكر للعمل الصالح تفسيران:

الأول: أن العمل الصالح يرفعه الكلم الطيب[2] فالعقيدة الطيبة ترفع العمل الصالح، لأن عامل الحسنة بلا إيمان لا يقبل منه ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[المائدة: ٢٧].

الثاني: إن العقيدة الصادقة والكلم الطيب يرفعه العمل الصالح، فالعمل الصالح بمثابة

---

(١) بحار الأنوار: ج٧، ص٣٣.

(٢) التفسير الكبير للرازي: ج٢٦، ص٨.

الأجنحة للطير.

وتتجلى هذه الحقيقة في الحياة الاجتماعية بأن الكلمة الطيبة والعمل الصالح يرفعان المجتمع إلى الأعلى دائما حيث العزة الإلهية. كيف يتم ذلك؟

كما القارب يسير مع التيار كذلك الحياة تسير مع السنن الحاكمة عليها، فمن مشى مع تلك السنن حملته الحياة إلى الأعلى، ومن عارضها خاب سعيه وبارت خطته.

فالحقد والبغضاء والتهمة والعداوة تفصم عرى المجتمع، وقد بنى الله الحياة على أساس الوحدة لا التفرقة، فتيار الحياة يجري باتجاه التجمع، وهل يصعد ذلك التيار إليه سبحانه؟! كلا.. إنما الصاعد إليه الحب والتعاون والإيثار.

إن الكون قائم على أساس البناء لا الهدم، وإن الذي يبني يتقدم على الذي يهدم لأن سنن الله تؤيد الذين يبنون، ويخطئ أولئك الذين يمكرون السيئات، ويعتقدون أن باستطاعتهم أن يتقدموا بها، فليس هؤلاء فقط لا يصعدون إلى الله، ولا ينالون من عزة الله شيئا، بل لهم عذاب شديد.

﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ المكر هو الحيلة، ومن يعيش عليها لا يفلح، ﴿وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾؛ عملك الصالح يرفعه الرب، ومكر أولئك ينزله، ويبور أي يفسد، وكثير من الناس الذين يبتزون الناس، كالمحتالين، نجدهم ربما يربحون مرة ربحا خياليا، ولكنهم بالتالي يخسرون.

والعزة يعني أن تبحث عن الطريق القويم، فتمشي فيه، وآنئذ سوف تجد أن سنن الحياة كلها تخدمك.

[١١] ويؤكد السياق شمول تدبير الله لشؤون الإنسان، ويبين كيف تجري تقلبات حياة البشر على كف تقدير الله سبحانه، فلقد خلقنا من تراب أولاً ثم من نطفة ثم خلق لنا أزواجا، ورزقنا ذرية، لا نعرف جنس الحمل ولا تقديراته.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ حتى تستأنسوا إلى بعضكم.

﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ لأنك في لحظات الجنس قد لا تفكر في شيء، ولكن الله يعلم ما تحمل كل أنثى. أهو ذكر أم أنثى، كما يعلم ماذا يؤول إليه مصيره.

﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ كم يكون عمر هذا المولود؟

وهل سيعمر طويلا؟ أو يباغته الأجل في عز طفولته أو ريعان شبابه؟ كل هذه التساؤلات في كتاب عند الله، لا يضل ربي ولا ينسى.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ هذه الأمور ليست عسيرة عند الله كما هي عسيرة عندك.

[١٢] ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ الفرات والأجاج تأكيد لشدة العذوبة به ولشدة الملوحة.

﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ من الماء العذب والمالح تأكلون لحما وتستخرجون حلية، وقد وقف المفسرون طويلا حائرين، كيف يمكن استخراج الحلية من الماء العذب الفرات، فجاء العلم وأثبت إمكانية تربية اللؤلؤ في الأنهار.

﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ في عموم الماء، عذبه ومالحه، من أجل أمرين:

الأول: ﴿لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ لأن السفينة لم تزل أفضل وسيلة لنقل البضائع بين الشعوب.

الثاني: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ حيث إن النعم وسيلة للكمال المعنوي المتمثل في شكر الله.

أنتم الفقراء إلى الله

﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ[1] (١٣) إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤) يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ (١٥) إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ (١٧) وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ (١٨) وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ (١٩) وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ (٢٠) وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ (٢١) وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ (٢٢) إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ (٢٣) ﴾.

هدى من الآيات:

يتشبث الإنسان ببعض الخيوط الواهية (العنكبوتية)، ويترك ذلك الحبل المتين الذي لا بد أن يعتصم به، و تذكرنا آيات القرآن بأن مدبر السماوات والأرض هو الله، فهو الذي يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل، وسخر الشمس والقمر، وأن له الملك، فلماذا لا ندعوه،

---

(١) قطمير: هو قشر النواة أي اللفافات التي فوقها.

بينما الذين يدعونهم من الشركاء لا يملكون حتى بمقدار قطمير.

وبالذات عند الضراء، حيث يتحسس البشر بضعفه الحقيقي، لا يعقل هؤلاء الأنداد شيئا إذ لا يسمعون النداء، ولو سمعوا لم يستجيبوا.

أما يوم القيامة فهؤلاء لا يشفعون لأحد إذ يكفرون بالمشركين.

ثم يؤكد ربنا هذه الحقيقة قائلا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ لماذا؟.

لأنه يستطيع بأقل من لحظة واحدة أن يفنيكم عن أخركم، وينشئ مكانكم مجموعة بشرية جديدة، وهل هناك فقر أكبر من هذا الفقر؟ فالإنسان في وجوده وفي استمرار بقائه يحتاج إلى ربه، وهل هناك غنى أكبر من غنى الرب، الذي لو شاء أذهبكم، وأتى بخلق جديد؟ وهذا هين عليه ويسير.

ثم يحدثنا السياق عن مسؤولية الإنسان أمام ربه عن جميع أعماله، وأنه لا يستوي عند الله الصالح والكافر، كما لا يستوي الأعمى والبصير، ولا الظلمات ولا النور، ولا الظل ولا الحرور، ولا الأحياء والأموات.

فلا يجوز الاعتماد على الأنداد للهروب من المسؤولية كما لا يمكن إلقاؤها على الآخرين. وإنما جاء الرسول نذيرا (بأن السيئات تستتبع عقابا) وهو بالتالي لا يحمل من تبعات أمته شيئا.

بينات من الآيات:

[١٣] ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ الليل والنهار يلج أحدهما في صاحبه بصورة مستمرة، بسبب حركة الأرض حول الشمس.

قال بعض المفسرين: إن كلمة ﴿يُولِجُ﴾ تدل على الاستمرار، لأنه في كل لحظة يتم إيلاج، ففي هذه الساعة حكم الليل في أحد البلدان، وبعد دقيقتين سيحل الليل على بلد آخر، وفي المقابل يحل النهار على بلد في نفس الوقت، والظهر في بلد ثالث.

وهناك تفسير آخر يحتمله الكلام هو إن الليل والنهار يأخذ أحدهما من الآخر في فصول السنة فمرة يكون الليل أطول ومرة النهار.

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ الشمس والقمر يجريان، ولكن ليس إلى مالا نهاية، وكذب من قال: إن الشمس والقمر أبديان، كلا.. فشمسنا هذه مثلا في حالة الكهولة، وكل ما في الكون يؤكد على النهاية، فهذه الانفجارات الهائلة في الشمس شاهد على تناقصها بشكل دائم، والانفجارات التي نسمعها بين الفينة والأخرى لبعض الشموس تؤكد لنا أنه لا بد من نهاية لشمسنا أيضا.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ من الذي أولج الليل في النهار، وأولج النهار في الليل، ومن الذي سخر الشمس والقمر، كل يجري لأجل مسمى؟ إنه الله ربكم، وهو المالك حقا.

﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ القطمير هو قشر النواة الرقيق، وما يملك الذين تدعون من دونه مثلها.

[١٤] ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾ فكيف يسمعون نجواكم أو سركم، أو حين تدعونهم في الظلمات؟ ولو افترضنا أنهم سمعوا دعاءكم لم يستجيبوا لكم، لأنهم لا يملكون دفع الضر عن أنفسهم، فكيف بجلب الخير لكم؟!

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ الملائكة والأنبياء كعيسى والأولياء الصالحون سيكفرون بشرككم، وسيتبرؤون منكم ومن عبادتكم لهم، كما يكفر الأنداد بكم وبشرككم.

﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ الخبير هو الذي خبر الشيء، وعرف أبعاده، ومن أخبر من الرب وهو الخالق المحيط بكل شيء علما؟.

[١٥] إن الإحساس بالغنى الذي يسميه القرآن بالاستغناء، والذي يدعو صاحبه إلى البطر والطغيان، إنه مرض خطير، إذ يجعل الإنسان يعيش الوهم، ولا يعايش الحقائق، لذلك يذكرنا ربنا بواقع العجز المحيط بنا.

﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ ومن أشد فقرا منا، وقد أركزنا الرب في العجز والضعف والمسكنة، لأن كل شيء عندنا منه سبحانه. يقول الإمام الحسين عليه السلام في تضرعه المخصوص بيوم عرفة: «**إِلَهِي أَنَا الفَقِيرُ فِي غِنَايَ فَكَيْفَ لَا أَكُونُ فَقِيراً فِي فَقْرِي**»[١].

﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ الغنى عادة ما يكون مع اللؤم، ولكن الله غني حميد، فهو غني ويعطي من غناه للآخرين، وهو غني لا يبخل على الآخرين، بل ﴿لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ

(١) بحار الأنوار: ج٩٥، ص٢٢٥، دعاء يوم عرفة للإمام الحسين عليه السلام.

رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾ [الإسراء: ١٠٠] وهو حميد يحمد على غناه.

[١٦] ومن آيات فقرنا نحن البشر قدرة الله المحيطة بنا حيث يهلكنا إذا شاء ويستبدل بنا غيرنا ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ .

[١٧] يستطيع أن يذهبكم جميعا، ويستبدلكم بغيركم، يخلقهم بيسر، لأنه لا يمارس في خلقه علاجا ولا يمسه لغوب، إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون.

وفي الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**خَلَقَ اللهُ المَشِيئَةَ بِنَفْسِهَا ثُمَّ خَلَقَ الأَشْيَاءَ بِالمَشِيئَةِ**»[1]. فعندما يشاء شيئا فقد حدث الشيء، وفي الأثر: «**أَمْرُهُ بَيْنَ الكَافِ وَالنُّونِ**»[2].

﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ لنفترض أن الله سبحانه وتعالى شاءت مشيئته المطلقة -التي لا يحدها شيء- أن ينهي وجود الكون كله. هل يسأله أحد عن ذلك؟ كلا..

فالله يفيض نور الوجود من ينبوع رحمته الواسعة لحظة بلحظة، ولو توقف هذا الفيض لحظة واحدة لتوقف كل شيء، فهل نحن أغنياء أم ربنا الحميد؟!

ماذا نستلهم من هذه الحقائق، وكيف ينبغي أن تنعكس على أنفسنا وسلوكنا؟

الجواب:

١- لأن الله غني حميد فهو يفيض سيبه على الخليقة، إلا إذا عصوه وغيروا ما بأنفسهم بغيا وظلما، وهنالك يجازي الظالمين جزاءً وافيا، ولا يتحمل أحد ثقل الجريمة عن أحد، فلا ينفع إلقاء المسؤولية على الآخرين في محكمة العدل.

٢- إن من يعمل الصالحات يجازيه الله فهو إذا يعمل لنفسه.

[١٨] ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ الوزر: الحمل الثقيل، والوازرة: النفس البشرية التي حملت ثقلا. ومعنى هذه الآية: أنه لا تحمل نفس ذنب نفس أخرى. لماذا؟ لأن تلك النفس لها ثقلها وحملها، فلا تستطيع أن تتحمل حمل نفس ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ وقد قال الله عن لسان الكافرين: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [العنكبوت: ١٢]. إنك إن تدع إنسانا ما أن يحمل عنك مسؤوليتك، فلن يحمل منها شيئا، لأن

(١) الكافي: ج١، ص١١٠.

(٢) بحار الأنوار: ج٢٥، ص١٢٧.

كل إنسان يأتي وهو يحمل ما يكفيه من المسؤولية، ويجب أن يتحدى الضغوط والأهواء.إنك مسؤول عن عمرك وشبابك، ويقظتك ونومك، وسعيك وخمولك، وإيمانك وكفرك، فعلينا أن نعقد العزم على حمل مسؤولياتنا بقوة حتى يأتينا اليقين.

ولكن كيف نفهم هذه الحقيقة الكبرى؟. بما يلي:

١- نخشى ربنا بالغيب ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ لأننا ما دمنا لا نؤمن بالغيب فلن نفهم الحقائق.

٢- نقيم الصلاة ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

٣- نزكي أنفسنا ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ فإذا آمنت بالغيب، وأقمت الصلاة، وربيت نفسك، فأنت وحدك المستفيد.

[١٩-٢٠-٢١-٢٢] في الدنيا نرى الناس بعين واحدة، من يتزكى ومن لا يتزكى، ومن قام الليل ومن نام، إنك تراهم سواء، ولكنهم يختلفون عند ربهم.

والقرآن يؤكد لنا هذه الحقيقة في آيات كثيرة من القرآن، فالذي زوده الله بالبصيرة، وأصبح يرى الحقائق بهدى الرب، يختلف عمن هو أعمى، قد ترك بصيرته لهواه، وهدى الله لضلالة إبليس.

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ فالذي انتفع بنور عقله يعيش في ضياء الوحي، أوليس شرط الرؤية وجود بصر عند الإنسان ووجود نور على الطبيعة؟ كذلك المؤمن مزود بنور العقل، ويعيش في عالم النور نور الرسالة الإلهية، بينما الآخر تلفه ظلمات الجاهلية ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ﴾، والذي يعيش في النور بصيرا تطمئن نفسه، ويقيه الله من الكوارث والمصائب فهو في ظل الله ينعم بالسلامة، بينما الآخر يلفحه الحرور وهو الحر الشديد ﴿وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ﴾، والمؤمن حي لأنه يستفيد من الإنذار فيجتنب المخاطر، بينما الكافر ميت لا يتفاعل مع محيطه ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ﴾ القلب الحي يسمع كلام الله ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ أما القلب الميت الذي تراكمت عليه الآثام، واختفى في قبر الذنوب، فإنك لا تستطيع أن تسمعه.

[٢٣] ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ لأن هدف الرسالة ليس أكثر من الإنذار، إما أن تسمع لهذا الإنذار أو لا تسمع فتلك مسؤوليتك.

إنما يخشى الله من عباده العلماء

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ[1] مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ[2] ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ ﴾.

(١) جدد بيض وحمر: مفردها جدة كغرف وغرفت، والمراد بها الطرق.

(٢) غرابيب سود: الغربيب الشديد السواد الذي يشبه لون وسمي الغراب غراباً لشدة سواده.

هدى من الآيات:

إرسال الرسل، وتكذيب الكفار بهم، ونزول العذاب عليهم بسبب التكذيب، هي من سنن الله في الخليقة، فبالرغم من أن هذه السنن قد لا تبدو واضحة وضوح سائر السنن والأنظمة إلا إنها لا تشذ عن سائر السنن في تكرارها على ذات النسق، فمن السنن ما تقع يوميا، ومنها ما تقع كل قرن مرة مثلا، ومنها ما تقع عند حوادث معينة.

فالرسالة من تلك السنن، إذ يرسل الله رسولا بين فترة وأخرى حسب حاجة البشر.

ومع هذه السنة تتكرر حقيقة تاريخية حتى تكاد تكون سنة وهي: أن الرسالة الجديدة تصطدم بعقبات نفسية واجتماعية من القوم الذين أرسل الرسول إليهم، فتراهم يرفضونها سريعا.

أما السنة الأخرى فهي أن ينتقم الله لرسالته من أولئك الذين خالفوها، فيبعث عليهم عذابا يبيدهم عن بكرة أبيهم.

هذه فكرة تدور حولها آيات هذا الدرس، وأما الفكرة الثانية فهي: أن العلم الحق يدعو إلى الإيمان الحق.

بينات من الآيات:

[٢٤] ليس غريبا أن يبعث الرسول بالحق، لأن الله إنما خلق أساس الكون بالحق، فالسنن والأنظمة الطبيعية حق، والحالات المتغيرة التي تخضع لهذه الأنظمة حق أيضا، وشهوات الإنسان وعقله حق، وأرسل الرب رسوله بالحق ليكشف الحق ويهدي إليه، فهي رسالة تتكيف مع الإنسان والطبيعة، وتجري على ذات النهج.

﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ﴾ هذه سنة، لأن الله لم يجعل أمة إلا ولها نذير، يبعثه في أمها.

[٢٥] ومن الحقائق التي تكاد تكون سنة، تكذيب الأمم لرسلهم ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ﴾ وهي الشواهد والحجج التي لا ريب فيها لشدة وضوحها، ﴿وَبِٱلزُّبُرِ﴾ وهي الكتب المنزلة على الرسل المحتوية على مجموعة المعارف الإلهية، الهدى والبينات والمفصلات، ﴿وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ﴾ أي البصائر. ولعل فرقه مع الزبر أنه خصوص البينات المحكمات من الكتب، بينما الزبر هي المتشابهات والمجملات.

ومع أن الرسل أرسلوا بهذه الرسالات الثلاث، مع ذلك كذبتهم الأمم.

فإذن يا من تبلغون رسالات الله! لا تستوحشوا من تكذيب الناس، إن التكذيب بالرسالة عادة توارثتها الأمم وستجري عليكم بأن يكذبكم قومكم كما كذب الأولون، ولكن الله سيظهرها عليهم، طوعا أو كرها.

[٢٦] ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ وهذه سنة أيضا.

ونكير الله لهم: أي عذاب شديد يستأصلهم به. أفلا يعتبرون بتاريخهم، ويعرفون شدة إنكار الله لمنهجهم في التكذيب؟!.

[٢٧] من أبرز ما يثير عقل الإنسان ويجعله يغوص في أعماق الحقائق، الاختلافات التي تبرز في الطبيعة مما يزيدنا وعيا بتدبير الله، واستوائه على عرش القدرة، لأن إدارة الأمور المختلفة التي يقوم كل واحد منها بأداء وظيفة معينة، والتنسيق بينها وبين غيرها من الأمور أكبر شهادة على الخبرة والقدرة.

ويبدو أن السياق هنا يذكرنا بهذا الاختلاف ثم يبين بأن الذين يخشون ربهم هم العلماء.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ ماء المطر واحد إلا إن الله ينبت به ثمرات مختلفا ألوانها ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ ﴾ اللون هو الجانب الظاهر من الاختلاف، ولكنه يعكس جوانب أخرى هي: الاختلاف في الطعم، واللون، والفائدة، ورغبات الناس إليها.

ونترك الحقول والسهول فنصل إلى الجبال، فيقول الله فيها: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ ﴾ الجدد من الجادة، وهي الخطة أو الطريقة.

﴿وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ بين الأسود والأبيض ألوان تتفاوت من جبل إلى آخر، بل حتى في الجبل الواحد تختلف الألوان أعلاه عن أسفله عن جوانبه.

وهذه الآية ربما تدل على طبقات الأرض التي تتجلى في الجبال.

وغربيب: الشديد السواد، ومنه سمي الغراب لسواده.

[٢٨] ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ ﴾ كما الجبال واختلاف ألوانها كذلك بالنسبة إلى الإنسان والحيوان، فالإنسان تتفاوت ألوانه بشكل واضح وجلي، وكذا الحيوان فالماعز مثلا تتفاوت ألوانه من الأسود إلى الأبيض.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ هذا الاختلاف يدل على الدقة والحكمة، فربك الذي يخلق الحيوان بشكل مختلف جعل فيه أجهزة تتكيف واختلافها، فإنك إذ ترى الهرة ترى كل شيء ينسجم مع تركيبها، فيخلق في عين الهرة جهازا يكبر و يصغر حسب النور والظلام، فترى بؤبؤة عينها تصبح مستديرة صباحا، إلى أن تتحول شيئا فشيئا إلى شكل هلال إلى شكل خيط يشع نورا في الظلام، حتى إنك تستطيع أن تعرف الوقت من عين الهرة.

إن الذي خلق بؤبوة الهرة خلق جهازا في رأس النعامة لينظم ضغط الدم فيه، إذ إنها لو عدمت هذا الجهاز لانفجر دماغها حالما تنكسه إلى أسفل إذ يصل الضغط في دماغها آنئذ إلى ثلاثمئة درجة، ولكن وجود هذا الجهاز يكيف الضغط فيه، فكلما نكست رأسها كلما خف الضغط بسبب هذا الجهاز الدقيق حتى يبقى الضغط على دماغها بدرجة واحدة سواء كان رأسها أعلى عن الأرض بستة أمتار أو كان فوق التراب مباشرة.

وهكذا فإننا لو تعمقنا في الخليقة لعرفنا وحدة التدبير في اختلاف الصنع، ولكن من الذي يفهم هذه الحقيقة حتى يعرف ربه فيخشاه، إنهم العلماء.

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ والخشية هي ميراث العلم، جاء في الحديث: عن أبي عبد الله عليه السلام: «**إِنَّ مِنَ العِبَادَةِ شِدَّةَ الخَوْفِ مِنَ الله عَزَّ وجَلَّ يَقُولُ اللهُ إِنَّما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ العُلَماءُ**»[1]. وفي حديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «**المُلُوكُ حُكَّامٌ عَلَى النَّاسِ والعِلْمُ حَاكِمٌ عَلَيْهِمْ وحَسْبُكَ مِنَ العِلْمِ أَنْ تَخْشَى اللهَ وحَسْبُكَ مِنَ الجَهْلِ أَنْ تُعْجَبَ بِعِلْمِكَ**»[2]

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ عزيز بقدرته، غفور للجاهلين.

[٢٩] واستطرادا للحديث عن العلماء يتحدث الله عمن هو العالم؟.

العالم له صفات أربع هي:

١ - ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ أي يستوحون علمهم من كتاب الله، أو يمنهجونه حسب كتاب الله.

٢ - ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي يقيمون الصلاة بحدودها ومواقيتها، بحيث تنهى عن الفحشاء والمنكر.

---

(١) الكافي: ج٢، ص٦٩.

(٢) وسائل الشيعة: ج١، ص١٠٥.

٣- ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ سرا لأنه بعيد عن الرياء والجبت، وعلانية لأنه تحد للطاغوت، فهم يتحدون بالإنفاق جبت أنفسهم و طاغوت زمانهم.

ولكل شيء إنفاق وزكاة، فزكاة العلم نشره، وزكاة الجاه بذله، وزكاة المال العطاء.

٤- ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ يرجون من الله فكاك رقابهم من النار، وهل تبور تجارة أحد مع الله العزيز الغفور.

ونستوحي من مجمل الآيات في هذا السياق خصوصا من هذه الآية والتي سبقت في بيان عاقبة المكر وانه يؤول إلى البوار ﴿وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [فاطر: ١٠]، نستوحي: أن على الإنسان أن يختار الطريق السليم في بلوغ أهدافه المشروعة حتى ينجح لأن ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]، أما الذين يختارون الطرق الملتوية، ويريدون بلوغ أهدافهم بالمكر والحيلة فإن سعيهم يضيع، وعاقبتهم البوار.

ولعل السياق يعالج وسواسا شيطانيا حيث يدعو البشر أبدا إلى اختيار الطريق الأسهل والأقرب إلى الكسب حتى ولو كان على حساب القيم أو حقوق الآخرين، ويوحي إلى الإنسان أن العمل الصالح لا ينفع أو أن نفعه قليل، بينما يؤكد القرآن على أن الله يبارك في العمل الصالح والنية الصادقة.

[٣٠] ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾ كاملة، بل: ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ غفور يغفر زلاتهم، وشكور لما قدموه من عمل يرجون به وجه الله، عارفين أنه يعوضهم خيرا مما أنفقوا حيث يدخلهم الجنة دار ضيافته.

[٣١] من صفات المؤمنين التصديق بكل الكتب ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب الأخرى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾.

[٣٢] ولكن هناك أجيال من العلماء يسمون بعلماء الوراثة وليس علماء التجربة والمعاناة ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾.

من هم هؤلاء الذين اصطفاهم الرب لحمل كتابه؟ يبدو من السياق أنهم العلماء، ولذلك جاء في الحديث الشريف عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إِنَّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ»(١). فإذا: المصطفون طبقة العلماء من أمة محمد صلى الله عليه وآله والاصطفاء هنا ليس شخصيا حتى يشبه اجتباء الأنبياء والأئمة عليهم السلام، بل بتحميل الرسالة لأمة من الناس لمجمل الخصال التي فيهم ولمكان وجود السابقين بالخيرات بينهم، وهم أئمة الهدى عليهم السلام.

(١) الكافي: ج١، ص٣٢.

وينقسم الذين أورثوا الكتاب إلى ثلاث فئات: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ تساوت حسناته وسيئاته، وفي حديث مأثور عن أبي الدرداء عن رسول الله ﷺ في هذه الآية في مصير الظالم لنفسه قال: «أَمَّا السَّابِقُ فَيَدْخُلُ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَأَمَّا المُقْتَصِدُ فَيُحَاسَبُ حِساباً يَسِيراً وَأَمَّا الظَّالِمُ لِنَفْسِهِ فَيُحْبَسُ فِي المَقَامِ ثُمَّ يَدْخُلُ الجَنَّةَ فَهُمُ الَّذِينَ قَالُوا الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الحَزَن»[١]

﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ وهو المتعبّد المجتهد الذي يصوم نهاره، ويقوم ليله -كما جاء في حديث عن الإمام الباقر عليه السلام-.

﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وهو الإمام.

﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ أي: السبق بالخيرات هو الفضل الكبير.

وهذا التفسير للآية يتناسب والسياق ومن علائمه الواضحة الاصطفاء والتوريث، وتؤيده أحاديث كثيرة عن النبي وأصحابه، حتى قال الشوكاني بعد ذكرها: وهذه الأحاديث يقوي بعضها بعضا، ويجب المصير إليها، ويدفع بها قول من حمل الظالم لنفسه على الكافر، ويؤيدها ما أخرجه الطبراني وابن مردويه والبيهقي في البعث عن أسامة بن زيد ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾... الآية قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّهُم فِي هذِهِ الأُمَةِ، وَكُلُّهُم فِي الجَنَّة»[٢].

أما تفسير أهل البيت عليهم السلام لهذه الآية فنلاحظه من خلال الروايات التالية:

جاء في الأثر عن الإمام الصادق عليه السلام: «الظَّالِمُ لِنَفْسِهِ مِنَّا مَنْ لَا يَعْرِفُ حَقَّ الإِمَامِ وَالمُقْتَصِدُ مِنَّا العَارِفُ بِحَقِّ الإِمَامِ وَالسَّابِقُ بِالخَيْرَاتِ هُوَ الإِمَامُ وَهَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ مَغْفُورٌ لَه»[٣].

ونعرف من ذلك أن الظالم هنا مغفور له لأن ظلم نفسه لا يبلغ درجة دعوة الناس إلى الضلال، بل فيه ما في الناس من زلات يطهرها بحسناته، وهو ظالم لنفسه إذا قيس بالمقتصد، والسابق بالخيرات هو من عرف واجبه باعتباره وارث علم الكتاب، وقد روي عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال -بعد أن سئل عن الآية وعن معنى الظالم لنفسه فيها-: «مَنِ اسْتَوَتْ حَسَنَاتُهُ وَسَيِّئَاتُهُ مِنَّا أَهْلَ البَيْتِ فَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ فَقُلْتُ: مَنِ المُقْتَصِدُ مِنْكُمْ؟. قَالَ عليه السلام: العَابِدُ للهِ فِي الحَالَيْنِ حَتَّى يَأْتِيَهُ اليَقِينُ. فَقُلْتُ: فَمَنِ السَّابِقُ مِنْكُمْ بِالخَيْرَاتِ؟. قَالَ عليه السلام: مَنْ دَعَا وَاللهِ إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ وَأَمَرَ بِالمَعْرُوفِ وَنَهَى عَنِ المُنْكَرِ وَلَمْ يَكُنْ لِلْمُضِلِّينَ عَضُداً وَلَا لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً وَلَمْ

---

(١) بحار الأنوار: ج٢٣، ص٢١٣.
(٢) كنز العمال: ج٢، ص٤٨٦.
(٣) بحار الأنوار: ج٢٣، ص٢١٣.

يَرْضَ بِحُكْمِ الفَاسِقِينَ إِلَّا مَنْ خَافَ عَلَى نَفْسِهِ وَدِينِهِ وَلَمْ يَجِدْ أَعْوَانا»[1].

ونستوحي من هذا النص: أن لذرية رسول الله ﷺ المصطفين للقيادة مسؤوليات أكبر، فالظالم نفسه منهم هو الذي تستوي حسناته وسيئاته، ولا يدعو إلى ضلال كما جاء في حديث آخر: «**الظَّالِمُ لِنَفْسِهِ الَّذِي لَا يَدْعُو النَّاسَ إِلَى ضَلَالٍ وَلَا هُدًى**»[2]. ولعل في كلمة «لِنَفْسِه» شهادة على ظلم لا يتجاوز نفسه إلى الآخرين.

أما الشاهد على أن الآية تعني مثل هؤلاء فهو الرواية التالية التي تدل على أن جميع هؤلاء في الجنة.. هكذا استدل الإمام الرضا عليه السلام للمأمون العباسي حينما سأله عن الآية. لنستمع إلى تحاورهما:

عَنِ الرَّيَّانِ بْنِ الصَّلْتِ قَالَ: «حَضَرَ الرِّضَا عليه السلام مَجْلِسَ المَأْمُونِ بِمَرْوَ وَقَدِ اجْتَمَعَ فِي مَجْلِسِهِ جَمَاعَةٌ مِنْ عُلَمَاءِ أَهْلِ العِرَاقِ وَخُرَاسَانَ فَقَالَ المَأْمُونُ: أَخْبِرُونِي عَنْ مَعْنَى هَذِهِ الآيَةِ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ فَقَالَتِ العُلَمَاءُ: أَرَادَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِذَلِكَ الأُمَّةَ كُلَّهَا. فَقَالَ المَأْمُونُ: مَا تَقُولُ يَا أَبَا الحَسَنِ!. فَقَالَ الرِّضَا عليه السلام: **لَا أَقُولُ كَمَا قَالُوا وَ لَكِنِّي أَقُولُ أَرَادَ اللهُ عَزَّ وَ جَلَّ بِذَلِكَ العِتْرَةَ الطَّاهِرَةَ.**

فَقَالَ المَأْمُونُ: وَكَيْفَ عَنَى العِتْرَةَ مِنْ دُونِ الأُمَّةِ؟. فَقَالَ لَهُ الرِّضَا عليه السلام: **إِنَّهُ لَوْ أَرَادَ الأُمَّةَ لَكَانَتْ بِأَجْمَعِهَا فِي الجَنَّةِ لِقَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ ثُمَّ جَمَعَهُمْ كُلَّهُمْ فِي الجَنَّةِ فَقَالَ: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ الآيَةَ فَصَارَتِ الوِرَاثَةُ لِلْعِتْرَةِ الطَّاهِرَةِ لَا لِغَيْرِهِمْ»**[3].

وهناك تفسيران آخران:

الأول: أن المراد بالظالم هو الكافر.

الثاني: أن المراد مجموع الأمة.

وهذا مخالف لاجتماعهم في الجنة مع أن بعضهم من أهل الكبائر ومن وعد الله لهم بالنار لسفك الدم الحرام وما أشبه.

---

(١) بحار الأنوار: ج٢٣، ص٢١٤.

(٢) بحار الأنوار: ج٢٣، ص٢١٥.

(٣) بحار الأنوار: ج٢٥، ص٢٢٠.

فريق في الجنة وفريق في السعير

﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ (٣٣) وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ (٣٤) ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ[1] (٣٥) وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ (٣٦) وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ (٣٧) إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (٣٨) هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ إِلَّا مَقۡتٗاۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ إِلَّا خَسَارٗا (٣٩) قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا فَهُمۡ عَلَىٰ بَيِّنَتٖ مِّنۡهُۚ بَلۡ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعۡضُهُم بَعۡضًا إِلَّا غُرُورًا (٤٠) ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا (٤١) ﴾.

(١) لغوب: هو المشقة في طلب المعاش ونحو ذلك.

هدى من الآيات:

بين البشر وبين التحسس بالآخرة حجاب الغرور، إذ يمنع هذا الحجاب من أن يضحي الإيمان بالآخرة جزءا من معادلة البشر النفسية.

والإنسان يشعر في قرارة نفسه بضرورة التخلص من العذاب، وإيجاد حالة من الأمن والسلام المستقبلي لنفسه.

ولكن قد يرفع هذا الخطر بالعمل والسعي الجاد، وقد يرفع هذا الخطر بالتمني والأحلام فيصنع لنفسه تعويضا نفسيا عن الواقع، ولكن يزيل القرآن هذه التمنيات، ويعطينا صورة حقيقية عن ذلك اليوم الرهيب حين نقف أمام ربنا الجبار، ويصور مشاهد الآخرة حتى لكأننا نراها، ثم يضع الإنسان أمام وجدانه.

وفي هذه الآيات تذكرة لعمر الإنسان في الحياة بأنه كان كافيا لامتحانه.

بينات من الآيات:

[٣٣] ما هو جزاء المصطفين من عباد الله الذين أورثوا الكتاب؟.

﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾
يحلون: أي يتحلون بها، فلقد حرم الله عليهم الذهب والحرير في الدنيا، وعوضهم في الآخرة.

وقد جاء في الحديث عن الإمام الباقر عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**إِذَا أُدْخِلَ الْمُؤْمِنُ إِلَى مَنَازِلِهِ فِي الْجَنَّةِ وَوُضِعَ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْمُلْكِ والكَرَامَةِ أُلْبِسَ حُلَلَ الذَّهَبِ والفِضَّةِ والْيَاقُوتِ والدُّرِّ الْمَنْظُومِ فِي الإِكْلِيلِ تَحْتَ التَّاجِ قَالَ وأُلْبِسَ سَبْعِينَ حُلَّةً حَرِيرٍ بِأَلْوَانٍ مُخْتَلِفَةٍ وضُرُوبٍ مُخْتَلِفَةٍ مَنْسُوجَةً بِالذَّهَبِ والفِضَّةِ واللُّؤْلُؤِ واليَاقُوتِ الأَحْمَرِ فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وجَلَّ يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً ولِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ**»[1].

[٣٤] وبالإضافة إلى هذه النعم المادية هناك نعم معنوية أخرى هي نعمة الإحساس بالرضى الذي يعبرون عنه بالحمد لله ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ﴾.

ما هو الحزن؟.

الحزن يتعدد بتعدد الظروف، فمن الحزن القلق والهم، كقوله تعالى لأم موسى عليه السلام:

---

(١) الكافي: ج٨، ص٩٧، تفسير القمي: ج٢ ص٢٤٦.

﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ﴾ [القصص: ٧]، ومن الحزن الخوف من الفزع الأكبر، كقوله تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، ومن الحزن القلق من الهزيمة، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]. والله يذهب كل ذلك عنهم، لأنهم قد حزنوا على ذنوبهم في الدنيا، وقد ورد في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: **«يُصْبِحُ الْمُؤْمِنُ حَزِيناً وَيُمْسِي حَزِيناً** (أي قلق من ذنبه) **وَلَا يُصْلِحُهُ إِلَّا ذَاكَ، وَسَاعَاتُ الْغُمُومِ كَفَّارَاتُ الذُّنُوبِ»**[1].

﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ فالغفران يكون عند الذنب، والشكر يكون للنعمة، فربنا سبحانه يغفر لهم ما أذنبوا، ويشكر لهم ما عملوا.

[٣٥] ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي الدار التي يستقر فيها الإنسان، وربما تفيد هذه الآية معنى الخلود، لأن الدنيا ليست دار مقامة بل هي دار انتقال.

﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ جاء في تفسير علي بن إبراهيم: **«إِنَّ النَّصَبُ العِنَادُ، وَاللُّغُوبُ الكَسَلُ وَالضَّجَرُ»**[2]. وفي نهج البلاغة: **«وأَكْرَمَ أَسْمَاعَهُمْ أَنْ تَسْمَعَ حَسِيسَ نَارٍ أَبَداً وصَانَ أَجْسَادَهُمْ أَنْ تَلْقَى لُغُوباً ونَصَباً»**[3].

وقد شوقتنا النصوص إلى دار ضيافة ربنا ببيان جانب من نعمها، فقد جاء في حديث مفصل عن رسول الله صلى الله عليه وآله: **«فَتَخْرُجُ عَلَيْهِ زَوْجَتُهُ الحَوْرَاءُ مِنْ خَيْمَةٍ لَهَا تَمْشِي مُقْبِلَةً وحَوْلَهَا وَصَائِفُهَا وعَلَيْهَا سَبْعُونَ حُلَّةً مَنْسُوجَةً بالياقُوتِ واللُّؤْلُؤِ والزَّبَرْجَدِ وهِيَ مِنْ مِسْكٍ وعَنْبَرٍ وعَلَى رَأْسِهَا تَاجُ الكَرَامَةِ وعَلَيْهَا نَعْلَانِ مِنْ ذَهَبٍ مُكَلَّلَتَانِ بالياقُوتِ واللُّؤْلُؤِ شِرَاكُهُمَا يَاقُوتٌ أَحْمَرُ فَإِذَا دَنَتْ مِنْ وَلِيِّ الله فَهَمَّ أَنْ يَقُومَ إِلَيْهَا شَوْقاً فَتَقُولُ لَهُ يَا وَلِيَّ الله لَيْسَ هَذَا يَوْمَ تَعَبٍ ولَا نَصَبٍ فَلَا تَقُمْ أَنَا لَكَ وأَنْتَ لِي»**[4]. هكذا يسقط التعب والنصب من الإنسان المؤمن حتى بمقدار القيام لاستقبال زوجته من الحور العين.

[٣٦] هذا عن الذين آمنوا فما هو جزاء الذين كفروا؟.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟﴾ جاء في النصوص أنه في يوم القيامة يذبح الموت بين الجنة والنار في صورة شاة، فلا أهل الجنة يموتون ، ولا أهل النار، بل

---

(١) بحار الأنوار: ج٧٩، ص١٣٣.
(٢) تفسير القمي: ج٢، ص٢٠٨.
(٣) بحار الأنوار: ج٨، ص١٦٣.
(٤) الكافي: ج٨، ص٩٧، تفسير القمي: ج٢ ص٢٤٦.

كلهم مخلدون، وأعظم بعقاب يبقى أبدا. إن قليله كثير، وضعيفه شديد، فكيف بعذاب النار المتناهي شدة وسعيرا؟!.

وقد جرت سنة الله في عالمنا اليوم أن الجسم يتكيف مع الصعوبات، وأن لكل شيء أجل وحد، وكلما اقترب من نهايته خف، بيد أن عذاب الله لا أجل له، فلا يخفف أبدا، ولا يتكيف الجسم معه، بل يبقى يتألم معه أبدا (نعوذ بالله العظيم منه).

﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ وهنا يذكر السياق صفتين لجهنم، ويقابلهما بمثلهما للجنة:

الأولى: الخلود ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾.

الثانية: الشدة ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم﴾.

وقد ذكر صفتان بموازاة للجنة: الراحة والخلود.

[٣٧] ولأن العذاب شديد ومستمر فإنهم لا ينفكون يحاولون التخلص منه للنجاة، فتراهم يرفعون أصواتهم يطلبون العودة إلى الدنيا ليعملوا صالحا.

﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ كل إنسان في الدنيا يدعي أنه يعمل صالحا، ولكن حينما يواجه العذاب الشديد هناك يعرف بل ويعترف بأن أعماله كانت غير صالحة.

إن هؤلاء يصطرخون، والاصطراخ أعظم الصراخ: إن أخرجنا ربنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل، فيجيبهم الله: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ أي عمرناكم في الدنيا بقدر يكفي للتذكر، فلم تتذكروا، وجاءكم النذير فلم تتذكروا.

قد اختلفت أقوال المفسرين في النذير: هل هو الرسول والقرآن أم هو الشيب وموت الأقارب وتقادم السن أم هو كمال العقل والبلوغ.

ويبدو أن الكلمة مطلقة، وتوحي بأن الإنسان ينذر بالتالي بطريقة أو بأخرى، وأن الله لا يتوفاه حتى يكتمل امتحانه ﴿فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾.

لماذا الاختلاف في الآجال؟ فبعض يعيش عشرين عاما، وبعضهم أربعين، وبعضهم ستين؟.

أجاب أحدهم على ذلك وقال: إن اختلاف آجال الناس مرتبط بحكمة وجودهم في الدنيا، و هو تهيئة الإنسان للجنة، وكأن الدنيا مدرسة، يدخلها الناس تمهيدا لدخول الجنة.

فبعض الناس ينجحون من أول امتحان، وبعضهم لا ينجحون في الامتحان الأول فيدخلون الامتحان الثاني، وهكذا فإن اختلاف الناس في آجالهم هو بسبب مدى استعدادهم، وتقبلهم ونجاحهم وهذه النظرية جميلة إلا إنها لا توافق القرآن الكريم، لأن الدنيا كما هي مدرسة تهيؤ المؤمنين لدخول الجنة، فهي في نفس الوقت مهوى يسقط الكفار منه إلى النار.

وفي بصائر القرآن: الدنيا دار ابتلاء فهي فقط قاعدة امتحان وليست مدرسة.

ولعل الآية هذه تشير إلى أن اختلاف الآجال يرتبط بهذه الكلمة (الابتلاء) فالدنيا فرصة للتذكرة، وكل شخص يعمر بقدر التذكر (حسب ظروفه، وبنية شخصيته) فإذا انتهت الفرصة فإن الحكمة الرئيسية من بقائه تنتهي، بلى؛ هناك حكم أخرى: كاستدراج الكفار ليزدادوا كفرا، وإطالة عمر المؤمنين ليزدادوا ثوابا ، وكأن يكون وجود شخص مفيدا لابتلاء الآخرين، والله العالم.

واختلفت الروايات في تحديد العمر في قوله: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾ فقالت بعض الروايات أنها: «لِابْنِ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً»، وفي رواية أخرى أنها: «أَرْبَعُونَ سَنَةً»، وفي رواية ثالثة أنها: «سِتُّونَ سَنَةً»(١). ولعل ما قلناه آنفا في اختلاف الناس في التذكر يجمع بين النصوص.

[٣٨] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَـٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ إن الله عالم غيبك، ويعلم سرك وما يكن صدرك، كما هو عالم بغيب السماوات والأرض، فهو ليس بحاجة إلى امتحانك، ولكن إنما هي فرصة يعطيها الله لكي تجرب نفسك، وتمتحن إرادتك.

[٣٩] ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ أي جعل بعضكم يخلف بعضا، ولعل هذه الآية تدل على أن الأمم تنتهي، وأن لها آجالا كما للناس آجال محددة.

وأما مقياس آجال الأمم والمجتمعات فهو كما قال ربنا سبحانه: ﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ﴾ نتيجة الكفر على صاحبها، ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ﴾ يبغضهم الله ويمقتهم، ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ خسارة في الدنيا والآخرة.

[٤٠] يظل الشرك بالله الحجاب الكبير الذي يفصلنا عن ربنا، ويمنع عنا خيرات عبادة الله وحده، ويذكر السياق بأن الشركاء لا يملكون حق العبادة لأنهم لم يخلقوا شيئا من الأرض،

(١) راجع بحار الأنوار: ج٨، ص٢٥٧.

ولا ساهموا في تدبير السماوات، ولا أذن لهم رب الأرض والسماء بقيادة الناس.. فبأي حق يتسلطون على رقاب الناس، ولماذا يخضع لهم الناس؟!.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ حتى يتسلطوا باسمه على الناس، ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ لا نجد قدرتهم تتجلى في السماء، كأن يديروا الشمس والقمر، ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾ أمرناكم بأن تتبعوهم بأن أنزلنا عليكم كتابا يأمركم بأن تتبعوهم، ﴿بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ فإن مشكلة الإنسان التي تمنعه من الوصول إلى الحقيقة هي حجاب الغرور والتمنيات، وعلى الإنسان أن يخرقه حتى يتقرب إلى ربه. وربما توحي خاتمة الآية بأن الظالمين -الشركاء والتابعين- كل واحد منهم يضل الآخر، فالمضل يعد متبعيه بأنه سوف يحمل خطاياهم، وما هو بحامل من خطاياهم من شيء، والمضللون يعدون مضليهم بالولاء والانتصار لهم، فكل واحد منهم يمني الآخر، وما هذه الأمنيات سوى الغرور بذاته، لأنه لا أحد ينفع أحدا يوم القيامة، ويتبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا.

[٤١] يحيط بأولئك الشركاء والمشركين بهم الغرور، إذ لم يخلقوا شيئا من الأرض، ولم يكن لهم شرك في تدبير السماوات، بينما الله الواحد استوى على عرش العلم والملك، وهو يمسك السماوات والأرض لكي لا تزولا، ولا شيء قادر على المحافظة عليها لو تركها الرب ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾.

والسؤال: ما هو معنى الزوال؟.

١- لا ريب أن النظام الذي يحافظ على الوجود بحاجة إلى منظم، والتدبير بحاجة إلى مدبر، والله هو المدبر الذي لو تركها فسد النظام، وزالت السماوات والأرض بفساده.

٢- وإذا تعمقنا قليلا وعرفنا شيئا من الفيزياء الحديثة، وكيف أن نظام دوران الإلكترون حول محور البروتون -في مملكة الذرة العظيمة والمتناهية في صغر الحجم- قائم على الحركة، حتى قالوا: إن الحركة لو توقفت لتلاشى الوجود، عرفنا أن (قيام) كل شيء إنما هو بالله عبر أنوار قدسه التي يفيض بها كل خير على الخلائق ﴿وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ ولكن لماذا لا يسمح الله للسماوات والأرض بالزوال مع كثرة المعاصي التي يرتكبها العباد؟

﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا﴾ لا يبادر بإنزال العقوبة على العصاة، بل يؤخرهم لأجل مسمى، وفي آخر آية من هذه السورة تبيان لذلك، ﴿غَفُورًا﴾ يعفو عن كثير من السيئات فلا يعاقب عليها أبدا.

ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤٢) اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا (٤٣) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (٤٤) وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا (٤٥) ﴾.

هدى من الآيات:

بالرغم من أن كفار قريش ومثلهم سائر الكفار كانوا بفطرتهم يعرفون مدى حاجتهم إلى الوحي، ويمنون أنفسهم بأن يكونوا أهدى من إحدى الأمم لو بعث فيهم نبي مرسل، إلا إنهم حين من الله عليهم بنعمة الرسول كفروا به. لماذا؟ لأنهم استكبروا في الأرض، ومكروا مكرا سيئا.

وبعد أن ينذرهم الرب بأن المكر السيئ لا يحيط بالتالي إلا بصاحبه، يذكرهم بمصير الغابرين الذين جرت سنة الله فيهم بالدمار، ولا تبديل في سنن الله ولا تحويل، ويدعوهم للسير في الأرض لينظروا كيف فعل الله بالظالمين، وأين انتهى بهم استكبارهم ومكرهم تسيء مع أنهم كانوا اشد منهم قوة، وينبههم القرآن بأنهم لا يستطيعون الفرار من حكومة الله، وأنه لا يعجزه شيء بل هو العليم القدير.

ويختم سورة فاطر بأن الله يمهل الظالمين إلى أجل مسمى ثم يأخذهم، ولولا ذلك لما ترك على ظهر الأرض من دابة بما فعل الظالمون!.

بينات من الآيات:

[٤٢] ضمير البشر أكبر شاهد على الحق وصدق رسالات الله التي نزلت بالحق، وكل إنسان يتمنى أن يكون صالحا لولا أن دواعي الفساد تضله.

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ﴾ لعل تأكيد القسم بـ ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ كان تعبيرا عن مدى رسوخ فطرة الإيمان في النفوس، أو أنه يعبر عن مدى النفاق الذي كانوا يعيشونه، وإنما أقسموا لتغطية ما أضمروه من المكر والاستكبار، كما قال ربنا سبحانه عن المنافقين: ﴿ ۞ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [النور: ٥٣].

وهذه السنة جارية عند الناس اليوم أيضا، فتراهم يقولون: إننا لا نمتلك قيادة وإمام حق نتبعه، وعندما يرسل الله إليهم الإمام الحق إذا هم يتملصون من المسؤولية، ولا يتبعونه، كما الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى، إذ قالوا لنبي لهم: ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله فلما بعث الله إليهم طالوت ملكا، قالوا: أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه، ولم يؤت سعة من المال.

والتعبير القرآني: ﴿أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ ربما يعني: سنكون أهدى من تلك الأمة التي تعتبر أهدى أمة، ولم يقولوا: سنكون أهدى من سائر الأمم، مبالغة في تزكية أنفسهم.

وربما يكون قولهم هذا ردا على اليهود الذين كانوا يعيرون المشركين، ويهددونهم بنبي لهم يكسر أصنامهم، فعرضوا بهم وقالوا: لو جاءنا رسول سنكون أهدى منكم.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ أي كانوا نافرين من قبل، فازدادوا نفورا على نفورهم. لماذا؟ لأن الإنسان قبل أن تأتيه الحجة يكون عنده عذر لكفره، لأن الله قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[الإسراء: ١٥]، وعندما تأتيه الحجة تراه يكفر بالحجة .

[٤٣] ومشكلة هؤلاء أنهم استكبروا، تكريساً لأنانياتهم، وقالوا: ﴿أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾؟! [الاسراء: ٩٤] ماله يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق؟! إنه ليس رجلا من القريتين عظيما في ماله، وإنه لو نؤمن به نتخطف من أرضنا، فاستكبروا في الأرض، بحثا عن

سلطة طاغية، وثروة عريضة، وشهرة واسعة.

ولقد قلنا مرارا: إن التكبر ومظهره الاستكبار أخطر حاجب بين البشر وبين الإيمان بالحقائق.

﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ قال الرازي عن المكر السيئ: «إنه إضافة الجنس إلى نوعه، كما يقال علم الفقه وحرفة الحدادة، وتحقيقه أن يقال معناه: ومكروا مكرا سيئا ثم عرف لظهور مكرهم ثم ترك التعريف باللام وأضيف إلى السيئ لكون السوء فيه أبين الأمور»[1].

﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ الخطط الفاسدة سوف تكون لها انعكاسات على الواقع الاجتماعي، بيد أن أثرها الأبلغ سيكون على صانعها.

والكلمة هذه ذروة ما نفهمه من البلاغة، إذ ذكرنا الرب بأن المكر السيئ ﴿يَحِيقُ﴾ بصاحبه من جميع جوانبه أي يحيط به، وهذا أبلغ من القول أنه يلحق به أو يصيبه، لأن صاحب المكر يزعم أنه قادر على الفرار من عاقبة عمله، ولكنه يحيق به فلا يقدر هروبا، ثم أن القرآن عبر ﴿بِأَهْلِهِۦ﴾ ولعل السبب يكمن في أن كل العاملين مكرا ليسوا بأهله، بل بعضهم ممن تعمده واتخذه سبيلا، ثم إن الحصر يفيد أن الذي يمكر بهم ينجون عادة من المكر على حساب أهله، وقد قالوا: «من حفر بئرا لأخيه وقع فيه».

وكيف يمكن أن نكتشف هذه الحقيقة؟.

يقول ربنا: انظروا إلى التأريخ، فالتأريخ يحكي سنن الله التي لا تتبدل ولا تتحول، ويتساءل: هل هم ينتظرون عاقبة مثل عاقبتهم؟!.

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ كيف أنهم أهلكوا بما كسبوا، وكيف حاق مكرهم بهم ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ على مر العصور، السنة هي السنة في الغابر والحاضر، لن تتبدل، ولن تتحول، بأن يستطيع أحد أن يدفعها عن نفسه إلى غيره ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾.

[٤٤] والدليل على عدم تبديل سنة الله أو تحويلها تجارب التأريخ ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ كقوم عاد الذين قال الله في حقهم: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ لا يجد

(١) التفسير الكبير عند تفسير الآية: ج٢٦ ص٣٤.

قدرته المطلقة شيء، إنه كان عليما بمن يعصي، قادرا على أخذه أخذ عزيز مقتدر.

ولكن لماذا لا يؤاخذ الله أهل الأرض بألوان العذاب وهم يعصونه ليل نهار؟.

الجواب:

أولاً: لأن الله عفو غفور، فيعفو عن كثير من الذنوب.

ثانياً: لأنه حليم يعطيهم فرصة بعد فرصة حتى إذا انقضى أجلهم أخذهم بظلمهم.

[٤٥] ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يؤخر انتقامه إلى أجل مكتوب، لا يستقدمون عنه ساعة ولا يستأخرون ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ بصير بما يناسبهم من الجزاء: كيف وكم ومتى.



سُورَةُ يسٓ



* مكية.

* عدد آياتها: ٨٣.

* ترتيبها النزولي: ٤١.

* ترتيبها في المصحف: ٣٦.

* نزلت بعد سورة الجن.

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ قَلْباً وقَلْبُ القُرْآنِ يس فَمَنْ قَرَأَ يس فِي نَهَارِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ كَانَ فِي نَهَارِهِ مِنَ المَحْفُوظِينَ والمَرْزُوقِينَ حَتَّى يُمْسِيَ ومَنْ قَرَأَهَا فِي لَيْلَةٍ قَبْلَ أَنْ يَنَامَ وُكِّلَ بِهِ أَلْفُ مَلَكٍ يَحْفَظُونَهُ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ومِنْ كُلِّ آفَةٍ وإِنْ مَاتَ فِي يَوْمِهِ أَدْخَلَهُ اللهُ الجَنَّةَ وحَضَرَ غُسْلَهُ ثَلاثُونَ أَلْفَ مَلَكٍ كُلُّهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ لَهُ ويُشَيِّعُونَهُ إِلَى قَبْرِهِ بِالاسْتِغْفَارِ لَهُ فَإِذَا أُدْخِلَ لَحْدَهُ كَانُوا فِي جَوْفِ قَبْرِهِ يَعْبُدُونَ اللهَ وثَوَابُ عِبَادَتِهِمْ لَهُ وفُسِحَ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ وأَمِنَ مِنْ ضَغْطَةِ القَبْرِ ولَمْ يَزَلْ لَهُ فِي قَبْرِهِ نُورٌ سَاطِعٌ إِلَى أَعْنَانِ السَّمَاءِ إِلَى أَنْ يُخْرِجَهُ اللهُ مِنْ قَبْرِهِ.

فَإِذَا أَخْرَجَهُ لَمْ تَزَلْ مَلَائِكَةُ اللهِ مَعَهُ يُشَيِّعُونَهُ ويُحَدِّثُونَهُ ويَضْحَكُونَ فِي وَجْهِهِ ويُبَشِّرُونَهُ بِكُلِّ خَيْرٍ حَتَّى يَجُوزُوا بِهِ الصِّرَاطَ والمِيزَانَ ويُوقِفُوهُ مِنَ اللهِ مَوْقِفاً لَا يَكُونُ عِنْدَ اللهِ خَلْقٌ أَقْرَبَ مِنْهُ إِلَّا مَلَائِكَةُ اللهِ المُقَرَّبُونَ وأَنْبِيَاؤُهُ المُرْسَلُونَ وهُوَ مَعَ النَّبِيِّينَ وَاقِفٌ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ لَا يَحْزَنُ مَعَ مَنْ يَحْزَنُ ولَا يَهْتَمُّ مَعَ مَنْ يَهْتَمُّ ولَا يَجْزَعُ مَعَ مَنْ يَجْزَعُ ثُمَّ يَقُولُ لَهُ الرَّبُّ تَعَالَى اشْفَعْ عَبْدِي أُشَفِّعْكَ فِي جَمِيعِ مَا تَشْفَعُ وسَلْنِي عَبْدِي أُعْطِكَ جَمِيعَ مَا تَسْأَلُ فَيَسْأَلُ ويُعْطَى ويَشْفَعُ فَيُشَفَّعُ ولَا يُحَاسَبُ فِيمَنْ يُحَاسَبُ ولَا يُذَلُّ مَعَ مَنْ يُذَلُّ ولَا يُبَكَّتُ بِخَطِيئَتِهِ ولَا بِشَيْءٍ مِنْ سُوءِ عَمَلِهِ ويُعْطَى كِتَاباً مَنْشُوراً فَيَقُولُ النَّاسُ بِأَجْمَعِهِمْ سُبْحَانَ اللهِ مَا كَانَ لِهَذَا العَبْدِ خَطِيئَةٌ وَاحِدَةٌ ويَكُونُ مِنْ رُفَقَاءِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله».

(ثواب الأعمال: ص١١٠)

***

عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «مَنْ دَخَلَ المَقَابِرَ فَقَرَأَ سُورَةَ يس خَفَّفَ اللهُ عَنْهُمْ يَوْمَئِذٍ وَكَانَ لَهُ بِعَدَدِ مَنْ فِيهَا حَسَنَاتٌ».

(بحار الأنوار: ج٧٩، ص٦٣)

***

الاسم

اتخذ اسم السورة من الكلمة الأولى فيها التي قالوا أنها اسم لنبينا الأكرم محمد صلى الله عليه وآله، ولعلها ترمز إليه كما ترمز إليه كلمة (طه) والله العالم.

الإطار العام

حقيقة الرسالة ركيزة الحياة

بعد القسم بالشأن العظيم الذي هو للقرآن الحكيم، يخاطب ربنا سيد الخلائق (يس) محمد ﷺ بأنه من المرسلين، وأنه على صراط مستقيم، وأن الكتاب تنزيل من رب عزيز رحيم، ويهدف إنذار قوم جاهلين بما أُنذرآباؤهم من قبل، ثم أضحت قلوب أكثرهم كالصخر لا تقبل الإيمان. أرأيت الذي وضعت على عنقه الأغلال، حتى أصبح مقمحاً، مرفوع الرأس إلى الأعلى حتى لا يرى شيئاً؟ هل يقدر على النظر!، أم الذي وضع سداً منيعاً أمامه وخلفه، وحجبت بصره غشاوة فهل يبصر؟ كلا؛ كذلك لا ينتفع هؤلاء بالإنذار، فسواء أنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون.(الآيات: ١-١٠).

فلمن القرآن إذن؟.

إنما هو ينذر من يتبع الذكر، ويهتدي ويطيع آيات القرآن، ويخشى الرحمن بالغيب. وهذا يتجنب المهالك التي تنذر بها،ويبشره الله بمغفرة لذنوبه السابقة وهفواته، وبأجر فيه الرزق والكرامة. ويأتي كمال الجزاء في الآخرة، حيث يحيي الله الموتى، وقد كتب من قبل ما قدموه لحياتهم هناك وما خلفوه وراءهم من آثار، وكل شيء قد أحصي في إمام مبين (الآيات:١١-١٢).

وهذه الرسالة جاءت على سنة رسالات الله السابقة، ويضرب القرآن مثلاً من أصحاب القرية حين جاءها المرسلون،ثم يمضي في بيان شبهاتهم الواهية، ويردها:

أولاً: على لسان الأنبياء عليهم السلام.

ثانياً: على لسان واحد ممن هداهم الله للإيمان، وأدخله جنته. فقال: ياليت قومي يعلمون. وأهلك الله قومه من بعده بصيحة، وتحسر على العباد الذين لا يبعث إليهم رسول

إلا كانوا به يستهزئون، دون أن يعتبروا بمصير السابقين الذين سوف يحضرهم الله وإياهم لديه (الآيات: ١٣-٣٢).

و يذكرنا القرآن بآيات الله لعلنا نهتدي إليه ونتبع رسله؛ فمن الأرض الميتة التي يحيها (بالغيث) ويخرج منهاحبا فمنه يأكلون، إلى الجنات ذات الثمرات المختلفة، إلى الليل والنهار والشمس التي تجري لمستقر لها، إلى القمر الذي يجري في منازله حتى يعود كالعرجون القديم، إلى التدبير اللطيف للشمس والقمر، إلى وسائل النقل من سفن وأنعام البر (الآيات:٣٣-٤٢).

و يذكرنا بأنه يحفظهم من غضب الأمواج برحمته وحتى يقضوا آجالهم، وترى أن الرب الرحيم يريد لهم الخيرات أيضاً حين يأمرهم بالتقوى (ليحفظهم من عواقب الذنب) ولكنهم يعرضون بالرغم من تواتر الآيات، وتراهم يبررون بخلهم بأنه كيف نفق على من لو شاء الله أطعمه (مما عكس فكرهم وقيمهم المادية)، ويتساءلون باستهزاء:

متى هذا الوعد بالجزاء؟ لماذا يتأخر إن كنتم صادقين؟.

بلى؛ إنه آتٍ وماذا ينتظرون وماذا يستعجلون ماينتظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم سادرون في بحر الجدل العقيم، وهنالك لا يسمح لهم الوقت بالتوصية، ولاهم يعودون إلى أهلهم مرة ثانية (و يبقون في عالم البرزخ حتى يوم النشور)، فإذا نفخ في الصور فإذا هم يخرجون من القبور، ويتوجهون إلى ربهم، وبدل التساؤل المشوب بالسخرية تراهم يقولون: يا ويلتنا من بعثنا من مرقدنا؟ إنه الله المقتدر فيعترفون ويقولون: هذا ما وعد الرحمن (من النشور) وصدق المرسلونِ (حين أنذروا بذلك اليوم الرهيب) وهنالك الحكم العدل الذي يشمل كل الحاضرين (الآيات: ٤٣-٥٤).

ويصور السياق بعض مشاهد الجزاء، فأصحاب الجنة في شغل فاكهون، بينما يمتاز المجرمون إلى النار، ويحاكم الرب عبيده قائلاً: ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان؟! هو عدوكم، وصراطه منحرف عن الصراط الإلهي المستقيم، وإنه قد أضل كثيراً من الناس وأوردهم النار، أفلا اعتبرتم بمصيرهم؟ واليوم ادخلوا جهنم تلك التي وعدتم إياها.

وبعد أن يصور لنا جانباً من عذاب جهنم يقول: ولو كنا نريد لجزيناهم في الدنيا، فطمسنا على أعينهم ومسخناهم. وفعلاً؛ يفعل الله ببعضهم فلا يقدرون منعه، فمن يطول عمره ينكسه في الخلق، أفلا تعقلون إنه قادر على أن يصيبهم بمثل ذلك (الآيات: ٥٥-٦٨).

ويعطف القرآن الحديث عن الآخرة -بعد أن خشعت النفوس الطيبة بتصوير مشاهد منها- يعطفه إلى ردشبهاتهم حول الرسول صلى الله عليه وآله فيقول: وما علمناه الشعر (ولا يتناسب حديثه والشعر أبداً) إن هو إلا ذكروقرآن مبين، ويهدف إنذار من يملك قلباً حياً، أما بالنسبة إلى غيرهم فلكي يتم الحجةعليهم (الآيات: ٦٩-٧٠).

ويذكرنا السياق بالتوحيد الذي هو أساس كل عقيدة صالحة، فمن آمن بالله حقاً لم يطع الشركاء الموهومين، بل أطاع الرسول الذي أمر الله بطاعته فقط، أو لم يروا أنّا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً (ثم خولناهم التصرف فيها،وجعلناها ذلولاً يسخرونها) فهم لها مالكون؟ (و بعد ذكر نعم الله يوجههم إلى الشكر الذي من أبرز معانيه الإيمان بالله وطاعة رسوله، ولكنهم أشركوا) واتخذوا من دون الله آلهة (و هم يريدون جبر نقصهم بها) لعلهم يُنصرون، (والواقع أن العكس هو الصحيح) والآلهة لا يستطيعون نصرهم، بل إن المشركين لهم جند محضرون (الآيات: ٧١-٧٥).

ويخاطب السياق الرسول ليثبت فؤاده ولينذر الكفار، ويقول: لا يحزنك ما يقولون لك، إن الله يعلم سرهم وعلنهم (الآية: ٧٦).

ويعود السياق إلى الإيمان بالآخرة، وكيف يكفر بها هذا الإنسان الذي أسبغ الرب عليه النعم، ويخاصم فيها بكل صلافة، أفلا يرى الإنسان أنه مخلوق من نطفة (مهينة) فإذا به يصبح خصيماً لله؟! فهو يتقلب في نعم الله ويجادل في آياته (٧٧)، ويضرب الانسان مثلاً فيأخذ عظماً يفتته ويقول: من يحيي العظام وهي رميم؟! قل: يحيها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل شيء عليم فالله يعلم أين ذهبت ذرات جسد هذا الشخص أو ذاك، وهوالذي جعل من الشجر الأخضر ناراً لكم توقدون عليها مع أن النار باطنة فيها، وهو الذي خلق السماوات والأرض فهل يعجزه إرجاع البشر؟! كلا؛ وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء (و تعالى عما يصفه الجاهلون بالنقص والعجز. كلا؛ هو العلي المقتدر على بعث الإنسان) وإليه ترجعون (الآيات: ٧٨-٨٣).

وكلمة أخيرة؛ لقد ذكرت النصوص أن (يس) قلب القرآن، وهي -بحق- غرة السور المكيةالتي جاءت فيها حقائق الرسالة بصورة مركزة، مما يجعلها ركيزة الحياة للإنسان المسلم، لأنها حوت خلاصة دروس الحياة، وحكمة المرسلين، ومتطلبات الحضارة.

إنك لمن المرسلين

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يسٓ (١) وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ (٣) عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤) تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ (٥) لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ (٦) لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٧) إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ[1] (٨) وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ[2] فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (٩) وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠) إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (١١) إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ (١٢)﴾.

هدى من الآيات:

يقسم السياق -في البدء- بما يستدل به على صدق رسالة النبي ﷺ وأنه من لدن رب عزيز رحيم، يقسم بالقرآن الحكيم الذي هو الدليل الأظهر على رسالات الله، ثم بعدئذ يبين ملامح المجتمع الجاهلي الذي جاء الكتاب لإصلاحه. إنه الأعرق في الكفر حيث إن أكثرهم محكوم عليهم بعدم الإيمان (لعنادهم) وقد جعلت الأغلال في أعناقهم فهي إلى الأذقان، وجعلوا بين السدين من أمامهم ومن خلفهم، وحجبت أعينهم بالغشاوة، فهم لا يؤمنون بك

---

(١) مقحمون: من قمح بمعنى رفع رأسه إلى فوق، فإن الأغلال لما امتدت إلى تحت أذقانهم رفعت رؤوسهم إلى السماء حتى لا يتمكنون من النظر أمامهم.

(٢) فأغشيناهم: جعلنا على أبصارهم غشاوة تمنعهم عن الإبصار.

سواءٌ أنذرتهم أم لم تنذرهم. أوليس شرط الاستجابة حالة الخشوع في القلب؟ ولكن دعهم فسوف يحيي الله الموتى، وقد سجلت عليهم أعمالهم، وكل شيء أحصاه ربنا في إمام مبين.

ولعل ذكر هذه الحقيقة يهدف بيان دور البشر في الهداية، وأنها ليست كرها عليه، بل الله يضل أقواما عاندوا وجحدوا أو غفلوا عن الذكر.

بينات من الآيات:

باسم الله، بذلك النور القدسي، الذي خلقه الله خلقا، ثم خلق الأشياء به، برحمته التي وسعت كل شيء، و برحمته التي لم تزل ولا تزال نزدلف إلى سورة يس المباركة.

[١] إن القرآن معجزة البلاغة، فهذا الكتاب الحكيم تركيب من هذه الأحرف التي لعلها تشير إليه، وهي في ذات الوقت رموز بين الله وأوليائه المقربين ﴿يسٓ﴾ وقد ذكرت النصوص أنها اسم من أسماء النبي ﷺ فقد روي عن الإمام أبي الحسن الرضا عليه السلام في حوار بينه وبين الخليفة العباسي المأمون أنه قال: «أَخْبِرُونِي عَنْ قَوْلِ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فَمَنْ عَنَى بِقَوْلِهِ: ﴿يسٓ﴾؟. قَالَتِ العُلَمَاءُ: ﴿يسٓ﴾ مُحَمَّدٌ ﷺ لَمْ يَشُكَّ فِيهِ أَحَدٌ.

قَالَ أَبو الحَسَنِ عليه السلام: فَإِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ أَعطَى مُحَمَّداً وَآلَ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ ذَلِكَ فَضْلاً لَا يَبْلُغُ أَحَدٌ كُنْهَ وَصْفِهِ إِلَّا مَنْ عَقَلَهُ وَذَلِكَ أَنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يُسَلِّمْ عَلَى أَحَدٍ إِلَّا عَلَى الأَنْبِيَاءِ عليهم السلام فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وَقَالَ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ وَقَالَ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ وَلَمْ يَقُلْ (سَلَامٌ عَلَى آلِ نُوحٍ) وَلَمْ يَقُلْ: (سَلَامٌ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ) وَلَا قَالَ: (سَلَامٌ عَلَى آلِ مُوسَى وَهَارُونَ) وَقَالَ عَزَّ وَ جَلَّ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ﴾ يَعْنِي آلَ مُحَمَّدٍ.

فَقَالَ المَأْمُونُ: قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ فِي مَعْدِنِ النُّبُوَّةِ شَرْحَ هَذَا وَبَيَانَه»[١].

ولعل معرفة الأحرف المتقطعة في فواتح السور تعتبر مفاتيح لفهم أسرار كتاب الله.

[٢] القسم يربط -اعتباريًّا- بين حقيقة يرد التأكيد عليها، وحقيقة مؤكدة فعلاً، فإذا حلفت بالله سبحانه على أنك تفي بوعدك، فقد ربطت بين إيمانك بالله كحقيقة ثابتة، وبين الوفاء بالوعد تريد التأكيد عليه.

وإذا كانت هنالك صلة حقيقية بين أمرين، وكان أحدهما شاهد صدق على الثاني، فإن

---

(١) بحار الأنوار: ج٢٥، ص٢٢٧.

القسم يكون أبلغ أكد، ولعل كل ما في القرآن من حلف هو من هذا النوع. أليس القرآن كتاب حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؟ وهكذا ينبغي البحث دائما عما يوصل بين طرفي القسم، وهو في الأكثر صلة الحجة والشهادة.

وهنا يحلف الذكر بالقرآن الحكيم على رسالة النبي. أوليس القرآن أكبر شاهد على رسالته؟ أوليس المعجزة التي لا تفنى ولا تنتهي غرائبه، الجديد أبدا الذي يسبق الحياة دائما.

﴿ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ ترى أي صفة في القرآن تجعله أكبر شاهد على الرسالة؟ هل هي بلاغته التي أخرست العرب الذين زهوا ببلاغتهم وسموا أنفسهم عربا لأنهم أعربوا عما يختلج في ضمائرهم؟.

أم لأنه جاء على يد نبي أمي ما عهد القراءة والكتابة؟.

أم لأنه تنبأ بالمستقبل فلما تحققت أنباؤه عرف الناس صدقه؟.

أم لأنه أنبت حضارة ربانية في أرض الجاهلية العريقة؟.

كل تلك الصفات شواهد صدق الرسالة إلا إن الصفة الأسمى للقرآن حكمته. ما هي هذه الحكمة التي يحلف بها الرب هنا ليستدل على أن محمدا ﷺ من المرسلين؟.

لا يزال «العلم» الشاهد العظيم عند كل الناس على صدق أو كذب أصحاب الدعوات الجديدة، والقرآن فتح أمام البشرية ولا يزال آفاق المعرفة:

عرفهم بربهم حتى وجده العارفون، وجالسه الذاكرون، واستأنس به المريدون.

عرفهم بأنفسهم حتى بصروا عيوبها، وميزوا بين فجورها وتقواها، واجتهدوا في تزكيتها وتنمية المواهب فيها.

عرفهم بالسنن الإلهية في الأمم الغابرة حتى أخذوا بأسباب التقدم، وتمسكوا بأهداب التكامل والفلاح.

عرفهم بمناهج المعرفة، وسبل السلام، ومفاتيح النجاح، ووسائل القرب إلى الله.

فأية شهادة أكبر على صدق الرسالة من ذات الرسالات، وعلى صدق الرسول من أنه يحملها ويطبقها؟

والقرآن ليس فقط كتاب علم بل هو أيضا كتاب حكمة، والحكمة -كما يبدو لي- العلم

النافع الذي بلغ في تكامله ونضجه مبلغا يجعله مؤثرا في سلوك البشر، ومغيرا الحياة، وصانعا للحضارة.

دعنا نضرب مثلا: علم قيادة السيارة قد يكون نظريًّا، فهو مجرد علم، وقد يتحول إلى مهارة عملية. ألا يختلفان؟[1]. ولكن أين الاختلاف؟ إنما في أن دراسة قيادة السيارة في معهد مرحلة أولية في علم القيادة، أما إذا تدرب الإنسان عليها بلغ العلم مرحلته النهائية، والقرآن ذلك الكتاب الحكيم الذي يشفي الصدور، ويبعث الهمم، ويعطي البصائر، ويكمل العقل، ويضع الشرائع السليمة.. فهو ليس علم الحياة بل هو الحياة.

[٣] الرسالة حقيقة لا ينكرها إلا المعاندون، وقد أرسل الله أنبياءه عليهم السلام حتى لم يكن إنكار الرسالة أصلا يجدي أحدا نفعا، ولعل التعبير القرآني هنا يوحي بهذه الحقيقة إذ قال: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ فلست بدعا من الرسل، وإنما أنت واحد من أولئك الكرام الذين بلغوا عن الله، وأنت تصدقهم، وهم بشروا بك.. وهذا بدوره شهادة على صدق الرسول.

[٤] وشهادة أخرى على ذلك أن الرسول على الصراط المستقيم، استقامة النفس بالعقل، واستقامة السلوك بالشرع، واستقامة القول بالصدق، واستقامة العمل بالصلاح.

فإذا ضلت المذاهب في ربهم فإن الرسول يهدي الإنسان إلى الله بما يتفق مع الفطرة والعقل، وحين يبلغ العبد معرفة الرب لا يبقى لديه ريب في صدق الرسالة.

وإذا تطرفت المذاهب فأهمل بعضها العقل وأهمل البعض البدن، فإن الرسول على طريق مستقيم وسط، لم يهمل جانبا على حساب جانب.

وإذا كانت الأهواء تسير الناس ذات اليمين وذات الشمال فإن ضغوط المجتمع والاقتصاد والسياسة تتكسر على صمود الرسول ثم تتلاشى أمام استقامته التي تحدت إغراء الشمس والقمر.

إن استقامة رسالة النبي وسلوكه تشهد على أنه ينطق عن الوحي، وأنه مؤيد بالغيب ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

[٥] بماذا أنزل الله الرسالة؟ وأي اسم يعكسه كتابه؟ أوليس الكتاب دليل صاحبه؟.

---

(١) إننا نستخدم كلمة العلم عادة في الجانب النظري بينما نستخدم للجانب العملي كلمات مثل الفن والمهارة والتدريب والتقنية.

القرآن تجل لاسم العزة التي تعني فيما تعني المقدرة والهيمنة، كما لاسم الرحمة، لأن رحمة ربنا اقتضت إنقاذ البشر من براثن الضلالة والشرك.

﴿ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ونستوحي من الآية أن القرآن سيهزم المبادئ الباطلة عاجلا أم آجلا، لأنه تنزيل العزيز الذي يؤيد بعزته رسالاته، ويعكس هذا استمرار انتشار نور الإسلام في الأرض بالرغم من كل العقبات التي يجعلها أمامه الطغاة.

[٦] أما هدف الرسالة فهو إنذار قوم غافلين، ما أتاهم من قبل الرسول من نذير ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ وقد فسر أغلب المفسرين هذه الآية بأن أولئك القوم لم ينذر آباؤهم من قبل، مما يخالف قوله سبحانه: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر: ٢٤] وهناك تفسير آخر يجعل حرف ﴿مَّآ﴾ موصولة فيكون معناه تقريبا: (لتنذر قوما بما أنذر آباؤهم من العذاب). وسواءً أخذنا بهذا التفسير أو ذاك فإن من المعلوم أن قوم الرسول لم ينذروا منذ فترة طويلة، فهم لم ينذروا من قبله بهذا المعنى، ونجد هذا المعنى في آية أخرى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴾ [سبأ: ٤٤] ولكن هل يعني ذلك أنهم لم ينذروا أبدا؟ كلا.

[٧] ويذكر السياق بالتحديات التي يواجهها النبي -كسائر الرسل- في طريق الدعوة، فسوف لا يؤمن هؤلاء الناس، وسوف يقوم صراع مرير بينه وبينهم، ويستمر الصراع حتى يبتلى المؤمنون وحتى يأذن الله بالنصر المبين!.

﴿ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ وهكذا لا ينبغي الخضوع للتيار الاجتماعي إذ عدم إيمان الأكثرية ليس دليلا على نقص في حجج الرسالة بل في وعيهم.

وتعطينا الآية دفعة معنوية لنمضي قدما في حمل الدعوة دون أن نهين أمام رفض الأكثرية أو كفرهم بها.

[٨] ولكن لماذا لا يؤمن بها أكثرهم؟.

لأن تراكم المعاصي على قلوبهم، وعلاقاتهم الاجتماعية القائمة على الظلم والاستعباد، وتخلفهم و انشدادهم إلى عادات مجتمعهم وتقاليد آبائهم الضالين، كل أولئك تشكل أغلالا في أعناقهم ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا ﴾ الشهوات غل، وعادات المجتمع أغلال، والتكبر والحسد والعصبيات أغلال.

﴿فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾ لعل معناه: أن الأغلال عريضة بحيث تأخذ بمجامع أعناقهم وتبلغ الأذقان، ونستوحي من ذلك أن عبوديتهم شاملة.

﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ أرأيت الفرس حينما يسحب لجامه كيف يرفع رأسه؟ قالوا: إن ذلك هو المقمح، وهو لا يملك قدرة الرؤية، كما لا يستطيع الحركة.

[٩] ويمضي السياق في بيان شقاء هؤلاء الغافلين الذين سدت منافذ عقولهم (لعله بسبب الأغلال المكبلين بها) فأمامهم سد ومن خلفهم سد، وعيونهم محجوبة، فلا ينشطون للتحرك بسبب السدين، ولا هم يبصرون بأعينهم شيئا.

﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ فلا يقدرون على التقدم، ولا يمكنهم التراجع عن الغي، وهم قد أحيطوا بعقبات تصدهم عن السبيل بما اكتسبوا من آثام.

﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ لقد أحاطت بهم خطيئاتهم وغشيتهم فلا يبصرون أنهم محاطون بالسدود، ذلك أن الذنوب التي يرتكبها الإنسان تخلف آثارها على الواقع الخارجي، وتتحول إلى سدود أمام هداية البشر و سعادته. أرأيت الذي انتمى إلى حزب كافر، وعمل من أجل انتشار مبادئه الضالة، وتربية جيل من الناس عليها. هل يقدر على الخلاص منه؟! كلا.. بل يضحي مثله مثل دودة القز التي تصنع الشرنقة ثم تموت فيها، وهكذا الذي أعان ظالما حتى سيطر على البلاد. إنه يصبح أسير عمله، وكثيرا ما يسلطه الله عليه، و يقتل بسيف البغي الذي سله على الناس.

ولعل السدّين هنا إشارة إلى آثار الجرائم الخارجية، بينما الأغلال تشير إلى الآثار النفسية لها، حيث يزين الشيطان للنفس أعمالها حتى تغدو ملكات يصعب تجاوزها.

أما الغشاوة فهي الظلمات التي تحيط بالقلب، فينطفئ فيه الضمير، ويخبو نور العقل، ولا يحس البشر أنه واقع في المهلكة، بل قد يزعم أنه على صراط مستقيم.

[١٠] وعندما تتراكم الأغلال الغليظة حول القلب الغافل، وتحيط بصاحبه سدود الجريمة، وتغشاه ظلمات الجهل، يصل إلى الدرك الأسفل فلا ينتفع بالإنذار ويكون مثل قلبه مثل جسم مريض لا يستجيب للدواء، فلا يرجى شفاؤه.

﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ إن هذه العاقبة السوأى تنتظر كل أولئك الذين يغفلون عن ربهم فيختطفهم الشيطان، ويسترسلون مع الأهواء والظروف حتى تحيط بهم أغلال العادة العصبية، والعزة بالإثم، وسدود النظام الفاسد اقتصاديا و سياسيا وثقافيا، وتغشاهم ظلمات الجهالة، ولا ينفعهم آنئذ الإنذار. وعلى البشر أن يتجنب الخطوة الأولى التي تقوده إلى الهاوية، لأنه كلما هبط أكثر كلما كانت جاذبية الهاوية أقوى.

[١١] والسبيل إلى النجاة من الحلقات المتداخلة للشقاء يمر عبر محاربة الجبت وجهاد الطاغوت، و بالتالي اتقاء الأغلال والسدود.

كيف؟.

أولاً: باتباع الذكر الذي هو القرآن الكريم، وذلك بأن يكون قرار الإنسان مع نفسه اتباع الحق الذي يذكر به الوحي ويعرفه العقل.

﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ ﴾ ولعل استخدام لفظة ﴿ٱلذِّكْرَ﴾ هنا كان للإشارة إلى مصدري المعرفة: الوحي والعقل، اللذين ينتهيان -بالتالي- إلى نور واحد، فالوحي يثير العقل، والعقل يصدق الوحي، والإنسان يتبع ذلك الذكر، وأولئك الذين عودوا أنفسهم على اتباع الحق هم الذين ينتفعون بالإنذار، لأن نظرتهم موضوعية، ومنهجهم الفكري سليم، ولا يملكون حجابا يمنعهم عن فهم الحقائق.

ثانياً: بخشية الله ورجاء رحمته، حتى يحاربوا بذلك جبت أنفسهم، ويفكوا عن قلوبهم أغلال العصبية و العناد والكبر والعزة والإثم.

إن خشية الله تضيء في القلب مصباحا يرى به الحقائق. أوليست خشية الناس أو خوف الفقر أو الحذر من الطبيعة تنكس القلب، وتدع رؤيته مقلوبة؟ كذلك تضحي خشية الله وسيلة الهدى، لأن من يخشى ربه بالغيب لا يخاف شيئا.

﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ لعل ذكر كلمة الرحمن هنا يهدف إلى إيجاد حالة من التوازن بين الخشية والرجاء، فهو الله أرحم الراحمين و خشيته لا تبلغ درجة القنوط من رحمته، أنى كثرت الخطايا وعظمت الذنوب.

﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ إن من أبعاد المغفرة تجاوز آثار الذنوب في الواقع الخارجي أو على النفس. إن السلطات الظالمة، والنظام الاقتصادي الفاسد، والأنظمة الاجتماعية المتخلفة كلها من آثار الذنوب، وحين نتبع نهج الله، ونطيع أولياءه، فإن الله سبحانه ينصرنا على الطغاة والمترفين، ويسن لنا شرائع سمحاء قائمة على أسس العدل والإحسان، كما ينزع من أفئدتنا حب الشهوات، ويعيننا على العادات السيئة.

إن المغفرة بشرى عظيمة، فطوبى لمن غفر الله له ذنوبه، وهي تمهد للأجر الكريم في الدنـيا بحياة فاضلة تعمها السعادة والفلاح، وبرضوان الله وجناته في الآخرة.

[١٢] إن أعظم إنذار يستجيب له المخبتون ولا ينتفع به الغافلون، هو النشور حيث

يحيي الله بقدرته التي لا تحد الموتى جميعا، بعد أن سجل عليهم للحساب أعمالهم التي فعلوها في حياتهم وقدموها لتستقبلهم عند الموت، أو التي خلفوها وراءهم من سنة حسنة أو سنة سيئة.

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ ﴾ إنه وعد صادق، ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾ من أعمال صالحة تتجسد ثمة جنات وحور عين، أو ذنوب تتجسد ثمة نيرانا وحيات.

﴿وَآثَارَهُمْ﴾ فالصدقات الجارية، والعلم الذي يهتدي به الناس، والأولاد الصالحون، هي الروافد المستمرة التي تنمي حسنات المؤمن بعد موته، بينما كتب الضلال، وسنن الظلم والانحراف، والتربية الفاسدة للأبناء، تلاحق الفاسق حتى بعد وفاته. هكذا روي عن النبي محمد ﷺ: **«مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً كَانَ لَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلى يَوْمِ القِيامَةِ وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرهَا وَوِزْر مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلى يَوْمِ القِيَامَة»**[1].

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ ما هو ذاك الإمام الذي أحصى الله كل شيء فيه؟ هل هو اللوح المحفوظ؟ أم طائر كل شخص الذي ألزمه الله في عنقه، ويلقاه يوم القيامة منشورا؟ أم هو إمام الحق.

لعل القرآن الحكيم يشير إلى كل ذلك وأكثر، إذ إن كلمات القرآن لا تتحدد في إطار السياق فقط، بل تتجاوزها لبيان حقائق الخليقة، بلى؛ يكون ذكر هذه الحقيقة هنا وتلك هناك بمناسبة موضوعات السياق.

أما الحقيقة التي نستوحيها من الآية فهي: إن لكل شيء إماما تتمثل فيه خصائصه بصورة متكاملة، فالأنبياء وأوصياؤهم -أئمة الرشاد- تتمثل فيهم كل صفات الخير والفضيلة، بينما الفراعنة والطغاة -أئمة الكفر- تتجسد فيهم كل صفات الرذيلة والشر.

ومن هنا جاء في الحديث المأثور عن أئمة الهدى تفسير هذه الآية الكريمة بالإمام أمير المؤمنين حيث روي عنه عليه السلام قوله: **«أَنَا وَالله الإِمَامُ المُبِينُ أُبَيِّنُ الحَقَّ مِنَ البَاطِلِ وَرِثْتُهُ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ»**[2].

---

(١) بحار الأنوار: ج٧١، ص٢٠٤.

(٢) بحار الأنوار: ج٣٥، ص٤٢٧.

قالوا: طائركم معكم

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ (١٤) قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (١٥) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٧) قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا[1] بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨) قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (١٩) وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ (٢١) وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤) إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (٢٥) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧) ۞ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ (٢٨) إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (٢٩) يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٠) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ[2] أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ (٣١) وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٣٢)﴾.

(١) تطيرنا: تشأمنا بواسطتكم فنخاف أن يصيبنا شؤمكم فنقع في البلاء من طالعكم السيء.

(٢) القرون: الجيل والأمة باعتبار تقارن أعمارهم.

هدى من الآيات:

حين تتراكم حجب الغفلة على الأفئدة لا ينتفع أصحابها بالنذر، كذلك قال ربنا آنفا، وهو الآن يضرب مثلا من أصحاب القرية التي جاءها المرسلون فلم يؤمن أغلبهم، بل قالوا: ما أنتم إلا بشر مثلنا، ولم ينفعهم أن الله يشهد على صدق الرسل، وأنهم مسؤولون عن موقفهم، وليس النذر، وبالغوا في التكذيب، إذ تطيروا بالرسل، وتشاءموا من دعوتهم، ولكن الرسل استقاموا في تحديهم لأولئك الجاهلين، بالرغم من توعدهم بأنهم سوف يرجمونهم إن لم ينتهوا من دعوتهم، بأغلظ ما يمكن، فقال الرسل: إن تشاؤمهم إنما هو من أنفسهم، وتهديدهم بالعذاب لا يلويهم عن تذكيرهم، وإنه لدليل على توغلهم في الجريمة.

وهناك انتشرت الدعوة ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ ﴾ لينذر قومه قبل أن يحل بهم العذاب لتكذيبهم الرسل، فنصح قومه إشفاقا عليهم باتباع المرسلين، الذين تدل على صدقهم حجتان:

الأولى: أنهم لا يسألونهم أجرا.

الثانية: أنهم مهتدون، وذكرهم بربهم بأبلغ صورة.

أوليس هو الذي فطرهم، فلماذا ينكرونه؟! أوليس المرجع إليه، فلم لا يرجونه أو يخافونه؟! أم يعتمدون على الآلهة التي لا تضر ولا تنفع ، ولا تمنع عذاب الله عنهم؟! إنها الضلالة الواضحة، ثم تحداهم بكل عزم وقال: ﴿ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴾ [يس: ٢٥]، لقد أخذ الرجل وعذب ثم قتل ثم أحرق، ولكن السياق يتجاوز كل ما حدث إلى العاقبة فيقول: قيل له: ﴿ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ... -وبقي حنين هذا الصديق إلى بعد استشهاده، فتراه يقول وهو يدخل الجنة:- قَالَ يَـٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾ [يس: ٢٦-٢٧].

بينات من الآيات:

[١٣] قصة المرسلين الثلاثة إلى قرية (أنطاكية) التي جعلت قلب سورة (يس) التي هي بدورها قلب القرآن تتمثل فيها الحقائق التالية:

أولاً: توجز مفصلات الصراع الرسالي مع الجاهلية، حيث نرى فيها جانبا من حوار الرسل مع الأمم الغاوية، وحججهم البالغة عليهم، وشبهات الكفار وردود المرسلين عليها،

وسائر فصول الصراع المعروفة، فهي -بالتالي- تجمع جملة الحقائق التي ذكرت بها آيات الكتاب في هذا الحقل.

ثانياً: تمثلت فيها سنة الله في الإنذار، وعادة الجاهليين في الإنكار، واللتين ذكرت بهما آيات الدرس الآنف، وهكذا تكون القصة حجة على الحقائق التي بينها القرآن في فاتحة السورة.

ثالثاً: إن سورة يس تبين واقع الجاهليين العرب وهو قريب جدا من واقع أصحاب القرية (في أنطاكية) ذلك لقرب العهد الزمني، وتشابه الرسالتين (رسالة الله إلى عيسى عليه السلام ورسالته لمحمد صلى الله عليه وآله) وهكذا وجب أن نستخلص منها العبرة ربما أكثر من أي قصة أخرى.

﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا﴾ إن هذا المثل ينطبق على مثلهم، لأنهما من نوع واحد وحزب واحد.

﴿أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ أين كانت هذه القرية، ومن هم المرسلون إليها؟

قالوا: إنها كانت أنطاكية ثانية حواضر الروم، والواقعة اليوم في تركيا على حدود سوريا وما زالت عامرة إلى يومنا هذا. إلا إنها في ذلك اليوم كانت أكثر أهمية، ويحترمها المسيحيون لأن بولس وبرنابا وآخرين زاروها.

أما قصة الرسالة فلم يختلف المفسرون فيها إلا في بعض التفاصيل، وهي باختصار:

إن عيسى عليه السلام بعث اثنين من الحواريين إلى تلك القرية بالرسالة، فلما بلغاها وجدا في أقصاها حبيب النجار فدعياه إلى الرسالة فآمن، ولما دخلا المدينة دعوا الناس فآمن بعضهم، ومر بهما الملك ذات يوم فكبرا (و يبدو أنهما لم يجدا طريقا لدعوته غير ذلك) فحبسهما الملك، وبعث عيسى عليه السلام الرسول الثالث لتعزيز موقف الأولين (ولعله كان وصيه شمعون) فتقرب إلى الملك حتى استخلصه فحدثه عن شأن الرسولين، وطلب منه أن يسمع منهما الحجة، فلما أظهرا حجتهما بإبراء الأكمه وإحياء الموتى (حيث إن ابن الملك أو ابن واحد من حاشيته كان قد مات قبل أسبوع فأحياه الله بدعائهما) آمن الملك و بعض قومه، إلا إن الغلبة كانت للمكذبين الذين أهلكهم الله بصيحة واحدة.

وهكذا يرتفع الاختلاف الظاهر بين روايات التفسير التي تنقل أن الملك آمن، وبين ظاهر الآية التي تنبئنا بهلاك أولئك القوم، ذلك أن إيمان الملك -حسب هذه الرواية التي نقلها الفخر الرازي- لم يؤثر في الطبقات المسرفة من قومه، فأنزل الله عليهم العذاب، والله العالم.

[١٤] وليس المهم أن نعرف تفاصيل القصص القرآنية، إنما المهم أن نتدبر في الجوانب

التي يخبرنا ربنا عنها، لأنها هي التي تنفعنا، وتجري علينا سنن الله فيها كما جرت على الأولين.

وهكذا كذب أولئك الغافلون اثنين من المرسلين فعزز الله دينه بالثالث.

﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ﴾ هل كانا رسولين من عند الله مباشرة؟ أم كانا من عند المسيح روح الله عليه السلام كما تروي التواريخ؟ وإذا كيف يقول ربنا سبحانه: ﴿أَرْسَلْنَآ﴾؟.

ربما كانا نبيين -كما هارون مع موسى، ويحيى مع عيسى- إلا إن المفروض عليهما كان طاعة عيسى عليه السلام باعتباره من أولي العزم.

ولعل رسول عيسى عليه السلام يعتبر عند الله رسوله، لأن عيسى إنما أرسلهما بإذن الله، أو ربما بأمر مباشر من الله، فهما بالتالي رسولان من عند الله.

﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ بالرغم من أن البعض آمن بهما -كالصديق حبيب النجار الذي جاء ينذر قومه من أقصى المدينة- إلا إن الأغلب كان قد كذب بالرسولين، لأنهم قد حق القول عليهم.

﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ لقد عزز الله دينه الحق بالرسول الثالث، الذي قالوا: إنه كان شمعون وصي عيسى ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾.

لا يتعرض السياق لبيان الآيات التي تقول الروايات أنها ظهرت على أيديهم، مثل إبراء الأكمة وإحياء الموتى، فهل لأنها لم تكن ضرورية، إذ إنهم عرفوا صدقهم من خلال أقوالهم، وما دعوا إليه من حقائق، ومن خلال سلوكهم واستقامتهم؟ أم لأن ظهور الآيات على أيدي الرسل كانت سنة لا تحتاج إلى مزيد بيان؟.

لعل القوم كانوا مستبصرين فأغواهم الشيطان، وأن دعوة الرسل جاءت لتذكيرهم بالحقائق التي آمنوا بها من قبل فلم تكن بحاجة إلى آيات جديدة، والله العالم.

[١٥] أما شبهة قومهم فكانت تتلخص في أنه كيف يبعث الله بشرا رسولا، وبالتالي لماذا نطيعكم وأنتم مثلنا؟.

﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ ثم تمادوا في الغي حيث لم ينكروا فقط رسالة هؤلاء بل كفروا بكل رسالة، وقالوا: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ﴾ لا رسالتكم ولا رسالة غيركم. وهكذا ازدادوا كفرا وطغيانا، ولكن لماذا جيء باسم الرحمن هنا؟ هل لأن الرسل ذكروا هذا الاسم وهم يبينون لهم أن ربهم لا يتركهم بلا رسالة، لأنه واسع الرحمة شديد العطف ، فقال

الكفار كلا.. ما أنزل الرحمن؟ أم لأنهم زعموا أن رحمة الله تأبى إنزال التكاليف الشاقة عليهم بالرسالة؟ يبدو أن الأول أقرب، فيكون جوابهم مضمرا في حديث أنفسهم.

﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ﴾ فلأن أصل الرسالة مرفوض عندهم فإن دعوة الرسل تكون -بزعمهم- مجرد كذب، ولعل هذه الآية تدل على أن الرسل كانوا ينطقون عن الله مباشرة.

[١٦] الله تعالى أكبر شاهد على صدق رسله. أولم يودع في ضمير كل إنسان عقلا يهديه إلى الحق؟ أولاً يظهر على أيدي رسله الآيات؟! أولاً ينصرهم؟ أفلا تدل استقامتهم على صدقهم، أنهم واثقون تماما من أنهم مرسلون وأنهم لصادقون؟.

﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ﴾ ولكن لا يعني تحملهم لمسؤولية الرسالة أنهم مسؤولون عن موقف الناس، إنما جزاؤهم على ربهم.

[١٧] ﴿وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ فإذا أبلغناكم الرسالة بوضوح تام فقد انتهى دورنا وبدأ دوركم.

ونستوحي من الآية: أن البشر مسؤول عن معرفة الهدى، ولا يحق له أن يبرر جرائمه بأنه لم يكن مهتديا للحق، كلا.. إذا ظهرت دعوة إلى الحق فعليك أن تتفكر من دون عصبية، وترى هل هي صادقة أم لا.

[١٨] ينام الجاهليون على حرير التبريرات غارقين في شهواتهم، فإذا جاءهم نذير وقدم لهم الوعيد بأن عاقبة غفلتهم الدمار، فإنهم يتشاءمون منه، ويزعمون أنه يكدر عليهم صفو معيشتهم، فمثلهم مثل مريض، تفشى في جسده مرض السرطان، وهو لا يدري، فإذا أخبره الطبيب وحذره من مغبة غفلته ثار عليه، وقال: إنك منكد، لماذا أنت سلبي؟.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ﴾ تشاءموا منهم، وزعموا أن بيان سلبياتهم، والدعوة إلى إصلاح الفاسد من حياتهم، هو سبب الإزعاج عندهم.

واحتمل بعض المفسرين أن يكون قد نزل عليهم البلاء عند بلاغ الرسل، كما نزلت على فرعون وقومه آيات الدم والسنين و... ويبدو أننا لسنا بحاجة إلى مثل هذا الفرض.

﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ﴾ هكذا بلغ عنادهم أسفل درك له حين هددوا المرسلين بالرجم لو لم يكفوا عن دعوتهم، وسواء كان الرجم هو جراحات اللسان التي لا تلتئم، حيث توعدوهم بتلفيق التهم المختلفة ورجمهم بها، كعادة الطغاة و المترفين دائما، أم كان معنى الرجم هو الرضخ بالحجارة حتى الموت، فإن ذلك دليل على هزيمتهم أمام حجة المرسلين فتوسلوا

بإرهابهم ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وماذا فوق الرجم (لو كان معناه الرضخ بالحجارة) من عذاب ذي ألم؟. لعلهم هددوهم بالقتل بأبشع صورة.

[١٩] وعكس جواب المرسلين سكينة الحق، وطمأنينة الثقة بنصر الله، إذ لم يهنوا ولم يحزنوا بل كشفوا لهم الحقائق دون لبس ومن دون استخدام ألفاظ نابية.

﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ كان شؤمهم في أنفسهم السلبية، في عنادهم، وتعصبهم لباطلهم، وفي أعمالهم التي جرت الويلات إليهم. أرأيت الفيروس مستقرا في جسد المريض أم في كلام الطبيب؟ أورأيت الذي ينهى أحدا من الوقوع في بئر محفورة في طريقه؟ هل الخطر كامن في نهيه أم في غفلة من يمشي؟.

المجتمع الفاسد الذي يمشي على حرف الهاوية، ويهدده السقوط في أية لحظة، طائره المشؤوم إنما هو طبقيته، وظلم أفراده بعضهم البعض، وإسرافه، وليس في دعوة المنذرين.

﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ فإذا ذكرتم بما يهددكم من أخطار، فهل هذا يسمى طائركم عندكم؟!.

وقال المفسرون: إن هذه الكلمة بمثابة إجابة عن تهديدهم بالرجم والعذاب، أي: هل تعذبوننا لأننا ذكرناكم؟.

ويبدو أن محور كلام الكفار هو التطير، وأن محور كلام الأنبياء هو الجواب عن هذا التطير.

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ فإسرافكم هو السبب في الشؤم الذي أصابكم، ولعل هذه الآية تتشابه وقوله سبحانه: ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾ [هود: ١١٧].

وذهب البعض إلى أن الإسراف هنا بمعنى الإسراف في الجريمة والظلم، وأنه يتصل بتهديد الرجم.

[٢٠] وهنا تدخل المسرح صورة جديدة، هي انعكاس الرسالة على قلب واع ونفس زكية، ذلك الرجل المؤمن الذي وجد قومه أشرفوا على الهلاك بكفرهم، فسارع إليهم يحذرهم مغبة رفض الرسالة ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ جاء في الروايات أنه الصديق حبيب النجار[١]، الذي بلغته الرسالة بالرغم من أنه كان في أقصى المدينة، وبادر إلى النصيحة

(١) بحار الأنور: ج١٤، ص٢٤٢.

مع أنه كان -حسب الروايات- راعياً، ولعل كلمة: ﴿أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ تشير إلى طبقته الدانية عند أولئك القوم، كما تشير إلى موقعه الجغرافي مما تدل على انتشار الرسالة في صفوف بعض المستضعفين، الذين بالرغم من أنهم كانوا يعيشون في أقاصي المدينة، وليس في أعاليها حملوا مشعل الرسالة بكل قوة.

ولعل تنكير كلمة الرجل للدلالة على اكتمال صفات الرجولة فيه من الهمة العالية، والحزم الشديد، والقول الثابت، كقوله سبحانه: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وربما سعى الرجل سعيا لاهتمامه البالغ بالإنذار، وحرصه الشديد على سلامة قومه، وهكذا يحرص أصحاب النفوس الطيبة على أمن الناس، ويتفانون في إبلاغ رسالات الله لإنقاذهم من عذابه المحتوم.

﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ لقد كان الرجل منهم، وخاطبهم بما يتناسب ومقام النصيحة، إذ قال: ﴿يَـٰقَوْمِ﴾، وكشف منذ البدء عن إيمانه حين أمرهم باتباع المرسلين.

وروي أنه كان واحدا من الصديقين الثلاثة في التاريخ، فلقد جاء في كتاب (الدر المنثور): أخرج أبو داود وأبو نعيم وابن عساكر والديلمي عن أبي ليلى قال: قال رسول الله ﷺ: «**الصِّدِّيقُونَ ثَلاثَةٌ حَبِيبٌ النَّجَّارُ مُؤْمِنُ آلِ يس الَّذِي قَالَ: ﴿يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وَخِرْبِيلُ مُؤْمِنُ آلِ فِرْعَوْن الَّذِي قَالَ: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ﴾ وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَهُوَ أَفْضَلهم**»[1].

[٢١] ومضى الصديق حبيب النجار في سرد حجج المرسلين قائلا: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا﴾ فلا يمكن أن يتهموا بالكذب ابتغاء الأجر، فهم ليسوا سحرة ومشعوذين، ولا طلاب كراسي وسياسيين، ولا أصحاب ثروة ومترفين، فلماذا يكذبون، وإنما يفتري الكذب -خصوصا في مثل هذه الدعاوى العظيمة- من يطلب أجرا من أي نوع كانت، وسيرة الأنبياء كما نمط دعوتهم يشهد لهم بالنزاهة التامة.

﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ بلى، قد يدعي البعض دعاوى كاذبة بجهل أو جنون، وحاشا رسل الله من ذلك، إن رصانة دعوتهم، و كمال عقولهم، وحسن سلوكهم وسيرتهم، ووضوح خطهم، واستقامتهم على الطريق برغم الصعاب، كل أولئك شواهد حكمتهم وأنهم مهتدون.

(١) الدر المنثور: ج٥، ص٢٦٢.

ثم إن مبادرة الرسول -أي رسول- بالعمل بما يدعو الناس إليه من مكارم الأخلاق، وحسن الفعال تشهد على صدقه.

[٢٢] ثم إن محتوى دعوة المرسلين شاهد صدق لهم، فهم يدعوننا إلى الله الذي أخذ علينا ميثاقا في عالم الذر بالإيمان به، الله الذي أودع قلوب البشر فطرة الإيمان به، الله الذي تابع نعمه علينا، وتأمرنا عقولنا بضرورة شكره؟

إن دعوة الأنبياء ليست إلى أنفسهم ولا إلى عنصر أو حزب أو طائفة، إنما هي إلى الله الذي لاشك فيه، و الذي فطر الجميع على سواء.

﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ إذا كانت هذه حقيقة رسالات النبيين فلماذا نكفر بهم؟! وماذا يملك من فقد ربه الذي خلقه وإليه المعاد؟!.

وهكذا نجد هذا الصديق العظيم لم يدع فقط إلى اتباع المرسلين، بل شارك في الدعوة إلى محتوى رسالاتهم، وهو التوحيد.

[٢٣] ثم ندد بالشركاء المزعومين، وبين أن أساس عبادتهم باطل: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾؟!.

فإذا خضع لسلطة سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية من دون الله، فلكي تعطيه الأمن والسلام، ولكي توفر له الحماية من ذنوبه أمام غضب الرب، فهل تفعل الآلهة شيئا من ذلك؟! كلا.. ﴿إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ﴾ فلا يخفف العذاب عنه بسبب عبادته للآلهة من دونه، بل ذات العبادة جريمة نكراء يعاقب عليها الله، ولا تستطيع الآلهة إنقاذ المشرك منه.

[٢٤] ﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ لو تركت عبادة الفاطر الذي إليه النشور، والقاهر على عباده، إلى عبادة الآلهة التي لا تضر ولا تنفع.

والضلال المبين هو: الضلال الواضح الذي لا ريب في ضلالته.

[٢٥] ثم أعلن للملأ جبهته التي انتمى إليها، وتحداهم بإعلان براءته منهم، فقال: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ﴾ ولعله أبلغهم بذلك بعد أن رفض المعاندون قبول نصيحته، وهددوه بإنزال العقوبة عليه كما هددوا المرسلين من قبل، ولكنه استقام، وأمرهم بأن يسمعوا شهادته بوحدانية الرب بلا لبس. ولا ريب أن من الحجج البليغة على صحة الدعوة، إيمان صاحبها الذي لا يتزلزل، وتحديه العالم بها.

[٢٦-٢٧] وفعلا نفذوا التهديد الأرعن بحقه، فوطؤوه بأرجلهم حتى مات، حسب قول، وحسب قول آخر أنهم رجموه حتى قتلوه.

فأدخله الله الجنة، وحينما هم بدخولها تمنى لو كان قومه معه: ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ وجاء في الحديث عن الرسول ﷺ أنه قال عن مؤمن يس: «**إِنَّهُ نَصَحَ لَهُمْ فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَ مَوْتِهِ**»[1].

وهكذا الشهداء يتمنون لو يعادوا إلى الدنيا ليخبروا أهلها بما للشهيد من مغفرة وكرامة.

[٢٨] مضى الصديق حبيب النجار شهيدا إلى ربه، ولم يلبث قومه الجبارون من بعده إلا قليلا حتى أهلكهم الله، ولكن كيف تم هلاكهم؟.

﴿۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من الملائكة أو ما أشبه، ولعل ذكر "ٱلسَّمَآءِ" هنا للدلالة على أن الأمر المهم كان ينزل من السماء.

﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ فما كان ينبغي لرب العزة أن يبعث جندا لمثل هذا القوم. أليس قد تحقق الهدف من دون ذلك؟.

[٢٩] فبماذا تم هلاكهم؟ إنما بصيحة واحدة جعلتهم -في لحظة- كالرماد الخامد، لا حس ولا حركة ولا حرارة ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾.

[٣٠] ويعقب السياق على هذه القصة التي لخصت تجارب الرسالات تقريبا قائلا: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾ إنها تستدعي الحسرات، حتى إن كل شخص يكون في مثل هذا الموقع لا بد أن يتحسر، إن الله خلق عباده ليرحمهم، وأكرمهم بالإرادة والحرية، فاختاروا طريق الهلاك، فبعث إليهم الرسل لينذرهم من مغبة أعمالهم، ولكنهم استهزؤوا بهم، وعرضوا أنفسهم للهلاك الذي يجر الحسرات. كيف ضيعوا فرصتهم الأخيرة بالاستهزاء؟! وكيف أصبحوا وقود جهنم، وكان من المرتقب أن يكونوا ضيوف الرحمن في الجنة؟!.

﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ ولعل الاستهزاء هو أشد ألوان الكفر، وأبعد سبل الضلالة، حيث يعيش صاحبه حالة العبثية واللااهتمام، ومثله في هذا المقام مثل الطبيب الذي ينصح المريض بالدواء، ويحذره من الهلاك، فبدل أن يشكره المريض، ويبادر إلى تنفيذ أوامره تراه يضحك منه. أوليس مثل هذا الرجل يستدعي الإشفاق والحسرات؟!.

---

(١) تفسير القرطبي: ج١٥، ص٢٠.

[٣١] وهم يغفلون عن مصير الغابرين الذين أهلكهم الله بكفرهم واستهزائهم، ولم يبق منهم سوى العبرة ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ﴾ وأعظم ما في الغابرين من أسباب الموعظة أنهم قد ضيعوا فرصتهم الوحيدة، وأنهم لا يرجعون أبدا إلى أهلهم ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾.

ألا نقف على أطلالهم، ونتساءل: أين الذين عمروها وعاشوا في ظلها، وهل يعودون يوما ليروا آثار الدمار الذي لحق ببلادهم، أو ليخبرونا ماذا كان مصيرهم؟ كلا..

[٣٢] بلى؛ سوف يجتمع الناس كلهم في يوم الحسرة ليحاسبوا حسابا عسيرا، ثم ليجازوا جزاءً وافيا ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾.

قالوا: إن حرف ﴿إِن﴾ هنا أصلها إن بالتشديد، وإن كلمة ﴿لَّمَّا﴾ جاءت للتأكيد، وهكذا يكون التأكيد يتبع التأكيد: ﴿إِن﴾ للتأكيد، و﴿كُلٌّ﴾ مبتدأ والتنوين عوض المضاف وهو يفيد معنى التأكيد أيضاً و﴿لَّمَّا﴾ اللام هي الفارقة بينها وبين النافية، و﴿مَا﴾ فريدة للتأكيد. و﴿جَمِيعٌ﴾ مجموع وهو الخبر وفيها معنى زائد على ﴿كُلٌّ﴾ وهو الاحاطة، وهو تأكيد أيضا، أي أنّ كلهم مجموع لدينا.

وقال البعض: ﴿إِن﴾ نافية و ﴿لَّمَّا﴾ بمعنى إلا، كما يقول القائل: نشدتك بالله لما فعلت، أي إلا فعلت، والمعنى ما كلهم إلا مجموع لدينا، على غرار قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: ٤]، وهذا التفسير متناسب مع تشديد ﴿لَّمَّا﴾ كما في المصحف الشريف.

ويجوز أن يكون معنى ﴿لَّمَّا﴾ هو التوقع، وفيه معنى النفي أيضا، أي لم يقع حتى الآن وسوف يقع.

وكلمة أخيرة: تقول آخر الدراسات التي بحثت عوامل نشوء الحربين العالميتين: إن البشرية انساقت إليها انسياقا، فلا أحد من القادة المتحاربين كان يريدها حربا مدمرة لا تبقي ولا تذر، ولكنهم كمن ينحشر في الزحام يدفع و يدفع ولا يجد سبيلا للخلاص، انحشروا فيها بلا إرادة ووعي.

كذلك حين تتراكم سلبيات الأمم تتفجر في صور شتى، منها: الحروب التي يجازي الله بها العباد. أولم يقل ربنا سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥].

واليوم كيف يذر الرب العزيز الحكيم هذه الجرائم ترتكب بحق خلقه؟! هذا الظلم

العريض، وهذا الاستضعاف الشامل، يظلمهم حفنة من المستكبرين، فهل يهمل الله عباده؟!.

كلا.. ولكنه يملي لهم إن كيده متين، فإن لم يرجعوا عن غيهم، ويعتبروا بمصير القرون التي كانت من قبلهم -كيف أهلكهم الله فلم يرجع منهم أحد أبدا- فإن ترسانات الأسلحة لا بد أن تثور يوما لتصب الحمم على رؤوس صانعيها والساكتين عنهم من الناس، أو يخسف الله بهم الأرض، أو يسقط عليهم من السماء كسفا، أو ينشر فيهم وباءً لا يستطيعون رده.

إذا علينا جميعا أن نعي رسالة ربنا العزيز الرحيم، ونأخذ إنذاره مأخذ الجد، وإلا فساعة الجزاء رهيبة، ولا ينفع يومئذ الندم، كما لا تنفع التوبة شيئا.

ذلك تقدير العزيز العليم

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ (١) ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾.

هدى من الآيات:

بعد أن تهيأت النفوس الطيبة، لتلقي آيات الله، وذلك بذكر العاقبة السوأى التي تعرض لها أصحاب القلوب المغلقة، يشرع القرآن بالتذكير بالله عبر آياته، وأولها آية الحياة التي يبثها الرب في الأرض الميتة كما يحيي بالرسالة القلوب ويخرج منها الحب، الذي يشكل أعظم طعام البشر، كما يجعل فيها جنات ذات أشجار النخيل المتنوعة الفوائد، وكروم العنب الذي هو من الثمرات المفيدة كما التمر، وفجر الله الأرض عيونا تجري بالبركات. والأهداف الثلاثة منها هي: أن يستفيد منها البشر رزقا، وليصنع فيها ما يشاء من حاجاته، ولكي يشكر ربه.

---

(١) كالعرجون القديم: العرجون هو العذق اليابس المقوس.

وبعد آية الحياة يذكرنا الرب بآياته -سبحانه- في الخليقة، ومن أروعها آية الزوجية التي تشمل البشر والأحياء وغيرهما، مما تدلنا على أن ربنا منزه عن الحاجة.

ومن طعام البشر ونظام حياته القائم على أساس التزاوج، إلى بيان آيات ربنا في الآفاق هذا الليل كيف يسلخ منه النهار، مما يدل على أن أول ما خلقه الله هو النهار، ثم سلخه فكان الليل، فإذا هم مظلمون .

والشمس التي هي محور منظومتنا تجري بسهولة ويسر، ولكن ضمن خطة مرسومة، والى نهاية معلومة تستقر عندها، ذلك تقدير العزيز العليم، الذي رسم للشمس مدارها بعلمه، وسخرها بعزته.

أما القمر فقد قدره الله أيضا كما قدر الشمس ضمن منازل يجري عبرها يوميا حتى عاد في نهاية الشهر كما العرجون القديم، ذابلا مصفرا.

وكلما تعمقنا في الخليقة ظهرت آثار التقدير والتدبير أكثر فأكثر، فلا الشمس يجوز لها أن تسارع حتى تكون كالقمر في سرعة حركته فإن مدار الشمس سنوي ومدار القمر شهري ولا الليل الذي يحتوي القمر عادة يسبق النهار، ويتجاوز حدوده، بل كل جرم يسير بسرعة معينة في مداره المرسوم له.

وهكذا يستطيع البشر أن يطمئن إلى النظام المحيط به، وأن ينظم حياته وفقه بدقة متناهية، وأن يبني حضارته على هذا الأساس.

وهناك نعمة أخرى ضرورية لسعادة الإنسان وحضارته، هي نعمة السفن التي هي آية إلهية. إنها لآية تهدينا إلى ربنا، وتعرفنا بعزته ورحمته، فهي تمخر في البحار، وتحمل الناس والبضائع الكثيرة، أما في البر فقد خلق الله لنا الأنعام التي تشبه السفن.

وليس تسخير السفن أو الأنعام من صنع البشر، لأنه إذا لم يهيئ الله الأمور للاستفادة منها فلن يقدر البشر على ذلك، ودليل ذلك أنه: لو أراد الله إغراقهم

فهل يغيثهم أحد أو يقدر على إنقاذهم؟ كلا..

بينات من الآيات:

[٣٣] لأن القلب الغافل كالصخرة الصماء لا ينتفع بالآيات شيئا، فإن المنهج السليم هو إنذاره بتنبيهه، وذلك:

أولاً: ببيان عاقبة الغفلة.

ثانياً: بتخويفه بمصير الغابرين الرهيب.

ثالثاً: بتصوير مشهد من العذاب الأليم الذي ينتظره.

كذلك ابتدأت سورة يس بإنذار مبين، مما خشعت به القلوب الطيبة وتهيأت لاستقبال نور الإيمان الذي تحمله آيات الله في النفس وفي الخليقة.

وأولى الآيات هي هذه الحياة التي يبعثها الرب في الأرض الميتة، وهي شبيهة بحياة الإيمان التي ينفخها القرآن بالتذكرة بآيات الله.

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَـٰهَا ﴾ موت الأرض منها، ولكن حياتها من الله، كذلك الغفلة من الإنسان بيد أن إيمانه بالله.

والحياة أروع ما نشاهده في الطبيعة، إننا نحبها لأننا أحياء بها ولا نرضى بمفارقة الحياة، وإننا نكرمها ونعظمها لما فيها من آيات القدرة والجمال.

ويذكرنا الرب بالحياة التي يبعثها في الأرض الميتة لعلنا نزداد معرفة بقدرة ربنا على إحيائنا مرة أخرى للحساب والجزاء.

﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ أوليس الحب أكثر طعام أهل العالم، وزراعة القمح تعتمد على المطر أكثر من أي زراعة أخرى؟.

[٣٤] ومن آيات الله الأشجار التي تظلل الأرض، ومن الأشجار التي يستفيد منها البشر -وبالذات في المحيط العربي- النخيل، التي تدخل في صناعة الأدوات المنزلية، كما ويبنى بها البيوت، ويتخذ من ثمرتها طعاما وإداما وسكرا، ويحتفظ بها من أيام ينعها إلى سائر أيام السنة، وتهدى من بلد إلى بلد، و هي في ذات الوقت أفضل طعام للإنسان، لأن فيها أكثر ما يحتاجه الجسد من مواد، حتى روي أنها بمثابة عمة الإنسان، فعن الرسول الأعظم ﷺ قال: «**أَكْرِمُوا عَمَّتَكُمُ النَّخْلَةَ والزَّبِيبَ**»(١).

﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّـٰتٍ ﴾ إن الأشجار يحتاج بعضها إلى بعضها، ولعله لذلك تذكر بصورة مجموعة ﴿جَنَّـٰتٍ﴾ وقد وفر الله لتنمية الأشجار مئات السنن الطبيعية، من خصوبة الأرض إلى حرارة الجو إلى وجود الماء واعتدال الرياح والأمطار و... هكذا نسب الله جعل

(١) بحار الأنوار: ج٥٧، ص١٨٠.

البساتين إلى نفسه.

﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾ والعنب -كما التمر- يحفظ لغير موسمه في صورة زبيب، وهو ذو فوائد غذائية كبيرة، ولعل عدم ذكر الكرم لقلة فائدته بالقياس إلى النخيل، والتقارن بين النخيل ذات الارتفاع الكبير، والكرم الذي هو زرع يثير الإعجاب. كيف أن الله يصنع من هذه ثمرا ومن ذاك عنبا، وهما متشابهان بالرغم من اختلاف أصلهما، فهذه شجرة باسقة وذاك زرع مفروش على الأرض أو على ما يعرشون.

﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾ أو لا ينظرون إلى شبكة القنوات المنتظمة تحت الأرض، والأحواض التي تجتمع إليها مياه القنوات؟! ثم اختلاف المستويات على الأرض، مما يساعد على تفجير العيون من الأرض لترويها، ويبعث منظرها الخلاب إلى معرفة الرب وشكره.

[٣٥] إن التناسق بين حاجات البشر وصنع الله في الطبيعة دليل دقة التقدير، وحسن التدبير، فالبشر بحاجة إلى رزق يأتيه رغدا، وإلى هامش من الحرية يستفيد منها في تنويع مصادر غذائية وإظهار إبداعه وفنه، كما يحتاج إلى تنمية وعيه ومعرفته، والسكينة النفسية.. وكل تلك الحاجات متكاملة في الجنات و العيون.

﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ﴾ فيقضوا حاجاتهم المادية إلى الطعام. ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ من تنويع في الطعام، والاستفادة من الماء والأشجار في بناء البيوت وأدوات المنزل: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ فتطمئن نفوسهم بمعرفة الرب وحبه والثقة به، مما يعتبر غذاءً أساسيا لروحهم وعقولهم وإرادتهم، وهي أعظم من أجسامهم.

[٣٦] ومن الطعام والحاجات الأقرب إلى حياة البشر ينساب السياق إلى أبرز وجوه الحاجة في الخليقة، فالناس والحيوانات وسائر الأشياء خلقت أزواجا بحيث يحتاج بعضها إلى بعض ، لنعرف أنها مخلوقة مدبر أمرها، ونعلم -بالتالي- أن خالقها مقدس عن الحاجة، فهو الرب السبحان الذي خلق الأزواج كلها لتكون آية تعاليه عن العجز.

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ وهكذا كلما في الطبيعة من عناصر ونقاط ضعف شاهدة على حاجتها إلى خالق مدبر، أوليس الضعيف لا يخلق نفسه، ولا يدبر أمره؟! ولو خلق نفسه لأكملها، ولو دبرها لأغناها، ولكن الله -سبحانه- أركز الخلائق في الضعف، وأحوجها إلى بعضها، لتشهد بأن خالقها غني مقتدر، ولو افترضنا في خالقها ضعفا لرجع الخالق مخلوقا، ولصدق فيه ما صدق في سائر المخلوقات من الحاجة إلى مدبر أعلى منه.

وهكذا افتتحت الآية بتسبيح الله، لأنها تذكرنا بعجز المخلوقات، بينما الآيات السابقة كانت تذكرنا بآيات القوة فيها.

وسبحان -كما قالوا- علم دال على التسبيح، وتقديره سبح تسبيح الذي خلق الأزواج.

﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ﴾ فقد خلق النباتات أزواجا، منها ما كانت معروفة لدى نزول القرآن، ومنها ما كشفه تقدم العلم اليوم من أن في كل النباتات ذكرا وأنثى، وأنه قد يتم تلاقحهما بفعل البشر -كما يتم تلقيح النخيل مثلا- وقد تلقحهما الرياح أو النحل أو ما أشبه.

﴿وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ حيث الحاجة إلى الزوج عميقة الجذور في النفس وفي الجسم، وهي تعكس ضعف البشر حيث لا يكتمل الواحد إلا بكفئه، حتى ولو طغى في الأرض فإنه يعيش محتاجا إلى زوجه، وقد تجمح به الرغبة حتى تفقد صوابه.

وكم يروي التأريخ لنا قصصا عن الجبابرة الذين كانوا يركعون أمام نسائهم. أوليس ذلك دليل ضعفهم، و أنهم ليسوا آلهة كما يزعمون؟! وهذا فرعون يربي عدوه في بيته -بالرغم من تخوفه منه- لأن زوجته طلبت منه ذلك فانقاد لها، وثبت للعالم أن من يزعم أنه الرب الأعلى تحكمه زوجته.

﴿وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ﴾ فحتى الموجودات الأخرى يكمل بعضها بعضا، ابتداءً من الذرة المتناهية في الصغر -التي تتركب من بروتون وإلكترون- وحتى المجرات المتناهية في الاتساع.

ولا يزال علم البشر دون مستوى معرفة كل خصائص الزوجية. وكلما تعمقنا في معرفة حاجة الأزواج إلى بعضهم كلما عرفنا دقة التدبير، وسلامة النظم، وقوة الهيمنة على الخليقة، وبالتالي كانت لدينا فرصة معرفة ربنا أكثر فأكثر.

[٣٧] دعونا ننظر إلى هذا الأفق العريض الذي يتسع أمامنا بلا حدود نعرفها، لا لكي نخشى من آياته، ولا لكي نتمتع بجمال ما فيه، ولكن لنزداد وعيا به ومن خلاله بأنفسنا، فهذا الليل يلبسه ربنا الحكيم ثياب النهار بما يسبغ عليه من ضوء الشمس ودفئها وحركتها، ثم يسلخه منه فيعود كما كان، مظلما هادئا إلا من رواسب النهار. إن في ذلك لآية، دعونا نبصرها.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ﴾ تعالوا ننظر هذه المرة إلى الليل حين الغروب، لنبصر يد القدرة الإلهية كيف تفعل ذلك بلطف وبإتقان وبنظام دقيق.

[٣٨] وآية النهار هي هذه الكرة النارية الملتهبة التي نسميها بالشمس، والتي هي أكبر

من بنتها الأرض، مليون ومئتي ألف مرة. كيف تجري في السماء بيسر وبدقة، في حركة مستقيمة نحو مستقرها النهائي، عند نجمة (وغا) البعيدة وتستقر في يوم حيث تكور، ثم يلقى بها في جهنم فتصرخ من حرها.

﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ من الذي سخرها وسيرها في سبيلها المحدد لا تتخطى مسارها؟! إنه الله المهيمن بعزته على الخليقة، والمدبر بعلمه أمورها بدقة ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾.

[٣٩] أما القمر الذي يدور في فلكه من منزل لمنزل، بدقة متناهية تجعل علماء الهيئة يعرفون مسيرته حتى بعد مئة ألف عام، فهو آية الليل التي تجعلنا نزداد إيمانا بسلطان ربنا.

﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ لعل هذه المنازل هي المحطات اليومية التي يكبر ثم يصغر القمر عندها في كل ليلة، منذ ولادته هلالا حتى تغيبه في المحاق ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾.

هل آثار انتباهك يوما بقية عرجون على النخل، بعد أن قطف ثمره، وبقي أصله في أعلى النخل مصفرا ذابلا؟ كذلك منظر القمر في أخريات الليل عند نهاية الشهر.

إن حركة الشمس والقمر المتناهية في وقتها حتى أنها لو حسبت بجزء من مليون جزء من الثانية لما وجد فيها اختلاف، إنها لآية النظام العجيب الذي يجري عليه هذا الكون، والقدرة الإلهية التي تضبطها، وهو في ذات الوقت دليلنا إلى ضبط الوقت وتحديد الزمن.

والزمن هو أعظم مقياس لحضارة الإنسان، فكلما زاد ضبطه واحترامه كلما تقدم البشر في حقول المدنية.

[٤٠] وثبات نظم الموجودات دليل هيمنة الرب العزيز، فهذه الشمس تجري في بروجها الاثني عشر كل عام مرة. على أن الذي يجري هو كوكب الأرض في الحقيقة، إلا إن ذلك هو ما يترأى لنا، ونعبر عنه بالتالي حسب ما نرى فنقول: طلعت الشمس وغربت وزالت، وإنما أرضنا هي التي تدور عليها.

﴿ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ ﴾ فالقمر يدور في منازله كل شهر مرة، بينما الشمس كل سنة مرة، ولا ينبغي للشمس أن تتسارع سرعة القمر فتترى علينا الفصول الأربعة في شهر واحد.

﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴾ فلا تدخل ساعات الليل في النهار، حتى يتقلص النهار، إلا

بقدر وحسب نظام ثابت منذ ملايين السنين، وهكذا تكون حركة الشمس من المشرق إلى المغرب ثابتة.

ولعل الآية أشارت أولاً إلى ثبات نظام الدورة السنوية للشمس، ثم أشارت إلى ثبات نظام الليل والنهار ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ كل من الشمس والقمر والكواكب والنجوم تتحرك بسرعة في أفلاكها، ولكن دون أن تحيد عن النظام القائم قيد شعرة. أو ليس في ذلك دليلا على عزة الرب، ودقة صنعه، وحسن تدبيره، ولطف إجرائه للسنن التي قدرها؟!.

والفلك هو الجسم الدائري، وهكذا تكون في الآية إشارة إلى الحركة الدائرية للأجرام السماوية.

وإذا أخذنا الشمس مثلا لهذه الأجرام نجدها تتحرك في أفلاك مختلفة، فهي تدور حول نفسها كل خمسة و عشرين يوما دورة واحدة، وتدور مع سائر كواكب المجرة التي هي فيها بسرعة مليون ومئة وثلاثين ألف كيلو مترا تقريبا في الساعة الواحدة، وهي تجري في ذات الوقت نحو مستقرها بسرعة اثنين وسبعين ألفا وأربعمئة كيلو مترا في الساعة الواحدة، وفي ذات الوقت تدور أقمارها حولها بنظام ثابت ودقيق، و تتحرك سائر الأجرام في هذا الفضاء الرحيب، كل في فلك دون أن يصطدم الواحد بالأخر. أفلا يهدينا ذلك كله إلى ربنا العزيز الرحيم؟!

وهكذا دبر الله شؤون مملكته العظيمة، أحيى الأرض بالغيث ورزق الإنسان منها، ونظم شؤونه بثبات نظام الأرض والشمس والقمر، وأعطى للإنسان فرصة التكامل عبر النظام الذي هو ركيزة أساسية من ركائز الحضارة.

[٤١] ويذكرنا السياق بالركيزة الثانية، وهي وسائل النقل، فلولا قدرة البشر على الإنتقال بنفسه و ببضاعته لما استطاع أن يبني حضارة، وأعظم وسائل النقل هي السفن، فمن أقدم العصور وحتى اليوم كان متن الماء صهوة السفن المختلفة التي حملت الإنسان والمواد أكثر من جميع الوسائل الأخرى، ولا تزال السفن أفضل الوسائل وأرخصها وأكثرها شيوعا، ولذلك لا بد أن تكون للدولة المستقلة منافذ على البحر، والدول التي لا تملك مثل ذلك تعاني الكثير من الصعاب.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ إن الله -وليس الإنسان- سخر الفلك لحمل البشر عبر المحيطات. ولعل كلمة ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ تعني أمثالهم ونظائرهم، ذلك لأنه ليس كل الناس يركبون السفن، وقال البعض: إن معناها أطفالهم، لأن الطفل رمز الحنان، وحمله

في السفينة يعكس منتهى رحمة الله بالإنسان، على أنه كان من الصعب على الأطفال ركوب الأنعام.

وأكد السياق على أن السفينة مملوءة بالبضائع، لأن الفلك المشحون أقرب إلى الغرق لثقله، وأظهر دلالة على نعمة الله حيث حمل الإنسان وحاجاته مرة واحدة.

[٤٢] وخلق الله للإنسان ما يشبه السفينة من الدواب التي تحمله من بلد لبلد.

﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ من الذي خلق الأنعام، وسخرها لنا؟ أوليس الله؟! فلماذا الكفر به، والتمرد على سلطانه؟!.

[٤٣] إن العوامل الغيبية التي تؤثر في الظواهر المادية تفقد الإنسان قدرة الدفاع عن نفسه، فلا تزال أمواج البحار تبتلع المزيد من ضحايا العواصف الهوج، ولاتزال الحوادث غير المنتظرة تذكر الإنسان بأن قدرته محدودة وهي مستمدة من الله، وأنه إذا غضب الله عليه فلا أحد بقادر على أن ينقذه.

﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾ ولعل قاع البحر الميت في أرض فلسطين ينطوي على بعض آثار قوم لوط الذين انقلبت قراهم بفعل حركة بسيطة لجناح جبرائيل عليه السلام كما جاء في الروايات، فمن يقدر على أن يغيث مثل هؤلاء غير رحمة الله؟!.

وفي بعض الحالات حينما تحترق مساحات شاسعة من الغابات، لم تستطع إخمادها الوسائل البشرية، و إنما تطفؤها هطول الأمطار الطبيعية. فلا أحد يغيث من غضب الله عليه، وليس من الممكن إنقاذهم حتى ولو وجد من يهرع لإنقاذهم.

[٤٤] بلى، رحمة الله التي تتجلى عند الكوارث، وتنقذ البعض بصورة عجيبة، هي الملجأ الوحيد عند غضب الجبار ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا﴾، وعادة ما نجد بقايا للكوارث طبيعية أنقذت بها نسميه (الصدفة) فطائرة تسقط وتتحطم، ويموت جميع ركابها، غير طفل رضيع، أو سفينة ضخمة تغرق، ولا ينقذ منها إلا رجال معدودون، يتعلقون بخشبة، أو يبتلع زلزال قرية، ولكن عجوزا خاوية تستخرج من تحت الأنقاض بعد عشرة أيام سالمة، وحتى عند هلاك ثمود وعاد وقوم لوط وقوم نوح، بقي الرجال الصالحون يروون لنا تلك المثلات، وليكونوا شهودا على أن الأمور بيد الله.

﴿وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ الذين أنقذوا من هذه الحوادث ليسوا أنصاف آلهة، بل إنما تأخرت آجالهم لحين، فإذا جاء أجلهم فإن أبسط الأسباب كفيل بهلاكهم.

هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٥) وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤٦) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٤٧) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٤٨) مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ[1] (٤٩) فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (٥٠) وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ[2] إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ[3] (٥١) قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ (٥٢) إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٥٣) فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٤) إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ[4] مُتَّكِـُٔونَ (٥٦) لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ (٥٧) سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ (٥٨) وَٱمْتَٰزُواْ[5] ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ (٥٩) ﴾.

---

(١) يخصمون: يختصمون في أمورهم، من خصمهم وأصله اختصم.

(٢) الأجداث: جمع جدث وهو القبر.

(٣) ينسلون: يخرجون سراعاً إلى الموقف، فإن النسول هو الإسراع في الخروج.

(٤) الأرائك: جمع أريكة وهي السرير الذي يصنع للعروس.

(٥) امتازوا: انفصوا عن جماعة المؤمنين.

هدى من الآيات:

بعد أن ذكرتنا الآيات بربنا العزيز الرحيم، جاءت تفند شبهات الكفار، لتتحصن ضدها. فإذا قيل لهم: اتقوا عذاب الدنيا وعقاب الآخرة، وجيء إليهم بالآيات أعرضوا. وإذا قيل لهم: أنفقوا برروا بخلهم بأن الله لو شاء أطعم الفقراء. وإذا خوفوا بالساعة، يقولون: متى هذا الوعد؟.

ولكي تخشع القلوب، و تستعد لفهم الحقائق، وتنقشع عنها سحب الغفلة، يذكر السياق بالساعة، ويقول: ماذا ينتظر هؤلاء وماذا يستعجلون؟. إنها ليست إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم في جدالهم الفارغ حول حقائق الرسالة، فتأتيهم بغتة بحيث لا يستطيعون كتابة توصية ولا إلى أهلهم يرجعون.

وبعد أن يمكثوا ما شاء الله في القبور ينفخ في الصور، فإذا هم يخرجون من أجداثهم، وبصيحة واحدة تراهم حاضرين أمام ربهم وهم يزعمون أنهم كانوا نياما ويتساءلون: من بعثنا من مرقدنا؟! فيأتيهم الجواب: هذا ما وعد الرحمن و صدق المرسلون. ويكشف السياق عن مشهدين من مشاهد القيامة، بعد أن يثبت عدالة الجزاء: فهنا ترى أصحاب الجنة في شغل يتلذذون وهم فاكهون، بينما ينفصل المجرمون عنهم.

بينات من الآيات:

[٤٥] بصائر القرآن تهدي إلى أن حياة البشر هي نتيجة ثقافته وسلوكه، عقيدته وعمله، وهكذا تجعل -هذه البصائر- لكل ظاهرة أو حدث سببا متصلا بإرادة البشر واختياره، وبعكسها تماما أفكار الجاهلية -قديمها وحديثها- فهي تفشل في ربط حياة البشر بسلوكه، لأنها لا تؤمن بالغيب، ولا تعترف بإله يقدر ويدبر، برب يهيمن ويسير، فلا تقدر على ربط ما يجري على الإنسان بما يفعله، فإذا أصيب المؤمن بمرض أو فقر أو ذلة، فتش عن سبب ذلك، وعادة يجده في ذنب ارتكبه فعاقبه الله بذلك البلاء ليطهره، بينما يبقى الكافر سادرا في غيه، إذ لا يعتقد بأن هناك مدبرا لشؤون العباد، وبالتالي ينسب كل شيء للصدفة، أو لأسباب ظاهرة لا تغنيه علما، ولا تفيده حكمة ورشدا.

وهكذا كانت ثقافة المؤمنين عقلانية، وثقافة غيرهم جاهلية، أنى زعموا العلمية والعقلانية.

وهكذا نرى السياق القرآني هنا يذكر بالتقوى بعد سرد آيات الرحمن، لأن معرفة الرب

وسلطانه هي صلة الربط بين عمل البشر وجزائه.

أما الكفار فإنهم يعرضون إذا أمروا بالتقوى، إنهم لا يؤمنون برب يدبر شؤونهم، فلا يعلمون أن ما يصيبهم من ضراء وبأساء فإنما بما كسبت أيديهم فكيف يتقونها؟.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ من عذاب الدنيا، من صيحة واحدة تصيبكم كما أصابت قوم المرسلين في أنطاكية، من غرق أو حرب أو أي بلاء آخر.

﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ من عذاب الآخرة الذي لا يبقي ولا يذر.

وفي الحديث المأثور روى الحلبي عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال: «مَعْنَاهُ اتَّقُوا ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ مِنَ الذُّنُوبِ ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ مِنَ الْعُقُوبَةِ»(١).

﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ فإذا اتقيتم العذاب باجتناب المعاصي فإن ذلك يوفر لكم فرصة رحمة الله.

[٤٦] ولكنهم يعرضون لجهلهم بربهم، ولا ينتفعون بالآيات التي تترى عليهم، وكلها تنطق بضرورة التقوى.

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ وهل تنفع الآيات من يعرض عنها؟.

[٤٧] ويضرب السياق الأمثال لإعراضهم عن آيات التقوى، والمعاذير التي يلقونها أمام من يأمرهم بها ، فحين يؤمرون بالإنفاق على الفقراء، تراهم يزعمون أن الله -سبحانه وتعالى- قد خلق بعض الناس أغنياء وبعضهم فقراء، بعضهم سادة والبعض عبيدا، فلا ينبغي السعي لردم الفجوة بين الطبقات، أو لتحقيق المساواة بين الناس. هكذا يبررون استئثارهم بالخيرات في كل عصر، فالمستكبرون يزعمون أن تخلف البلاد المستضعفة شأن مفروض عليهم من الله، أما تقدمهم الاقتصادي فإنه من أنفسهم، والطبقات المترفة تزعم أن غناهم آت من سعيهم، أما فقر الآخرين فهو من ربهم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ وسواءٌ كان القائل هو الله، أو المؤمنون الناطقون عن ربهم، فإن إجابتهم واحدة وهي الرفض، ولكن ألا يعلمون أن ما بأيديهم من الغنى هو -في الواقع- رزق الله، ولو شاء الله لمنعهم منه؟. أو لا ينظرون إلى أن توزيع المعادن على أقطار

---

(١) مجمع البيان: ج٨، ص٢٧٨.

الأرض تم بأمر الله، وأن خصوبة الأرض كانت بأمر الله، وحتى توفر المناخ المناسب لنمو الصناعة كان بإذن الله؟.

ولو تدبر كل غني في الأسباب الخفية لنمو ثروته لرأى يد الغيب وراءها، فأولى بهم الإنفاق مما رزقهم الله، مادام الله يأمر به، وهو الذي استخلفهم في ما رزقهم ليبتليهم به.

ألا يرون أن كل شيء في عالم الإنسان يوحي بأنه جاء لهذه الدنيا لكي يمتحن؟. فقد جعل الله امتحان الفقير بالغني ليرى هل يصبر، وامتحان الغني بالفقير ليعلم من ينفق ومن يبخل وافتتن العالم بالجاهل وأمره بأن يعلمه كما ابتلى الجاهل بالعالم وأمره بأن يتعلم منه، وجعل الحكام فتنة للناس وافتتن الناس بحكامهم وقال عز من قائل: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٠].

ولكن الكفار زعموا أن غناهم وعدم الفقراء أمر حتمي من عند الله.

﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وهكذا خاطب الكفار الذين آمنوا لأنهم الذين أمروهم بالإنفاق، ولأنهم المؤمنون بالله، فكان الأحرى بهم -حسب زعمهم- أن يؤمنوا بالقدر، فقالوا: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ ولم يقولوا أننفق، لأنهم منعوا عن الفقراء حتى الطعام الذي هو حق كل حي، فكيف بالإنسان الكريم عند ربه.

انظر إلى مدى إمعانهم في البخل، والإعراض عن التقوى؟. بلى، الله يطعم من يشاء من رزقه الواسع، ولكنه جعل رزق هؤلاء الفقراء على أيديكم، لينظر كيف تعملون، وهو القائل -حسب الحديث القدسي-: «**المَالُ مَالِي وَالفُقراءُ عِيالِي وَالأَغْنِياءُ وُكَلائِي فَمَنْ بَخِلَ بِمَالِي عَلَى عِيالِي أُدْخِلهُ النارَ وَلا أُبَالِي**»[1].

ثم إن ربنا سبحانه أكرم بني آدم فجعلهم أحرارا في الدنيا، ووفر في الأرض ما يزيد على رزقهم، إلا إن كسل البعض عن السعي بأفكار جاهلية، واستئثار البعض برزق الآخرين تحت مظلة من القوانين الجائرة، هما السببان الرئيسيان لانتشار الفقر. ومن أساليب محاربة الفقر نبذ الثقافة الجاهلية، وإصلاح الأنظمة الجائرة. والإنفاق واحد من أهم السبل لمحاربة الفقر لأنه علاج فوري، ووسيلة مستقبلية أيضا لتوزيع الثروة وتدويرها وتحريك الطاقات بها.

ولكن الكفار جحدوا الثروة، وزعموا أنها حقهم الإلهي بل قالوا لمن أمرهم بالإنفاق: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ لأنكم تريدون تغيير سنن الله، وجعل الفقراء أغنياء، وهم قد

---

(١) جامع الأخبار: ص٨٠.

خلقوا فقراء.

وترك السياق لقارئ القرآن الحكيم الحُكمَ على هذه العقلية، ولا ريب أنه يحكم عليها بالضلال المبين. ولذلك احتار المفسرون في معرفة قائل هذه الكلمة، فمنهم من قال: إنهم الكفار، ومنهم من قال: بل هم المؤمنون قالوها للكفار، وقال بعضهم: بل الله قالها للكفار.

والظاهر أنها كلمة الكفار للمؤمنين، ولكنها ترد عليهم بطبعها، فبمجرد أن يقول المجنون للذي يأمره بالحكمة: إنك مجنون، نعرف أن المتكلم بنفسه مجنون. أليس كذلك؟. هكذا نعرف ضلالة الكفار بمجرد أنهم يقولون لمن يأمرهم بالإنفاق: إنك في ضلال مبين، كلا.. إنهم هم في ضلال مبين!.

[٤٨] من التبريرات النفسية التي يتشبث بها الكفار هو استبعاد الجزاء زمانيا، ونجد في آيات الذكر رد هذه الشبهة بكلمات بليغة نافذة، فالجزاء ليس لعبا حتى يستخف به، إنه الساعة التي ثقلت في السماوات والأرض، فماذا ينتظرون؟ وبم يستهزؤون؟.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ وبالرغم من أن كلمة ﴿مَتَىٰ﴾ أصلاً للاستفهام، إلا إنها هنا جاءت للاستنكار بدليل قولهم: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فهم كانوا يتوقعون جزاءً عاجلا بعد أن أنذروا بالعذاب، وأمروا باتقاء ما بين أيديهم من عذاب الدنيا، و ما خلفهم من عذاب الآخرة.

[٤٩] إن النفس البشرية لا ترى بطبعها إلا ما أمامها من الحقائق المشهودة، ولا تتأثر بالمستقبل البعيد حتى ولو كان من الحقائق المعلومة يقينا، وبضغط من الشهوات العاجلة، وبوساوس إبليس تعرض النفس عن الغيب للشهود، وعن المستقبل للحاضر؛ ولا بد من تصوير الغيب، وإبراز مشاهد من المستقبل حتى تهتم النفس بها.

ولعل منهج القرآن في تصوير مشاهد البعث والجزاء باستثارة قوة الظن والخيال يتم لهذه الغاية. فهو ليس مجرد أسلوب في البيان، بل هو منهج علمي لإصلاح النفس، وإيجاد التوازن بين قوة الشهود وحقائق الغيب. وإنما المؤمنون الذين يستشرفون المستقبل، وينظرون إلى الغيب بقوة الظن ، ويستثيرون كوامن الخوف والرجاء بالتذكرة الذاتية.

والسياق هنا يصور جانبا من مشاهد الهلاك ثم النشور والجنة والنار.

﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ إنهم يستعجلون العذاب، ويقولون: متى هذا الوعد؟ لكنهم كأنهم لايشعرون بأنهم ينتظرون بذلك أمرا عظيما، إذا جاء

لا يمكن رده أو تأجيله، فإنما هو صيحة واحدة لا ثانية لها، لأنها القاضية، وهي تعمهم بالأخذ بغتة في وقت تراه يخوضون في جدلياتهم التي لا تغني شيئا.

والإنسان يتمنى -عادة- لو يغير الحقائق بالجدل، زاعما أنه لو نفى شيئا فإنه ينتفي أو أنه لو أسكت صاحب الحق فإن الحق يزول، كلا.. فحتى في حالة جدالهم وخصامهم تأخذهم الصيحة.

[٥٠] والمباغتة سريعة إلى درجة أنها تمنعهم من أن يخلفوا وصيتهم، بالرغم من أنهم لا يعودون إلى أهلهم فهم أحوج ما يكونون إلى التوصية ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ بأي شكل كانت التوصية قولا أو إشارة، وإذ لا يستطيعون حتى التوصية وهي أسهل الأشياء، وأشدها ضرورة، فهم لا يستطيعون -بالطبع- إصلاح ما أفسدوه من واقعهم!

﴿وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ فهم ليسوا على سفر سرعان ما يعودون منه حتى لا يحتاجوا إلى وصية.

ويبدو أن الآيات تصور مشهد العذاب الدنيوي المتمثل في الهلاك بالصيحة، مثل ما أصاب الذين كذبوا بالمرسلين الثلاثة في القصة الماضية.

وقال البعض: «إنها تصور قيام الساعة.. والساعة أدهى وأمر»، وجاء في الحديث عن الرسول ﷺ: «**تَقُومُ السَّاعَةُ وَالرَّجُلانِ قَدْ نَشَرَا ثَوْبَهُما يَتبايَعانِه فَما يَطْوِيانِه حَتَّى تَقُومَ وَالرَّجُلُ يَرْفَعُ أَكْلَتَهُ إِلى فِيهِ فَما تَصِلُ إِلى فِيهِ حَتَّى تَقومَ وَالرَّجُلُ يَليطُ حَوْضَهُ**[١] **لِيَسْقِي ماشِيَتَه فَما يَسْقِيها حَتَّى تَقُوم**»[٢].

ولعل الحديث القرآني يشمل الجزاء بصفة عامة في الدنيا بعذاب الاستئصال أو في الآخرة عند قيام الساعة.

[٥١] ويمكث الكفار في قبورهم ما شاء الله حتى ينفخ في الصور الملك الكريم إسرافيل، وبمجرد النفخ تراهم يسرعون إلى ربهم حيث وضع الميزان العادل.

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ ونجد في بعض الآيات أنهم عند النفخ قيام ينظرون. فهم قيام في لحظة، ولكن سرعان ما يتحركون حيث يريد الله.

وذكر الراغب في مفرداته إن: «النسل في الأصل الانفصال عن الشيء، ...وإنما سمي

(١) يسوي حوضه بالطين حتى لا يتسرب منه الماء.
(٢) بحار الأنوار: ج٦، ص٣١٩.

ولد الإنسان نسلا لأنه ينفصل عنه»[1]. ولعلنا نستوحي من هذا أن القبر يضحى كرحم الأم ينسل منه أبناء آدم نسلا.

[٥٢] وهنالك يعترف هذا الإنسان الخصيم الذي استهزأ بكل المرسلين، وأعرض عن كل الآيات، و ينادي بالويل لنفسه، ويزعم أنه كان نائما. ويتساءل: أية قدرة استطاعت بعثه من محل نومه بعد طول الرقاد؟!.

﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَاۜ﴾ وهنالك يأتيه النداء من الملائكة: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ إنه الله الذي أنجز وعده، ليرحم عباده المؤمنين، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾ [مريم: ٦١]. ويمكن أن يكون القائل هم الكفار، فيكون اعترافا منهم بوعد الله، ويمكن ألا يكون لهذه الكلمة أساسا قائل خاص بل يكون مقتضى المقام هذا المقال، سواء وجد قائل أم لم يوجد.

﴿وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ الذين أنبؤوا عن الرحمن وعده.

إن سورة يس قلب القرآن، وهو يعبر عن ضمير الخليقة، الذي يتمثل في رحمة الله، ولعله لذلك تتكرر كلمة ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ فيها.

[٥٣] بصيحة أهلك القوم جميعا، وبصيحة ابتعثوا جميعا، وبصيحة يحضرون في مقام الحساب عند ربهم ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾، ويبدو أن التعبير هنا يوحي بما يوحيه قوله -سبحانه- في خاتم السورة: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، ولكن هذا التعبير جاء في مقام الشدة فناسب الحديث الصيحة، وهي تدل على سرعة نفاذ أمره، وأن كل شيء مستجيب لإرادته.

[٥٤] هنالك يتجلى العدل الإلهي الذي قامت به الخليقة جميعا، فلا يظلم أحد شيئا، بل حتى جزاؤهم إنما هو ذات أعمالهم التي تتجسد، فإن كانت صالحة فهي جنات الخلد، وإن كانت الأخرى فعذاب شديد. ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾، والله ليس بظلام للعبيد، لا في ذلك اليوم ولا في أي يوم، بلى؛ إنه أعطى الحرية المحدودة للناس في الدنيا ليبتليهم بها فظلموا أنفسهم، ولولا أنه جعل دار البقاء (الآخرة) وجعل فيها جزاء وافيا للظالم و المظلوم لما سمح لأحد بظلم أحد حتى في الدنيا، لأنه ليس بظلام للعبيد. وأساسا إننا نعرف وجود الدار الآخرة من خلال معرفتنا بأمرين:

أولاً: أن الله عزيز رحيم فلا يمكن أن يظلم بحضرته أحد من عباده دون أن يغيثه.

(١) مفردات غريب القرآن: ص٤١٩.

ثانياً: أنه قد يدع الظالم يوغل في ظلمه في الدنيا فنعرف أن هناك دارا أخرى يجازي فيها الظالم و ينتصر منه للمظلوم.

﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فإن كان هنالك جزاء سيئ فهو أعمالكم التي تجسدت. أرأيت الذي يشرب ماءً قذرا فيمرض، هل ظلمه الطبيب الذي نهاه وحذره من العاقبة، أم إن مرضه هو ذات الماء القذر الذي شربه؟.

[٥٥] أما أصحاب الجنة الذين فازوا بصحبة الجنة وامتلاكها ووراثتها في الدنيا بأعمالهم، فهم في شغل عما يجري في الطرف الآخر عند أهل النار فلا يحزنهم شيء ولا يفزعهم.

﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾ والشغل بذاته نعمة لأنه ينشط الجسم، وينفس عن النفس، إلا إن الاشتغال بما يفكه أعظم نعمة وأشد راحة.

[٥٦] بماذا يشتغل هؤلاء في الجنة، وكيف يقضون ساعاتهم التي لا تنتهي، ولماذا لا يملون؟.

يبدو أن أعظم اللذات البشرية الاشتغال بالأزواج المطهرة، لأنه إنس معنوي، وسكن روحي، ولذة جسدية ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾ فهم في ظلال يحسون بالسكن، وهم على الأرائك يستريحون بلا تعب، وهم متكئون لأنه لا يشغلهم شيء يتحفزون لأدائه، فهم في كامل الراحة، وقد روي عن رسول الله ﷺ قوله (عن صفة أهل الجنة): **«والْمُؤْمِنُ سَاعَةً مَعَ الْحَوْرَاءِ وسَاعَةً مَعَ الآدَمِيَّةِ وسَاعَةً يَخْلُو بِنَفْسِهِ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئاً يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ»**[1].

[٥٧] وبعد لذة الإنس مع الأزواج في مقعد مريح تأتي لذة الطعام، وأفضل الطعام ما يتفكه به الفرد بعد قضاء حاجته الضرورية من الطعام، لأن أصحاب الجنة لا يعدمون الطعام حتى يحسوا بالجوع ويتألموا به حينا من الوقت مثلما البشر في الدنيا.

﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ فكل ما تشتهيه أنفسهم يجدونه أمامهم.

[٥٨] وأعظم النعم جميعا نعمة الحضور عند رب الرحمة الحنان الكريم. فأي نعمة أسمى من الجلوس عند المليك المقتدر، وتلقي السلام القولي منه، بالإضافة إلى حالة السلام التي يعيشون فيها، ذلك أن حالة الأمن والسكينة والسلام الفعلي هي من نعم الجسم غالبا بينما السلام القولي نعمة للروح أيضا ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾.

(١) الكافي: ج٨، ص٩٩.

[٥٩] ولا يشترك في مهرجان النعم المتنوعة أولئك المجرمون، الذين يفصلون عن النعم، وأي حرمان أعظم من طردهم عن مائدة الكريم حقا؟! يا للخسارة الكبرى خسارتهم.

﴿ وَٱمْتَٰزُواْ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ جاء في تفسير علي بن إبراهيم حول هذه الآية: «**إِذَا جَمَعَ اللهُ الخَلْقَ يَوْمَ القِيَامَةِ بَقُوا قِيَاماً عَلَى أَقْدَامِهِمْ حَتَّى يُلْجِمَهُمُ العَرَقُ فَيُنَادُوا يَا رَبِّ حَاسِبْنَا وَلَوْ إِلَى النَّارِ قَالَ فَيَبْعَثُ اللهُ رِيَاحاً فَيَضْرِبُ بَيْنَهُمْ وَيُنَادِي مُنَادٍ ﴿ وَٱمْتَٰزُواْ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ فَيَمِيزُ بَيْنَهُمْ فَصَارَ المُجْرِمُونَ فِي النَّارِ وَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ إِيمَانٌ صَارَ إِلَى الجَنَّةِ**»[1].

(١) تفسير القمي: ج٢ ص٢١٦، بحار الأنوار: ج٧ ص١٠٣.

وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم

﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا [1] كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا [2] عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ [3] عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

لقد أكد الله عهده مع بني آدم بألا يعبدوا الشيطان لأنه عدو مبين، وأن يخلصوا عبادتهم لله رب العالمين، ليكونوا على صراط الله المستقيم، ودليل عداوة الشيطان أنه: أضل خلقا كثيرا حتى ظهر انحرافهم و هلكوا وأمسوا عبرة لنا، ولكن الناس لم يكونوا يعقلون ذلك. ثم استحقوا بعد العذاب في الدنيا النار، و قيل لهم: ادخلوا جهنم، واصلوا بنارها، وهنالك

(١) جبلًا: خلقاً.

(٢) لطسمنا: أي لأعميناهم، يقال طمس على عينه إذا محاها حتى لم يبق منها أثر.

(٣) لمسخناهم: قلب الصورة إلى خلقةٍ مشوهة كما المسخ إلى قردة وخنازير.

لا يمكنهم الجدل، بل: يختم الله على أفواههم، و يستنطق أيديهم، ويشهد عليهم أرجلهم بأعمالهم.

وإن نعمة الهداية من الله كما نعمة العين والأذن والإحساس، ولو شاء الله لأمحى أعينهم حتى يتبادروا إلى الصراط فلا يبصرونه، أو يمسخهم وهم في مكانهم حتى لا يقدرون على التقدم أو العودة.

وشاهد آخر على أن الهدى من الله العقل الذي يسلبه الله ممن يعمر حتى يعود طفلا، فمن بلغ من العمر أرذله نكسه الله في الخلق. أفلا يعقلون؟

وكذلك الرسالة من الله وهي ليست شعرا، فالله لم يعلم نبيه شعرا ولا ينبغي له -فالشعر يحتوي على ثقافة باطلة وغامضة، وهي تبرير وتكريس للواقع الفاسد، بينما الكتاب بخلاف ذلك كله- فما جاء الرسول إلا بالذكر الذي تصدقه الفطرة والعقل، وقرآن مبين واضح لا غموض فيه، وهو نذير لمن كان له قلب حي فهو تحد للفساد والطغيان، وهو بالتالي حجة على الكافرين.

بينات من الآيات:

[٦٠] حينما نشر الله ذرية آدم في صورة (ذر) وقال لهم: ألست بربكم؟ فقالوا: بلى، أخذ منهم عهدا بعبادته، ورفض الأنداد من دونه.

وهكذا عندما فطرهم على معرفته، وأودع ضمائرهم عقولا تهديهم إلى ربهم.

ثم بعد ذلك بعث إليهم رسله منذرين ومبشرين، يستأدونهم ميثاقه، ويستثيرون عقولهم بالتذكرة به سبحانه، وكان في ذلك عهد الله إلى بني آدم بعبادته، وترك عبادة الشيطان، ولكن هل يمكن أن تجتمع عبادة الله مع عبادة الشيطان؟

كلا.. فلا بد من رفض الشيطان لتتم عبادة الرحمن ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ ﴾ أين هو الشيطان؟ إنه يجري مع ابن آدم مجرى الدم ولكن القلب ينتبه بإذن الله وبما ألهمه الرب من فجوره وتقواه إلى وجوده ويميز وسواس الشيطان عن وحي العقل.

وعندما يعقد الإنسان العزم على محاربة الشيطان يتميز في قلبه أكثر فأكثر نداء الغواية عن فطرة الهداية.

ثم يأتيه الوحي عبر رسل الله ورسالاته لتتم الحجة عليه، فإذا بنداء الرحمن في قلبه يلتقي بندائه على لسان النبي وكتاب الله الذي أرسل به.

وهكذا يمتلك كل شخص مقياسين لمعرفة الشيطان. الأول: ما بقلبه من العقل، والثاني: ما أوحى به الرسل.

﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ يسعى الشيطان لخداع البشر بأنه صديقه، وأن ما يشير إليه من الضلالة محض نصيحة. وقد يسترسل البعض معه بحجة أنهم خدعوا به، ولكن ربنا يقول: إنه عدو واضح، ولا عذر لأحد في اتباع عدوه، إلا إذا خدع نفسه، وسر عداوته أنه يأمر بما يعلم الإنسان أنه مضر.

أو لا يأمر بالإسراف والتبذير، وبالفحشاء والمنكر، وبالاعتداء والظلم والبغي، مما يستقبحه البشر؟! لا أقل عندما يصدر من الآخرين، ومما يرفض أي عاقل نسبته إليه.

كلنا نعرف أن مآسي البشرية آتية من الظلم والعدوان والاستئثار والبخل والكسل والاختلاف، ونحن جميعا نعرف أن ذلك هو من وحي الشيطان، أفلا نتخذه عدوا؟!.

وعبادة الشيطان لا تعني السجود له، إنما طاعته بوعي، والتسليم التام لإغوائه. وتتجسد عبادة الشيطان في طاعة أوليائه من سلاطين الجور، وطغاة السلطة والثروة.

ويقول الفخر الرازي في قوله: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ معناه: «لا تطيعوه، بدليل أن المنهي عنه ليس هو السجود له فحسب بل الانقياد لأمره والطاعة له، فالطاعة عبادة. لا يقال: فنكون نحن مأمورين بعبادة الأمراء حيث أمرنا بطاعتهم في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[النساء: ٥٩] لأنا نقول: طاعتهم إذا كانت بأمر الله لا تكون إلا عبادة لله وطاعة له». وأضاف: «وإنما عبادة الأمراء هو طاعتهم فيما لم يأذن الله فيه»[1].

[٦١] رفض عبادة الشيطان تهيؤ لعبادة الله، بل مجرد الكفر بالأنداد عبادة الله، كما إن من ضيع عبادة الرحمن وقع في شرك الشيطان، لذلك قارنت الآيات بين رفض هذه والالتزام بتلك، كقوله سبحانه: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾[البقرة: ٢٥٦].

وهنا يقول ربنا: ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ واستقامة الصراط نابعة من أن

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي: ج ٢٦ ص ٩٦.

الله الذي رسمه لنا تعالى عن الميول التي تضلل البشر يمناً ويسارا، وعن الجهل الذي يتطرف صاحبه ناحية الإفراط أو التفريط.

ومن أبرز مظاهر الاستقامة في الصراط أن المؤمنين مجدون على السير فيه، متحدين ضغوط الهوى والشهوة والسلطة والثروة والتزييف والتلبيس بتوفيق ربهم.

ولعل الفرق بين القويم والمستقيم يكمن في أن المستقيم يوحي بأن صاحبه يستقيم عليه متحديا عوامل الانحراف.

وعبادة الله تعني طاعته، وطاعته لا تتجزأ، فمن صلى دون أن يؤتي الزكاة، أو خضع للإسلام في شؤونه الشخصية دون نظامه الاقتصادي والسياسي، فإنه لا يعبد الله، بل إنه يعبد الشيطان.

إن جذر الشرك بالله هو الاستسلام أمام الضغوط، وإنما المؤمن الذي يتحدى الضغط، أما من جعل القرآن عضين فقال: نؤمن ببعض ونكفر ببعض، وأراد أن يؤمن فقط بما يتفق ومصالحه، وأما عندما تعارض مصالحه يذهب معها فإنه السلوك الشركي الذي يحاربه القرآن.

فالقرآن لا يواجه إلا قليلا أولئك الذين يكفرون بالدين رأسا، وإنما يجادد في الأكثر أولئك الذين يشركون بالله، فيخضعون لشهواتهم وسلاطينهم والمترفين، ويخدعون أنفسهم بعبادة الله فيما لا تتنافى و مصالحهم وشهواتهم وكبرائهم.

[٦٢] عندما يتعظ المرء بتجارب غيره يهتدي إلى الطريق، وإنما ينتفع بها من يعقلها ويجعلها وسيلة لإثارة دفائن عقله، وكوامن فطرته.

وإن من أظهر الحقائق التي يعقلها من شاء الهدى هي: أن بعض الناس في ضلال، فأنى ذهبت، وأي شخص سألت، قال لك: إن بعض الناس على خطأ، ولكن لا تقودهم هذه الحقيقة إلى معرفة حقيقتين أخريين هما:

أولاً: إنه كما أضل الشيطان كثيرا من الناس كذلك يضلنا فلنحذر منه.

ثانياً: ماذا كانت عاقبة الضالين. أوليس الهلاك؟! فلماذا لا نعتبر بذلك؟!.

﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ﴾ فإذا كان الشيطان قد نجح في إضلال خلق كثير منكم فلماذا لا يحذر منه؟!.

﴿أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ﴾ فهذا فريق أضله الشيطان، وهداه إلى سبيل البوار، وأهلكه أمام أعينكم، ثم لم يصبح عبرة لفريق آخر، وهكذا استمر الشيطان يضل منكم فئاما بعد فئام، دون أن يعقل اللاحقون، ويعتبروا بمصير الغابرين.

بينما كان مقتضى وجود العقل عند البشر هو أن يستفيد منه في تحديد طريق النجاة، وتجنب سبل الهلاك.

ومن أبرز ما يستفيد العاقل من مصير الغابرين كيفية إضلال الشيطان لهم، ذلك أن الشيطان ليس خلقا غريبا يقتحم عليك بيتك حتى تتحذر منه، كلا.. إنه في عروقك، في أعماق فؤادك، في أقرب الأصدقاء إليك، في زوجك وأخيك، في تربية أمك وأبيك، في كلمات معلمك، وحتى في توجيهات من نصب نفسه عالم دين. وأولئك الذين هلكوا جاءهم الشيطان من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وشمائلهم، وشبه لهم، وزين لهم، وبرر لهم بوسائل شتى. فإذا أردنا أن نمنعه. فلا بد أن نكون في أقصى الحذر والعقل.

[٦٣] إننا رأينا هلاك الغابرين ولا تزال آيات دمارهم مكتوبة على آثارهم، ومحفورة في أفئدة الأجيال، ولكن الأدهى من هلاكهم النار التي وردوها ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

[٦٤] إنهم سوف يدخلونها، ويصطلون بنارها بسبب كفرهم ﴿ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

[٦٥] إنهم كانوا يبررون كفرهم بأعذار واهية، ويجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق، ويزعمون أن جدالهم يغني عنهم شيئا، ولكن في ذلك اليوم الرهيب لا يسمح لهم بالكلام، وإنما تنطق عليهم جوارحهم بدل ألسنتهم. ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ فلا يعتذرون ولا يجادلون؛ ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ فالأيدي والأرجل تشهد بأعمالهم، فلا سبيل إذا إلى الإنكار أو الاعتذار أو حتى إلى الجدال.

ولعل الشهادة هنا تصويرية. أو لسنا قد اكتشفنا -بما أوتينا من علم قليل- كيف نستنطق أصابع اليد لنعرف المجرمين بطبع الإبهام؟ أو لم نبتدع جهاز كشف الكذب المعتمد على نبضات القلب؟ أولم نهتدي إلى مرتكبي الجرائم بآثارهم الخفية؟ ولا ريب أنه كما تنعكس الأعمال على الطبيعة، تنعكس آثارها على الجوارح ذاتها، بيد أنا لما نكتشف وسيلة لمعرفة أبعادها.

ولكن الرب -سبحانه- يظهر الخفايا في ذلك اليوم الرهيب، فيرى الإنسان شريطا

مسجلا على يده ورجله يعرض صورا ناطقة بكل ما جرى.

[٦٦] كيف يستنطق الرب الأيدي والأرجل في ذلك اليوم؟ لنعد إلى هذه الحياة ونتساءل: من ذا الذي رزقنا الجوارح أوليس الله؟! فهو القادر على أن يجعل الأيدي تنطق كما جعلها هنا تبطش.

ولعل هذه هي المناسبة لتذكرة السياق بنعمة البصر والإحساس والعقل في الآيات الثلاث التالية، وهي في ذات الوقت تمهيد لبيان نعمة الهداية. فالله الذي آتانا نعمة العين ولو شاء لطمسها، والذي رزقنا سائر النعم التي نهتدي بها من سمع ولمس وذوق وما أشبه ولو شاء لمسخهم على مكانتهم فلا يتقدمون، فلا يستطيعون مضيا إلى الأمام ولا عودة إلى الوراء. والذي أعاد البشر إلى حالة الضعف عندما يعمره طويلا، هو الذي أرسل إلى الناس من يهديهم إلى صراط العزيز الرحيم.

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ ﴾ أرأيت كيف تمسح الكف حفنة من الرمل حتى لا تبقي لها أثرا على البسيطة؟ كذلك لو شاء الرب لمسح على الأعين حتى لا يبقي لها أثرا على الوجه ﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ ﴾ فإذا هم يتبادرون إلى الطرق لعلهم يهتدون إلى سبيلهم، ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴾ ربما تشير الآية إلى أن الذي يفقد عينه يحس بعقدة الضلالة، فيبادر لمعرفة الصراط، وتلمس الطريق، لأنه يخشى الانحراف عنه والوقوع في المهالك، ولكن دون جدوى إذ لا يملك ما يرى به طريقه.

وقال البعض: «إن الاستباق هو تجاوز الطريق والانحراف عنه»، بينما قال آخرون: «إنه التدافع على الطريق شأن العميان الذين يتزاحمون على الطريق لعدم رؤية بعضهم».

وأنى كان فإن المبادرة والتسابق لا يجديانهم نفعا، لأنهم فقدوا وسيلة الرؤية وهي الأعين. وهكذا من لم يرزقه الله الهدى فإنه لا يجد من يهديه سبيلا حتى لو بادر الصراط وتدافع عليه.

[٦٧] أعظم النعم في مجال حركة الإنسان العين، ولكن هناك نعم أخرى كاللمس والشم والإحساس يتوسل إليها فاقد البصر. ولكن من الذي أسبغ هذه النعم؟ أوليس الله؟! ولو شاء لسلبها، وجعل الإنسان مسخا جامدا على مقامه كالحجر.

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ ﴾ فإذا بهم كالأحجار؛ ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا ﴾ نحو الأمام، ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ ﴾ إلى الخلف، وبماذا يتقدم الإنسان أو يتأخر؟ أليس

بالسمع والإحساس؟! فإذا فقدها جميعا فهو أضعف من أحقر حشرة.

[٦٨] إذا فقد الشخص بصره لم يهتد إلى طريقه، وإذا فقد سائر الجوارح لا يستطيع مضيا ولا عودة، ولكنه يبقى يمتلك العقل، بيد أن العقل بدوره موهبة إلهية إن شاء وأراد الله سلبها، وفعلا إنه يسلبها عندما يبلغ الإنسان أرذل العمر فلا يعلم بعد علم شيئا.

﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ ﴾ فبدل أن ينمو ويتكامل باستمرار تراه يبلغ قمة رشده البدني والعقلي في حدود الأربعين، ولا يلبث أن يسير القهقرى، لأن خلايا المخ التي تنتشر في أطراف الجسد في صورة أعصاب، وتقوم بالدور الرئيسي في بناء الجسم، إنها تستهلك مع الزمن ولا تعوض أبدا، ويقول العلم: إذا بلغ المرء الثمانين من عمره فقد نصف خلايا مخه.

والتنكيس الذي يصيب البشر يشمل الجوانب المادية، كطريقة مشيه ووقوفه وفقد أسنانه وضعف قواه ، كما يطال الجوانب المعنوية، فهو يفقد قدراته العلمية وخصائصه النفسية فتراه يرجع طفلا يحرص على ما يخصه، ويعض بنواجذه على حياة، ويضحى خائفا يلاحقه هاجس الزائر المخيف الذي قد يدخل عليه في أية لحظة وبلا استئذان ألا وهو الموت.

﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ ليذعنوا لله الذي أسبغ عليهم تلك النعم الآن، ويسلبها منهم عند الشيخوخة.

[٦٩] والله الذي أعطانا جوارح لنهتدي بها في حياتنا من سمع وبصر وعقل هو الذي أنزل الكتاب ليهدينا به إلى الصراط المستقيم.

ونحن بحاجة إليه، ولا يمكننا الاستغناء عنه بالثقافات الموجودة لدينا التي هي أقرب إلى الشعر منه إلى بيان الحقائق.

بينما القرآن جاء ذكرا وبيانا وإنذارا وتبشيرا.

﴿وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ ذلك أن الشعر يتميز بالخصائص التالية:

أولاً: يعكس ثقافة المجتمع السائدة.

ثانياً: يكرس الواقع الفاسد بتبريره وتلميع رموزه وستر أخطائه.

ثالثاً: يخدر الإنسان ويرضيه بوضعه بإثارة مشاعره الجاهلية من الفخر والعصبية والاعتزاز بالإثم.

وبكلمة إذا كان للإنسان بعدان: بعد جاهلي يعكس شهواته وأمنياته ونوازع الشر عنده، وبعد رسالي يعكس عقله وعواطف الخير فيه، فإن الشعر إفراز للبعد الجاهلي وتكريس له، سواء عبر عنه بقصائد موزونة ومنسقة أو بتعابير نثرية وعادية، ولكن بما أن الباطل مرفوض عند البشر بذاته فإن أصحاب الثقافة الجاهلية يزينونها للناس تارة بأنغام الشعر، وأخرى بأنواع البديع والبلاغة.

بينما الحق ليس بحاجة إلى كل ذلك، وإن كان الأدب الرفيع والحلة القشيبة، والبلاغة النافذة يزيدها جمالا وبهاء، إلا أن قدرته ليست في حلته إنما في محتواه، بينما قدرة الثقافة الجاهلية في التعبير عنها، ولذلك سمي شعرا، إشارة إلى أنه لولا وزنه وقافيته والتشبيهات الخيالية فيه لا يعتني به أحد، حتى قالوا: الشعر أعذبه أكذبه.

وهكذا جاء في الحديث في تفسير قوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ **قَالَ أَبُو عَبْدِ الله** عليه السلام: «**نَزَلَتْ فِي الَّذِينَ غَيَّرُوا دِينَ الله (وَ تَرَكُوا مَا) أَمَرَ اللهُ ولَكِنْ هَلْ رَأَيْتُمْ شَاعِراً قَطُّ تَبِعَهُ أَحَدٌ إِنَّمَا عَنَى بِهِمُ الَّذِينَ وَضَعُوا دِيناً بِآرَائِهِمْ فَتَبِعَهُمُ النَّاسُ عَلَى ذَلِكَ**»[١]. وفي رواية مأثورة عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في تفسير ذات الآية قال: «**هَلْ رَأَيْتَ شَاعِراً يَتَّبِعُهُ أَحَدٌ إِنَّمَا هُمْ قَوْمٌ تَفَقَّهُوا لِغَيْرِ الدِّينِ فَضَلُّوا وَ أَضَلُّوا**»[٢].

هذا عن الثقافة الجاهلية أما عن رسالات الله فإنها تتميز بما يلي:

أولاً: أنها تذكرة، فهي إثارة للعقل، وإيقاظ للضمير، وتحريض للفكر، وأبلغ حجة لصدقها أنها تتوافق وعقل الإنسان وما أودعه الله فيه من فطرة التوحيد.

ثانياً: أنها بلاغ مبين، فليست مجرد كلمات مزوقة لكنها جوفاء ، إنما هي بيان للحقائق بوضوح شديد.

ثالثاً: إنها تنذر بالأخطار التي تهدد الفرد والمجتمع، فهي تفجر الطاقة بدل أن تخدرها، وتنتقد الواقع الفاسد بدل أن تبرره، وتواجه الانحراف والضلال، وتتحدى الظلم والطغيان.

والرسول الذي حمل مشعل الهداية، وتحدى قوى الكفر والضلال، وأعلن منذ البدء أنه النذير المبين، والذي جانب ومنذ صباه اللهو والعبث، واتسمت حياته الرسالية بأقصى درجات الصراع ضد الباطل، والاجتهاد في إبلاغ الدعوة، والجهاد والقتال في سبيل إعلاء

---

(١) وسائل الشيعة: ج٢٧ ص١٣٢، تفسير القمي: ج٢ ص١٢٥.
(٢) بحار الأنوار: ج٢، ص١٠٨.

كلمة الله، إنه لا تتناسب حياته والشعر (تلك الثقافة الجاهلية) فكل شيء في حياته مناقض للشعر، لذلك قال ربنا عنه: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ﴾.

ولذلك فقد ترك الرسول حتى هذا الشعر المعروف والكلام المقفى، لأنه أضحى لباسا للفكر الجاهلي يومئذ، وكان ﷺ إذا قرأ شيئاً من الشعر بدّل فيه ليُخل وزنه، ويجدر التنويه أن الرسول لم يكن مخالفا أساساً للوزن والقافية، كلا.. بل تجده يشجع بعض أصحابه على ذلك تشجيعا كبيرا ومقاطعة الرسول ﷺ في شخصه للشعر لأنه لا ينبغي للناطق بالوحي.

[٧٠] بلى؛ الرسول منذر يصدع بالحق، ويقاوم أهل الباطل، ويتحدى الثقافة الجاهلية ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ فهو النذير المبين لمن كان في قلبه إحساس بتقبل الإنذار.

أما بالنسبة إلى غيرهم فإن الكتاب حجة بالغة عليهم تمهد لإنزال العقاب عليهم ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وهم الذين لا حياة لقلوبهم، ولكن لا يعني ذلك أن الله أجبرهم على الكفر، كلا.. بل هم الذين كفروا ففقدوا حياة الإيمان فلم يستجيبوا للنذر.

قال من يحيي العظام وهي رميم

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (١) ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ (٢) كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

هدى من الآيات:

تنبض سورة يس بالحقائق الكبرى التي تذكر بها آيات الذكر في نسق بديع. أوليست هي قلب القرآن الحكيم ومحور الحديث فيها الرسالة، ولكن الرسالة تتصل بحقيقة البعث، لأنها تذكر به، ولأن الرسالة دليل المسؤولية، وتتجلى مسؤولية الإنسان في الآخرة.

---

(١) رميم: بالية متفتتة.

(٢) ملكوت: هو الملك، وزيد فيه التاء للعظمة نحو جبروت، وملكوت كل شيء ما يقوم به ذلك الشيء.

وفي الدرس الأخير من سورة يس تذكرنا الآيات بهذه الحقيقة عبر بيان شواهد تدبير الله لحياة البشر.

بينات من الآيات:

[٧١] ظواهر كثيرة نتعامل معها يوميا، ولكن دون أن نتبصر ما وراءها من حقائق، وأعظمها نعم الله السابغة التي تهدينا إلى حبه وشكره ومعرفة أسمائه الحسنى، ومن أبرزها قدرته وحكمته، وهما اسمان كريمان يدلان على يوم البعث.

من تلك الظواهر امتلاك ناصية الأنعام، فلقد خلقها الله بيد قدرته خلقا، ثم أودع فيها منافع شتى، و سخرها للإنسان، ولو شاء لجعلها وحشية صعبة المراس، كما جعل في البشر حب التملك وقدرة التملك. أرأيت لو لم يكن البشر يحب السيطرة هل كان يسخر شيئا مما حوله؟!.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ هذه الظاهرة المتكررة التي يمرون عليها دون أن يتفكروا فيها، وإذ هم لا يتفكرون فكأنهم لا يرون شيئا.

﴿أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ والله لم يخلق الأنعام خلقا مباشرا، بأن يقول لها: كوني فكانت، إنما خلقها عبر شبكة من الأنظمة و السنن لا تحصى عددا، ولعل قوله تعالى: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ إشارة إلى هذه الحقيقة التي تجعلنا أكثر امتنانا لبارئنا، وأكثر وعيا بقدرة ربنا وحكمته، وبالتالي بيوم الجزاء الأوفى.

﴿أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ﴾ فهم الآن يملكون تلك الأنعام فعلا، ويسيطرون عليها ويسخرونها لمنافعهم.

[٧٢] تكاملية نعم الله دليل علمه وقدرته. إنك تجد الإبل -مثلا- يقوم بذات الحاجات المتنوعة التي يعيشها البشر، فهو يحمله مسافات شاسعة دون كلل. أرأيته كيف يقطع الربع الخالي في الجزيرة العربية معتمدا على ما فيه من أشواك حادة وماء قليل؟! أرأيته كيف يتحمل وعثاء السفر والعواصف الرملية الهوج، ويجري في الرمال المتحركة كما تجري السفن بين الأمواج؟! وفي ذات الوقت تراه يسقي الإنسان لبنا سائغا، وإذا اشتهى لحما نحره واستفاد منه، وفيه بعد كل ذلك جمال وعزة، وكما الإبل سائر نعم الله ﴿وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾.

[٧٣] وتجد في أوبارها وأشعارها وجلودها متاعا ولباسا وبيوتا خفيفة ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَـٰرِبُ﴾ والهدف الأسمى من نعم الله ليس مجرد الانتفاع بها ولكنه التسامي الروحي إلى

معرفة الرب وشكره ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾.

[٧٤] والبشر يبحث عن قوة، ولقد أودع في ضميره الإحساس بالضعف الذي يهديه -إن أحسن التفكر- إلى ربه، ولكن الشيطان يغويه عن السبيل القويم، ويوحي إليه أن القوة عند الآلهة التي تعبد من دون الله.

﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ فهم يعبدون القوة السياسية والقوة الاقتصادية والوطن والعشيرة والحزب والشمس والقمر والنجوم و الأحجار التي ترمز إليها، ويبتغون عندهم القدرة عند الصراع، لعلهم ينصرونهم أمام القوى المعادية.

هكذا بينت الآية الكريمة خلفية الشرك بالله، وهي البحث عن قوة تنصرهم في مواجهة الطبيعة أو الأعداء.

[٧٥] ولكن من ينصر من؟ هل الآلهة تنصرهم أم هم ينصرونها؟.

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ يقول ربنا بصراحة بالغة، ولو لم يكن في القرآن إعجاز إلا هذه الآية لكانت شاهدة صدق على أنه من عند الله، إذ يزعم الناس -إلا قليل ممن هداهم الله- أن الطاغوت أو أولي الثروة والجاه والعشيرة ينصرون من يشرك بهم، بينما يؤكد ربنا أن العكس هو الصحيح، وعندما نتفكر جيدا نعرف أن الآلهة هم الذين يتبعونهم ، فمن الطاغوت لولا أتباعه الذين استسلموا له رغبا ورهبا أو ضلالة؟ الأثرياء فظلمهم واستضعافهم إنما بسكوت الناس عنهم أو طمعهم في أموالهم وهكذا العشيرة والوطن والحزب.

﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ ولعل هذا التعبير يوحي بأن قوة الآلهة هي مجموع قوة التابعين، فهم رمز التجمع لا أكثر ولا أقل.

وقال المفسرون: إنما عنى الله بذلك يوم القيامة حيث يصطف المشركون خلف آلهتهم المزعومة و يساقون إلى النار زمرا، ولا ريب أنَ الأمر لكذلك، ولكن -يبدو لي- أن الآية تشمل الدنيا أيضا، إذ المشركون هم أنصارها هنا، وفي الآخرة تتجلى هذه الحقيقة أكثر فأكثر، قال ربنا سبحانه: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١-٨٢].

وكلمة أخيرة: إن العوامل المؤثرة في حياة البشر ليست جميعا ظاهرة بل هي عوامل غيبية، وحتى العوامل الظاهرة كالسياسة والاقتصاد وما أشبه فهي -لو أمعنا النظر- تتصل بعوامل غيبية، وبالتالي لا تستطيع القوى المعبودة من دون الله أن تؤثر فيها شيئا، ثم إن قوتها

الموهوبة محدودة بعالم الدنيا، وهي وبال في العالم الثاني. إن الغباء يبلغ مداه حين يتخذ الإنسان نظيره الإنسان إلها من دون رب العزة لينصره أمام سنن الله وقدره وقضائه ولكن هذا الغباء هو بالضبط ما يركبه الإنسان إلا من عصمه الله، فأغلب الناس يشركون بربهم، ويعبدون بنسبة معينة آلهة القوة والثروة والجاه، فيفقدون بذات النسبة قوتهم التي وهبها الله لهم لمصلحة تلك الآلهة، وهم يزعمون أنهم يكتسبون منها قوة ومنعة وعزا.

كما إنهم بشركهم يفقدون نصر الله لهم، ولو أنهم توكلوا على الله، وتوجهوا تلقاء نعمه التي أسبغها عليهم ظاهرة وباطنة، وفجروا طاقاتهم التي لا تحد، واستخرجوا من أنفسهم كنوزها التي لا تنفد، إذا حققوا المزيد من تطلعاتهم بتأييد ربهم وتسديده.

ولعمري هذا سر العظمة ومفتاح الفلاح لو كانوا يعقلون.

[٧٦] وحين يتخلص الإنسان من حجاب الشرك يتهيأ نفسيا ومن ثم عقليا لتقبل المسؤولية، لأن أعظم دافع للبشر نحو الشرك الهروب منها، والتخلص من جزاء أعماله حسب زعمه، وهكذا يذكرنا السياق بيوم الجزاء الأوفى بعد أن يرفع شبهة المجادلين فيه، القائلة: كيف يحيي الله الموتى؟ إن هذه الشبهة آتية من نسيان الخلق، وعظمته التي تدل على عظمة الخالق، أما إذا تذكرناه فإن الشبهة تتلاشى.

ويبدأ الحديث ببيان أن كلامهم الجدلي يجب أن لا يحزن أصحاب الرسالة، لأنه محفوظ عند الله، يعلم الله خباياه كما يعلم ظاهره، فلا ينبغي أن يقر به ويؤخذ مأخذ الجد ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾، ويبدو أن الحزن بالكلام قد يجر إلى التنازل لهم تحت ضغطه فلذلك نهي عنه.

﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ من نيات مغايرة للكلام حيث إنهم يعلمون أنهم كاذبون وإنما يتكلمون جدلا، ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ فيسجل عليهم للجزاء.

[٧٧] ثم يعرف ربنا أكبر شبهاتهم التي تشكك بقدرته -تعالى- ويقول: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ قالوا: إن الرؤية هنا تعني العلم، أي أولم يعرف الإنسان، ونقول: نعم. ولكن مثل هذا العلم لا يحتاج إلى أكثر من نظر، ونحن لم نشهد خلق أنفسنا، ولكنا شهدنا كيف خلق نظراؤنا من الناس حتى لكأننا شهدنا خلق أنفسنا.

﴿أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ هذا الماء المهين هذا ما نراه، أما ما نعلم فإن الخلق تم بجزء بسيط جدا من هذه القطرة الدافقة من الماء . إنها الخلية المتناهية في الصغر من ماء الرجل وماء المرأة.

وبعد أن خلق من الماء المهين رباه الله من خلق لخلق، ومن طور لطور، ومن مرحلة لأخرى حتى سواه رجلا ناطقا ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ وقد بلغ به الكمال مداه حتى اغتر به، وأخذ يجادل -وبوضوح تام- خالقه ورازقه!.

[٧٨] ومن مظاهر جدلهم الباطل أن الواحد منهم يأتي بقطعة عظم بالية، ويسعى إلى رسول الله، و يزعم أنه سوف يخصمه به.

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾ يبدو أن المثل هو الواقعة التي يستشهد بها على فكرة أو حقيقة، وإنما يقال ضربه لأنه يشبه غيره و الضرب هو الشبيه.

﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ ولو لم ينس خلقه لما ضربه مثلا. أفلم ير أنه قد خلق من غير مثال يحتذى؟! فكيف يستبعد قدرة الله على الخلق؟!.

﴿قَالَ مَن يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ لقد جاء «أُبَيُّ بْنُ خَلَفٍ الْجُمَحِيُّ مَعَهُ عَظْمٌ نَخِرٌ فَفَرَكَهُ ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ مَنْ يُحْيِي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ؟!. فَأَنْطَقَ اللهُ مُحَمَّداً ﷺ بِمُحْكَمِ آيَاتِهِ وَبَهَتَهُ بِبُرْهَانِ نُبُوَّتِهِ فَقَالَ ﷺ: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ فَانْصَرَفَ مَبْهُوتاً»[1].

[٧٩] لقد كانت إزالة الشبهة قد بدأت مع بداية هذه المجموعة من الآيات حيث مهد الله لها بالنهي عن الحزن لما يقولونه لأنه بعلم الله، ثم ذكر الإنسان بأصل خلقه من النطفة مشيرا إلى تلك البداية البسيطة التي يراها الإنسان، ثم نوه بذلك مرة أخرى حين قال: ونسي خلقه، ثم قال: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ هنالك أنشأها إنشاء وابتدعها ابتداعا من غير مثال يحتذى، ولا أدوات تستخدم، ولا أنصار وشركاء يساهمون. إن تذكر هذه الحقيقة تذهب أي شك في قدرة البارئ في ذلك، بلى؛ يبقى تساؤل قد يلقيه الشيطان في قلب الإنسان الذي يسعى بدوره للتخلص من ثقل المسؤولية وهاجس الجزاء، والتساؤل هو: كيف يجمع الله الأجزاء المتناثرة في أقطار الأرض حول هذا البدن؟.

فيقول ربنا وهو يشير إلى تنوع خلق الله، الذي يهدينا إلى علمه المحيط: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ فأنى ألقيت بصرك وأدرت بصيرتك رأيت خلقا عجبا، حسن التقدير، جميل الظاهر، متين الصنع، متناسبا مع هدفه، متناغما مع نظائره، ثم رأيت من أنواع الأحياء، وألوان النباتات ومختلف المعادن، و صنوف الجمادات، مالا يدع عندك شبهة في سعة قدرة بارئها، ومحيط علمه وقديم خبره، فكيف يشك في إمكانية إعادة الخلق؟!.

(١) بحار الأنوار: ج١٠، ص٣٢.

جاء رجل إلى الإمام الصادق عليه السلام وقال منكرا للبعث: «أَنّى لِلرُّوحِ بِالبَعْثِ وَالبَدَنُ قَدْ بَلِيَ وَالأَعْضَاءُ قَدْ تَفَرَّقَتْ فَعُضْوٌ فِي بَلْدَةٍ تَأْكُلُهَا سِبَاعُهَا وعُضْوٌ بِأُخْرَى تَمْزِقُهُ هَوَامُّهَا وعُضْوٌ قَدْ صَارَ تُرَاباً بُنِيَ بِهِ مَعَ الطِّينِ حَائِطٌ؟!. قَالَ عليه السلام: إِنَّ الَّذِي أَنْشَأَهُ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ وَصَوَّرَهُ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ كَانَ سَبَقَ إِلَيْهِ قَادِرٌ أَنْ يُعِيدَهُ كَمَا بَدَأَهُ. قَالَ: أَوْضِحْ لِي ذَلِكَ.

قَالَ عليه السلام: إِنَّ الرُّوحَ مُقِيمَةٌ فِي مَكَانِهَا رُوحُ الْمُحْسِنِينَ فِي ضِيَاءٍ وَفُسْحَةٍ وَرُوحُ الْمُسِيءِ فِي ضِيقٍ وَظُلْمَةٍ والبَدَنُ يَصِيرُ تُرَاباً مِنْهُ خُلِقَ وَمَا تَقْذِفُ بِهِ السِّبَاعُ وَالْهَوَامُّ مِنْ أَجْوَافِهَا فَمَا أَكَلَتْهُ وَمَزَّقَتْهُ كُلُّ ذَلِكَ فِي التُّرَابِ مَحْفُوظٌ عِنْدَ مَنْ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَيَعْلَمُ عَدَدَ الأَشْيَاءِ وَوَزْنَهَا وَإِنَّ تُرَابَ الرُّوحَانِيِّينَ بِمَنْزِلَةِ الذَّهَبِ فِي التُّرَابِ.

فَإِذَا كَانَ حِينُ البَعْثِ مَطَرَتِ الأَرْضُ فَتَرْبُو الأَرْضُ ثُمَّ تَمْخَضُ مَخْضَ السِّقَاءِ فَيَصِيرُ تُرَابُ البَشَرِ كَمَصِيرِ الذَّهَبِ مِنَ التُّرَابِ إِذَا غُسِلَ بِالْمَاءِ وَالزُّبْدِ مِنَ اللَّبَنِ إِذَا مُخِضَ فَيَجْتَمِعُ تُرَابُ كُلِّ قَالَبٍ فَيَنْقُلُ بِإِذْنِ الله تَعَالَى إِلَى حَيْثُ الرُّوحُ فَتَعُودُ الصُّوَرُ بِإِذْنِ الْمُصَوِّرِ كَهَيْئَتِهَا وَتَلِجُ الرُّوحُ فِيهَا فَإِذَا قَدِ اسْتَوَى لَا يُنْكِرُ مِنْ نَفْسِهِ شَيْئاً»[1].

ولعل إشارة القرآن إلى بداية الخلقة توحي بنظرية تقول: إن الخلية الأولى التي تلاقحت في الرحم تبقى على حياتها ثم تنمو في رحم الأرض كما نمت أولاً في بطن الأم، ولكن الحديث المذكور آنفا صريح في أن ذرات البدن المتناثرة في الأرض تلتحق به أنى كانت عن طريق المخض، ولنا أن نشبه ذلك بقطعة مغناطيس إذا حركت في تراب مخلوط بذرات الحديد. كيف تجتمع عليها تلك الذرات؟!.

[٨٠] ثم يمضي السياق قبلا في أن البعث حق، ويضرب مثلا من الشجر الأخضر الذي جعل الله للناس منه نارا ووقودا، ويقول: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾.

ويقف الإنسان حائرا: لماذا ضرب الله مثلا بالشجر الأخضر، وما هي صلته بواقع النشور؟

قالوا: «إن المراد هو شجر (المرخ والعفار) الذي كان العرب قديما يأخذون منهما على خضرتهما، فيجعل العفار زندا أسفل ويجعل المرخ زندا أعلى، فيسحق الأعلى على الأسفل فتنقدح النار بإذن الله. وفي الواقع فهو يمثل الكبريت في عصرنا الحالي. والله سبحانه وتعالى يريد القول بأن الذي يستطيع إشعال النار من هذا الشجر الأخضر له القدرة على إلباس الموتى لباس الحياة»[2].

---

(١) بحار الأنوار: ج٧، ص٣٧.

(٢) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ج ١٤ ص ٢٢٤.

وقالوا: «إن البحث العلمي أكد أن كل أنواع الوقود من أشعة الشمس، وحتى اتقاد الخشب إنما هو بتخزّن هذه الأشعة فيه، وإلا فإن عناصره الأخرى كالماء والتراب لا نار فيها.

ذلك أن كل عملية تركيب كيماوية بحاجة إلى امتصاص الطاقة أو بثها، وعملية امتصاص الأشجار لثاني أكسيد الكربون بحاجة -حسب هذا القانون- إلى الطاقة، وهكذا فهي تستفيد من الطاقة الشمسية، وتستمر الأشجار في اختزان الطاقة بصورة منتظمة.

وهذه العملية لا تقوم بها الأخشاب اليابسة بل الشجر الأخضر، ولذلك ركز الحديث حوله، بالرغم من أن الناس يعرفون أن الخشب اليابس أسرع اشتعالا إلا إنه لا يخزن الطاقة»[١].

ولكن يبقى **السؤال**: لماذا ضرب الله بهذا مثلا؟.

الجواب:

أولاً: إن ذلك يهدينا إلى قدرة الله الذي ضغط النار في الماء. أوليس الشجر الأخضر ينضح بالماء؟ فأبصر برب يخزن الوقود في الماء!.

ثانياً: إن السنن الإلهية الخفية أكثر من الظاهرة للإنسان منها، وما أوتينا من العلم إلا قليلا، وإننا نستبعد أشياء لأننا لا نعرف الأنظمة، فلو قيل لأحد من أجدادنا: سيأتي يوم يطير جهاز بعشرات الأطنان من الحديد في الفضاء، بسرعة فائقة لما صدق، لأنه لم يكن يعرف قوانين فيزيائية يعرفها الإنسان اليوم، وقديما قال الإمام علي عليه السلام: «**النَّاسُ أَعْدَاءُ مَا جَهِلُوا**»[٢]. وكذلك البشر ينكر البعث لأنه لا يعرف ما أودع الله في ضمير الوجود من أنظمة، كما لم يكن يعرف الإنسان كيف يجعل الله من الشجر الأخضر نارا، فلعل ذرات البدن التي تنفصل عنه بعد الموت تبقى ذات صلة خاصة به إلى أن يبعث الله من في القبور، أو تطبع عليها سمات تشير إلى مصدرها.

ثالثاً: إن ذرات الحرارة التي تنفصل عن الشمس وتخزن في الشجر الأخضر تبعث مرة أخرى إليها، ولكن دون أن يعدم منها شيء كما يحسب الجاهل، كذلك ذرات الجسم.

رابعاً: ولعل في الآية إشارة لطيفة إلى قانون إلهي في الوجود أن فيه الغيب والشهود، فهناك الشجر الأخضر تحسبه لجة ماء، فإذا فيه كتلة وقود مختزنة، كذلك الدنيا شهود الآخرة، بينما الآخرة غيب الدنيا، فأنت ترى جسد الميت المسيء بينما هو في النار كما الزناد احتوى على

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ج ١٤ ص ٢٢٥-٢٢٦، نقلًا بتصرف.
(٢) غرر الحكم: الحكمة ٨٦٩.

نار مختزنة، كما إن آكل مال اليتيم يحسب أنه يتناول طعاما شهيا، ولكنه -في الواقع- إنما يأكل في بطنه نارا، والذي يكذب لا يعرف أن نتنا خبيثا يخرج من فيه يلعنه به الملائكة، وهكذا.

وهكذا يأتي رجل إلى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وقد جاء بعظم كافر فيقول: «**أَنْتُم تَقولونَ أَنّه مُعذَبٌ فَأَيْنَ النَّارُ الَتِي يُعذَبُ بِها الآن؟! فَيأْتِي إِليْه الإِمامُ بِزِنادٍ فَيَقْدحُهُ فيقولُ: أَيْنَ كَانَتْ النارُ فِي هَذَا الزِناد؟**».

[٨١] البعث والنشور حقيقة فطرية. أوليست نفوس البشر تنزع إلى الخلود؟ وهذه الجهود الهائلة التي يبذلها البشر من أجل الخلود، دليل عمق الإحساس بالخلود، وما أكره الموت في نظر الإنسان إلا إيمانه بأنه جاء ليبقى، وفقط أولياء الله الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم لا يهابون الموت، ولو أحصيت أهداف الناس من مساعيهم المختلفة لكان هدف استمرار البقاء حصة الأسد فيها، يقول الله تعالى لبيان هذه الحقيقة: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٩].

وحيث علم البشر أنه لا محالة ميت، فتش عن بقاء اعتباري إن فقد القدرة على البقاء الحقيقي، فإذا به يسعى للامتداد عبر أبنائه أو آثاره أو حتى تحنيط جسده الميت وبناء المقابر الضخمة عند رفاته.

وحين أراد إبليس إغواء أبينا آدم وزوجه حواء وإخراجهما من الجنة، قال لهما: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠].

هكذا تراه يثير فيهما حب الخلود، ويربطهما بالمعصية، وكذلك يصنع بأبناء آدم، فإنه من أعظم أسباب الذنوب حب الخلود.

ومن هنا فإن الإمام علي عليه السلام حين يسأله أحدهم: «مَا هُوَ الحَقُّ الشَبيهُ بِالبَاطِل؟! يَقولُ عليه السلام: **المَوتُ، لِأَنَّ نَزْعَةَ الخُلودِ لا تَدَعْهُ يذْعنُ لِلمَوتِ هَذا الذِي لا يَنْجُو مِنْهُ حَيٌّ أَبداً، وَقَدْ قَالَ رَبُنا سُبْحانَه**: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾» [العنكبوت: ٥٧].

إن هذا الإحساس الفطري العميق بالخلود لا يتحقق في الدنيا، فهو إذا يتحقق بالبقاء في الآخرة، فما الموت إلا قنطرة، وما الدنيا إلا مزرعة، وإن الآخرة لهي الحيوان.

ولكن تبقى العقبة الرئيسية أمام البشر جهله بقدرة الله واحتجابه بما يراه عما لا يراه، بالشهود عن الغيب.

لذلك نرى آيات القرآن تذكرنا بآيات قدرة الله، فهذه السماوات التي لا تحصى أقمارها

وشموسها، وهذه الأفلاك التي لا تحد اتساعا، ولا تنحرف عن مسيرها قيد شعرة، طوعا لربها وتسليما، وهذه الأرض التي لا تنقضي عجائبها، وهذه الأحياء المتنوعة التي تتجلى في كل واحد منها عظائم قدرة ربنا الجبار. أوليست جميعا دليل قدرة الله؟!.

﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ﴾ هو القادر، وكيف يخلق إن كان عاجزا سبحانه؟!.

بلى؛ إنه القادر، ودليل ذلك تنوع الخلق، فمن البعوضة المتناهية في الصغر، إلى الفيل الذي يشبه البعوضة ولكن بحجم أكبر، إلى الحوت (الأزرق) الذي قد تكون عين واحدة منه أثقل من فيل، ثم يجوب البحار بسرعة هائلة، إلى عجائب البحار ورواسي الجبال ونباتات السهول. إنك لو قضيت عمرك في معرفة آيات الله في أصغر نبتة: كيف تستقي الأرض وتمتص أملاحها، وكيف تمثل من الشمس ضوءها، وكيف تحافظ على نفسها ضد الآفات والعواصف، وكيف تحقق هدفها في هذا الكون الأرحب..؟ نعم. لو فعلت ذلك وعشرات الباقين لما انقضت عجائب تلك النبتة الصغيرة، وهكذا الحيوان الصغير كالنملة. إذا زرت مكتبة كبيرة فلعلك تجد عشرات الكتب في نبتة متواضعة! وربما فوجئت بأن النملة التي تسحقها برجلك قد حظيت باحترام العلماء فألفوا فيها عشرات الألوف من الكتب والدراسات حتى الآن.

هذا التنوع الكبير الذي لا يحصى أفراده دليل خلاقية الرب، وأنه لا يعجزه شيء في السماوات والأرض، وأنه عليم كيف يصنع ما يصنع؟.

﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

ولعل التعبير بـ﴿مِثْلَهُم﴾ هنا للدلالة على أن القدرة تتعلق بجنسهم عموما، وليس بأشخاصهم فقط، فالذي يستطيع على مثل الشيء يستطيع عليه. ولسنا بحاجة إلى بعض التكلفات البعيدة التي ذهب إليها المفسرون لزعمهم أن ﴿مِثْلَهُم﴾ تدل على عودة الناس ليست بأبدانهم بل بأرواحهم فقط.

نعم ربما تكون إشارة إلى أن العائد ليس طبق الأصل من جهتين:

الأولى: أن المريض يبعث في عافية ويعود السن شاباً وهكذا.

الثانية: أن الجسم الأصلي (الذري) هو أساس إعادة البعث. إذ ما سواه يتجدد كما يتجدد جسم الإنسان في الدنيا بتبدل خلاياه، ويبقى الإنسان هو هو. فكذلك في الآخرة فمن جهة هو نفسه في الدنيا ومن جهة هو مثله.

[٨٢] من أصغر خلية إلى أعظم مجرة، كل مخلوق يؤدي دورا ويحقق هدفا، بينما يستوي الإنسان على عرش السلطة، فقد أوتي ما يسخر به ما في الأرض جميعا، وتوفر فرصة العيش الرغد لهذا المليك المكرم. أولم يقل ربنا سبحانه: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [الجاثية: ١٣] ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ [الإسراء: ٧٠] وعندما نتفكر في وجود الإنسان نرى كل شيء فيه يحقق هدفا، من أعظم جارحة كالمخ والقلب إلى أصغر نسيج.

تعالوا إذا نفكر: أليس لوجود الإنسان في الأرض بذاته هدف؟ وهل خلقه الله عبثا؟ فأين إذا حكمة الله، التي تتجلى في كل شيء؟! وأين عدالته التي نرى آياتها في السماوات والأرض؟!.

كلا.. إنما خلق الإنسان لهدف أيضا، وهو أن يتكامل إلى الله، وقد جاء في الحديث القدسي المعروف: «عَبْدِي خَلَقْتُ الأَشْيَاءَ لِأَجْلِكَ، وَخَلَقْتُكَ لِأَجْلِي..»[1].

وقال ربنا سبحانه: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

وقال ربنا سبحانه: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٦-١٨].

وحين تفكر أولو الألباب في خلق السماوات والأرض عرفوا أن الخلق ليس باطلا فقالوا: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩١].

ولكن هناك من يعرف هذه الحكمة ولكنه ينكر المعاد أيضا، كالفلاسفة المتأثرين بآراء اليونانيين القدماء. لماذا؟ لأنهم جهلوا كيف خلق الله الخلق، فقال بعضهم: الخلق صادر عن الله -سبحانه وتعالى- كما يتدفق الماء من العين. فكيف يعود الماء إلى العين تارة أخرى؟!.

وقال آخرون: بلى يعود، ولكن لا ليعذب أو يجازى على أفعاله، بل ليلتحق بالمصدر، كما تعود المياه إلى البحار بعد تطواف كبير!.

وقد أنكر هؤلاء البعث بالصورة التي جاءت بها كتب الله لجهلهم بكيفية الخلق، يقول ربنا وهو يوضح قدرته في أمر الخلق:

(١) الجواهر السنية: ص٣٦١.

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ فليس فيضا أو صدورا، وليست دورة وجودية كما تقول الدهرية والذين تأثروا بهم من الفلاسفة، إنما هو فعل محدث لرب القدرة، فحيث أراد خلق المشيئة بعظيم قدرته فخلق الأشياء بالمشيئة، حسب حديث مأثور[1].

والتعبير بـ ﴿يَقُولَ﴾ لبيان حدوث الإرادة، وإلا فربنا غني عن إحداث تحول لفعل الأشياء وهكذا جاء في كلام أمير المؤمنين عليه السلام: «**يَقُولُ لِمَنْ أَرَادَ كَوْنَهُ كُنْ فَيَكُونُ لَا بِصَوْتٍ يَقْرَعُ وَلَا بِنِدَاءٍ يُسْمَعُ وَإِنَّمَا كَلَامُهُ سُبْحَانَهُ فِعْلٌ مِنْهُ أَنْشَأَهُ وَمَثَّلَهُ لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ كَائِناً وَلَوْ كَانَ قَدِيماً لَكَانَ إِلَهاً ثَانِياً**»[2].

إن الكلمات تقف دون تبيان الغيب الإلهي عاجزة كليلة، وإنما تقرب إلينا قدر المستطاع - حقائق الغيب بما هي قريبة منها في عالم الشهود، فإننا -مثلا- حين نريد شيئا نأمر به والأمر عادة يكون بالتعبير عنه قولا، لذلك نجد القرآن يعبر أن أمر الله بالكلمة أو بالقول.

وقد وهب الله هذه القدرة لأهل الجنة، فقال في آية مضت: ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾، وقال في قصة سليمان: ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ﴾ [النمل: ٤٠].

هكذا بمجرد أن يشتهي أهل الجنة شيئا يجدونه عندهم بإذن الله، كذلك بمجرد إرادة خليفة سليمان عرش بلقيس وجده عنده.

[٨٣] وفي ختام السورة وبعد أن يصف القرآن ربنا بما ينبغي من القدرة والعلم يقدسه من كل نقص أو عجز أو فقر فيقول: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أولاً ترى آثار الفقر والحاجة والضعف في كل شيء؟ إن ذلك شاهد مملوكية لمالك غني مقتدر قوي، هكذا ينطق كل شيء بأن ربنا سبحانه القدوس المبارك المتعالي.

وإذا عرفنا قدسية الرب وقدرته وحكمته آمنا بالنشور، وكلما ازداد المرء معرفة بربه ازداد إيمانا باليوم الآخر ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

---

(١) عَنْ أَبِي عَبْدِ الله عليه السلام قَالَ: «خَلَقَ اللهُ المَشِيئَةَ بِنَفْسِهَا ثُمَّ خَلَقَ الأَشْيَاءَ بِالمَشِيئَةِ» الكافي: ج١، ص١١٠.

(٢) نهج البلاغة: خطبة: ١٨٦.

المحتويات